جامعة الأزهر
كلية التربية
قسم أصول التربية الإسلامية

الآراء التربوية عند بعض علماء المسلمين في القرن الثامن الهجرى

" دراسة نقدية "

رسالة مقدمة للحصول على درجة دكتوراه الفلسفة فى التربية
تخصص "تربية إسلامية"

إعداد

عبد رب الرسول سليمان محمد

المدرس المساعد
بقسم أصول التربية الإسلامية

إشراف

الأستاذ الدكتور
عبد البديع عبد العزيز الخولى
أستاذ ورئيس قسم أصول التربية الإسلامية
كلية التربية جامعة الأزهر

الدكتور
عبد العزيز محمد عطية
أستاذ مساعد بقسم أصول التربية الإسلامية
كلية التربية جامعة الأزهر

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ

النمل : ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة والصلاة والسلام على المربى العظيم سـيدنا محمد الذى بعثه الله للإنسانية مؤدبا وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين الذين تأدبوا بآدابـه وتخلقوا بأخلاقه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،،،

فقد من الله علىَّ بإنجاز هذا البحث بعونه وتوفيقه وانطلاقاً لقـول المصطفـى ﷺ "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" فإنه يطيب لى أن أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير والعرفـان بالجميل إلى أستاذى الفاضل والأب الروحى لى وشيخى ومعلمـى العـالم الجليـل الأسـتاذ الدكتور/ **عبد البديع عبد العزيز الخولى** الذى شرفت بالتلمذة على يديه ونـهلت مـن علمه ولا أنسى ما حييت أنه منحنى من علمه ووقته وخبرته العلمية ما سأبقى به مديناً له. فقد وجدت منه كل عون ومساعدة أباً وأستاذاً ومربياً حيث أضاف إلى هذا العمل كثيراً سواء مـن ناحية الشكل والمضمون منذ كان مجرد فكرة رعاها وتبناها إلى أن سار على هذا النحو عملاً مكتملاً. الله أسأل أن يمد فى عمره ويمتعه بالصحة والعافية وأن يجعله زخراً لطـلاب العلـم وأن يجزيه عنى خير الجزاء.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير لأستاذى الدكتـور /**عبد العزيز محمد عطية** الذى شرفت بمشاركته فى الإشراف على هذا البحث فكان لـى بمثابـة الأخ الأكـبر وكـان لتوجيهاته المخلصة وآرائه السديدة أعظم الأثر فى إنجاز هذا العمل فله منى كل تقدير واحترام وأدعو له بدوام الصحة والعافية.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أتوجه بخالص الشـكر والتقديـر للأسـتاذ الدكتـور/ **على عمر الكاشف** أستاذ ورئيس قسم أصول التربية وعميد كلية التربية بتفهنا الأشـراف الذى حباه الله برجاحة العقل وجميل الخلق وغزارة العلم على تفضله بقبول مناقشة البـاحث رغم كثرة مشاغله وتعدد مسئولياته متحملاً فى ذلك مشقة أحتسبها له عند الله تعالى فجزاه الله عنى وعن طلبة العلم خير الجزاء.

كما لا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر للأستاذ الدكتور / **محمد عبد العليم مرسي** أستاذ ورئيس قسم أصول التربية بمعهد الدراسات التربوية بجامعة القاهرة على تكرمه بقبول مناقشة الباحث بارك الله فيه وأجزل له المثوبة وأمد الله في عمره ونفع به طلبة العلم.

ولا أنسى في هذا المقام أصحاب الفضل الأول عليَّ أبي رحمه الله وأمي أطال الله في عمرها وأخوتي كما أوجه خالص شكري وتقديري إلى ابنيَّ (أحمد ولقي) وزوجتي التي شدت من أزري وهيأت لي الجو المناسب لإنجاز هذا العمل جزاها الله عني خيرا.

ويتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير إلى جميع أعضاء هيئة التدريس بقسم أصول التربية الإسلامية على ما قدموه من عون ومساعدة للباحث.

وبعد فإني أقدم هذا العمل العلمي المتواضع حسبة لله والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من إضافة عمل جديد إلى حقل التربية الإسلامية فإن كنت قد وفقت إلى شيء فالحمد لله وإن تكن الأخرى فعذري أني بشر أخطئ وأصيب وحسبي أنني بذلت فيه قدر طاقتي ولا أدعي الكمال فالكمال لله وحده .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

محتويات الرسالة

الفصل الأول

الإطار العام للدراسة

الفصل الأول

الإطار العام للدراسة

١-مقدمة البحث:

يواجه مجتمعنا الإسلامى المعاصر العديد من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية –فضلا عن ذلك –المشكلات التربوية التى تقف حجر عثرة فى طريقه نحو التقدم والازدهار وقد أهتم كثير من المفكرين بدراسة مثل هذه المشكلات بغية إيجاد حلول مناسبة لها.

ويحفل واقعنا التربوى والتعليمي في الوقت الراهن بالعديد من المشكلات التربوية وقصرت بعض مؤسساتنا التعليمية في مجابهة هذه المشكلات ولجأ نفر من التربويين المسلمين إلي البحث عن حلول لهذه المشكلات في الفكر التربوي الغربي وقد أثبتت التجارب فشل بعض هذه المحاولات وليس أمامنا سوي التربية الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسولهﷺ.

وتشكل اجتهادات المربيين المسلمين على اختلاف مشاربهم مصدراً هاماً من مصادر التربية الإسلامية وبالتالي أهمية الاستفادة من اجتهاداتهم وآراءهم التربوية في مواجهة بعض مشكلاتنا التعليمية في الوقت الراهن.

وقد ارتأت كثير من مراكز البحوث والمؤسسات التربوية المعاصرة في عالمنا العربي والإسلامي بعد تجربة طويلة فى الميدان التربوى ضرورة الاعتماد على الأصول الإسلامية في بناء أنظمتها وأنشطتها التربوية وهذه المراكز والمؤسسات بحاجة إلي استكشاف آراء المربيين المسلمين في الميدان التربوي والاستفادة منها.

وتعتبر دراسة التاريخ ذات أهمية خاصة بالنسبة للمربي لأنها تساعده علي التعرف علي القوي والمؤثرات التي تقف خلف النظام التعليمي وتدفعنا لفهم التطور التاريخي للفكر التربوي.

إن دراسة المربي لتاريخ التربية من خلال حياة وفكر المربيين ستوقفه علي مجهودات ومحاولات أفراد وجماعات سابقين، وما أصابوه من نجاح أو فشل، والتعرف علي أسباب وعوامل النجاح والفشل ويستخلص المربي من ذلك حصيلة ثرية قد تنقذ أفراداً وجماعات من فقدان جهد ووقت ومال[١].

---

[١] سعد مرسي أحمد: تطور الفكر التربوي، القاهرة، عالم الكتب، ط٥، ١٩٨١، ص ص ٤١ – ٤٨.

إن لبحوث تاريخ التربية وخصوصاً تلك التي تعتمد علي دراسة العصور والفترات أهمية بالغة لأنها من وسائل تطوير الحاضر، ونقد النفس باستحياء الماضي،وتحليل أحداثه وتجاربه للوصول إلي دراسة هذه الأحداث وتأثيرها علي مجري التربية والتعليم، فليس الهدف هو مجرد معرفة التاريخ وإنما استخلاص العبرة من حوادثه ليحمينا من تكرار أخطائه، وليساعدنا علي التنبؤ بما سوف يقع إذا تشابهت الظروف[١].

وتوضح الدراسة الجادة للتراث التربوي في القرن الثامن الهجري مواقف علمائه في مواجهة التحديات الثقافية والاجتماعية والحضارية وجهودهم في حل المشكلات التربوية التي تمخضت عنها عصورهم.

وتعتبر دراسة التربية الإسلامية من خلال العصور دراسة هامة "لأنها تتيح للباحث التعرف علي ملامح العصر من كافة الجوانب، ومن خلال المعايشة لما تركه أبناؤه ومثقفوه، ولعل هذا يجعل البحث التربوي يسير في الاتجاه الصحيح حيث تتأثر التربية بالواقع المحيط بها من جوانبه المختلفة، وحيث تكون التربية هي الوسيلة الفعالة التي يحافظ بها المجتمع علي وجوده ويجدد بها حياته وفكره " [٢].

والمستقرئ للدراسات الخاصة في مجال التربية الإسلامية يجد اهتمام الباحثين في هذا المجال بدراسة بعض الفترات التاريخية لمسيرة الفكر التربوي الإسلامي وقد شملت هذه الدراسات القرون السبعة الأولي[٣].

أما القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فقد حظي ببعض الدراسات التي تناولت دراسة بعض الجوانب فيه وبذلك يصبح من الضروري دراسة الآراء التربوية لبعض علماء هذا القرن الثامن استكمالا لحلقات البحث في تاريخ الفكر التربوي الإسلامي وسداً للنقص الواضح فى هذا المجال.

---

[١] سعد مرسي أحمد وسعيد إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٨، ص ١١.

[٢] عبد البديع الخولي: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية من عام ٧٤٨هـ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر، ١٩٨١، ص٣.

[٣] من هذه الدراسات:(١) دراسة حسن عبد العال عن التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٨. (٢) دراسة احمد أبو عرايس: الفكر التربوي الإسلامي ومناهجه بين الفلاسفة والصوفيين في القرنين الرابع والخامس الهجريين، رسالة دكتوراه، تربية طنطا، ١٩٨٠. (٣) دراسة محمد حسن العمايرة: الفكر التربوي في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، وتطبيقاته التربوية، رسالة دكتوراه غير منشورة، تربية عين شمس، ١٩٩٠، أيضاً دراسة حياة ناصر الحجي: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الكويت، ١٩٩٥.

وقد شهد هذا القرن الثامن الهجري في مصر والشام العديد من العلماء والمفكرين الذين تزخر بهم كتب التراجم ومنهم الذهبي والتاج السبكي وابن تيميه وابن القيم وسعد الدين التفتازانى وغيرهم.

والذي يستقرئ التراجم الخاصة بالعلماء والمفكرين الذين شهدهم القرن الثامن الهجري يشعر بالازدهار العلمي الذي يدعو حقا إلي الفخر والإعجاب، إذ لا نكاد نرى فرعا من فروع المعرفة إلا وقد عرفه المسلمون ومارسوه كتابة وتأليفا وتطبيقا [1]

ولم تفتر همة هؤلاء العلماء علي الرغم مما اكتنف القرن الثامن من ظلام الحكم المملوكى ومآسيه وكأنما كانوا موكلين بحفظ التراث من الضياع والاندثار وظلوا حفاظا علي هذه الثروة الفكرية يسلمونها من جيل إلي جيل حتى أتت إلينا غنية موفورة تقدم بعض العزاء عما فقدناه من تراثنا الذي ذهب به الغزو التتري وأتت علي كثير من أصوله الحروب الصليبية التي شهدتها مصر والشام وقضي هؤلاء وأولئك (التتار والصليبيون) على أعظم تراث كانت تعتز به الأمة الإسلامية [2].

وقد احتل بعض علماء ومفكري هذا القرن مكانة كبيرة سواء في مصر أو في الشام وشاركوا في العديد من الأنشطة السياسية والاجتماعية واعتمدت عليهم السلطة المملوكية ومما يؤكد ذلك أن الدولة المملوكية كانت تعتمد علي ابن تيميه (ت٧٢٨هـ) في تحريض الجند علي القتال فكان يقوم بمهمته هذه قياما لم يعرف الناس أحسن منه وكان السلطان يحب أن يعطيه من ... بعض المال، فكان ابن تيميه لا يقبل منه ذلك وكان يتكلم علي المنبر علي طريقة المفسرين مع الفقه والحديث فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة ما لا يقدر أحد أن يورده في عدة مجالس، كأن هذه العلوم بين عينيه، يأخذ منها ما يشاء، ويذر ما يشاء [3].

وقد اشترك الفقهاء وعلماء الدين بأنفسهم في الحروب الصليبية وغيرها وكانوا وقتذاك "يذهبون فيها إلي الميدان، ويقومون إما بتذكير الجند بما كان عليه أبطال الإسلام القدماء، وإما بحمل السلاح يقاتلون به مع الناس... واعتمد الملوك السلاطين علي الفقهاء وعلماء الدين في الترويج للحرب خارج الميدان، وتحريض الناس على القتال قبل الموقعة، ولقد نشط الفقهاء يومئذ في هذه المهمة نشاطا كبيرا جدا، وإليهم يرجع معظم الفضل في نشر مبادئ الفروسية الإسلامية، وإليهم يرجع معظم الفضل أيضا في دفع الناس يومئذ دفعا إلي المثل الأعلي.

---

(1) سعيد إسماعيل علي: دراسات في التربية الإسلامية، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٢م، ص ٢٢٦.

(2) محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو: مقدمة تحقيق (طبقات الشافعية الكبرى) للتاج السبكي، جـ١، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر ، ط٢، ١٩٩٢، ص ٧.

(3) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، جـ١، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦، ص ١٥٣.

وكثيراً ما كانوا أسبق منهم إلي احتذاء هذا المثل. وذلك فضلاً عما رأينا من اعتماد الملـــوك عليهم في تقوية الروح المعنوية في الجند إذا أصابهم الوهن، وفي جمع الكلمـــة إذا ظـــهرت بوادر الفشل... ومنهم من اعتبروا أنفسهم مسئولين عن تقويم أولئك الحكام والسلاطين، حتى لقد كان من أعظم القرب التي يتقرب بها عالم من العلماء إلي الله "كلمة حـــق فـــي مجلـــس ظالم"[١].

وكانت الحياة العلمية في بلاد الشام ومصر في القرن الثامن الهجري (الرابـــع عشـــر الميلادي) نشيطة ولاسيما بعد الكوارث التي حلت ببغداد علي يد المغول وبالأندلس علي يـــد الصليبيين فتوجهت أنظار العلماء إلي هذين القطرين الشقيقين فكانت دمشق مركزاً كبيراً مـــن مراكز الحياة الفكرية والعلمية كما صارت مصر "محـــل ســـكن العلمـــاء، ومحـــط رحـــال الفضلاء"[٢].

وكان للتنافس بين علماء مصر والشام فى الإنتاج العلمى دور هام فى نمـــو الحيـــاة الثقافية، وكان مما أذكى التنافس بين العلماء ما خصص لهم من المراكز المرموقة فى القضاء، وفى مشيخة الإسلام، ومشيخة المساجد والمدارس، وإسناد التدريس إليهم فيها [٣].

وكانت الظروف العامة تحفز هذا النشاط العلمي حيـــث النزعـــة الدينيـــة والـــروح الإسلامية التي سرت في أرجاء البلاد المصرية والشامية في عصر المماليك وشـــجع بعـــض السلاطين هذا النشاط العلمي فنحوا نحواً دينياً في معظم تصرفاتهم فأقاموا الشـــعائر وقربـــوا علماء الدين ورفعوا منزلتهم وعززوا نفوذهم من خلال إنشاء دور التعليم المختلفة وعينوا فيها العلماء والمدرسين ومن ثم نشطت الحياة العلمية ومما ساهم في نشاطها التنافس بين علمـــاء مصر والشام وغيرهم في ميادين والعلم والأدب[٤].

وكانت الدراسة في المؤسسات التعليمية التي غصت بها مصر والشام في القرن الثامن الهجري مقتصرة علي علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية فضلاً عن التاريخ والطبقـــات أمـــا مجال الطبيعة والرياضيات والفلسفة والهيئة أو الفلك وعلوم أخرى من العلوم العقلية المساعدة

---

(١) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القـــاهرة، الهيئـــة العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م، ص٦٨.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جـ٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القـــاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨، ص٨١.

(٣) محمد كامل الفقى : الأدب في العصر المملوكي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ص ٥٣،٥٤.

(٤) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، جـ ٣، القـــاهرة، مكتبـــة الآداب، د.ت، ص ١٢٦.

للعلوم الشرعية فكان نصيبها من الدراسة أقل بكثير من العلوم الشرعية واللغوية وبخاصة بعد محاربة الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) لها في "تهافت الفلاسفة" وبعد فتوى ابن الصلاح (المحُـدِّث) ضد المنطق والفلسفة والتي كان لها أثر كبير في حصار المهتمين بهذه العلوم القديمة كالفلسفة وغيرها [١].

وقد برز في هذا القرن في مصر والشام اتجاهان فكريان أحدهما: اتجاه يغلب عليه علوم الشريعة ويعتمد على النقل واتباع السابقين وأبرز من يمثل هذا الاتجاه الذهبي (ت ٧٤٨هـ) وتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) واتجاه آخر يغلب عليه علوم العقل والاهتمام بالعقليات وأبرز من يمثل هذا الاتجاه في هذا القرن سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ).

ويعتبر الذهبي من أبرز علماء الحديث والفقه والتاريخ في القرن الثامن الهجري وهو صاحب مصنفات كثيرة وقد احتوت بعض كتاباته علي العديد من الآراء التربوية فمنها وجوب التعليم حيث اعتبر كتمان العلم كبيرة من الكبائر وساق الأدلة علي ذلك في عنوان الكبيرة الثامنة والثلاثين. التعليم للدنيا وكتمان العلم[٢].

ودعا الذهبي إلي ضرورة إخلاص النية لله في طلب العلم "" ... وإن كانت همتك كهمة إخوانك من الفقهاء الذين قصدهم المناصب والمدارس والدنيا والرفاهية والثياب الفاخرة، فما هذا بركة العلم ولا هذه نية خالصة، بل هذا بيع للعلم بحسن عبارة وتعجل للأجر وتحمل للوزر وغفلة عن الله... " [٣].

وبالإضافة إلي ذلك هناك العديد من الآراء التربوية المختلفة التي تناولها الذهبي في كتاباته التي يمكن أن تفيد في مجال التربية الإسلامية في الوقت الراهن.

ومن الفقهاء البارزين في القرن الثامن الهجري تاج الدين السبكي الذي أثري المكتبة الإسلامية بالعديد من المصنفات القيمة وله العديد من الآراء التربوية التي اشتملت عليها بعض كتاباته ومن هذه الآراء التربوية دعوته إلي نشر العلم وعدم كتمانه "العلماء وهم فرق كثيرة منهم المفسر والمحدث والفقيه والأصولي والمتكلم والنحوي وغيرهم وحق عليهم إرشاد المتعلمين، وإفتاء المستفتين، وإظهار العلم للسائلين، فمن كتم علماً أُلجم بلجام من نار" [٤].

---

[١] عبد البديع الخولي: الفكر التربوي عند ابن تيميه، مجلة دراسات تربوية، تصدر عن رابطة التربية الحديثة جـ ٣٨، المجلد السابع، ١٩٩١م، ص ص ٢١٦ – ٢١٧.

[٢] الذهبي: الكبائر، القاهرة، دار الغد العربي، ط٤، د.ت، ص ١٥٧.

[٣] ----: بيان زغل العلم والطلب، القاهرة، دار الحرمين، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ص ١٧.

[٤] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م،ص ص٥٦، ٥٧.

وينبه التاج إلي أن العلماء ينبغي أن يقصدوا بعلمهم واجتهادهم وجه الله والنفع العام للناس لا الوصول إلي وظائف الدولة وجمع المال لأن باستطاعة الجهال أن يثروا وهو كثير ولكن ينبغي للعالم أن يكون عفيفاً وأن يتخذ من العلم سبيلاً إلي النجاه ويبدي بعض ملاحظاته علي علماء عصره "... علي العلماء ألا يقصدوا بالعلم الرياء والمباهاة والسمعة، ولا جعله سبيلاً إلي الدنيا... ووحق الحق لأعجب من عالم يجعل علمه سبيلاً إلي حطام الدنيا، وهو يري كثيراً من الجهال وصلوا من الدنيا إلي ما لا ينتهي هو إليه... وهذه تنبيهات علي ما يستقبح ويستهجن من علماء هذا الزمان* والغرض بها أنه ينبغي لكل ذى فن أن يتخذه سبيلاً إلي النجاة، ومرقاة إلي الزلفي عند الله تعالي، لا صنعة يتهوس بها "[١] .

وهناك اتجاه آخر من التربويين في القرن الثامن الهجري الذين لم يقتصروا علي العلوم الشرعية ولكن اهتموا بالعلوم العقلية وخصوصاً علم الكلام وكانت لهم كتابات اهتمت ببعض الجوانب التربوية ومن أبرز هؤلاء المفكرين في هذا القرن سعد الدين التفتازانى (٧٢٢ – ٧٩٢هـ) صاحب "شرح المقاصد" في علم الكلام وقد تناول في آرائه التربوية الطبيعة الإنسانية ومكوناتها ويري أن النفس هي "كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة وهذه النفس إما نباتية ووظيفتها الغذاء والنمو والتوليد، وإما نفس حيوانية ووظيفتها الحس والحركة والتخيل، وإما نفس ناطقة أو عاقلة تختص بالإنسان ويعقل بها المعقولات أو الكليات أي تدرك الأمور الكلية "[٢].

وواضح لنا من اختلاف المناهج في تناول العلوم الإسلامية في القرن الثامن الهجري أن الغالبية العظمي من علماء هذا القرن في مصر والشام كانوا يهتمون بالعلوم الشرعية ويركزون عليها كثيراً وقلة من هؤلاء العلماء كانت تهتم بالعلوم العقلية وأطلق عليهم في بعض المصادر التاريخية (أرباب العقليات) ومن أبرزهم في هذا القرن – كما سبق القول – سعد الدين التفتازاني.

---

* تحلى كثير من علماء هذا القرن – إلا من شذ – بالعمل مع العلم والتقوى والورع وقول الحق والإصلاح بين الناس وهذا ظاهر فى تراجم العلماء خلا نفر قصروا عن ذلك لا يأبه الله بهم ولن يشوهوا الصورة المشرقة لذلك القرن الزاهر من حياة الأمة الإسلامية.

[١] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٥٧، ٨٠.

[٢] سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـ٣، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م، ص ص ٢٩٨ – ٢٩٩.

٢- **مشكلة البحث**:

يتضح من العرض السابق ظهور العديد من العلماء والمفكرين فـــي القــرن الثــامن الهجري وقد احتوت بعض مؤلفاتهم علي الكثير من الآراء التربوية مما دفـــع البــاحث إلـــي الاهتمام بدراسة هذه الحقبة التاريخية ومعرفة آراء بعض مفكري القرن الثامن في التربية كما جاءت في كتاباتهم المتنوعة.

ويمكن أن يدور البحث حول الإجابة عن التساؤلات الآتية:

١-ما الملامح السياسية والاجتماعية والثقافية للقرن الثامن الهجري؟

٢-ما العوامل والقوي المؤثرة في الفكر التربوي في القرن الثامن الهجري؟

٣-ما الآراء التربوية الشائعة لدى الذهبي وتاج الدين السبكي مـــن علمـــاء القـــرن الثـــامن الهجري؟

٤-ما أهم الآراء التربوية لدي سعد الدين التفتازانى من علماء القرن الثامن الهجري؟

٥-ما أبعاد الاتفاق والاختلاف في الآراء التربوية بين بعض النقليين والعقليين فـــي القـــرن الثامن الهجري؟

٦-ما أهم الدروس المستفادة من دراسة هذه الفترة من تاريخ التربية الإسلامية؟

٣- **أهداف البحث**:

يهدف البحث الحالي إلي:

١-الكشف عن العوامل والقوي التي أثرت في الفكر التربوي خلال القرن الثامن الهجرى.

٢-إلقاء الضوء علي الجذور التاريخية للاهتمام بالعلوم العقلية وإهمالها من بعض علماء هذا القرن.

٣-التعرف علي الآراء التربوية لدى الذهبي والسبكي والتفتازانى من خلال تحليل هـذه الآراء ومعرفة أوجه الاتفاق والاختلاف بين هذه الآراء.

٤-إلقاء الضوء علي ما يمكن الاستفادة منه عند اختلاف الرؤية في قضايا الفكر التربوي بين النقليين والعقليين.

٤- **أهمية البحث**:

تنبع أهمية هذا البحث من عدة اعتبارات لها أهميتها ومن أبرزها:

١-لم يتناول أحد من الباحثين في مجال الفكر التربوي الإسلامي القرن الثامن الهجري برؤية تفصيلية شاملة علي الرغم من أهميته.

٢-ترجع أهمية دراسة التراث التربوي الإسلامي في "أن كثيرا من المشكلات التربوية التي تواجهنا حاليا قد تناولها الأولون والبحث الفلسفي لهذه المشكلات المعاصرة يقتضي أن نلم بآراء الأولين أو بمحتوي التراث المتصل بها حتى نضمن أن ما نصل إليه في حلها هو أفضل ما يمكن الوصول إليه، وحتى نستطيع أن نؤصل بعض المبادئ التربوية متتبعين جذورها التاريخية في الفكر العربي الإسلامي "[١].

٣- إن هذه الدراسة تلقي الضوء على بعض المشكلات التي يعاني منها نظامنا التعليمي الحالي حيث أن بعض هذه المشكلات ليست وليدة اليوم وإنما تمتد بجذورها إلي الفترات السابقة.

٤-تسهم هذه الدراسة في المحافظة علي التراث العربي الإسلامي وتقديمه للأجيال القادمة.

٥-إن مثل هذه الدراسة وغيرها من الدراسات التي تتناول التراث التربوي الإسلامي تثري النظرية التربوية الإسلامية وتضيف شيئا ذا بال في الطرح التربوي المعاصر ونحن المسلمين في أمس الحاجة إلي فكر تربوي يجمع بين الأصالة والمعاصرة يستمد من الكتاب والسنة بالذات في هذه الفترة التي سيطرت علي النظم التربوية في كثير من بلاد الإسلام أفكار التربية الحديثة وكادت أن تضيع معالم هويتنا وتربيتنا الإسلامية ولا سيما وقد قلد الكثير من المسلمين غيرهم في نظامهم التربوي وحياتهم الاجتماعية.

٦-وجود ثمة تشابه بين الفترة التي يتناولها الباحث بالدراسة والفترة التي تعيشها أمتنا الإسلامية في وقتنا الراهن وتكاد تتمثل في الانقسامات التي أدت إلى تمزيق شملها فضلا عن التهديدات الخارجية التي تجابهها وبالتالي علي التربية الإسلامية واجب النهوض بالأمة من عثراتها.

٧-من المفيد أن يطلع المربي المسلم علي دراسات تربوية من التراث مقارنة بالتربية الحديثة "لا للكشف عن أحقية تراثنا، وسبقه وإبداعه وإنما ليتابع مربونا المعاصرون هذه الدراسات ويربطون ماضي التربية بحاضرها، مستفدين من نتاج العقل الحديث، وتجارب الإنسان التربوية العامة التي يمكنها أن تتلاءم مع قيمنا وأصالتنا "[٢].

---

[١] عبد البديع الخولي: الفكر التربوي في الأندلس، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٨٥، ص ص ١٨٥،١٨٦.

[٢] نذير حمدان: في التراث التربوي، دمشق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٩، ص٧.

٥- منهج البحث:

سوف يستخدم الباحث المنهج التاريخي وبهذا المنهج يقدم الباحث ملامح المجتمع الإسلامي في مصر والشام في القرن الثامن الهجري ويبرز القوي والعوامل التي أثرت علي الفكر التربوي في هذا القرن مستعينا بالمصادر الأولية و الثانوية ذات الصلة بموضوع البحث وإبراز الآراء التربوية لدي بعض مفكري التربية في هذا القرن علي اختلاف تخصصاتهم.

وسيستعين الباحث بمنهج التحليل الفلسفي أيضا وذلك بهدف تحليل كتابات وأفكار هؤلاء المفكرين وصولا إلي الآراء التربوية المتضمنة بها.

٦- حدود البحث:

الحد الزمني: القرن الثامن الهجري .

الحد المكاني: مصر والشام وهما الدولتان اللتان كانتا تنضويان تحت لواء دولة المماليك .

وسوف يقتصر الباحث علي دراسة الآراء التربوية لدي بعض المفكرين المسلمين في القرن الثامن الهجري وهم: الذهبي (٦٧٣ – ٧٤٨هـ / ١٢٧٤ – ١٣٤٩م) وتاج الدين السبكي (٧٢٧ – ٧٧١هـ/ ١٣٢٧ – ١٣٧٠م) وسعد الدين التفتازاني (٧٢٢ – ٧٩٢ هـ/ ١٣٢٢ – ١٣٩٢م).

وقد اعتمد الباحث علي مؤلفات المفكرين الثلاثة الذين سيقتصر عليهم البحث وعلي آرائهم التربوية كما استنطقها بأسلوبهم علي الدلالات اللغوية في حدود عصرهم بعيدا عن التكلف.

٧- خطوات البحث:

يشتمل هذا البحث علي الفصول التالية:

الفصل الأول: الإطار العام للدراسة ويتضمن: مقدمة البحث، ومشكلة البحث، وأهداف البحث، وأهمية البحث، ومنهج البحث، وحدود البحث، وخطوات البحث، والدراسات السابقة.

الفصل الثاني: المجتمع المملوكى في القرن الثامن الهجري في مصر والشام.

الفصل الثالث: اتجاهات العلماء والمثقفين في القرن الثامن الهجري.

الفصل الرابع: الآراء التربوية عند الذهبي.

الفصل الخامس: الآراء التربوية عند تاج الدين السبكي.

الفصل السادس الآراء التربوية عند سعد الدين التفتازاني.

الفصل السابع: النتائج والتوصيات.

٨- الدراسات السابقة:

١-دراسة: بشار عواد معروف[١]:

تناولت هذه الدراسة الذهبي ومنهجه في كتابه (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) وقد جاءت هذه الدراسة في مدخل وبابين: أولهما عن الذهبي نشأته وحياته، وثانيهما عن منهجه في كتابه (تاريخ الإسلام) شمل "المدخل" ثلاثة مباحث مهمة: تناول الباحث في الأول منها أهمية هذا البحث، والدوافع التي دفعته إلي اختياره دون غيره من هذه الموضوعات، ثم محاولة تحديد نطاقه. وتناول في المبحث الثاني تدوين الذهبي لكتابه، والنسخ التي وصلت إلينا منه، ثم وصفا مفصلا للنسخة التي أقام عليها الباحث دراسته، أما المبحث الأخير فقد كان دراسة تحليلية للموارد المعتمدة في هذا البحث.

أما الباب الأول فقد جعله الباحث في فصلين: تكلم في الأول منهما علي سيرة الذهبي الذاتية وعني الباحث في الفصل الثاني باستقصاء آثار (مؤلفات) الذهبي. وتناول الباحث في الباب الثاني: منهج الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام) وجاء هذا الباب في خمسة فصول أهتم الباحث في الفصل الأول بتنظيم الكتاب وأساليب عرضه، وأوضح في الفصل الثاني الأسس التي اتبعها المؤلف في انتقاء المادة التاريخية لكتابه، وكانت "عناصر الترجمة" موضوع الفصل الثالث من هذا الباب أما الفصل الرابع فقد خصصه الباحث لدراسة منهج الذهبي في الموارد وطرائق النقل منها، وتناول الفصل الأخير من هذا الباب منهج الذهبى فى النقد الذي اتبعه في كتابه (تاريخ الإسلام) وختم الباحث دراسته بملخص لأهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث والتي كان من أبرزها أن الذهبي يحتل مكانة مرموقة في تاريخ الفكر الإسلامي عموما والتاريخي خصوصا، وأن دراساته لم تخرج عن دائرة العلوم الدينية النقلية وارتباطه الشديد بالحديث والمحدثين ونظرته إلي العلوم والعلماء وفلسفتهم تجاه العلوم العقلية وعدم اهتمامه بها، ومن هذه النتائج أن الذهبي رغم أنه عاش في بيئة يغلب عليها الجمود والنقل والتلخيص، إلا أنه قد تخلص من كثير من ذلك بفضل سعة دراساته وفطنته. وكان مفهوم التاريخ عنده يتصل اتصالا وثيقا بالحديث النبوي وعلومه.

وأوضحت الدراسة أن الذهبي كان دقيقا في نقل المادة التاريخية، بالرغم من اعتماده طريقة النقل الحرفي تارة وإهمالها تارة أخري وكان ملتزما في كل الحالات بالدقة والأمانة.

وكشفت هذه الدراسة عن أن الذهبي كان معنيا بالنقد كل العناية حيث أصبح جزءا من مفهومه التاريخي فسحبه علي جميع كتابه "تاريخ الإسلام".

---

[١] بشار عواد معروف: الذهبي ومنهجه في كتابه "تاريخ الإسلام"، رسالة دكتوراه منشورة من جامعة بغداد، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٧٦م.

وتتشابه الدراسة السابقة مع الدراسة الحالية في تناولها لشخصية الذهبي كأحد أعلام القرن الثامن الهجري البارزين بيد أن الدراسة السابقة اقتصرت علي دراسة منهج الذهبي في كتابه الشهير "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" وهو أضخم مؤلفات الذهبي التاريخية وقد اقتصرت علي موضوع واحد وعلي كتاب واحد من كتب الذهبي المتعددة والمتنوعة وهي دراسة تاريخية وليست في مجال التربية وهو ما سوف تعالجه وتهتم به الداسة الحالية ومن ثم فالدراستان مختلفتان.

واستفاد الباحث من الدراسة السابقة في التعرف علي سيرة الذهبي ومكانته العلمية والوقوف علي مؤلفاته الكثيرة كما أن هذه الدراسة أفادت الباحث في معرفة منهج الذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام" والجانب النقدي عند الذهبي وإنصافه فيه وبراءته من التعصب والهوي العقائدي الذي اتهم به من قبل بعض المعنيين بالتاريخ والتراجم ولاسيما تلميذه التاج السبكي وقد وظف الباحث ما استفاده من الدراسة السابقة في مواضع متعددة من دراسته الحالية وسوف يظهر ذلك في ثنايا مواضع كثيرة من بحثه.

٢-دراسة: عبد البديع الخولي[١]:

تناولت هذه الدراسة الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية. وقسم الباحث بحثه إلي ثلاثة أبواب وفصل ختامي. تناول في الباب الأول المشكلة وإطارها ويشمل الفصول الأربعة الأولى : الفصل الأول مدخل البحث وتناول فيه المشكلة وأهمية البحث، والدراسات السابقة، و المنهج، والمصادر، والمصطلحات، وخطوات البحث، وتناول في الفصل الثاني الحياة السياسية للمماليك البرجية، وتناول في الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وعرض الباحث في الفصل الرابع للحياة الثقافية. أما الباب الثاني فتناول فيه الباحث "التعليم وإدارته" ويضم هذا الباب ثلاثة فصول الفصل الخامس وتناول فيه مؤسسات التعليم العام والسادس: تنظيم وإدارة التعليم العام، وعرض في الفصل السابع لتربية الفئات الخاصة. أما الباب الثالث من هذه الدراسة فتناول فيه الباحث الفكر التربوي ويضم فصلين هما الثامن والتاسع، ففي الفصل الثامن تحدث الباحث عن الأهداف التربوية، وعوض في الفصل التاسع للمناهج وطرق التدريس، وأما الفصل الختامي فعرض فيه الباحث لنتائج هذا البحث، وقد استخدم الباحث في دراسته هذه المنهج التاريخي.

وكان من ابرز نتائج هذه الدراسة: شعبية التعليم في مصر، وشعبية الإدارة والتمويل، وعالمية التعليم وبروز الدور التعليمي للجامع الأزهر في العالم الإسلامي، وتفضيل المتعلمين

---

[١] عبد البديع عبد العزيز الخولي: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية من عام ٧٨٤- ٩٢٣هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر، ١٩٨١.

في الوظائف الحكومية، وازدياد مكانة المعلمين وبروز دورهم في المجتمع في الدعوة والجهاد والتدريس، وظهور الفكر الصوفي وانتشار الطرق الصوفية.

وأوضحت هذه الدراسة أن الفكر التربوي المملوكي كان له إسهاماته الجديرة بالاهتمام في حدود العصر – ومن هذه الإسهامات الاهتمام بتربية الأطفال، وتقرير مبدأ الثواب والعقاب، وتقرير العلاقة بين المدرسة والمجتمع، ثم العناية بتربية الجسد، ومراعاة الفروق الفردية ثم تنوع أساليب التعليم.

وتعد هذه الدراسة من أقرب الدراسات إلي دراسة الباحث الحالية والصلة بينهما وثيقة رغم أنها تناولت الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية في القرن التاسع وبعض العاشر وهي متداخلة مع الدراسة الحالية لأنها أخذت قدرا منها فهناك اتصال كبير بين الدراستين ولا يمكن فصل الدراسات التربوية وسائر الدراسات الإنسانية فصلا تاما قاطعا بالقرون أو السنوات مثل العلوم التجريبية في الكيمياء والطبيعة وأمثالهما .

وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة كثيرا جدا حيث أضاءت للباحث معالم دراسته الحالية وتعرف من خلالها علي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي شهدتها هذه الفترة التي عالجتها لمالها من انعكاس علي عملية التربية والتعليم وتعرف كذلك علي اتجاهات الفكر والثقافة وغير ذلك الكثير والكثير وقام الباحث بتوظيف ما أفاده من الدراسة السابقة في ثنايا موضوعات متعددة من بحثه وسيتضح ذلك في البحث الحالي.

٣- دراسة محمد عمر محمد حسن[١]:

تناولت هذه الدراسة جهود سعد الدين التفتازاني في الإلهيات من علم الكلام، وتشتمل هذه الدراسة علي مقدمة وبابين وخاتمة. ذكر في المقدمة الدوافع التي دفعته إلي هذا البحث ومنهج السعد في كتاباته الكلامية ومنهجه في الدراسة. أما الباب الأول فقد خصصه الباحث للكلام عن سيرة سعد الدين التفتازاني الذاتية، وتناول في الباب الثاني جهود السعد في الإلهيات من علم الكلام، وقد قسم الباحث هذا الباب إلي عدة فصول تضمن الفصل الأول النظر كمقدمة للإلهيات من علم الكلام، وتحدث في الفصل الثاني عن ذات الله تعالي، وتناول في الفصل الثالث البديهيات وفي الفصل الرابع تحدث عن صفات الله تعالي، وفي الفصل الخامس تكلم عن الرؤية، وعرض في الفصل السادس لأفعال العباد، ثم انتهي إلي الخاتمة التي عرض فيها لأهم النتائج التي توصل إليها من خلال تلك الدراسة.

---

[١] محمد عمر محمد حسن: جهود سعد الدين التفتازاني في الإلهيات من علم الكلام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

وكان من أهم نتائج هذه الدراسة أن سعد الدين التفتازاني كان علما من أعلام القـــرن الثامن الهجري وكان أشعريا بكل ما في كلمة الأشعرية من معني ولا يدخر جهدا في الدفـــاع عن مذهبهم وهو وإن كان يجنح إلى بعض آراء الفلاسفة في بعض المواضع فإن ذلـــك إنمـــا كان لتأكيد مذهب الأشاعرة وبينت هذه الدراسة أن السعد تميز عـــن كثـــير مـــن المتكلميـــن باستدلاله على كل مسألة من المسائل بالنقل والعقل معا. وهذا يؤكد أن علم الكلام ليس فقـــط وسيلة دفاع ضد أعداء الدين الخارجين عنه من الزنادقة المتفلسفين. بل إنه إلي جـــانب ذلـــك وسيلة للرد علي شبه المنحرفين عن العقيدة الصحيحة من المنتسبين إلي الإسلام.

وأوضحت الدراسة أصالة السعد كمفكر مسلم وقدرته علـــي عـــرض الآراء وبيـــان الصواب منها والمخطئ ووضوح الرؤية عنده وبيان الموافق منها للعقيدة والمخالف لها فـــهو كمفكر كان له قدرة عقلية علي فهم تلك الآراء وشرحها شرحا وافيا ونقض المخالف منها ولـم يكن بحال من الأحوال عالة علي أحد وكان له رأيه المتميز في كثير من المواضع وقد تـــأثر كثيرا بشيخه الأيجي (ت ٧٥٦هـ) وسار علي نهجه في كتابه "شرح المقاصد" في علم الكـلام ومباحث هذا الكتاب شبيهة بمباحث كتاب "المواقف" للأيجي وقد تعاصرا معا في القرن الثامن الهجري وهما من أبرز علماء الكلام في هذا القرن.

وهذه الدراسة كما هو واضح من أفكارها السابقة تتناول السعد من منظور علم الكـلام وموقفه من بعض القضايا الكلامية فهى فى مجال العقيدة والفلسفة أما الدراسة الحالية فإنـــــها تتناول سعد الدين التفتازانى من منظور تربوى حيث تبرز آرائه التربوية ولذا فإن الدراســتين مختلفتين.

واستفاد الباحث من الدراسة السابقة في التعرف علي نشأة الســعد وحياتـــه ومكانتـــه العلمية وبروزه في العلوم العقلية في القرن الثامن والوقوف علي منهجه في كتاباتـــه وتـــأثره بشيخه الأيجي إلي غير ذلك من الأفكار والموضوعات التي وظفها البـــــاحث فـــي دراســته الحالية.

٤-دراسة عبد البديع الخولي:[١]

تناولت هذه الدراسة الفكر التربوي عند ابن تيمية وعرض فيها الباحث للآراء التربوية عند ابن تيمية – وهو من أعلام هذا القرن أيضا – فتناول الـــــهدف الـــتربوي، والطبيعـــة الإنسانية، والمعرفة بين السلف والخلف، ونقد مناهج الخلف في المعرفة، ثم تنـــاول البـــاحث التربية السياسية، كما تناول نقد ابن تيمية لسلوكيات البيئة العلمية في عصره.

---

[١] عبد البديع الخولي: الفكر التربوي عند ابن تيمية، مجلة دراسات تربوية، جـ٣٨، المجلد السابع، ١٩٩١م، ص ص ٢١٦ - ٣١٧.

والدراسة السابقة وإن عرضت لملامح الفكر التربوى عند ابن تيمية إلا أنها تختلف عن الدراسة الحالية التى تركز على دراسة الآراء التربوية عند الذهبى وتاج الدين السبكى وسعد الدين التفتازانى .

وثمة تداخل أيضا بين الدراسة السابقة والحالية لأن هؤلاء المفكرين الثالثة الذين نتناولهم الدراسة الحالية كانوا معاصرين لأبن تيمية فى القرن الثامن الهجرى وقد أفادت هذه الدراسة الباحث كثيرا وخصوصا فى التعرف علي الإطار السياسى والاجتماعى والثقافى والتربوى الذى أفرز شخصيات مختلفة وهذا أثر إيجابى هام جدا فى هذا القرن وسيظهر أثر الاستفادة من هذه الدراسة فى ثنايا الدراسة الحالية.

٥- **دراسة عبد البديع الخولى**[١]:

تناولت هذه الدراسة الفكر التربوى عبد ابن قيم الجوزية أحد أعلام هذا القرن الثامن الهجرى وعرض فيها الباحث للهدف التربوى والطبيعة الإنسانية والمعرفة، ومراحل التعليم عند ابن القيم وآداب التعلم، ونقد ابن القيم لبعض طلاب العلم، وتربية الأطفال عند ابن القيم، والأخلاق عنده، ثم تناول الباحث التربية للفروسية. والدراسة تعد وثيقة الصلة بدراسة الباحث الحالية وقد أفادت الباحث كثيرا فى توجيه بحثه الحالى وسيتضح ذلك فى ثنايا هذا البحث.

ويؤكد الباحث على أنه تم استبعاد الشخصيتين السابقتين (ابن تيمية، وابن القيم) من دراسته الحالية لأن كثيرا من الباحثين قد سبق لهم دراستهما تربويا.

وبعد هذا العرض للدراسات السابقة يجد الباحث أن دراسته تختلف كثيرا عما سبقها مع التقدير لأصحابها حيث لم يتعرض الباحثون لمثل هذا الموضوع فى مجال الفكر التربوى الإسلامى .

---

[١] عبد البديع الخولي: الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية، مجلة دراسات تربوية، المجلد الثامن، جـ ٥٠ ، ١٩٩٣م، ص ص ٥٠-١٠٥

الفصل الثاني

المجتمع المملوكى في القرن الثامن الهجرى

الفصل الثاني

المجتمع المملوكي في القرن الثامن الهجري

١- مقدمة:

يعد التعليم عملية اجتماعية ووظيفة اجتماعية هامة تتطور وتتغير مع حركة المجتمع وتتأثر بالقيم السائدة في حياة المجتمع، لذا فإن التعليم يعتبر مرآة تنعكس عليها النظم السياسية والاقتصادية التي تميز مجتمعاً من المجتمعات وغالباً ما تقوم علاقة ديناميكية بين التعليم من ناحية وبين هذه النظم من ناحية أخري فكلاهما يؤثر في الأخر ويتأثر به ومن هنا كان الرأي القائل بأن من أراد أن يتعرف علي تاريخ أمة أن يتأمل تاريخ تعليمها [١].

ولما كانت التربية في أي مجتمع من المجتمعات تتأثر بالعديد من القوي والمؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها فإن من الطبيعي أن يهتم الباحث بدراسة هذه القوي والمؤثرات التي تلقي بظلالها علي التربية والتعليم.

ولأجل أن يدرس الباحث شخصية من الشخصيات التي كان لها أثر في ناحية ما من نواحي الحياة، لاسيما الناحية التربوية فلابد من دراسة الظروف المحيطة بها، والبيئة التي كانت تعيش فيها، إذ أن الشخص يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، ويكون لها دخل كبير في تكييف حياته وطبعها بطابع خاص فالظروف السياسية والاجتماعية وغيرها التي توجد في عصره كلها عوامل مهمة في تكوين شخصية وتكييف اتجاهاتها فالعالم نتاج عصره وابن بيئته ويستجيب لمتطلبات هذا العصر إما بالمسايرة وإما بالتجديد.

ولذلك كان لابد للباحث وهو بصدد دراسة الآراء التربوية لبعض المفكرين المسلمين في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أن يلقي الضوء على ظروف العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء المفكرون للكشف عن طبيعة وظروف هذا العصر من زواياه المختلفة (السياسية، والاجتماعية، والاقتصادي، والفكرية) وسيعرض الباحث الحالة السياسية:

٢- الحالة السياسية:

يعد العامل السياسي من العوامل الهامة التي لها انعكاس علي العملية التربوية فالنظم السياسي للدولة والتنظيم الإداري والعلاقات الخارجية ذات صلة وثيقة بالتربية والتعليم وسوف يقوم الباحث بتوضيح هذه الجوانب وانعكاسها علي التعليم:

---

[١] سيد إبراهيم الجبار: تاريخ التعليم الحديث في مصر وأبعاده الثقافية، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧١، ص ز من مقدمة الكتاب.

كانت مصر والشام في هذه الحقبة من الزمن تحت سيادة المماليك. فبعد احتضار دولة الأيوبيين، دب النزاع بين ملوكهم، وقامت بينهم الحروب – وبخاصة في مصر والشـــام – وسعي كل منهم إلي تعزيز جانبه ، فلجأ كل حاكم إلي شراء الممـــاليك والاعتنـــاء بتدريبـــهم وتنشئتهم. وسرعان ما ساعدت الأحداث علي بروز المماليك، وتنامي شوكتهم، حتى صـــارت لهم كلمة مسموعة في مجريات الأمور، وتمكنوا من إقامة دولتهم علي أنقاض دولة الأيوبييـــن في مصر والشام [١].

وكان هؤلاء المماليك علي قسمين المماليك البحرية وهم "الملوك الأتراك وبدأ حكمـــهم من عام (٦٤٨هـــ – ٧٨٤هـــ / ١٢٥٠ – ١٣٨٢م) وعددهم أربعة وعشرون ذكراً وأول من حكمتهم السلطانة شجرة الدر – زوجة عز الدين أيبك – وحكمت مصر ثمانين يوماً وآخـــر سلاطينهم صبي هو السلطان الملك الصالح زين الدين حـــاجي ٧٨٣ – ٧٨٤هـــ(١٣٨١ – ١٣٨٢م) وبه انقضت دولة المماليك البحرية، وأما المماليك البرجية فقد أســـكنهم المنصـــور قلاوون في أبراج القلعة وسماهم البرجية وأولهم الظاهر أبو سعيد برقوق وآخرهم الســـلطان الغوري"[٢] وامتد عهدهم ما بين سنتي (٧٨٤ – ٩٢٣هـــ / ١٣٨٢ – ١٥١٧م) .

وكان عصر دولة المماليك البحرية* ما يقرب من قرن ونصف تولي الحكم فيها عـــدد كبير من السلاطين منهم من لم يتول السلطة إلا بضعة أيام أو شهور ومنهم من طـــالت مـــدة سلطنته واستقرت سنوات طوالاً ومنهم من تولي الحكم صبياً أو طفلاً لم يبلغ الحلم وكان يقوم بأمرهم أتابك (قائد جيش المماليك) أو نائب السلطنة أو كبير الأمراء وتمـــيزت هـــذه الدولـــة بطول مدة حكم بعض السلاطين مثل السلطان الناصر محمد بن قلاوون أطـــول مـــن حكـــم سلاطين المماليك.

وكانت مصر والشام خلال هذا القرن تعانيان خارجياً وداخليـــاً مـــن الاضطـــراب السياسي ففي الخارج هددت جيوش التتار الشام أكثر من مرة والتقت بها جيـــوش الممـــاليك بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومعه الخليفة العباسي في موقعه مرج الصفر بالقرب

---

(١) عبد الستار الشيخ: الحافظ الذهبي: سلسة أعلام المسلمين، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٤، ص ١٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٢، بـــيروت، دار صـــادر، د.ت،ص ص ٢٣٦ – ٢٤٤.

* سمو بذلك نسبة إلي بحر النيل لأن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون لهم مستقراً ومقاماً وهذا هو الرأى الراجح في سبب تسميتهم بهذا الاسم وقد ازداد نفوذهم في عهد الصالح أيوب ازدياداً خطيراً. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٦،ص٥.

من حمص، وهزم التتار شر هزيمة ومات كثير منهم من الظمأ ولم تقم لغازان قـــائد التتـــار قائمة بعد هذه الموقعة، وكان المماليك قد قضوا علي الصليبيين في الشام نهائياً عام ٦٩٠هـــ ومن ثم تلاشي الخطر الخارجي وإن كان هذا لم يكسب الشام الاستقرار في ذلـــك العصـــر، وذلك راجع إلي الاضطرابات الداخلية في العصر المملوكي، فالسلطان محمد بـــن قـــلاوون الذي كان أطول السلاطين في الحكم عزل أكثر من مرة، واستقرت البلاد في عـــهده بعـض الاستقرار، لكن بعد وفاته عام ٧٤١هـــ، عاد الاضطراب السياسي، وكان بعض الســلاطين لا يحكم سوي شهر [١].

وكان المماليك بوجه عام يستندون إلي القوة في تدعيم حكمهم و في الوصـــول إلـــي دست السلطة وكان ذلك سياسة مرسومة يأخذ بها كل من يتولي منهم أمر السلطنة وتعد القـوة هي الأساس في الحكم المملوكي فمن يملكها يمكنه الوثوب إلي دست السلطنة ويفتك بالسـلطان القائم ليقعد مكانه، وقد دربت أعداد كبيرة منهم علي الفنون العسكرية وخصوصـــاً الفروســية فبرعوا فيها وصاروا فرساناً مقاتلين من الطراز الفريد ومن ثم نجحوا في التصـــدي لخطـــر الصليبيِن والتتار وأحرزوا انتصارات رائعة كبيرة سجلها التاريخ لهم. فقد نجح قطز في دحر التتار في موقعة عين جالوت الشهيرة عام ٦٥٨هـــ = ١٢٦٠م بعد سقوط بغداد مقر الخلافــة العباسية عام ٦٥٦هـــ[٢].

وكان هؤلاء المماليك ينقسمون فيما بينهم إلي طوائف متصارعة لا تربأ بنفسها عـــن استعمال أدنأ طرق التنكيل الواحد بالآخر، وبالرغم من هذا الانقسام إلا أنه لم يؤثر ذلك علـــي وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجي الذي يواجهونه كعصبة واحدة، مما يفسر لنا سر قوتهم وانتصاراتهم الحربية إزاء عدوهم المشترك[٣].

وكانت قسوة المماليك طابعاً مميزاً لحكمهم وكانوا يتناحرون علي السلطة وأصبحـــوا يؤلفون طبقة أرستقراطية خاصة وابتعدوا عن الشعب في (مصر والشام) ولم يختلطوا به ولـــم تكن هناك أية رابطة تربط بينهم وبين الشعب الذي يساكنونه إلا بقية باقية من رابطة الديـــن دفعتهم إلى الدفاع عن مصر والشام ضد الصليبيين والتتار "وظل هـــؤلاء الممـــاليك طبقـــة منفصلة عن سائر السكان فى مصر والشام فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريـــهم من بنات جنسهم اللاتى جلبهن التجار ... ولاشك فى أن هذه العزلة التى عاش فيها المماليك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام والمحكومين، مما ترك أثراً واضحاً فى المجتمع المعـــاصر،

---

[١] عبد البديع الخولي: الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص ٥٤.

[٢] محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠،ص ص ١٥- ١٧.

[٣] علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية،القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٦٧، ص ٢٨.

ذلك أن أهل البلاد فى مصر والشام ظلوا طوال عصر المماليك لا يعنيهم شـــيء مـــن أمـــر الأحداث الكبرى الداخلية والخارجية التى أحاطت بمجتمعهم وحسبهم ما كانوا يشاهدونه مـــن مواكب حافلة أو من منازعات صاخبة بين طوائف المماليك وما ترتب على ذلك من الـــنزاع من سقوط سلطان وقيام غيره. وهكذا ظل الفلاح يعمل فى حقله والتاجر فى متجره والفقيه فى مدرسته أو جامعه ... ينفذون جميعاً مشيئة سادة البلاد من المماليك، ويدفعون لهم ما يطلـــب منهم وهم صاغرون. حقيقة فقد عملوا حساباً لبعض الفئات من المصريين والشاميين وأعطوهـــا بعض من حقها من التقدير والعطف، لكن ذلك لم يمنعهم من التنكر لهم أحياناً، وهـــذه الفئـــة كانت أقلية صغيرة من المعممين"[١].

ولم يكن المماليك فى معاملتهم الخاصة لأهل الشام ومصر يتورعـــون عـــن إتيـــان المنكرات وارتكاب أشد الموبقات والمظالم يؤذون الناس ويهرقون الدماء ويصادرون الأمـــوال ولم تشعر هذه الطبقة العسكرية الحاكمة بمآسى الناس أو تضمن لـــهم بعضـــاً مـــن الأمـــن والاستقرار طيلة حكمهم حتى قال معاصرهم : "قد نزل بالناس من المماليك بلاء لا يوصف ما بين نهب وقتل وسجن وسبى بحيث لو ملك الفرنج ما زادوا فـــى الفســـاد علـــى مـــا فعلـــه المماليك"[٢] .

ومما يؤكد ظلم بعض سلاطينهم للرعية وجمع الأموال منهم بحق وبغير حق ما ذكره أحد المؤرخين عن السلطان الناصر حسن الذى بلغت مدة حكمه فى حقبتين أحد عشر عاماً أنه "لما كثر طمعه وتزايد شرهه، ساءت سيرته فى الرعية وضيق عليهم فى معايشهم وأكســـابهم، وبنى البنايات الجبارة التى لا يحتاج إلى كثير منها، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المـــال وأمواله ... ولم يتجاسر أحد من القضاة، ولا الولاة، ولا العلماء، ولا الصلحاء على الإنكـــار عليه، ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين ، وانتقم الله منه فسلط عليه جنده، وقلب قلوب رعيته من الخاصة والعامة عليه، لما قطع من أرزاقهم ومعاليمهم، وأضاف ذلك جميعـــه إلى خاصته... فعند ذلك قدر الله تعالى هلاكه على يد أحد خواصه، وهو الأمير الكبير يلبغـــا الخاصكى" وهكذا قتل سنة ٧٦٢هـ[٣].

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٥٩، ص ١٥٨.

[٢] المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٢، مرجع سابق ، ص٢١٤.

[٣] ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١٤، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، القاهرة، دار الريان للـــتراث، ط١، ١٩٨٨، ص٢٧٨.

ومن سمات المماليك بوجه عام "جمعهم بين الصلاح في نظر الشـــعب والاستمســـاك بقواعد الدين الحنيف من حيث الصلاة والزكاة وتشييد العمائر الدينية وغير ذلك، بينما نجدهـم فى حياتهم الخاصة لا يتورعون عن إتيان أبشع المنكرات والتعسف في أذى الخلق وإهـــراق الدماء بلا اكتراث بأبسط المبادئ الإنسانية، وهذا المزج بين الصلاح والفسق غريب في بابــه يظهر لنا أن المماليك كانت لهم شخصيتان واحدة عامة وأخرى خاصة واحــدة تعمــل علـــى إعلاء كلمة الإسلام وأخرى لا تأبه بما يبشر به الإسلام من قواعد العدل والخلق الكريم. وهذا طبعاً كلام عام ينطبق على المماليك فى مجملهم لأنه كان هناك أيضاً فى صفوفهم أفراد قلائل اتصفوا بحب الخير والدين الصحيح، وعلى ذلك فإننا لا نظن أن شعورهم الدينى كان عميقـــاً ولكنهم رغم رذائلهم وجرائمهم كانوا في بعض الأحيان يتخذون مظهراً خارجياً فيه شئ مـــن التقوى، فيبنون العمائر ويوزعون الإحسان والعطايا"[١].

ويمكن للباحث أن يستنتج مما سبق أن الحياة السياسية فى مصر والشام خـــلال هـذا القرن كانت غير مستقرة من الناحية السياسية نتيجة للاضطرابات الداخلية والخارجية باستثناء فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون التى شهدت بعض الاستقرار والهدوء النسـبى إلا أنها عانت من عدم الاستقرار بعد ذلك وخصوصاً طيلة عهد أبناء النـــاصر وأحفـــاده الذيـــن صاروا ألعوبة فى يد كبار الأمراء بسبب صغر سن الكثيرين منهم ومن ثم لم يكن لـــهم مـــن الأمر شيئاً في مجريات الأمور .

كان الحكم المملوكى يعتمد على القوة والبقاء فيه للأقوى ومن ثم "لم يؤمن الممـــاليك بنظام وراثة العرش. ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم ، الأمر الذى جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً للتنافس والمنازعات بين كبار أمراء المماليك عقب وفـــاة كل سلطان، وكان الذى يحدث عادة عند وفاة سلطان من السلاطين هو أن يجتمع كبار الأمراء ويعينون ابن السلطان المتوفى فى منصب السلطنة بدلاً من أبيه، لا إيماناً منهم بمبدأ الوراثـــة، ولكن كحل مؤقت إلى أن ينجلى الموقف بين الأمراء ويظهر الأمير القوى الذى يســـتطيع أن يثبت نفوذه وتفوقه على بقية الأمراء وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عســـاه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل"[٢].

وكان حكم هؤلاء السلاطين يقوم كذلك على الشك والغيرة والخديعة فهم جميعاً كـــانوا فى العرف المملوكى متساويين ولا فضل لأحد على آخر باعتلاء العرش إلا دهاؤه ونجاحـــه فى تدبير المؤامرات ، ومن ثم لم يكن مفهوم وراثة العرش واضحاً راسخاً فى أذهان المماليك

---

[١] على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، مرجع سابق، ص ٢٨.

[٢] سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ص ٢٣،٢٢.

عند تأسيس دولتهم ولم يقيموا وزناً لهذا المبدأ الوراثى وأن وراثة العرش لم تكن لتحترم أو تظهر إلا حلاً لمشكلة "من يعتلى العرش"؟ حيث غدا الأتابك الحاكم الفعلى للبلاد والشخصية القوية "فكثيراً ما اغتصب العرش "أتابك" السلطان إذا وجد أن ابن سيده حدث لا قدرة له على مقاومته أو أحد الأمراء الأقوياء إذا وجد له أتباعاً كثيرين وأنه ذو مقدرة سياسية عظيمة ومهارة حربية وتفنن فى أساليب الدس من وراء الستار، وترجع العوامل التى جعلت المماليك لا يفهمون المعنى المقصود من نظام الوراثة إلى صغر سن ابن السلطان المتوفى مما دعا إلى إقامة أتابك عليه ... وقد قام الأتابكة بأدوار هامة فى سلطنة المماليك فمثلاً ظهر نفوذ الأمير كتبغا المنصورى أتابك السلطان الناصر، وتركزت السلطة فى يده وتضاءلت بجانبه شخصية السلطان الناصر وكان صبياً وقتئذ"[١].

وقد عانى الحكم المملوكى فى مصر والشام من عدم الاستقرار وكثرة الاضطرابات التى شهدتها معظم عهودهم. وهذه صفة لم تمنح أحداً من السلاطين فترة طويلة من الحكم، ومن النادر أن نجد منهم من مات ميتة طبيعية بسبب كثرة الانقلابات والفتن والصراعات واستخدام القوة للوصول إلى سدة الحكم ولقد صاحب هذه الاضطرابات اضطرابات فى جميع مظاهر الحياة.

وكانت أهم معالم النظرية السياسية فى الحكم لديهم تتمثل فى " إبقاء العرش المملوكى مشاعاً بين الأقوياء من أمراء المماليك، واستخدام كل الوسائل بما فيها الدس والتآمر للوصول إلى السلطنة، أهمية الحصول – شكلاً – على مبايعة الخليفة والقضاة وكبار العلماء بعد انجلاء صراع الأمراء عن السلطان المختار، تناسى رغبات الشعب المصرى فيما يتصل باختيار السلطان وتهيئته نفسياً بمؤثرات مختلفة للاحتفال بالسلطان الجديد، إقامة توازن دقيق بين كبار العلماء الذين يمثلون الزعامة الشعبية، وبين قوى أخرى وافدة على مصر تنسب نفسها إلى العلم والتصوف"[٢].

وكانت الأخطار الخارجية المحدقة بمصر المملوكية متعددة وقد شاءت الأقدار أن يلتحم المماليك مع المصريين والشاميين فى مواجهة هذه الأخطار التى كانت تتهدد الدولة المملوكية منذ قيامها ومن أبرز هذه الأخطار الخطر الصليبى القادم من الغرب والخطر المغولى القادم من الشرق ونجح المماليك فى التغلب على هذين الخطرين وأبلوا فى هذا المضمار بلاء حسناً واستطاعت هذه الدولة المملوكية مواجهة الأخطار الخارجية التى هددت

---

[١] على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، مرجع سابق، ص ص ١٩٦،١٩٧.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ص٥٢،٥٣.

الوطن العربى وحمت مصر والشام من خطر الصليبيين والتتار وأصبحت هــذه الدولــة ذات مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى أجمع واتسع نطاق العلاقات الخارجية لهذه الدولة ويتتبــع الباحث هذا النشاط الخارجى بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك فى مصــو والشام من ناحية وأهم الدول التى ربطتها بها علاقات خارجية من ناحية أخـــرى وســيكتفى الباحث بتوضيح الإطار العام لهذه العلاقات شرق مصر وغربها.

(أ) العلاقات الخارجية للمماليك :

أصبحت دولة المماليك فى مصر والشام أعظم قوة معاصرة فى الوطن العربى ونظــو إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال بينما نظرت إليـــها القــوى الأخرى المعادية لها نظرة خوف واحترام وغدت القاهرة فى عصر المماليك قبلة الأصدقـــاء والأعداء وصارت مركزاً لشبكة واسعة من العلاقات الخارجية مع الـــدول الصديقــة وغــير الصديقة بحيث إننا لا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء فى هذا العصر غدا يمثل أضخــم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع فى ذلك العصر "[١].

وقد استلفت هذا النفوذ العريض لدولة المماليك نظر المقريزى الذى أكد علـــى عظــم مركز مصر بين الدول فى هذا العصر المملوكى عامة وعصر السلطان الناصر محمد خاصة "وفيه (٢٥ محرم سنة ٧٢٥هــ) اجتمع بمصر من رسل الملوك ما لم يجتمع مثلهم فى الدولــة التركية وهم رسل صاحب اليمن، ورسل صاحب اسطنبول، ورســـل أبـــى ســعيد، ورســل ماردين... وكلهم يبذلون الطاعة"[٢].

ويذكر ابن إياس هذه الحقيقة عن مركز دولة المماليك ونفوذها فـــى عـــهد النـــاصر "...وخطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه، وصار جميع عسكر مصر في قبضته"[٣].

أما في غرب مصر فكانت توجد دول إسلامية (ليبيا، وتونس، والمغـــرب) ربطتــها بدولة المماليك علاقات قوية تمثلت في حرص السلاطين على إرسال البشائر إلى دول المغرب العربى عقب انتصارهم على أعداء المسلمين فى الشرق مثل التتار أو الصليبيين واتسع نطاق هذه العلاقات فى عدة مجالات من أبرزها المجال الثقافي المتمثل في هجــرة المغاربـــة إلـــى

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ، مرجع سابق، ص ص ٢٣٣،٢٣٤.

[٢] المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جــ٢، نشر وتعليق محمد مصطفى زيادة، القــاهرة،دار الكتــب، ١٩٣٤، ص ص ١٦٣-١٦٤.

[٣] ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، جــ١، القاهرة، طبعة بولاق، ١٣١٢هــ ، ص١٧٣.

مصر فراراً من حكام بلادهم وكان بعضهم من الفقراء والصوفية وأثروا فـــي حيـــاة مصــــر الاجتماعية ولا سيما فى انتشار التصوف، وحدث لون من التبادل التجارى كذلك وقصد مصر كثير من المغاربة لطلب العلم وحظى بعض علماء المغرب بعطف السلاطين وسمح لبعضـــهم بالتدريس بالأزهر ومن أبرزهم ابن خلدون"[١].

وأما علاقة المماليك بالحبشة فقد كانت تسودها المودة والهدايا والوفود المرحب بـــها من الطرفين – حيناً – ويسودها الوعيد بقطع النيل عن مصر أو مضايقة الرعايا المخـــالفين فى الدين (المسيحيون) – حيناً أخر–" [٢].

وفيما يتصل بعلاقة المماليك بالحجاز فقد اهتم سلاطين المماليك منـــذ قيـــام دولتـــهم بالحجاز وشئونه وبسطوا نفوذهم السياسى على هذا الإقليم وكانت الخلافـــات بيـــن أشـــراف الحجاز قد أتاحت الفرصة لسلاطين المماليك لتحقيق أغراضهم وكثيراً ما كان أشراف الحجاز يستعينون ببعض السلاطين لفض ما بينهم من منازعات ومن ذلك ما حدث فى عهد الســـلطان الناصر محمد بن قلاوون من استنجاد الشريف منصور ضد ابن أخيه ماجد بن مقبـــل الـــذى انتزع منه إمارة المدينة فأرسل السلطان الناصر محمد بعضاً من جنـــده لمعاونـــة الشـــريف منصور [٣].

أما دولة السودان الغربى *(السنغال ومالى وموريتانيا) فلم تكن ثمة علاقات سياســـية قوية مباشرة بينها وبين سلطة المماليك فى مصر وكانت العلاقات بين الطرفيـــن ذات طـــابع دينى وتجارى وثقافى فقد اعتاد سكان تلك البلاد أن يرتحلوا إلى الحج عبر مصـــــر وكـــانوا يقضون فيها وقتاً حتى يتهيأ ركب الحجاج والمحمل إلى مكة وكــــانوا يلتقـــون بـــالمصريين ويتعرف كل طرف على الآخر وكان وفد الحج يتألف من عشرة آلاف حاج على رأسهم منسا موسى ملكهم الذى أحاط نفسه بمظاهر الترف. وكان يرتبط بهذه الصلات علاقـــات تجاريـــة قوية حيث ابتنى تجار التكاررة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق وأصبحـــت مركزاً لطلاب العلم الوافدين من هذه البلاد . ولا شك فى أن روابط الإسلام بين مصر وهـــذه

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، مرجع سابق، ص ص ٢٤٣-٢٤٩.

[٢]عبد البديع الخولى : الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع ســـابق، ص ٣٤.

[٣] محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٣٠.

* كان المؤرخون يطلقون على بلاد التكرور التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى للملكة المغربيـــة "الســـودان الغربى" ومما تشمله الآن السنغال ومالى وموريتانيا، عبد البديع الخولى : الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٣٢.

البلاد أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين. فقد ذكر أن السلطان منسا موسى ابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية وذكر أيضاً أن جامعة تنبكتو الدينية التى أنشئت عام ١٣٣٥م تقريباً كانت تحاول أن تحتذى حذو الأزهر فى التعليم ... ويبدو أنهم استعانوا ببعض العلماء المصريين الذين استقروا هناك، بدليل ما ذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض فى مدينة مالى لم يسعفه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين[١].

يتضح مما سبق اتساع نطاق العلاقات الخارجية لدولة المماليك حيث حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل جميع القوى الخارجية تخطب ودها وتسعى لإقامة علاقات سياسية معها.

(ب) الخلافة العباسية فى مصر:

أما علاقة دولة المماليك بالخلافة العباسية فإن ثمة عمل خطير فى عصر المماليك وخصوصاً فى بداية دولة المماليك البحرية وترتب عليه نتائج هامة بالنسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامى فقد تمثل هذا العمل السياسى الدينى فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة على يد الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ — ١٢٦١م وأصبحت مصر مقر الخلافة ومركز الرئاسة العامة لبلاد المسلمين وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك إلى أن يقوى عرشه فى مصر، ويجعله حكماً شرعياً فى البلاد. فتحقق له ما أراد بتفويض رسمى من الخليفة العباسى الجديد المستنصر بالله سنة ٦٥٩ هـ. وقد كانت سلطة الخلفاء العباسيين بمصر منذ ذلك الوقت مقتصرة على الأمور الدينية فقط [٢].

ولم يكن للخلافة فى ذلك العصر غير الاسم والرسم أى أنها كانت صورية شكلية وكانت السيادة الفعلية لسلاطين المماليك الذين يعزلون من يشاءون عزله ويولون من يريدون توليته ولم يباشر الخلفاء فى القاهرة أى عمل من الأعمال المهمة فى الدولة ولم يكن لهم أى كيان فى ذلك الوقت بل كان الخليفة مغلوباً على أمره ليس له من الأمر شئ وكانت سلطنتهم صورية يترددون على أبواب العلماء والكتاب لتهنئتهم بالأعياد وظل الخليفة العباسى منذ إحياء الخلافة وخلافته "ليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة لتهنئتهم بالأعياد والشهور"[٣].

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، مرجع سابق، ص ص٢٥٠ – ٢٥٢.

[٢] محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٠، ص ص٥١-٦٠.

[٣] المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ، مرجع سابق، ص ٣٢.

ويوضح لنا القلقشندى مدى علاقة الخلافة العباسية فى القاهرة بسلطنة المماليك "والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان يكتب له عهداً بالسلطنة، ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة ، ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك " [١].

ومما يدل على ضعف هؤلاء الخلفاء وتدخل السلاطين فى الأمر وأن السلطة الفعلية كانت بيدهم أنه حدث فى سنة ٧٣٧ هـ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اعتقل الخليفة المستكفى بالله ومنعه من الاجتماع بالناس ، ثم افرج عنه بعد ذلك ، ولكنه ما لبث أن نفاه السلطان مع أهله وذويه إلى بلدة "قوص" بالصعيد ، ونفى الخليفة بها إلى أن توفى . واستبد الملك الناصر بالأمر وحده إلى حين وفاته . ثم بويع لابنه المنصور سيف الدين عام ٧٤٢هـ، فبايع ذلك السلطان الخليفة أمير المؤمنين "أبا القاسم أحمد بن المستكفى بالله" [٢].

وهكذا يصبح الخليفة العباسي دمية فى يد السلاطين حتى أنه لتحدد إقامته ويظل فى بيته بعيداً عن الاختلاط بالناس وخلافته "ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين" [٣].

ولم يكن للخلافة العباسية أيِ أثر من الناحيتين الاجتماعية والثقافية سوى قدوم أعداد غفيرة من العلماء والصوفية من المغرب والمشرق وقد أدى هذا إلى نشاط ثقافيِ واسع تمثل فيِ كثرة المؤلفات وتنوعها فيِ هذا العصر وكذلك تأسيس المؤسسات الصوفية كالخوانق والزوايا والربط لإيواء وتثقيف الوافدين إلى مصر... ولم يكن للمماليك أيِ أهمية على الساحة بدون الخلافة العباسية وكان إعلانها فيِ مصر بمثابة إيجاد السند الشرعيِ الذيِ ترتكز عليه الدولة المملوكية سياسياً فى الداخل والخارج. وكان سلاطين المماليك يستخدمون الخلافة كواجهة براقة أو كجهاز دعاية ، أما الخلفاء العباسيون أنفسهم فكانوا كدمى أو آلات يحركها السلاطين كيفما شاءوا بلا سلطة لهؤلاء الخلفاء حتى فى أتفه الأمور[٤].

---

[١] القلقشندى : صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، جـ ٣ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ٣٠٠.

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١٤، مرجع سابق، ص ١٨٧.

[٣] المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، مرجع سابق، ص ٣٩٤.

[٤] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ص ٤٣،٤٤،٦٥.

وينسب أحد المؤرخين المعاصرين النشاط العلمى والدينى فى مصر والشام إلى إحيـاء الخلافة فيذكر "واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكـثرت شـعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنة ، وعفت منه البدعة*، فصارت محل سكن العلمـاء، ومحـط رحال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه فى الخلافة النبوية حيثما كانت يكـون معـها الإيمان والكتاب. . ." [١].

وبعد أن عرض الباحث لعلاقة المماليك بالخلافة العباسية يعرض لسياستهم الداخلية:

(ج) السياسة الداخلية للمماليك :

لقد حكم سلاطين المماليك مصر والشام بوصفهم طبقة عسكرية ممتـازة، استـأثروا بالحكم وشئون الحرب، ونظروا إلى الأهالى على أنهم أقل منهم ، لا ينبغى لهم أن يشـاركوا فى الحياة الحربية أو السياسية، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة فى شـئون الحكـم فبـالقدر المحدود الذى تخوله صلاحيتهم [٢].

وهكذا كان المماليك فى مصر والشام هم أصحاب السيادة والطبقـة المسـيطرة ذات النفوذ والسلطان فى حين خضع أهل البلاد الأصليين من أهل مصر والشام للأمر الواقع وحرم الناس فى القطرين من أية مشاركة فى أمر من أمور بلادهم وخضعوا جميعا لـهذه الطبقـة المستبدة التى استأثرت بالحكم والوظائف وكان الناس فى مصر والشام مغلوبين على أمرهـم ومن ثم لم يشعر الناس بأى عطف أو رعاية لمصالحهم من قبل أفراد هذه الطبقة العسـكرية الحاكمة.

وكانت الحياة السياسية الداخلية فى عصر المماليك تفوح بالدسائس والمؤامرات، فمـا تكاد تنطفئ مؤامرة حتى تشتعل أخرى ، ومن ثم كان السلاطين والأمراء يصطفـون بعـض أتباعهم الذين يثقون فيهم ، فيدخلون عليه ليل نهار، وكان المقربون إلـى السـلطان يسـمون "الخاصكية" وكانوا فئة ممتازة بين الجنود السلطانية ومنهم من ارتقـى بعـد ذلـك منصـب السلطنة[٣].

---

* يقصد السيوطى بذلك سيطرة المذهب السنى وزوال المذهب الشيعى الفاطمى .

[١] السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جـ٢، مرجع سابق، ص ٨١.

[٢] سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

[٣] عبد البديع الخولى : الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سـابق، ص ص ٥٢،٥٣.

وهذه السياسة الداخلية للمماليك كانت "تناسب ما درجوا عليه من مقت للمصريين واستعلاء على الشعب الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وفى ظله تحولوا من مملوكين إلى ملوك . وتتفق سياستهم الداخلية وروح المغامرة والأنانية التى اتسموا بها ، فلا وجود لأساس ثابت للحكم غير أساس القوة وحدها التى يستبيحون بها كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة لتحقيق غايتهم فى الوصول إلى دست السلطنة. وكان اصطناع القوى المؤثرة فى طبقة المحكومين سياسة مملوكية وطعم سام يبتلعه البعض طمعاً أو جوعاً . وكانت بعض فئات الشعب تقف بأبواب المماليك تنتظر بدر الذهب والفضة ورواتب الأوقاف وربما فتات الموائد ، ذلك لأن مقاليد الحكم فى أغلبها كانت بيد السلطة المملوكية التى تمنح من تشاء وتمنع من تشاء ، ومع ذلك كان هناك من العلماء ومن عامة الشعب من تأبى على هذه السياسة ثم تجاوز ذلك إلى الثورة عليهم"[١].

وتوضح هذه السياسة الداخلية الظالمة أن ثمة خللاً واضحاً بين الرعاة والرعية ولذا فقد ثار الناس فى مصر والشام ضد مظالم الحكم المملوكى وندد العلماء والمثقفون بها عندما كانوا يرون السلاطين يخالفون الشرع ونستدل من تلك الثورات على استبدادية الحكم المملوكى وسوء الأوضاع الاقتصادية وعدم الرعاية الاجتماعية المملوكية لأفراد الشعب فى مصر والشام. وثمة أسباب عديدة أدت إلى ثورات الشعب ضد مظالم الحكم المملوكى من أهمها: التفاوت الطبقى والمظالم المختلفة التى اقترن بها حكم المماليك، وكثرة الغلاء والقحط الذى تعرض له المجتمع المملوكى ووقف السلاطين حيالها موقفا سلبياً، ويضاف إلى ما سبق كثرة اعتداءات المماليك على الناس ولاسيما خلال الأزمات وإعداد الحملات الحربية وأيضا كثرة تغيير العملة بين وقت وآخر، وتنوع المكوس* الظالمة وغير الشرعية وشدة وطأتها... هذا فضلاً عن الغرامات المالية المتنوعة على أهل المدن والقرى والكراهية العنصرية التى شعر بها العرب من رعايا المماليك أكثر من غيرهم، وربما كان فتوى قاض من بين أسباب الثورة الشعبية ، ثم هناك شدة بطش الحكام فى دوائر أعمالهم [٢].

---

[١] عبد البديع الخولى : الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية،المرجع السابق، ص ٦٦.

* المكوس وهى الضرائب غير الشرعية وكان بعض السلاطين يبطل بعضها إما تقرباً من الشعب أو لأنه قادر على مسك زمام الأمور فقد ألغى الناصر محمد أكثرها وخاصة الشائنة منها مثل ضمان البغاء والأفواح والمغانى ، انظر : القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ ٣، مرجع سابق ، ص ٤٦٨.

[٢] إبراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠، ص ص ٢٥٣-٢٥٧.

ولم تخمد ثورات الشعب ضد السلاطين فى عصر المماليك سواء فى العواصم كالقاهرة ودمشق أو فى الأقاليم كالصعيد وبعض بوادى الشام وقد تكون هذه الثورات من قبل عامة الناس من الزعر* والحرافيش** أو من الأعراب وغيرهم فترتب على تلك الثورات أحوال اقتصادية متردية وربما تغلق الأسواق وتنهب المتاجر .

ومن أبرز هؤلاء الفقهاء الذين نددوا بمظالم المماليك خلال هذا القرن الفقيه تاج الدين السبكى حيث عدد كثيراً من مساوئهم من ذلك أنه ذكر أنه كان من قبائحهم "استكثارهم الأرزاق – وإن قلت – على العلماء، واستقلالهم الأرزاق – وإن كثرت – على أنفسهم . ورأيت كثيرا منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ، ولبس الثياب الفاخرة، وهذه الطائفة من الأمراء يخشى عليها زوال النعمة عن قريب... ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده. أفما يخشون ربهم من فوقهم ... ومن منكراتهم ركوبهم والجنائب*** تقاد بين أيديهم مسرجة غير مركوبة، وهم مع ذلك يجدون المحتاج ماشياً ولا يركبونه، وإنما يمشون للتزين لا للحاجة ..." [1].

٣- الحالة الاجتماعية :

من العوامل المؤثرة على التربية العوامل الاجتماعية فالعناصر المكونة للمجتمع والنظام الإدارى والعادات والتقاليد ووضع المرأة فى المجتمع وغير ذلك لها انعكاسها على التربية والتعليم ويعرض الباحث للتركيب الاجتماعى الطبقى للمجتمع المملوكى .

(أ) التركيب الاجتماعى الطبقى :

يقسم المقريزى المجتمع فى عصر المماليك سبع طبقات فيذكر: "اعلم أن الناس بإقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام: القسم الأول: أهل الدولة ، والقسم الثانى: أهل اليسار من التجار، وأولي النعمة من ذوى الرفاهية ، والقسم الثالث : الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة . والقسم الرابع

---

* هم الرعاع الذين يضايقون الناس فى الطرقات ويخيفونهم .

** الحرافيش مفردها حرفوش وهم الرعاع والدهماء وضعاف الخلق، انظر سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ، مرجع سابق، ص ٤٣٠، وانظر أيضا : تاج الدين السبكى حيث ذكر أن الكثيرين منهم اتخذوا السؤال حرفة وقعدوا على أبواب المساجد يشحذون المصلين ، تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ١١٣.

*** الجنائب جمع نجيبة وهى نوع من الإبل وهكذا كان يفعل سلاطين المماليك يركبون الإبل للتنزه والتباهى كما يقول السبكي ويبدو من سياق كلامه احتقاره لهم وهو يعدد مساوئهم .

[1] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ص ٤٤ - ٤٦.

أصحاب الفلح وهم أهل الزراعات والحرث ، وسكان القرى والريف . والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أرباب المهن، والقسم السابع ذوى الحاجة والمسكنة وهم السُّؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم "[١].

ويوضح النص السابق أن المجتمع فى عصر المماليك كان مجتمعاً طبقياً وكانت هذه الطبقات متفاوتة من حيث الدخل والاستقرار والمراكز الإدارية والسياسية فأهل الدولة الذين وصفهم المقريزى فى رأس الطبقات الاجتماعية السبع هم سلاطين المماليك والأمراء وأتباعهم من جند المماليك، والوزراء والكتاب وأرباب السلطة وكذلك القضاة بينما جعل الفقهاء وطلاب العلم فى القسم الخامس وقد يبدو هذا عجيباً بيد أن هذا ليس بغريب فى دولة تقوم أساساً على حكم العسكر وهؤلاء كان المال قليلاً فى أيديهم "فهم من بين ميت أو مشتهى الموت لسوء ما حل بهم"[٢]. وفاز أبناء الطبقة الحاكمة بكل شئ وشاركهم التجار وأثرياء الناس ووضع المقريزى متوسطى التجار فى القسم الثالث من طبقات مجتمعه ويدخل فى هؤلاء الحرفيين ويأتى فى القسم الرابع من طبقات المقريزى الفلاحون وتقلبت أحوالهم فى الدولة ووجد من بينهم أصحاب ثراء ونعمة "وفيهم من عظمت ثروته وفخمت نعمته" [٣]. ويضم القسمان السادس والسابع أصحاب المهن المتواضعة والأجراء من عمال الصناعة والخدم وأصحاب المسكنة ممن لا يملكون شيئا من المال وهؤلاء المعدمون يعيشون عالة على غيرهم من أرباب الحرف والصناعات والأثرياء وأصحاب الأرض يأخذون منهم الأجور نظير ما يقومون به من عمل أو خدمة وينتظرون أموال السلطان والأغنياء.

ومن الواضح أن هذا المجتمع قام على أساس طبقات وعناصر متمايزة ولم يكن ينظر إلى حقوق الفرد فيه إلا من خلال انتمائه الطبقى "وفى ظل مثل هذا التنظيم الطبقى تبدو الفجوة واسعة بين الحكام والمحكومين وبخاصة إذا كان الحكام أغراب عن البلاد وأهلها، لم تربطهم بأبناء مصر والشام رابطة الدم أو الأصل والجنس، مما جعل المماليك لا يشعرون فى كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالى والعطف على مصالحهم والعمل من أجل رفاهيتهم " [٤].

---

[١] المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ١٠٣.

[٢] ------ : المرجع السابق ، ص ١٠٦.

[٣] ------ : نفس المرجع السابق ، ص ١٠٥.

[٤] سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

وقطعا شكل المماليك طبقة عسكرية حاكمة مسيطرة بيدها الأمر كله فى شئون الحكم واستأثروا بكل شئ ونظروا إلى أفراد الطبقات الأخرى على أنهم أقل منهم ونظروا إلى الناس فى مصر والشام نظرة تعال واحتقار وتسلطوا عليهم وأنفوا من الاختلاط بهم.

وكان المماليك طبقة عسكرية سيطرت على البلاد وأهلها ولهم فى أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص فى الحياة وعدم اختلاطهم بأهالى البلاد، سياج يحيط بهم ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن المحيط الذى تعيش وسطه ولم يكن هؤلاء المماليك جميعاً من أصل واحد وجاءوا إلى مصر من مختلف البلاد مع تجار الرقيق[1].

وهؤلاء المماليك هم "الذين جلبوا صغاراً أول الأمر ، أو صغاراً وكباراً فيما بعد ، ثم أعدوا إعداداً دينياً وخلقياً وعسكرياً فى طباق السلاطين والأمراء وكان منهم السلاطين والجند (بأنواعهم المختلفة). وكانت هذه الطبقة تعتبر نفسها متمايزة متسامية على الطبقة الأخرى (المحكومة المغلوبة على أمرها) فلا اختلاط ولا تقارب (إلا فى النادر) وكان سلاطينهم يعملون على الإكثار من أعداد هذه الطبقة بالشراء من أجناس معينة وبتشجيع تجار الرقيق على جلب من يتمتع بخصائص معينة من الرقيق، الذى يمر بمراحل تربية وإعداد "[2].

وبالرغم من أن هؤلاء المماليك كانوا مسلمين إلا أنهم عاشوا بوجه عام حياة مرفهة بعيدة عن تعاليم الإسلام وحرصوا على التمسك به ظاهرا ولم يبالوا بزيادة المكوس وارتكاب المظالم فى سبيل تحصيل الأموال وكان الناس فى مصر والشام وغيرهما من البلاد التى تقع تحت نفوذهم مغلوبون على أمرهم لتوالى الإرهاق والكبت والظلم، ولم يكن فى نفوسهم أو قلوبهم أثر روح الإسلام فقد كانوا "فاسدى السيرة الشخصية طغاة ظلمة فى أحكامهم وعقوباتهم أما الدين عندهم فكاد ينحصر فى بضع حفلات: حفلة صلاة الجمعة والعيدين ووليمة إفطار فى رمضان وحفلة دوران المحمل والمولد النبوى وحفلة ختم البخارى ، أما القرآن فلا نكاد نجدهم يذكرونه إلا عندما يكلفون بعض الفقهاء بتلاوته فى مدافن موتاهم وعند تفاقم الخلاف بين السلطان والأمراء يأتون بمصحف يحلفون عليه أن يخلص بعضهم لبعض ولا يغدر فريق

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٢، ص ص ١٦-١٨.

[2] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سابق ، ص ص ٤٥،٤٦.

بآخر ولا أظن فى تاريخهم حالة فذة كان فيها لهذا اليمين أثر فى سلوكهم ولا أشك فى أنـــها كانت يمينا صوريا يحاولون بها أن يخدر بعضهم بعضا"[١].

ولقد رأى المصريون والشاميون حكومتهم مجموعات عصابات من الأمراء ومماليكهم يبطش بعضهم ببعض طمعا فى الوصول إلى السلطنة فحياتهم من هذه الناحية سلسلة متصلـــة من فتن ودسائس وغدر وقتل سلطان قائم وإقامة آخر مكانه على نحو لا يمكن معه أن تســتقر أمور أمة وعاشوا حياة بعيدة عن القيم الاجتماعية وخالفوا تعاليم الشرع وكـــثرت مســاوئهم وتجاوزاتهم ولم يشعروا بمآسى المصريين والشاميين.

ويبين أحد المؤرخين المعاصرين لهم ما صار إليه أمرهم (المماليك) على أيامه فـــى أواخر عهدهم عندما غدوا "ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعـــة، يتقـــوون علـــى الضعيـــف ويشرهون حتى فى الرغيف، جهادهم الإخراق بالرئيس وغزوهم فى التبن والدريس"[٢].

لقد عاشت هذه الطبقة العسكرية الحاكمة بعيدة عن مآسى الشعب وآلامه، وكان العامل المالى المحرك الرئيسى لها ، ولم تذكر المصادر المملوكية أن أميراً واحداً مستقراً عاش حياة فقر أو بؤس أو شكا يوماً ضيق ذات اليد ، تلك الطبقة الحاكمة اقتسمت فيمـــا بينـــها جميـــع خيرات البلاد على حساب شعب فقير محطم [٣].

وكان الإسراف والبذخ والثراء طابع حياة أفراد هذه الطبقة وبلغ بعضهم من الثراء حداً لا يتصور ولا يصدق والشواهد على ثروتهم كثيرة فى المصادر المعاصرة ومن الأمثلة علـــى هذه الثروة أن الأمير سلار (ت ٧١٠هـ) "وجدت لديه كنوز كثيرة منها : خمسة وعشـــرون رطلا أحجاراً كريمة من زمرد وياقوت ، هذا عدا الخيل وغيرها من الماشية"[٤].

وربما تكون هذه الأرقام التى تذكرها بعض المصادر المملوكية مبالغ فيها إلا أنها تدل على الثراء الفاحش الذى أصابه بعض من كان يقوم على رعاية شئون الناس وقتذاك وهكـــذا كان يعيش هؤلاء عيشة البذخ والترف على حساب الرعية المنكوبة.

---

[١] محمد الصادق حسين : البيت السبكى بيت علم فى دولتى المماليك ، القـــاهرة، دار الكـــاتب المصـــرى، ١٩٤٨، ص ٣٤.

[٢] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٧ ، دار الكتـــب المصريـــة، ١٩٣٠، ص٣٢٩.

[٣] انطوان خليل ضومط : الدولة المملوكية التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى، بيروت، دار الحداثـــة، ط١، ١٩٨٠، ص ٩٠.

[٤] ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٥،١٥٦.

وهذا أحد معاصريهم يذكر إسرافهم فى تشييد البيوت وزخرفتها بالذهب والفضة "ومن قبائحهم ما يذهّبونه من الذهب فى الأطرزة* العريضة والمناطق وغيرها من أنواع الزراكش التى حرمها الله عزل وجل وزخرفة البيوت سقوفها وحيطانها بالذهب، وقد لعن رسول الله ﷺ من ضيق سكة** المسلمين . وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب فى هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة لا يحصيها إلا الله تعالى..."(١).

وكان المماليك كطبقة مستعلية لهم نظام تعليمى الخاص بهم وكان التعليم فى معظمه خاضعاً للسلطة السياسية.

أما الطبقة الأخرى "الرعية" فكانت تتكون من فئات متعددة يمثلون الشعب المصرى المغلوب على أمره حينذاك. الفئة الأولى : المعممون : وهم "علماء الدين وأرباب الوظائف الديوانية وتشمل هذه الفئة القضاة وموظفى الدواوين والمعلمين والأدباء والكتاب وأطلق عليهم أيضا "أهل العمامة" لأن العمامة كانت السمة البارزة فى ملابسهم فهى بمثابة الشارة لهم"(٢).

وأطلق المعاصرون على المثقفين حينذاك اسم "المعممين" أو أهل العمامة، كما أطلق عليهم أرباب الأقلام تمييزاً لهم عن غيرهم من الطوائف وبخاصة أرباب السيوف من المماليك(٣).

وقد تمتع المعممون بمكانة كبيرة فى المجتمع حيث امتازوا بمميزات معينة طوال العصر المملوكى ومن ذلك نفوذهم فى الدولة، واحترام السلاطين وإجلالهم لهم ، وكذلك تمتعهم بكثير من السعة وبسطة العيش لما أغدقته الدولة عليهم من رواتب وأيضا أنهم استأثروا بالوظائف الدينية والسياسية العليا، مثل مناصب قضاة القضاة الأربعة والحسبة والوزارة وغيرها، ولم تقل مكانة المعممين من العلماء فى المجتمع عامة عن مكانتهم عند السلاطين حيث أكرم الناس العلماء وأضفوا عليهم مختلف ألقاب التقدير والتعظيم مثل : "فقيه زمانه"، و"عالم عصره" ، و"انتهت إليه رياسة العلم" (٤).

---

* جمع طراز وهو علم يوضع على الثوب يحتوى شعار السلطان أو الأمير .

** السكة فى الأصل الطابع الذى يطبع به النقد من دراهم ودنانير والمراد بسكة المسلمين هنا النقد نفسه أى العملة.

(١) تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ص ٤٤، ٤٥.

(٢) عبد البديع الخولي : الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية ، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص٣٥.

(٤) ------------:المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ص ٣٥-٣٧.

وتتعدد مظاهر احترام سلاطين المماليك للعلماء فى المصادر المعاصرة فمثلا السلطان حسام الدين لاجين نزل عن سرير الملك ليقبل يد الإمام محمد بن على المنفلوطى[1] .

وكان لهذه الفئة تأثير كبير على السلاطين حيث كانت تحد من قسوة النظام المملوكى فى بعض الأحيان لأن هذا النظام كان يرتكز فى بقائه واستمراره – فضلا عن القوة العسكرية – على السند الدينى فى الداخل والخارج مما انعكس أثره على علاقتهم بمن ينتسب إلى الدين. وبالرغم من مكانة هذه الفئة فى المجتمع إلا أنها كانت تتعرض أحيانا للمضايقات حقدا من بعض الأمراء لشدة نفوذها ، واستغلالا لقلة كانت تتهافت على السلطة[2].

ومجمل القول أنه "كانت للمثقفين مكانة خاصة فى هذا العصر وإن تباينت من فئة إلى أخرى ، فعلماء الدين والصوفية كانوا فى المقدمة والكتاب والشعراء كانوا دونهم وكان للعلماء دور هام فى المجتمع فهم – إلى جانب الخلافة العباسية – الذين يضفون على الحكم المملوكى الشرعية التى يعتمد عليها. ويعبرون عن مطالب الشعب ويقفون فى وجه الصلافة المملوكية حينا، أو يرضون عنهم حينا آخر. وفى كل الأحوال كانت عامة الناس تتأثر بالعلماء والصوفية، وإن ندّ عن العامة أحياناً غيظ وسخرية ببعض القضاة الذين مالوا إلى الهوى ونزعات المماليك ومع هذا كله كان للعلماء مكانة سامية وخصوصاً علماء الأزهر الذين كانوا فى معظمهم متباعدين عن وظائف المماليك رغم الإغراء والضغوط"[3].

وكانت طبقة التجار من الطبقات التى أسهمت فى بناء المجتمع فى مصر فى العهد المملوكى وكانت طبقة مهمة لها مكانتها إلى حد كبير وأحس السلاطين بأهميتها دون غيرها لأنها كانت تمثل المصدر الأساسى الذى يمد الدولة لاسيما فى ساعات الحرج والشدة ويرجع السبب فى ثراء التجار إلى ازدهار التجارة فى هذا العصر وقد أثرى هؤلاء ثراءاً كبيراً حتى كان السلاطين يستدينون منهم ويفرضون عليهم وعلى غيرهم الضرائب الإضافية فى أوقات الحروب، بل لم يتورع السلاطين عن نهب المتاجر عند الضرورة وكان يطلق على مياسير التجار اسم "بياض العامة" أى الطبقة الممتازة من العامة تمييزاً لهم عن أهل الدولة من المماليك والأمراء[4].

---

(1) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، جـ ٤، مرجع سابق، ص ص ٩١-٩٤.

(2) عبد البديع الخولى : الفكر التربوى للمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سابق ، ص ١٠٧.

(3) ــــــــــــ: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر، مرجع سابق، ص ١٤٢ .

(4) إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، مرجع سابق، ص ص ٢٧٣، ٢٧٧، وأيضا سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، مرجع سابق، ص ص ٤١،٤٢.

ومن العناصر المكونة للمجتمع المملوكى العربان أو الأعراب وقد كثروا في مصر في العصر المملوكى وقد أنف هؤلاء من الخضوع لدولة المماليك بمصر وقد كانوا "فئة متمردة على السلطة المملوكية، إذ يرون أنفسهم أحق بحكم البلاد من المماليك الذين مسهم الرق، وهم خوارج على البلاد، ولذا لم يساعد العربان المماليك إلا نادراً، وكان نفوذهم واضحاً فى الأقاليم المتاخمة للصحراء والحدود مثل الشرقية، والفيوم والصعيد. ولم تأمن المدن الكبرى غاراتهم التى وصلت أحياناً إلى القاهرة والإسكندرية ، وكانت السلطة المملوكية لا تثق فيهم ... ولم يعترف هؤلاء أبداً بحق المماليك فى حكمهم وكان المماليك يقطعون بعض زعمائهم الأراضى ويعاملونهم كأمراء اصطناعاً لهم، ولكن ذلك لم يحقق الثقة أو الود بين الطرفين"[١].

ويتحدث تاج الدين السبكى عن أمراء العرب وأوضح أن "أمراء العرب فى هذا الزمان: هم الذين يظعنون وينزلون. وقد أنعم الله عليهم بالأرزاق الوفير، وبالأقطاعات الهائلة، ليرفعوا أذاهم عن المسلمين، ومن قبائحهم أنهم إذا أقطع السلطان إقطاع واحد منهم وسلط على قطع الطرقات وأذية من لم يؤذيه، وأخذ مال من لم يظلمه، ولا يتوقفون عن سفك الدماء لأجل هذا الغرض... ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات، ولا يمنعون الزنى فى الجوارى بل جواريهم يتظاهرن بالزنى مع عبيدهم. وكل ذلك من الموبقات العظام"[٢]

وكان "الحرفيون" يشكلون فئة هامة من الشعب المصرى "وقد خضع هؤلاء فى هذا العصر لنظام النقابات فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لهم نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة، ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم يحل مشاكلهم ويرجعون إليه"[٣].

ويذكر المقريزى حال هؤلاء الحرفيين "وأما القسم السادس فهم أرباب المهن والأجراء والحمالون والخدم والسواس والحاكة والبناة والفعلة ونحوهم، فإن أجورهم تضاعفت تضاعفاً كثيراً إلا أنه لم يبق إلا القليل لموت أكثرهم بحيث لم يوجد منهم الواحد إلا بعد تطلب وعناء"[٤].

---

[١] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٤٧.

[٢] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٧٤، ٤٨.

[٣] سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص٢٩٦.

[٤] المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، مرجع سابق ، ص ١٠٦.

أما الفلاحون فقد كانوا يشكلون السواد الأعظم من أهل البلاد ولم يكن نصيبهم في المجتمع المملوكى سوى الاحتقار والإهمال وكانوا " فى أسوأ حال، قد لا يجد أحدهم ما يستر به عورته، لا يأكل غير الشعير والبصل والجبن القريش فى أحسن الأحوال، ويعاني من احتقار هائل، وإهدار لأدميته فيسخر فى فلاحة الأرض ويقدم ما تنتجه يداه وما تربيه زوجته من دواجن للسيد المملوكى صاغر النفس لا يجد أملاً حتى فى الفرار من أرضه وقريته فهو قن على أرضه مستعبد فى بلده، ناهيك عن غارات أمراء المماليك التى كانت الغنيمة فيها نساء الفلاحين وأولادهم سبايا وأسرى يُساقون إلى القاهرة ويُباعون للخدمة والمتعة، فى بلد كان حكامه يرفعون لواء الشرع ويقيمون الحدود على الفساق من صغار الناس أو المغضوب عليهم من الأمراء[1].

وقد ذكر المقريزى حال هؤلاء الفلاحين فى سياق حديثه عن طبقات المجتمع " وأما القسم الرابع، وهم أصحاب الفلاحة والحرث ، فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالى المحن بقلة رى الأراضى ، وفيهم من أثرى ، وهم الذين ارتوت أراضيهم فى سنى المحل فنال من زراعتها أموالاً جزيلة عاشوا بها هذه الأزمنة، على أن فيهم من عظمت ثروته، وفخمت نعمته ونال ما أربى على مراده وزاد على ما أمله " [2].

ويوصف الفلاح فى جميع المؤلفات المعاصرة بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر وثمة أمثلة كثيرة يمكن للباحث أن يستخرجها من بطون المؤلفات المعاصرة ليستشهد بها على موقف المماليك من الفلاحين ونظرتهم إليهم فإذا ولى أحد أمراء المماليك المتشددين على بعض الأقاليم فانه لا يسمح لأحد من الفلاحين أن يلبس مئزراً أسود أو يركب فرساً أو يتقلد سيفاً أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد .[3]

وقد أدرك المقريزى ريف مصر وأهله يشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال الدقيق ولا عجب فان "الغلال معظمها لأهل الدولة أولي الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم فخرب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد"[4]

ويبدو للباحث أن أبناء هذه الطبقة قد عاشوا في ضيق وعسر بجانب الطبقة العسكرية الحاكمة المنعمة التى امتصت خيرات ومقدرات البلاد ولم يشعر أفراد هذه الطبقة الحاكمة

---

[1] عبد البديع الخولى : الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سابق ، ص ٤٨.

[2] المقريزى : إغاثة الأمة، مرجع سابق، ص ١٠٥.

[3] ـــــــ:السلوك،جـ١،مرجع سابق،ص٩٤٦.

[4] ـــــــ:إغاثة الأمة،مرجع سابق، ص١٠٥.

الظالمة بمعاناة الفلاحين ومآسيهم حيث كانوا يمثلون غالبية الشعب المصرى والشامي وما أصدق ما قاله المقريزى عندما ذكر أن الفلاحين فى عصر المماليك عاشوا "فى حال من المغارم معروفة".[١]

ومن العناصر المكونة للمجتمع المملوكى في مصر والشام أهل الذمة وهم "يكونون أقلية ضخمة ذات أهمية فى المجتمع المصرى حتى قدرهم بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك بعشرين ألفاً فى القاهرة وحدها ،نصفهم من الأقباط والنصف الآخر من اليهود .وقد احتفظ الأقباط بنظمهم الخاصة فى الحياة كما احتفظوا بكنائسهم الكثيرة فى القاهرة وسائر بلاد القطر المصرى"[٢].

وكان "النصارى يشتغلون شأن المسلمين فى كثير من المهن .وبعضهم ترقى فى الوظائف إلى درجة عالية،وكانوا يمارسون عبادتهم فى كنائسهم المتعددة ويعين البطريرك بموافقة السلطان ،ولهم مدارسهم التى يهتمون فيها بالحساب مما دفع بعض المسلمين إلى تعليم أبنائهم فيها .وكان اليهود أقل عدداً من النصارى لكنهم فى سوق المال والتجارة أشد خطراً،وينتمون فى أصولهم إلى أجناس مختلفة شرقية وغربية ،وكانت لهم معابدهم التى تختلف باختلاف طوائفهم .وكان هؤلاء وهؤلاء يدينون بالولاء للسلطة المملوكية ويتقربون منها ،ويشاركون فى استقبال السلاطين والخلفاء حاملين التوراة والإنجيل ،وكان المماليك يصطنعونهم لاسيما الأطباء وذوى الخبرة المالية أو الإدارية منهم ،كما كان المماليك يعطفون على فقرائهم ،وربما يغدقون عليهم ثمار أوقافهم. فهم بصورة عامة أفضل حالاً من كثير من المسلمين"[٣].

ومن المعلوم أن أهل الذمة أصبحوا بعد الفتح الإسلامى لمصر أسعد حالاً مما كانوا عليه تحت حكم الرومان بسبب ما لقوه من تسامح دينى واستمرت سياسة التسامح هذه فترة طويلة بيد أنه حدثت بعض الاضطهادات لهم فى عصر سلاطين المماليك لأسباب منها الروح العدائية التى أثارتها الحروب الصليبية بين المسلمين وغير المسلمين في مصر والشام وأيضاً طمع كثير من سلاطين المماليك في ثروة الذميين والاستيلاء عليها ،ورغبة سلاطين المماليك في مصر فى الظهور بمظهر حماة الدين لدعم مركزهم في نظر المسلمين على أن ذلك لا يعنى اضطهاد الذميين طيلة العصر المملوكى لأن هذه الاضطهادات اتخذت فى الواقع شكل

---

[١] المقريزى :السلوك ،جـ٤ ،مرجع سابق، ص٤٦٩.

[٢]سعيد عبد الفتاح عاشور:المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ،مرجع سابق ،ص٤٧.

[٣]عبد البديع الخولى :الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية،مرجع سابق،ص٤٩.

زوابع تهب بين حين وآخر ثم لا تلبث بعد ذلك أن تعود الأوضاع إلى مجراها الطبيعي ويعود أهل الذمة إلى مباشرة وظائفهم فى الدولة وعند الأمراء ... ومهما يكن الأمر فلابد من التأكيد على أن أهل الذمة لم يتعرضوا لبعض الاضطهادات إلا فى أوقات الشدة والاضطرابات والفتن، وفيما عدا ذلك تشهد كثير من الكتابات المعاصرة على أنهم تمتعوا فى عصر المماليك بكل ما تمتع به إخوانهم المسلمون من حقوق وامتيازات[١].

ويصف أحد المعاصرين (ابن الأخوة ت ٧٢٩هـ) حال أهل الذمة فى زمانه فيذكر أن دورهم صارت تعلو على دور المسلمين ومساجدهم، وصاروا يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ويكنون بكناهم، فمن نعوتهم الرشيد وأبو الحسن وأبو الفضل كما ركبوا مركوب المسلمين وليسوا أحسن ملبسوهم وهذه المكانة التى وصلوا إليها عضدتها يد سلطانية[٢].

يتبين أن المماليك قد عاملوا الأقباط معاملة حسنة اتباعاً لأوامر الدين الإسلامى رغم تجاوزات بعض سلاطينهم .

وكان لأهل الذمة تعليم خاص بهم "فلهم مكاتب خاصة بأطفالهم، ولهم اهتماماتهم بعلوم دينهم، وعلوم أخرى برعوا فيها كالحساب، كما يبدو من نبوغ بعضهم فى الطب والكيمياء وغيرهما اهتمام جاد بهذه العلوم لما فى دراستها من تهيئة الفرص لهم لتسنم مناصب هامة عند المماليك"[٣].

ووجدت فى مصر مجموعة كبيرة من الأقليات الأجنبية حتى قال البلوى المغربى الذى زار مصر سنة ٧٣٧هـ أنه رأى بها أناساً كثيرين من مختلف الأجناس، وكان هؤلاء يقيمون بالمدن التجارية مثل الإسكندرية ودمياط، ويعمل معظمهم فى التجارة، وتمتع هؤلاء التجار داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية، إذ سمحت لهم السلطة المملوكية بإحضار الخمور فى سفنهم وإنزالهم إلى فنادقهم، واعتبر سلاطين المماليك أولئك الأجانب رهينة لدى الدولة، فإذا أصاب المسلمين أذى أو اعتداء من جانب البلاد المسيحية، يكون الاقتصاص فى هذه الحالة من الفرنج الموجودين بمصر وعمل السلاطين فى بعض الأحوال على حماية الأجانب والذود عنهم وإظهار العطف عليهم[٤].

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ص ٤٧ – ٥٥.

(٢) ابن الأخوة: معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ص ٤٢، ٤٣.

(٣) عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية ، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ص ٦٣ – ٦٦.

أما الفئة الأخيرة فى طبقة الرعية أو المحكومين فهى "العوام" وكـــان يطلــق عليـــهم الحرافيش* أو الزعر أو الزعار أو العياق وهؤلاء أدنى مراتب الشعب، ممن لا عمل ثابت له، أو تعطل أو انخراط فى "مناسير الحرامية" وربما أطلقت كلمة العوام وأريد بها أحيانــــاً هــذه الطبقة السفلى الأخيرة، فيقال نهب العوام بيت الأمير الفلانى، ونادى الأمير الفلانى الثائر فـــى العوام بإحراق بيت منافسه فلان، وهذا الفريق عنصر هام فى الثورات الشعبية[١].

وكان هؤلاء العوام بصورة عامة "قوة مؤثرة فى أزمان القلاقل والثورات يستخدمها الأمراء فى صراعاتهم السياسية فيميلون مع قوة ما، ويهاجمون قوة أخرى حباً فى المـــال أو تنفيساً عن مكبوتاتهم إزاء الاستبداد المملوكى، ولخطورتهم أدرك سلاطين وأمراء الممـــاليك فى سياستهم الداخلية أهمية الشارع المصرى، فلا ينوهم واستخدموهم وخضعوا لـــهم عندمـــا يحاط بهم خارجياً أو داخلياً"[٢].

ويبدو أن هؤلاء العوام كانوا يشكلون الطبقة الدنيا من عامة الشعب وكانوا يعيشون فى أوضاع متردية ومن ثم دفعتهم هذه الأوضاع إلى احتراف السلب والنـــهب وكـــانوا ضحيـــة الأوبئة والفتن لسوء أحوالهم المعيشية والاجتماعية وكانوا لا يملكون شـــيئاً مـــن المـــال ولا يشغلون وظيفة ولا يحسنون عملاً ولا يمتهنون مهنة ويعيشون عالة على غيرهم من أربــــاب الحرف والصناعات وأصحاب الثراء وأعيان الأرض وهم الذين عناهم المقريزى بقوله: "فـــهم أهل الخصاصة والمسكنة، فنى معظمهم جوعاً وبرداً، ولم يبق منهم إلا أقل من القليل"[٣].

يتبين مما سبق أن المجتمع المملوكى فى مصر والشام كان يتألف مـــن عـــدة فئـــات وطبقات مختلفة تتفاوت فى مستوياتها المادية بين اليسر والعسر .

وقد شهدت دولة المماليك نظاماً إدارياً بالغ الدقة ويعرض الباحث للنظام الإدارى.

(ب) التنظيم الإدارى:

تعتبر دراسة بعض جوانب التنظيم الإدارى هامة لصلاتها القوية بالتربية لأن بعـــض الموظفين كالقضاة والكتاب يشتغلون بالتدريس فضلاً عن التأثير الإدارى فى أنشطة المجتمـــع كلها.

---

* يبدو من استعمال هذه الألفاظ فى المصادر المعاصرة انها تعنى أهل الفساد من العوام وقد غدو قوة يخشـــلها السلاطين.

[١] إبراهيم على طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، مرجع سابق، ص ص ٢٥٠، ٢٥١.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع ســـابق، ص ٥٢.

[٣] المقريزى: إغاثة الأمة، مرجع سابق، ص ١٠٦.

ويتكون النظام الإدارى من السلطان الذى يمثل رئيس الجهاز الحكومى فى البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها ورغم تمتعه بنفوذ كبير إلا أنه إذا أراد البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية كإعلان حرب أو إبرام صلح عقد "مجلس السلطنة" والمعروف بمجلس "المشورة" برئاسة وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة، ولم يكن السلطان يتكلم بنفسه فى هذا المجلس إنما يتكلم بلسان "المشير"[١].

وتلقب سلاطين المماليك بألقاب كثيرة تختلف من سلطان لآخر ومنها "سلطان الإسلام والمسلمين" و "قسيم أمير المؤمنين" ويشير اللقب الأول إلى إضفاء الشرعية على حكمهم ويوضح اللقب الثانى العلاقة الصورية بين السلطان والخليفة العباسى بالقاهرة بوصفهما شريكان فى حكم المسلمين أحدهما يمثل الجانب السياسى والآخر الجانب الدينى[٢]. وكان السلطان المملوكى يقوم بتعين كبار الموظفين فى الدولة مثل نائب السلطنة وغيره وكان يقوم بتوزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود ويصدر القرارات الهامة.

ويعتبر السلطان فى المفهوم العام لدولة المماليك رأس النظام العسكرى والإدارى وجميع من فى الدولة من عسكريين وإداريين مدنيين كانوا يقومون على خدمته وتلبية رغباته والوظائف العسكرية والإدارية المملوكية لم تخرج عن كونها بيوت خدمة له والأمراء كذلك.

وتحدث التاج السبكى عن وظائف السلطان فى عصره وبين أن سلاطين عصره قد قصروا فى القيام بها "... ونحن ننبه على مهمات أهملها الملوك أو قصروا فيها. فمن وظائف السلطان تجنيد الجنود، وإقامة فريضة الجهاد لإعلاء كلمة الله، فإن الله لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً أكلاً شارباً مستريحاً بل لينصر الدين ويعلى الكلمة ... فإذا رأينا سلطاناً تقاعد عن هذا الأمر وأخذ يظلم المسلمين و يأكل أموالاً بغير حق، ثم سلب الله نعمة وجاء يعتب الزمان، ويشكو الدهر، أفليس هو الظالم ... ومن وظائفه النظر فى الإقطاعات، وأن يضعها مواضعها ولا يعطيها لخاصته ... ومن وظائفه التفكر فى العلماء والفقراء وسائر المستحقين وتنزيلهم منازلهم .. وعليه إلا يتعرض لأوقاف أهل الخير، ... ومن وظائفه أن يعتنى ببيت مال المسلمين، فعليه ألا يصرفه فى شهواته وملاذاته وإلا فذلك وبال عليه"[٣].

---

[١] على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مرجع سابق، ص ص٢٠٨، ٢٠٩.

[٢] سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

[٣] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٢١: ٢٣

وكان مما يميز حياة سلاطين المماليك بصورة عامة الثروة العظيمة التى يخلفونها بعد وفاتهم المتمثلة فى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة عدا الأمتعة الثمينة والخيل المسومة وآلاف المماليك المشتراة[١].

ويأتى بعد السلطان نائب السلطنة* وهو أول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان فى شئون الحكم والإدارة وتلقب نائب السلطان بلقب "كافل المماليك الشريفة الإسلامية الأميرى الآمرى"[٢].

وكانت نيابة السلطنة على نوعين فى عصر المماليك فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته فى مصر، وهناك نائب الغيبة وينوب عن السلطان فى حالة تغيبه فى حرب أو حج أو غير ذلك[٣].

وكان للسلطان نواب فى نيابات الشام – وهى دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك – وكانوا يرجعون إلى السلطان – أو نائبه فى مصر – فى القضايا التى لا يمكنهم الانفراد بالبت فيها وكانوا مسئولين عن حماية إماراتهم من الأخطار الداخلية والخارجية.

ويوضح تاج الدين السبكى وظائف نواب السلطنة ويرى أن عليهم ما على السلطان وأن "من حقهم مراجعته إذا أمر بما يخالف المصلحة، وتفقد حال الرعية صغيرهم وكبيرهم ... وإيصال الحقوق إلى مستحقيها وتولية المناصب لأهلها. فإن اعتذر نائب السلطان بأن الزمان لا يمكنه، قلنا له ولغيره أنتم مطالبون بكل ما نأمركم به بما تصل إليهم قدرتكم، فعليكم الجد والاجتهاد والله يعين ... ومن حقهم دفع أهل البدع والأهواء وكف شرهم عن المسلمين، ويجب عليهم الغلظة على هؤلاء الذين يسبون أبا بكر وعمر ويفسدون عقائد أهل الدين ... ومن مهماتهم النظر فى أمر المفسدين من قطاع الطرق وأهل الفتن كالبدو وغيرهم ومعاقبتهم بالشدة ... ومنها سفك دم من ينتقص جناب سيدنا ومولانا محمد ﷺ أو يسبه فإن ذلك مرتد كافر ذهب كثير من العلماء إلى أن توبته لا تقبل"[٤].

وأثنى التاج السبكى على بعض نواب السلطنة الذين عاصرهم ممن كانوا يتقون الله فى الرعية ولا يظلمونهم "وهذا نائب السلطنة فى الشام الذى هو عندنا اليوم لا يلبس طراز من

---

[١] ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٥، مرجع سابق، ص ٩٧٥.

* مفرد النواب، النائب: وهو من ينوب عن السلطان المملوكى فى الحكم وكان لسلطان المماليك نواب فى مصر والشام.

[٢] العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص ص ٦٥، ٦٦.

[٣] سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

[٤] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٢٤، ٢٥.

ذهب، ولا يفعل شيئا من هذه المحرمات، والله تعالى ينصره ويؤيده، وقد ناب فى دمشق ثلاث مرات ولم يخرج منها قط إلا معززاً مكرماً. أفترى ذلك سدى. والله لولا تقواه لما كان ذلك أبداً (يعنى ما نصره الله وما بقى فى منصب نائب السلطنة)"[١].

ويأتى الأتابك بعد نائب السلطنة وقد تمتع صاحب هذه الوظيفة بنفوذ قوى فى دولة المماليك بوصفه رأس الجيش ومما يدل على قوة نفوذ الأتابكة أن كثيراً منهم وصلوا إلى دست السلطنة عن طريق قوتهم أو إقصاء السلطان وعندما يتولى الحكم سلطان قاصر مغلوب على أمره فإنه يصبح ألعوبة فى يد أتابكة الجيش يتحكم فيه كيفما شاء كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المنصورى عندما استبد بالسلطان الناصر محمد فى سلطنته الأولى حتى تسلطن مكانة وغدا صاحب الكلمة الأولى فى شئون الدولة[٢].

أما الوزير فكان يلى نائب السلطنة فى المرتبة إلا أنه لم يكن له ثمة نفوذ فى العهد المملوكى بسبب قوة نفوذ نائب السلطنة الذى أصبح الرجل الثانى فى الدولة ولم يتعد نفوذ الوزير سوى تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه "وكان وضع الوزير أنه أقيم لنفاذ كلمة السلطان وتمام تصرفه غير أنها انحطت (يعنى الوزارة) عن ذلك بنيابة السلطنة ... ثم تلاشت فى أيام الظاهر برقوق بما أخذته من الديوان المفرد ... حتى صار (الوزير) قصارى نظرة المتحدث فى أمر المكوس فيستخرجها من جهاتها ويصرفها فى ثمن اللحم وحوائج المطبخ وغير ذلك..."[٣].

ويعبر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير فى هذا العصر فيذكر أنها صارت "مرءوسة ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية فى الدولة عن اسم الوزارة. وصار صاحب الأحكام يسمى بالنائب"[٤].

وكان "الولاة" من كبار الموظفين الذين قاموا بدور هام فى إدارة جهاز دولة المماليك وكانوا يختارون من بين الأمراء وهم يشبهون وظيفة المحافظين فى عصرنا فى الأقسام الإدارية وكان أكبرهم شأنا والى القاهرة ويشاركه عدة ولاة آخرين هم والي الفسطاط ووالى

---

[١] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ٤٥.

[٢] على إبراهيم حسن: دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٤٨،ص ص ٢٢٣، ٢٢٤.

[٣] المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٧، ص ٢٢٣.

[٤] ابن خلدون: المقدمة، تحقيق درويش الجويدى، بيروت، المكتبة العصرية، ط٢، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧، ص ص ٢١٩ - ٢٢٠.

القرافة والقلعة إضافة إلى ولاة الأقاليم بالوجهين البحرى والقبلى وكانت وظيفة الوالى تتمثـــل فى استتباب الأمن والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم[١].

وكانت "الحسبة"* من الوظائف الدينية الهامة ذات الأثر الحيوى فى الحياة الاجتماعيـــة والثقافية فى هذا العصر المملوكى "وهى من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها، وجزيل ثوابها، وهى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهى عن المنكر إذا فعله وإصلاح بين الناس، والمحتسب من نصبه الإمام أو نائبه للنظر فى أحوال الرعية والكشف عن أمورهم ومصالحهم ..."[٢].

وقام الفقهاء فى دولة المماليك بهذه الوظيفة وتتمثل مهامه فى التفتيش علـــى الباعـــة وضبط من يحاول التلاعب فى الأسعار أو الأوزان "وينبغى أن يكـــون المحتســب ملازمـــاً للأسواق فى كل وقت، ويدور على السوقة والباعة ويكشف الدكـــاكين، والطرقـــات ويتفقـــد الموازين والأرطال ...يفعل ذلك فى النهار والليل فى أوقات مختلفـــة وذلـــك علـــى غفلـــة منهم"[٣]. وكانت الحسبة ذات ارتباط بعملية التربية فكان من مهام المحتسب التربوية الإشـــراف على المدارس لتوجيه المدرسين إلى الطريقة المناسبة فى التعليم وعليه أن يراعى ما "للمعلمين من الطرائق التى ينشأ الصغار عليها ما يكون نقلهم عنه بعد الكبر عسيراً فيقر منهم من توفر عمله وحسنت طريقته، ويمنع من قصر وأساء من التصدى لما تفسد به النفوس وتخبـــث بـــه الآداب"[٤].

وحرصاً على إقرار العدل وإعطاء كل ذى حق حقه حرصت الدولة المملوكية علـــى تعيين القضاة لدورهم البارز والخطير فى المجتمع وكان منصب قاضى القضاة من المنـــاصب الهامة الذى يلى الخلافة ويختار شافعيا وكان القضاة شافعية طـــوال الدولـــة الأيوبيـــة لكـــن استحدث المماليك نظاماً جديداً فجعلوا القضاة أربعة كبارا يمثلون المذاهـــب الفقهيـــة الســـنية الشافعية فالحنفية فالمالكية فالحنابلة وأول من عين أربعة السلطان الظاهر بيبرس وكان بسـبب

---

[١] على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مرجع سابق، ص ص ٢٩٨-٣٠٠.

* الحسبة "وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فـــرض علـــى القـــائم بـــأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له . . . ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة . . ." ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

[٢] ابن الأخوة: معالم القربة فى أحكام الحسبة، مرجع سابق، ص ٥١.

[٣] -------: معالم القربة فى أحكام الحسبة، المرجع السابق، ص ٢٦.

[٤] نقلا عن عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٧٩.

توقف قاضى القضاة الشافعى آنذاك ابن بنت الأعز فى تنفيذ بعض الأحكام، وكثرة الشكاوى فى حقه وفى أمور تخالف مذهب الشافعى وتوافق غيره[١].

وتولى بعض القضاة مناصب إدارية بيد أن أكثرهم جمع بين القضاة والتدريس ومما يدل على ذلك ما ذكره المقريزى عن القاضى ابن بنت الأعز "ولزم ابن بنت الأعز داره ولم يترك شيء من الوظائف، وكان بيده سبع عشره منها، وهى القضاء بديار مصر، وخطابة الجامع الأزهر، ونظر الأحباس، ومشيخة الشيوخ، ونظر التركة الظاهرية وعدة تداريس، وألزم الإقامة فى زاوية الشيخ نصر المنبجى خارج القاهرة"[٢].

وعلى الرغم من أن بعض القضاة فى دولة المماليك كانوا مثلاً أعلى فى طهارة الذمة وإحقاق الحق وإبطال الباطل والوقوف ضد السلطة والاستقامة إلا أن بعضهم قد انحرف عن الجادة وصار فى أحكامه وفق رغبات السلاطين واستغل منصبه استغلالاً سيئاً "بعض قضاة ذلك العصر استغل منصبه كقاضى فيرتشى ويطلب المنصب بمال يبذله للمسئولين، وكان المماليك يلتمسون المخرج لبعض قضاياهم الشخصية فى اختلاف القضاء فإذا ما ذهبوا إلى قاضى فرفض تحقيق مآربهم بذلوا الآخر مالا فيستجيب لهم، وليس معنى ذلك أن كل القضاة كانوا يسلكون هذا الطريق، فمنهم من كان حصناً يلوذ به المظلومون من بطش أمراء المماليك، ومنهم من كان يفرض شروطه وضماناته على السلاطين كى يقبل القضاء، ومنهم من رفض القضاء ابتعاداً عن الشبهات، ومنهم من هرب من القضاء فزعاً مما كان يشوبها كمهنة فى أوساط الناس من مآخذ، ومنهم من وقف بصلابة أمام طغيان المماليك وإغراء المال يعلى قيمة العدل، ويقيم شريعة الله ومع هذا كانت وظيفة القضاء فى مجتمع المماليك تحيطها الشكوك حتى أصبح تولى القضاء مما يقدح فى أفاضل العلماء"[٣].

يتبين مما سبق أن دولة المماليك بلغت النظم الإدارية فيها درجة كبيرة من الدقة والإحكام ونهض بهذا النظام مجموعة كبيرة من الموظفين* إلا أنه على ما يبدو لم يتمتع هؤلاء

---

[١] المقريزى: السلوك، جـ٢، مرجع سابق، ص ٤٤٣، وابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، مرجع سابق، ص ٢٤٥، والقلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، مرجع سابق، ص ٣٦.

[٢] المقريزى: السلوك، جـ١، ق٢، مرجع سابق، ص ٣٢٠، وابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، مرجع سابق، ص ٣٤١.

[٣] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ص ١١٣، ١١٤.

* كان الموظفون على قسمين: أرباب السيوف وهم من الطبقة الحاكمة (المماليك)، وأرباب القلم من المعممين (من غير المماليك) المشتغلين بالعلم.

الموظفين العاملين فى الجهاز الإدارى المملوكى بالاستقرار وكثيراً ما كانوا يتعرضوا للعزل أو الحبس أو الإعدام لمجرد ظنون وأوهام أو لعدم قدرته على إرضاء ولاة الأمور فإذا أعفى الموظف من عمله فرضت عليه رقابة وربما ألزم بالإقامة فى مدينة بعيدة مثل القدس أو قوص أو مكة خشية أن يسبب متاعب للحكام[١].

وكان للمجتمع المملوكى عاداته الاجتماعية التى يحرص عليها وكان من أهمها الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية مثل الهجرة ويوم عاشوراء والمولد النبوى وأول رجب والإسراء والمعراج ونصف شعبان وإحياء شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى وأيضاً الاحتفال بالمناسبات والأعياد القومية مثل وفاء النيل وأعياد الأقباط مثل عيد النيروز وكان من عاداتهم كذلك الاحتفالات السلطانية المرتبطة بشخص السلطان كتولية سلطان جديد أو شفائه من مرض أو رجوعه من سفر أو حرب. وكان كل أفراد المجتمع يحتفلون بهذه الأعياد والمناسبات الدينية والقومية فى تلك الفترة[٢].

ويبدو انه كان يصاحب الاحتفال بهذه الأعياد كثير من المفاسد والخروج عن مبادئ الدين وتجاوزات أخلاقية تتعارض مع مبادئ الأخلاق والدين ولقد حاول بعض السلاطين أن يضعوا حداً للمفاسد التى كانت تصاحب الاحتفال بهذه المناسبات بيد أن جهودهم فى هذا الصدد باءت بالفشل فقد حدث سنة ٧٠٢ هـ، أن عمد الأمير ركن الدين بيبرس والى القاهرة إلى إبطال الاحتفال بعيد الشهيد (أحد أعياد النصارى) فشق ذلك على النصارى وسعوا إليه وخوفوه عاقبة عدم زيادة النيل ولكنه لم يلتفت إلى كلامهم[٣] غير أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن أعاد الاحتفال بهذا العيد سنة ٧٣٨هـ ثم أبطله مرة أخرى سنة ٧٥٥هـ[٤].

ويبدو أن الإجراءات التى كانت تتخذها السلطة للحد من هذه المفاسد المصاحبة للاحتفال بهذه المناسبات كانت موجهة إلى الشعب لا إلى المماليك الذين لم يعفوا أو لم يكفوا[٥].

وكان من العادات المملوكية دق البشائر بالقلعة والقاهرة ومصر لانتصار السلطان خارجياً وداخلياً أو لعافية السلطان بعد وعكة ربما تكون طفيفة، لكن على الناس أن يبتهجوا، وأن يشكروا الله لرعايته سلطانهم، كما عليهم أن يجأروا بالتضرع والابتهال إذا ما مس

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ٣٧١.

(٢) ----------: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ص ١٩٦-٢١٢.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٨، مرجع سابق، ص ص٢٠٢، ٢٠٣.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، مرجع سابق، ص ص ١١١، ١١٢. (مرجع سابق)

(٥) عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، ص ٧٣.

السلطان طائف من ضر، وعلى الفقراء وغيرهم أن يفتحوا أيديهم و يشمروا عن سواعدهم انتظارا لصدقات السلطان وإحساناته[1].

أما عن المرآة فى المجتمع المملوكى فقد كان هذا المجتمع "يفرض لها قيوداً على حركتها فلا نشاط لها غالباً خارج حدود بيتها ورعايتها لأسرتها، ورغم ذلك اشتهرت بعض نساء السلاطين والعلماء بالتأثير فى تسيير دفة الأحداث والتدخل فى شئون الدولة مع زوجها، وتعيين من تريد تعيينه فى وظيفة ما أو مقاسمة السلطان أحياناً فيمن كان يقدم له من "هدايا ورشاوى" ... هذا عن المرآة فى الحياة العامة أما الواقع الاجتماعى فيشهد بأن كثيرات من النساء شاركن فى النشاط التعليمى تعلماً وتعليماً، وكثيرات نبغن فى علوم الشريعة وخصوصاً الحديث حتى أخذ الرجال عنها"[2].

ووصف ابن حجر عدداً من النساء كل واحدة منهن بأنها "ست العلماء" و "ست الفقهاء" و "ست القضاة" و "ست الخطباء"[3] وهكذا.

وبعد أن عرض الباحث للحالة الاجتماعية يعرض للحالة الاقتصادية:

٤- الحالة الاقتصادية:

تتأثر التربية بالحالة الاقتصادية فى أى بلد ما وذلك بما يترتب على الاقتصاد من رواتب المعلمين وأيضاً بناء المؤسسات التعليمية وربما تتعطل هذه المؤسسات عن نشاطها التعليمى ويقل النشاط التربوى تبعاً للأزمات الاقتصادية التى تتعرض لها المجتمعات.

وتركزت المقومات الاقتصادية المملوكية فى مصر والشام فى ثلاث قطاعات رئيسية هى: القطاع الزراعى والصناعى والتجارى ففيما يتصل بالنشاط الزراعى فقد كان للنشاط الزراعى النصيب الكبير فى دولة المماليك وقد اهتم بعض سلاطين المماليك بالزراعة لأنها كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان وتمثل مصدراً هاماً من مصادر الدخل القومى وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم أحياناً لتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور ويبدو أن محصول الأراضى الزراعية فى مصر قد زاد نتيجة الاهتمام بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها[4].

---

[1] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية ، مرجع سابق، ص ٧١.

[2] ــــــــــ: نفس المرجع السابق، ص ص ٢٤٦، ٢٤٧.

[3] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٢١٩ - ٢٢١.

[4] سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ص ٢٨٣، ٢٨٥.

وقد أقام المماليك الجسور للعناية بالزراعة وكانت على نوعين: "الجسور السلطانية، وهى الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التى تعمر فى كل سنة من الديوان السلطانى بالوجهين القبلى والبحرى، والجسور البلدية وهى الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم من أموال البلاد الجارية فى إقطاعهم"[١].

وقام بعض موظفى الدولة بقياس وحصر القرى والمدن وتراك – أى يفك زمامها – ثم تقسم بعد ذلك الأراضى على السلطان وأجناده وأمرائه وتم ذلك العمل مرتين فى عصر المماليك إحداهما فى عهد السلطان حسام الدين لاجين (الروك الحسامى) والثانية فى عصر السلطان الناصر محمد المعروف بـ (الروك الناصرى)[٢].

وكانت الأراضى المصرية والشامية فى العصر المملوكى تزرع بنوع واحد من المحاصيل بشكل عام والمعروفة بالمحاصيل الشتوية، وأكثر المزروعات فى هذا العصر كانت غذائية، وقليل منها ما كان صناعية، فالزراعة انصبت على الحبوب من القمح والشعير والفول والعدس والحمص، بالإضافة إلى البصل والثوم. أما المزروعات الصناعية فكانت السمسم والخس والكتان والقطن وقصب السكر[٣].

ويبدو أنه على الرغم من العناية بالزراعة ومرافقها من بعض السلاطين إلا أنها آلت إلى التدهور وخصوصاً فى أخريات هذا العصر بسبب ما لقيه الفلاحون من مظالم الجباه والكشافين وأصحاب الأرض حتى اضطر أكثرهم فى مصر والشام إلى هجر الأرض وبارت كثير من الأراضى الزراعية ومن ثم لم تتحسن معيشة الفلاح وظل يفنى حياته فى خدمة هذه الأرض ولم يكن له نصيب من خيراتها إلا القليل لأن خيرات البلاد ومحاصيل الزراعة كانت نهباً موزعاً بين أفراد الطبقة الحاكمة الذين حرموا أبناء البلاد الدعامة الاقتصادية فى مجتمعهم المبنية على الزراعة واسترقوا أبناء البلاد وحولوهم إلى حد ما إلى أقنان ولا عجب فى ذلك فإن "الغلال معظمها لأهل الدولة، أولى الجاه وأرباب السيوف، الذين تزايدت فى اللذات رغبتهم، فخربت معظم القرى، وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة، فقلت الغلال وغيرها مما تخرج الأرض لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد"[٤].

---

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٢، مرجع سابق،ص ص ٤٤٨ – ٤٤٩.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية ، مرجع سابق، ص ٨٧.

[٣] محمد مصطفى زيادة: دراسات عن المقريزى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، وزارة الثقافة، ١٩٧١، ص ص ٩٩ –١٠٠.

[٤] المقريزى: إغاثة الأمة، مرجع سابق، ص ص ٧٦، ٧٧.

وكانت الصناعة مصدر اهتمام لدى المماليك فقد احتلت الصناعات الحربية مكاناً بارزاً فى النشاط الصناعى لدولة المماليك لأنها كانت دولة حربية وحكامها كانوا يمثلون طبقة عسكرية تعتمد على الفروسية، واهتم بعض سلاطين المماليك بصناعة السفن الحربية، ووجدت الصناعات المدنية بجوار الصناعات الحربية ومن أهمها صناعة المنسوجات المتنوعة وصناعة تكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة، ومن الصناعات الهامة صناعة الزجاج، وشهدت مصر فى ذلك العصر عدداً من الصناعات الغذائية أهمها صناعة السكر[1].

هذه هى أشهر الصناعات فى العهد المملوكى التى كانت إلى حد بعيد عماد الاقتصاد المملوكى فقسم كبير منها كان يصدر إلى الخارج ويؤمن دخلاً جيداً لأصحاب الصناعات والمتاجر فضلاً عن الأموال التى كانت تحصل عليه الخزانة السلطانية عن طريق الضرائب.

وقد انتظم الصناعيون والحرفيون فى هذا العصر المملوكى فى نقابات قامت بدور الوسيط بينهم وبين أصحاب الحرفة. فقد وجد لكل صناعة شيخ أو عريف أو نقيب يشرف على أفرادها لمنع الغش ويمثلهم لدى الحكومة، وهؤلاء النقباء أو المشرفون كانوا غالباً يعينهم القضاة بناء على توجيه من الحكام وأحياناً يختارهم أبناء حرفتهم أو صناعتهم، وقد لعبوا دوراً فى استقرار أسعار كل حرفة وفى الدفاع عنها[2].

أما عن التجارة فهى تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد المملوكى لأنها كانت المصدر الأول للثروة الهائلة التى عبرت عن نفسها فى أعمال المماليك وحياتهم وما تركوه من آثار ومنشآت فخمة ويرجع السبب فى ذلك إلى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر الميلادى بسبب توسعات التتار وبذلك لم يبق آمناً إلا طريق البحر الأحمر ومصر، مما جعل مصر تقوم بدور الوسيط بين الشرق والغرب[3].

وكانت التجارة الخارجية مصدر اهتمام كبير من المماليك حيث شجعوا التجار الأوربيين على حضور بضائعهم وقد أقام هؤلاء التجار الوافدون بالمدن التجارية مثل الإسكندرية ودمياط، وتمتعوا بحرية كاملة ... وكانت أهم طرق تجارة مصر الخارجية وقتذاك مدينة أسوان بالنسبة لتجارة النوبة، وعيذاب لتجارة الهند والصين ودمياط والإسكندرية للتجارة بين مصر وأوربا، ولم يدخر سلاطين المماليك وسعاً فى تقوية الروابط الاقتصادية بين مصر والشام والبلاد الأخرى عن طريق المعاهدات والاتفاقات والاتصالات الخارجية مع

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ص ٢٨٨ - ٢٩٥.

[2] عبد العزيز الدورى: مقدمة فى تاريخ الاقتصاد العربى، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨، ص ٤٣.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٩، ص ٣٥٠.

ملوك وحكام تلك البلدان وراقبت دولة المماليك تلك الحركة التجارية الواسعة ففرضت رقابة شديدة على الصادرات والواردات وفرضت ضرائب باهظة على التجارة الخارجية واختلفت هذه الضرائب باختلاف الظروف والأحوال[١].

أما التجارة الداخلية فكانت "مزدهرة من حيث حركة البيع والشراء وتداول الأموال، وخير دليل على ذلك كثرة الأسواق المتخصصة فى السلع المختلفة، وكثرة المؤسسات التى تخدم التجار مصريين وأجانب لكن عابها أيضاً احتكار بعض السلاطين لسلع معينة مثل السكر والقمح واللحم، وكانت الطامة فى ذلك عندما يتحالف ذلك الاحتكار مع وباء من الأوبئة أو مجاعة من المجاعات، فيعز السكر، وكان يستخدم للعلاج، ويختفى الخبز حتى يتخاطفه الناس من الأفران، وتجتمع البلايا فى آن واحد فيهرع البعض إلى الخوانق والزوايا عساهم أن يجدوا رغفاناً من القمح، بعد أن عز عليهم فتات الشعير"[٢].

وكان النظامَ الإقطاعى المملوكى يشكل عماد الاقتصاد المملوكى ولا سيما فى بداية هذا العصر لارتباطه الشديد بأفراد الطبقة العسكرية الحاكمة، بحيث شكل الدخل الرئيسى لهم، وبتعبير أوضح فإن رواتب أفراد تلك الطبقة كانت عبارة عن حصص إقطاعية واعتمد المماليك الإقطاع الحربى نظاماً اقتصادياً وعسكرياً، فقسموا الأراضى الزراعية فى مصر والشام على الأمراء والأجناد كل حسب رتبته العسكرية[٣].

ويعرض الباحث للإقطاع فى الأصل الإسلامى ثم وضع الإقطاع فى العصر المملوكى ويختتم بنظرة ناقدة لهذا النظام الإقطاعى:

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية وكان الإقطاع من أهم النظم المملوكية اقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً وللإقطاع أصل فى الشريعة الإسلامية فقد ورد فى السنة النبوية الشريفة عن تميم الدارى أنه "قال: استقطعت رسول الله ﷺ أرضاً بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها، ففتحها عمر بن الخطاب فى زمانه فأتيته فقلت إن ر سول الله ﷺ أعطانى أرضاً من كذا إلى كذا فجعل عمر ثلثها لابن السبيل وثلثاً لعمارتها، وثلثاً لنا ... وذكر الماوردى أن رسول الله ﷺ أقطع الزبير بن العوام ركض فرسه من موات البقيع فأجراه ورمى بسوطه رغبة فى الزيادة فقال رسول الله ﷺ أعطوه منتهى سوطه"[٤].

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ص ٣٠٠ – ٣٠٥.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية ، مرجع سابق، ص ٨٤.

[٣] انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى، مرجع سابق، ص ٩٤.

[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، مرجع سابق، ص ص ١٢،١١

والإقطاع فى الإسلام نوعان "إقطاع تمليك وإقطاع استغلال. فإقطاع التمليك يجوز للسلطان فيما جاز تصرفه فيه دون ما تعين مالكه وتميز مستحقه ... أما إقطاع الاستغلال، فهو جزية أو أجر، فالجزية لا يجوز إقطاع الأرض لأكثر من سنة، فصاحبها قد يُسلم فتسقط عنه، وإن كان أجراً جاز إقطاع الأرض لسنيين عديدة".[1]

ومن المعروف أن المماليك ورثوا النظام الإقطاعى الأيوبى بيد أنهم طوروه لصالح الطبقة العسكرية الحاكمة فجاء نظاماً إقطاعياً حربياً يخدم تلك الطبقة ويحقق أهدافها الاقتصادية وصارت الإقطاعات هى المصدر الرئيسى لتمويل الجيش المملوكى والطبقة الحاكمة.

وكان الإقطاع فى العصر المملوكى أمراً شخصياً بحتاً لا يخضع لحقوق الوراثة والملكية وكان توزيع الإقطاعات يتم فى عدة مناسبات أهمها تولية سلطان جديد فى الحكم فيخص أنصاره ويعاقب خصومه وأيضاً عندما يستعرض السلطان الجند خلال سلطنته، وكان السلطان هو الذى يتولى توزيع الإقطاعات، فإذا تقدم إليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره، وعن حياته التعليمية من الكتاب فى الطباق* إلى ميدان الفروسية. فإذا وقع اختياره عليه ليمنحه إقطاعاً كلف ناظر الجيش بأن يعطيه وثيقة إقطاعه. وكان السلطان بنفسه يوزع إقطاعات الأمراء أما إقطاعات الجنود فكان الأمراء يوزعونها عليهم[2].

ويبدو أن الإقطاعات المملوكية لم تقتصر على الأراضى الزراعية فحسب بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة بما فى ذلك الضرائب والمكوس والمعادن وتجاوز المماليك بذلك حدود الشرع الإسلامى وأقطعوا المكوس والضرائب التى وجدت أساساً لتصرف لخير المسلمين وأن الصالح العام لم يكن يفهم إلا انطلاقاً من مصلحة الجهاز العسكرى الحاكم وقد عبر القلقشندى عن هذا التجاوز للشرع فذكر "أما فى زماننا فقد فسد الحال وتغيرت القوانين وخرجت الأمور عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال: من خراج الأرضين والجزية وزكاة المواش والمعادن والعشر وغير ذلك، ثم تفاحش الأمر وزاد

---

[1] القلقشندى: صبح الأعشى، مرجع سابق، جـ ١٣ ، ص ص ١٢٢-١٢٤.

* الطباق : وهى ثكنات المماليك بقلعة الجبل وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد وكانت مراكز تعليمهم فى تلك الطباق . انظر: المقريزى : المواعظ والاعتبار، جـ ٢، مرجع سابق، ص ص٥٨،٥٩

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ص ٢٥، ٢٦.

حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها، وعمت بذلك البلوى والله المستعان فى الأمـــور كلها"[١].

ولم يظل الإقطاع المملوكى على حالة من الثبات والإحكام طوال العصر المملوكى، إذ لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل. مما يعتبر مظهراً أو سبباً – للفساد العام الذى اعـــترى الدولة وأجهزتها فى أواخر هذا العصر. وكان أبرز مظاهر ذلك الخلـــل تصـــرف الأمـــراء والأجناد فى إقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة. فمن أراد النزول عن إقطاعـــه حمل مالاً إلى بيت المال بحسب ما يقرر عليه، الأمر الذى أدى إلى دخول كثير من الكتـــاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش. ولما كان الجيش فـــى عصر المماليك يعتمد فى نظامه على الإقطاع، فقد أدى فساد النظم الإقطاعية إلـــى ضعــف الجيش وانهيار دعائمه[٢].

يتبين مما سبق أن المماليك خالفوا المفهوم الحقيقى للإقطاع فى الإســـلام وتجـــاوزوا حدود الشرع وكان لهذا النظام الإقطاعى أثره السيئ فى ضعف مستوى الإنتـــاج الزراعـــى وتدهور أوضاع الفلاحين إذ أن أفراد الطبقة العسكرية الحاكمة لم يهتموا باستصلاح الأرضـــى التى كانت تبور وأهمل المقطعين هذه الأراضى ولم يقدم الأمراء والمقطعين بوجه عام أيـــة مساعدة للمزارعين لتحسين وسائل الإنتاج واستصلاح الأراضى.

"ومهما يكن الأمر فى الإقطاع المملوكى فالثابت أنه بارتباطـــه بالطبقـــة العســـكرية المسيطرة، وبامتداده ليشمل (تقريباً) كل الأراضى الزراعية وكثـــيراً مـــن نواحـــى الإنتـــاج الأخرى، كان ذا أثر خطير فى البناء الاجتماعى والاقتصادى والثقافى للمجتمع المصرى فـــى هذه الفترة"[٣].

٥- العلم والتعليم فى القرن الثامن:

شهد القرن الثامن حركة علمية واسعة شاملة حيث أصبحت مصر – وكذا الشـــام – محوراً لنشاط علمى كبير، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار وخير دليل علـــى هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم فى مختلف العلوم والفنون. ومما جعل مصر محوراً لهذا النشاط العلمى الكوارث التى حلت بالمسلمين فى القرن السابع الهجرى على

---

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، مرجع سابق، ص ١٢٤.

[٢] السيد الباز العرينى: الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٢.

[٣] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع ســـابق، ص ٩١.

أيدى المغول فى العراق والشام وبالأندلس على أيدى الصليبيين، فتوجهت أنظار العلماء إلـــى مصر واختاروها محلاً لإقامتهم ونشاطهم وأعظم دليل على هذا النشاط فى هذا العصر كـــثرة المدارس التى أنشأها السلاطين من عهد بيبرس فصاعداً حتى عهد السلطان الغورى[1].

قد شعر العلماء بالعبء الملقى على عاتقهم بعد الخسارة الفادحة التى لحقت بـــالتراث الإسلامى من جراء غارات المغول ومن ثم تسابقوا فى التأليف فى شتى العلوم وساعدهم على ذلك اهتمام سلاطين المماليك بإنشاء المؤسسات العلمية* من مكاتب ومدارس وخوانق ومعـــاهد للتعليم، التى تلقى فيها الدروس فى مختلف التخصصات "وسار المماليك على نهج الأيوبييـــن فى تشييد هذه المؤسسات وكانوا أشد حباً وإقبالاً على بناء المدارس حتى أصبح من المعتـــاد طوال عصر المماليك أن يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر وينسحب هذا القـــول علـــى معظم السلاطين بداية بالمعز أيبك وانتهاءً بالسلطان الغورى، كما كانت هذه المـــدارس مـــن مظاهر السلطة وشعارها. ولم يقتصر بناء هذه المؤسسات على السلاطين وحدهـــم إذ ســـاهم كثيرون، فى ذلك أيضا كالأعيان والتجار"[2].

وكانت هذه المؤسسات المتعددة التى غصت بها مصر والشام فى هذا العصر ثمرة من ثمار النهضة العلمية وكان التركيز منصباً على العلوم الشـــرعية وعلـــوم النقـــل فـــى هـــذه المؤسسات أما العلوم العقلية فعلماؤها قليلون ومحاصرون.

وبالرغم من كثرة النشاط العلمى فى هذا الوقت إلا أن هذا النشاط العلمى "كـــان فـــى القرنين السابع والثامن مقترناً بظاهرتين سلبيتين: التقليد والتعصب المذهبى، وكـــان النشـــاط العلمى يدور حول التلخيص للشروح وكتابة المتون التى يحفظها الطلاب أو شرح الملخصـــات وكتابة الحواشى والتقارير على الشروح، ومن ثم لا ابتكار ولا إضافة وإنما تقليد وإنكار لكـــل ما يخالف المألوف المتبادل فى الأوساط العلمية والذى يتعصب فيه أتباع كـــل مذهـــب لآراء إمامهم، وكانت الدولة تعين من كل مذهب قاضياً للقضاة أعلاهم مرتبـــة الشـــافعى فـــالحنفى فالمالكى فالحنبلى، ولا تخرج الأحكام السائدة بين الناس عن المذاهب الأربعة ومن يخالف مـــا

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجـــع ســـابق، ص ص ١٥٧، ١٥٨.

* كانت ثمة دوافع دفعتهم إلى الاهتمام بإنشاء هذه المؤسسات منها التقوى والزلفى، ومحاربة المذهب الشيعى وبقاء الحكم فى أيديهم ودعم مركزهم فى أعين الشعب، سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ١٥٩.

[2] عبد الغنى محمود عبد العاطى: التعليم فى مصر فى زمن الأيوبيين والمماليك، القـــاهرة، دار المعـــارف، ١٩٨٤، ص ١١٨.

ألفه الناس من هذه المذاهب تعرض للإهانة كما حدث لابن القيم عندما اعتقل مع أستاذه ابـــن تيمية فى القلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة وحبس لأنكاره شد الرحيـل لزيادة قبر الخليل، وجرت له محنة أخرى مع القضاة وذلك عندما أفتى بجواز المسابقة للخيـل بغير محلل فأنكر عليه السبكى ذلك[١].

وقد لمع فى تلك الحقبة من الزمن أعلام من العلماء فـــى مختلــف صنــوف العلــم والمعرفة ففى الفقه وأصوله وجد كثير من الفقهاء فى مختلف المذاهب من الذين ارخ لهم ابـن حجر فمنهم مثلا:محمد بن على الأنصارى الدمشقى ابن الزملكانى كان "عالم العصر وأمـــير الشافعية، أفتى وله نيف وعشرون سنة وتخرج عليه غالب علماء العصر، وانتهت إليه رياسـة المذهب تدريسا وإفتاء ومناظرة"[٢].

وفى مجال اللغة العربية وعلومها وجد العديد من علماء اللغة والنحو منهم مثلا محمـد بن يوسف بن حيان الغرناطى أبو حيان الأندلسى كان إمام زمانه فى النحو، إماما فى اللغـــة ... خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يذكر أحد فى أقطار الأرض فيها غيره وصــارت تلامذته أئمة فى حياته[٣].

وفى الحديث وعلومه اشتهر بمصر والشام كثير من المحدثين منهم مثلا ابـــن ســيد الناس (ت ٧٣٤هـ)، وعلم الدين البرزالى (ت ٧٣٩هـ) وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ).

وأما علم التاريخ فكان من أبرز علوم ذلك العصر ووجد كثيرون منـــهم كتبـوا فـــى أحداث التاريخ والسير والتراجم والطبقات، وصنفوا فيها مؤلفات ضخمة مثـــل الذهبـــى (ت ٧٤٨هـ)، وكمال الدين الأدفوى (ت ٧٤٨هـ)، والصفـــدى (ت ٧٦٤هــــ)، والكتبـــى (ت ٧٦٤هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)[٤].

وفى العلوم الطبيعية والرياضية نجد محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجارى المصـــرى المعروف بابن الأكفانى (ت ٧٢٥هـ) أتقن الرياضة والحكمـــة وصنـــف فيـــها التصـــانيف الكثيرة[٥].

---

[١] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى عند ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص ٥٥.

[٢] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٤، مرجع سابق، ص ١٩٣.

[٣] ------------: المرجع السابق، جـ٥، ص ص ٧٠ – ٧٣.

[٤] محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، مرجع سابق ، ص ٨٠.

[٥]ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

ووجد في هذا القرن أيضا علماء الكلام مثل: قطب الدين التحتاني، وصفي الدين الهندي الأرموي، وعلاء الدين الباجي، وكانا من القائمين بنصرة مذهب الأشعري[1].

ووجد أيضا القراء مثل أحمد بن علي الحركي شيخ القراء بالمدرسة الظاهرية[2].

وكثر طلاب العلم بالمدارس المملوكية ولم تكن هناك سن محددة عندها يبدأ الطالب للعلم فمنهم من بدأ سن الثالثة، وهناك من بدأ في سن الرابعة وهناك من بدأ في سن الخامسة. ووجد من كان يطلب العلم في سن متأخرة فمثلا: إبراهيم بن أبي بكر (ت ٧٤٦هـ) طلب العلم في كهولته[3]، لكن الغالبية كانت تبدأ في التعليم في سن مبكرة.

يتضح أنه لم تكن هناك شروطا لسن معينة لكي يطلب الطالب العلم.

ولم تكن هناك سياسة تعليمية في الدولة فيما يتعلق بإنشاء المؤسسات التعليمية والإنفاق عليها وكان إنفاقهم علي هذه المؤسسات من قبيل الطاعات الدينية والتقرب إلي الرعية في حدود العرف آنذاك ورغم هذا كانت لهم نظم إدارية في التعليم ومتابعة لأعمال مؤسساته تعتبر بمعايير عصرهم، من أدق نظم الإدارة وأكثرها متابعة لنشاط مؤسسات التعليم. ولكي ندرك إسهامهم في هذا الجانب ننظر إليه من محورين: محور محلي يتمثل في إدارة مؤسسات الوقف حيث كان الواقف يحدد بدقة أصحاب الوظائف في هذه المؤسسات الوقفية المتعددة... والمحور الثاني هو المتمثل في متابعة السلطة السياسية لأنشطة مؤسسات التعليم فكان السلاطين يتابعون هذه الأنشطة إما بالتوجه إليها مباشرة أو باستدعاء المسئولين عنها واستجوابهم عما قد يحدث فيها وأيضا حرصهم علي عدم الجمع بين عدة وظائف وكانت السلطة أيضا تراقب سير النظام التعليمي حيث قامت بتعيين بعض الموظفين للإشراف علي المدارس وفقهاء المكاتب لإرشاد المدرسين إلي الطرق الملائمة في التدريس[4].

وبالنسبة لتمويل التعليم والإنفاق عليه فكانت الأوقاف هي "المصدر المالي والأساس لغالبية المدارس ومكاتب الأيتام، فضلا عن الخوانق، وبعض زوايا الجوامع غير المملوكية، وتعتبر الحركة العلمية لهذا العصر مدينة إلي حد كبير للأوقاف في نشأتها واستمرار النشاط الرئيسي فيها وكانت بعض المؤسسات تعطل لتأخر وصول ريع أوقافها، أو لنهب أوقافها ومن

---

(1) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، جـ١، مرجع سابق ، ص ٣٤٠.

(2) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ١، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(3) -----------: المرجع السابق ، جـ١، مرجع سابق، ص ص١٨٠،٢٧٦،٢١٦, ٢٢٤، ٢٧٠.

(4) عبد البديع الخولي: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ص ٢١٧ – ٢٢٢.

ثم فكان استمرار النشاط التعليمي في هذه المؤسسات متوقف علي الأوقاف ولولاه لعجزت عن أداء مهمتها، وكانت وثيقة الوقف تنظم أوجه النشاط التعليمي المتمثلة في: مرتبات المدرسين ومخصصاتهم، وإعانات الطلاب والخدمات الصحية والاجتماعية"[١].

وبالرغم من الدور الذي لعبه الأوقاف والموقفون في بناء المدارس ودور العلم والنشاط التعليمي بها إلا أن هؤلاء المحسنون أثروا تأثيرا سلبيا علي التربية بسبب الشروط التي كانوا يشترطونها فيما يتعلق بالمناهج ومفاهيم التعليم فقد تطورت هذه الشروط وأصبحت مع الزمن جزءا من تقاليد المؤسسات التعليمية ولم تستند هذه الشروط إلي أسس تربوية علمية وإنما أملتها الانتماءات المذهبية وعواطف الولاء. فمنهم من اشترط اقتصار المؤسسة التي أوقفها علي تدريس القرآن الكريم وصحيح البخاري وقراءة نوع معين من الأوراد في الصباح والمساء، والتزام طريقة معينة من الطرق الصوفية، أو مذهب فقهي معين في الطلبة والتدريس[٢].

وتبوأ المعلمون علي اختلاف وظائفهم سواء كانوا معلمي الكتاتيب أو معلمي الجوامع والمدارس أو معلمي الطباق مكانة عالية في هذا العصر ذلك لأن "تعيين معظمهم يتم بمرسوم سلطاني، وبعضهم كانوا من كبار العلماء وقضاة القضاة، بل كان بعضهم من الوزراء وطغت شهرة بعضهم عن المدارس التي يدرسون فيها، وكان المدرس كثيرا ما كان مقصد الطلاب دون المدرسة، وأحيانا ما كان المدرسون يقومون بأدوار سياسية توفيقا بين العناصر المتصارعة من المماليك وبعض المدرسين كابن حجر كان يترضاه ويلح عليه بعض أمراء المماليك ليكون مدرسا للحديث ليوم واحد في الأسبوع زهوا به ... وكانت ألقاب العلماء المتداولة مثل: العلامة، والفقيه، وغيرها، تكشف مدي اهتمامهم بالعلم وتقدير المعلمين وتتضح من هذه الألقاب المكانة الكبيرة للمعلمين، كما تتضح بعض سمات العصر من حيث الاهتمام بالدين، والمذاهب السنية وتقارب العلماء والصوفية في التربية"[٣].

---

[١]عبد البديع الخولي: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ص ٢٢٤،٢٢٧.

[٢] نقلا عن ماجد عرسان الكيلاني: تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، المدينة المنورة، مكتبة دار التراث، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٢١٣.

[٣] عبد البديع الخولي: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ص ٢٣٥،٢٣٦.

ويبدو أن بعض العلماء كانوا يتطلعون إلي المناصب ويتكالبون عليها بــل ويبذلــون الأموال في الوصول إليها وقد أحس المعاصرون لهذه المفاسد فنقدوها وطالبوا بإصلاحها. من ذلك ما ذكره الأدفوى (ت ٧٤٨هـ) ونقله عنه ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ):

إن الدروس بمصرنا في عصرنـــا	طبعت علي لفظ وفرط عيـــاط
ومبــاحث لا تنتــــهي لنهايـــة	جدلا ونقل ظـــاهر الأغـــلاط
ومـــدرس يبـــدي مبــاحث كلـــها	نشأت عن التخليط والأخلاط[١].

وحدث أحيانا أن تصدر للتدريس من ليس أهلا له طمعا في المنصب والراتب، فأسـاء إلي التدريس وتعرض لنقد معاصريه، فبعض التداريس كان يليها قضاة القضاة فأصبح يليـــها "الآن صبيان ومن لا يؤهل لو كان الانصاف له". وأصبحت كما قيل:

تصدر للتدريس كـــل مـــهوس	بليد يســـمي بالفقيــه المــدرس
فحق لأهل العلـــم أن يتمثلــوا	ببيت قديم شاع في كل مجلـــس
لقد هزلت حتى بدا من هزالـــها	كلاها وحتى سامها كل مفلس[٢].

وكانت العلاقات بين المعلمين بعضهم ببعض في البيئات العلمية تسودها الروح الطيبة بيد أنه شابها بعض السلبيات منها: التحاسد والتباغض بين العلماء والتنافس علي المنـــاصب العلمية والدينية. وكانت السلطة تتخذ من هذه المناصب وسيلة إلي خدمة أهدافـــها السياســية، الخلافات المذهبية، ولا صلة بالمناصب، حيث كانت بعض المناصب الكبرى مخصصة لفقهاء مذهب دون الأخر، مجاملة الأقارب والتلاميذ، التعصب الشديد لاتجاه علمي دون أخر، ومــن أسباب سوء العلاقات في البيئات العلمية استقدام المماليك لبعض العلماء والصوفية من المشرق الإسلامي خاصة وتوليتهم مناصب هامة دينية وعلمية، مما كان يولد نوعا مــن المشــاحنات وكانت الخلافات بين العلماء – غالبا – في قطاع صغير من كبار العلماء الذين كانوا متصلين بسبب أو بآخر بالسلطة المملوكية ووظائفها، أما القطاع العريض من العلماء فكانت العلاقــات بينهم طيبة كما كان الشأن دائما في معلمي الأزهر[٣].

وقامت العلاقات بين المعلمين ومتعلميهم عل أســاس الاحــترام المتبــادل واحــترام المتعلمين لمعلميهم وكذا المعلمين للمتعلمين ولم يكن هذا نظريا بل كان ذلك عمليا تجسد فـــي

---

[١] أبن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، مرجع سابق، ص ٥٣٦.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٧م، ص ٣٨٠

[٣] عبد البديع الخولي: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع ســابق، ص ص ٣٩٥،٣٩٦.

أخلاقيات بعض المدرسين إزاء متعلميهم فقد وصف محمد بن أحمد المصري بأنه كان "محسنا إلي الطلبة كثير السعي في قضاء حوائجهم"[1].

وروي عن مبارك بن نصر القوصي الذي غرق في البحر سنة ٧٠١هـ أنه "كان يخدم الطلبة بنفسه، يقوم بالوظائف عمن غاب"[2].

ومن صور الإحسان للمتعلمين ما روي عن عبد الله بن خليل البسطامي أنه قد "وقف كتبه علي الطلبة"[3]. وكان عبد لرحيم بن الحسن الآمدى الأسناوي يقرب الضعيف المستهان ويحرص علي إيصال الفائدة للبليد، وكان ربما ذكر عنده المبتدئ الفائدة المطروقة فيصغي إليه كأنه لم يسمعها جبرا لخواطره[4].

إلي غير ذلك من الأمثلة التي تدل علي مدي احترام المعلمين للمتعلمين وقد أورد ابن حجر نماذج كثيرة لمن ترجم لهم في درره تعبر عن احترام المعلمين وإحسانهم إلي المتعلمين.

ووجد من المعلمين من كان يقوم بعمله حسبة لله تعالي وحبا للعلم وكان بعضهم "يرون تحرجا في أخذ أجرة علي التعليم ويقصدون بذلك الأجرة من المتعلم...وبعضهم كان يؤثر الآخرين علي نفسه، ومنهم من كان لا يكتفي بالتدريس بلا أجر يكرم طلبته وينفق عليهم من ماله الخاص ويبدو أن سوء الأوضاع الاقتصادية كانت من أسباب تكالب البعض علي المناصب وتنافسهم مع أقرانهم مما حدا بالواقفين إلي التشديد في شروط القيام بالوظائف في مؤسساتهم، وأن من غاب بلا عذر لفترة معينة يقطع معلومة أو يأتي الناظر بغيره بدلا منه"[5].

وكان يساعد المعلم في وظيفته المعيد وكان نظام "المعيدوالإعادة" معروفا بمدارس مصر منذ العصر الأيوبي، حيث ارتبطت منذ البداية بالمعيدين، وبعض المدارس كانت تعتمد علي المعيدين فقط لفترة طويلة، لآن ريع الأوقاف لم يكفل راتبا للمدرسين. ولم يكن المعيد هو "نقيب الطلبة"كما توهم البعض وإنما هو شخص آخر، لآن بعض المدارس كان يعين فيها معيدون ونقباء للطلبة من جملة الطلبة وكان المعيد أحيانا من كبار المعلمين الذين يتولون

---

[1] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ١، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

[2] ------------: المرجع سابق، جـ٣،ص٣٦٢.

[3] ------------:ن فس المرجع السابق،جـ٢، ص ٣٦٤.

[4] ------------: نفس المرجع السابق، ج٢، ص ٤٦٤.

[5] عبد البديع الخولي: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية ، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

التدريس في مدرسة، والإعادة في مدرسة أخري وبعضهم كان مـــن أئمـــة الفقـــه والتفسـير والعربية والحديث[1].

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة من الوظائف الهامة يخلع السلطان علـــي صاحبـــها ويكتب له توقيعا من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس وجرت العادة علي تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس وتمتع الطلاب بحرية اختيار المـــواد التـــي يدرســـونها وكثيرا ما اعتمد هذا الاختيار علي مكانة المدرس وشهرته العلمية وينتقل الطالب من شيخ إلي آخر ويرتحل إلي مختلف البلاد والأقطار ليسمع من مشاهير العلماء فيها وكان هذا أمرا مألوفا في ذلك العصر كي يتسني له التلمذة علي يد هذا الفقيه أو ذلك المحدث فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس حصل علي إجازة من شيخه وتتوقف قيمة الإجازة علي سمعة الشـــيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية[2].

وكانت هذه الإجازات* التي تمنح للمتعلمين أيا كانوا بعد الحفظ لكتاب ما أو دراســـة مقرر معين أو التبحر في علم من العلوم متعددة مختلفة المستوي وهي بمثابة شهادة تفيـــد أن هذا المتعلم قد أصبح مؤهلا للتدريس والإفتاء والرواية وتجيز له ذلك ومن هذه الإجازات مـــا يسمي بـــ "الإصرافة" وهي عبارة عن حفل يقام للصبي الذي أنهي حفظ القرآن الكريم وهنـــاك الإجازة بعراضة الكتب وهناك "الإجازة بالفتيا والتدريس" ويحصل عليها من أتقـــن علمـــا أو أكثر وتخصص فيه وتشبه إلي حد كبير "الليسانس" أو "الإجازة العالية" الآن. ونظرا لأهميـــة هذا النوع من الإجازات فقد كان يكتنفها صعوبات في بعض الأحيان ومن ثم حرص البعـــض علي الحصول عليها أو نسبتها إليهم بطرق غير سليمة ... وهناك نوع من "الإجازات" يكون بين العلماء ويتخطى في مستواه الإجازات السابقة ويمكن اعتباره "إجازة عليا" وهي أن يكتـب عالم متخصص في علم ما كعلم الحديث غالبا إلي عالم متبحر في هذا العلم قد أخذ عنه الأول أو درس كتبه يستأذنه في أن يروي أو ينسب إليه ما درسه عليه أو حفظه في هـــذا المجـــال وبعض العلماء ثقة في الطالب كان يعطي هذه الإجازة في كل العلوم التـــي تخصـــص فيـــها

---

[1] عبد البديع الخولي: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع ســـابق، ص ص ٢٣٨،٢٣٩.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصـــري فـــي عصـــر ســـلاطين الممـــاليك، مرجـــع ســـابق، ص ص١٦٢،١٦٣.

* الإجازة العلمية عبارة عن شهادة شخصية يمنحها أحد أعلام العلماء لأحد طلابه، ويشهد فيـــها أن الطـــالب المذكور قرأ عليه كتاب كذا أو أنه مهر في الفقه، وصار أهلا للفتيا، محمود رزق ســـليم: عصـــر ســـلاطين المماليك، جـــ٣، مرجع سابق، ص ٢٩.

فيجعل حامل هذه الإجازة في الأخذ برأيه وروايته كأنه العالم الذي منحها له، لكن الغالب أنـها كانت في حدود علوم محددة وبين من يثقون بمستوي العلم عند الآخرين(١).

ومن ذلك مثلاً ما ذكره الذهبي في ترجمته لعبد الرحمن بن محمـــد المفتـــي المكـــي الشافعي"أتيت منزلة، وطلبت السماع منه... وقد كان أجاز لي مروياته قديماً"(٢).

ويري ابن حجر أن الذين أجازوا الذهبي في سنة (٦٧٣هــ) جمع جـــم وذكـــر فـــي ترجمة العلاء بن العطاء: "وهو الذي استجاز الذهبي سنة مولده، فانتفع الذهبي بعد ذلك بـــهذه الإجازة انتفاعاً شديداً"(٣).

ومن أمثلة ذلك أيضاً الإجازة التي كتبها التفتازاني إلي تلميذه جـــلال الديـــن بتغيـــير مصنفاته وقراءتها وإصلاحها، وهذه صورة الإجازة "أما بعد، حمداً لله والصلاة علي رســـول الله، فقد أجزت للمولي العالم الفاضل الكامل جلال الدين يوسف بن الأمام المرحوم ركن الدين مسيح أن يروي عني مقروءاتي ومسموعاتي ومنجزاتي عموماً ومصنفاتي خصوصاً فقد قـــرأ الكثير وسمع الكثير مثل شرح الكشاف، والمفتاح وغيرهما وأن يدرسهما ويصلح ما يتفق أنـــه من سهو البنان أو البيان بعد التأمل والاحتياط والمراجعة والمطالعة. وهذا خط الفقـــير ســـعد الدين التفتازاني كتبه في آخر سفر حياته والاتصال بوفاته، وهو الأواخر مـــن محـــرم ســـنة ٧٩٢هــ بسمرقند"(٤).

ويوجد نوع من الإجازات العلمية يختلف عن الإجازات السابقة وهي "الإجـــازة فـــي الطب" وتكون عند تقدم الطالب للحصول عليها إلي رئيس الأطباء بعد اختباره شفوياً وعمليـــاً، ثم يعطي له إجازة تجيز له تدريس الطب نظرياً أو عملياً من خلال الممارسة، وقـــد تجمـــع الإجازة بين الجانبين التدريس النظري والممارسة العملية لمهنة الطب(٥).

هذه هي الإجازات التي كانت سائدة في هذا العصر وهي في مجملها تظهر حرصـــهم علي تقييم من يمارس مهنة التعليم وتحديد سماته العلمية حرصاً علي المستوي العلمي وتنزيهاً له عن الأدعياء.

كانت هذه فكرة عامة عن العلم والتعليم في القرن الثامن الهجري.

---

(١) عبد البديع الخولي: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع ســـابق، ص ص٢١٤ - ٢١٦.

(٢) الذهبي:معجم الشيوخ،تحقيق محمد حبيب الهيلة، الطائف، مكتبة الصديق، ١٤٠٨هــ، ١٩٨٨م، ص ٣٠٧.

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جــ٣، مرجع سابق، ص ٦.

(٤) البغدادي: هدية العارفين، جــ٢، مطبعة استانبول، ١٩٢١، ص ٤٢٩.

(٥) عبد البديع الخولي: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع ســـابق، ص ٢١٦.

الفصل الثالث

اتجاهات العلماء والمثقفين فى القرن الثامن الهجرى

الفصل الثالث

اتجاهات العلماء والمثقفين فى القرن الثامن الهجرى

مقدمة:

نشطت الحركة العلمية فى مصر والشام خلال القرن الثامن الهجرى نشاطاً ملحوظـــاً فيه وتنوعت اتجاهات العلماء والمثقفين فظهر فقهاء ومحدثون، ومتصوفة، وعلمـــاء الكـــلام، وبعض المشتغلين بالفلسفة كما ظهر المؤرخون والأدباء والأطباء.

وسيتناول الباحث فى هذا الفصل اتجاهات هؤلاء فى هذا القرن:

والواقع أن هذه الاتجاهات المتعددة كانت "متشابهة متداخلة وتكاد فى غالبيتها تنطلـــق من منطلق واحد هو ما يطلق عليه" "أهل السنة" لكن بسبب اختـــلاف مجـــالات التخصـــص العلمى، وبسبب تباين الاستعدادات الفكرية وربما بسبب الأوضـــاع الوظيفيـــة والطموحـــات الشخصية*، بسبب هذا كله يمكن التمييز بين اتجاهات ثقافية متعددة، مع ملحظ هام مـــؤداه أن هذه الاتجاهات لم تكن فى إطارها العام وليدة عصر البرجية، وإنما كان لها أبوة فى عصـــر المماليك البحرية، وربما فى عصر الأيوبيين، كما كان لها بنوة فى عصر العثمانيين[1].

وتعد اتجاهات علماء الحديث والفقه والكلام من ابرز الاتجاهات فى هذا القرن وهـــى موضع الاهتمام من الباحث نظراً لدورها فى التربية وما سواها لا يشكل اتجاهاً تربوياً مستقلاً كالأدباء والأطباء مثلاً ويعرض الباحث للمحدثين:

١- المحدثون:

ظهر فى عصر سلاطين المماليك عناية بالحديث والمحدثين واشـــتهر مـــن حفـــاظ الحديث كثيرون وما من شك فى أنه "فى البيئة التى تعنى بعلوم الدين يحتل الحديـــث مكـــان الصدارة، ويستأثر منها بكل عناية، إذ كان على كل عالم أو فقيه أن يتقن علم الحديث، ليـــأخذ الدين عن أصوله، ويتلقى الأحكام عن صاحب الرسالة سيدنا محمد ﷺ"[2].

---

* كانت فرص الفقهاء والمتصوفة أكثر من غيرهم فيما يتصل بالوظائف ذات الدخل الكبير، والمكانة السامية، ومن ثم كان الصراع يشتدد داخل هاتين الفئتين أكثر من غيرهما، لأن وظائف القضاء والفتوى وهى أعلـــى المناصب المدنية فى الدولة كانت وقفاً على الفقهاء، ومشيخة الخوانق هى أكثر المناصب المتصوفـــة تـــأثيراً كانت وقفاً على من عرفوا لدى المماليك بالتصوف وكانوا أهل الثقة، انظر: عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ١١٨.

[1] عبد البديع الخولى: المرجع السابق، ص ١١٨.

[2] عبد الطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر فى العصريين الأيوبى والمملوكـــى الأول، مرجـــع ســـابق، ص١٧٥.

واشتهر بمصر والشام فى القرن الثامن جماعة من المحدثين والحفاظ و رواه الحديث وبلغ بعضهم مكانة مرتفعة كان من أبرزهم الذهبى (ت ٧٤٨هـ) الذى "مهر فى فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة ... وقد ولى تدريس الحديث بتربة أم الصالح من كبريات مدارس الحديث بدمشق، وكان علامة زمانه فى معرفة الرجال وأحوالهم"[١].

وكان من سمات بعض محدثى هذا القرن العناية بقوة الذاكرة والقدرة على حفظ الرواة ومتون الأحاديث وكان هذا شأن المحدثين واللغويين وغيرهم قبل الطباعة ومن هؤلاء مثلاً: محمد بن جابر بن قاسم الأندلسى الذى استكثر من الرواية حتى صار راوية الوقت، وحدث بالموطأ (موطأ مالك فى الفقه) مراراً وتوفى بتونس سنة ٧٤٩هـ[٢] .

وكان من سمات بعض محدثى هذا القرن الاهتمام بالرحلة فى طلب الحديث وقد أفاض ابن حجر فى الترجمة للعديد من العلماء الذين كانوا يرتحلون من أجل تعلم الحديث ومن أمثلتهم: عبد الله بن محمد العبادى الذى عنى بالحديث فرحل فيه إلى البلاد وسمع من قاضى المدينة وسمع بمكة وتلقى العلم أيضاً فى مصر وذهب إلى الإسكندرية وكذا الشام ثم بغداد وطاف البلاد وحصّل الفوائد[٣].

ويبدو أنه قد وجد فى هذا القرن الثامن بعضاً من المحدثين الذين كانوا يروون أحاديثاً ولا يتكلمون على أسانيدها ومن ثم كانوا عرضة لنقد الذهبى حيث نعى عليهم صنيعهم هذا ودعاهم إلى التحرى والدقة عند نقل الروايات والتأكد من صحتها وذكر فى معرض تعليقه على طلب أمير المؤمنين عمر والصحابة أن يقلوا من التحديث عن رسول الله ﷺ"... فبالله عليك إذا كان الإكثار من الحديث فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانوا يمنعون منه، مع صدقهم وعدالتهم وعدم الأسانيد، فما ظنك بالإكثار من رواية الغرائب والمناكير فى زماننا" مع طول الأسانيد وكثرة الوهم والغلط، فياليتهم يقتصرون على رواية الحديث الغريب والضعيف، بل يروون – والله – الموضوعات والأباطيل والمستحيل من الأصول والفروع، والملاحم والزهد، نسأل الله العافية[٤].

ومن أبرز سمات المحدثين بوجه عام الزهد فى المناصب والتفرغ كلية للبحث والتعليم والدقة فى البحث وتهدف دراسة الحديث إلى فهم الحديث ومعرفة معانية والعمل به

---

(١) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ٤٢٦ – ٤٢٧.

(٢) ــــــــــــــ: المرجع السابق، جـ ٤، ص ٣٤.

(٣) ــــــــــــــ: المرجع السابق، جـ٢، ص ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٤) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ٢، تحقيق شعيب الأرناؤوط وجماعة من أهل العلم، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ص ص ٦٠١ – ٦٠٢.

والإخلاص فى طلبه وقد وجد عديد من المحدثين فى القرن الثامن الهجرى ووجد فـــى هـذا القرن أيضاً العديد من علماء الفقه وسيعرض الباحث للفقهاء.

٢- الفقهاء:

يعتبر الاجتهاد فى الفقه هو التعبير الأصيل عن الفكر الإسلامى نظراً لأن الفقه يـدور حول استنباط الأحكام من القرآن والسنة ومن ثم يلجأ الناس إلى الفقهاء ويلتمسون منهم العلـم بأحكام الإسلام فى مختلف المجالات ومن ثم كان الفقهاء من أبرز فئـات الفكـر الإسـلامى إسهاماً فى ميدان التربية والتعليم وأقربهم إلى قلوب الناس حيث أن ما يتحدثون فيه هو أحكـام الشريعة ومبادئها[١].

وكان الفقه والحديث يحتلان مكانة بارزة فى ثقافة علماء هذا القرن وما قبلـه وكـان السبب الرئيسى فى ذلك أن الدراسات الفقهية تهدف لتطبيق الشريعة الإسلامية فى كل جوانـب الحياة اليومية فى الشارع المسلم ابتداء من الطهارة المادية وانتهاء بأخطر القرارات السياسية.

ويعتمد هذا الاتجاه على "دراسة الفقه فى المذاهب الأربعـة المشـهورة: (الشـافعى، والحنفى، والمالكى، والحنبلى). وكان التخصص المذهب هاماً ويؤدى أحياناً إلـى اختلافـات كثيرة وتعصب مذهبى حاد وبخاصة عندما يرتبط ذلك بامتيازات وظيفية كمـا حـدث بيـن الشافعية والحنفية فى بعض الأحيان*. وكان الفقهاء الشافعية فى المقدمة، كما كان الحنابلة فـى المؤخرة وأحياناً كان يغير الفقيه مذهبه لنفع مادى إذا ما كان المذهب المنتقل إليـه مرتبطـا بوظيفة جديدة أو معلوم معين من أوقاف إحدى المؤسسات الدينية أو التعليمية وغالباً ما كـان الانتقال من المذهب الشافعى إلى الحنفى وبالعكس"[٢]

وحظى فقهاء هذا القرن بمكانة متميزة وكان لهم شأنهم عند العامة والخاصة حيث أن الكثيرين منهم كانوا يتولون مناصب هامة فى دولة المماليك مثل: القضاء والإفتاء والـوزارة والتدريس فى المؤسسات التعليمية وكان لهم أثر واضح فى تسيير دفة الحكـم فـى عصـر المماليك وكان السلاطين لا يقدمون على أمر له أهمية كالحرب وفرض الضرائب وغير ذلـك

---

[١] سعيد إسماعيل على: اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى، القاهرة، دار الفكر العربى، د. ت، ص ص ١٥٣ - ١٥٤.

* كان الشافعية أولوا شعبية على المستوى العام، وكان الأحناف يحظون بعطف السلطة. عبد البديع الخولـى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، هامش ص ١١٩.

[٢] عبد البديع الخولى: المرجع سابق، ص ١١٩.

إلا بعد استشارة كبار الفقهاء ذوى المكانة العلمية الكبرى فى نفوس الشعب المسلم فى مصر والشام[١].

وكان الفقه فى هذا القرن مقيداً بأغلال كثيرة انتهت به إلى حالة سيئة من الجمود بسبب الاعتقاد بأن باب الاجتهاد قد أغلق خصوصاً بين أهل السنة الذين اشترطوا فى المجتهد شروطاً متعددة ورأوا أن أهل أزمنتهم منذ القرن الرابع وما يليه خلوا منها بل إن منهم من وقف بالاجتهاد عند فترات تاريخية سابقة كمن قال: بأن باب الاجتهاد انتهى بانتهاء أبى حنيفة ومالك، ومنهم من انتهى به إلى وفاة محمد بن جرير الطبرى فى القرن الرابع الهجرى ولكن بعض الفقهاء المتحررين – كابن تميمة وغيره رفضوا ذلك ودعوا إلى فتح باب الاجتهاد و رأوا أن ظروف المتأخرين كانت تستوجب اجتهادهم اكثر من السابقين فقد جاء المتأخرون بعد تدوين العلم والعناية بالعلم والعلماء وكان من يخرج عن اجتهادات السابقين يرمى بالابتداع والخروج عما يسمى بالإجماع[٢].

ويوضح ابن خلدون ابن هذا القرن الثامن جمود بعض فقهاء هذا القرن على المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة دون الخروج عليها فيذكر "... ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم. وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم. ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ... وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء، كل من اختص به من المقلدين ... ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ... لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود منكوص على عقبة مهجور تقليده. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة"[٣].

وممن برزوا فى الفقه فى هذا القرن ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ)، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وتقى الدين السبكى (ت ٧٥٦هـ) وتاج الدين السبكى (ت ٧٧١هـ) وسراج الدين البلقينى (ت ٨٠٥هـ) كبير الشافعية بمصر وغيرهم كثير.

وحرص بعض فقهاء هذا القرن على نشر العلم وإفادة الطلاب والصبر على جفاء بعضهم فمثلاً: عبد الله المنوفى (ت ٧٤٩هـ) كان من الصلحاء وكان كثير الاحتمال ولا سيما من جفاء الطلبة من المغاربة وأهل الريف وكان فقيهاً مالكياً مقبلاً على تعليم الطلبة[٤].

---

[١] عبد الرحمن النحلاوى: الإمام الذهبي دراسة موضوعية تحليلية تربوية، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨، ص ١٠٢.

[٢] أحمد يوسف سليمان شاهين: الفكر الفقهي عند ابن تيمية، رسالة دكتوراه من قسم الشريعة بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٣٧.

[٣] ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ص ٤١٨ – ٤١٩.

[٤] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٤١٩ – ٤٢٠.

وكان من سمات بعض فقهاء هذا القرن حرصهم على تنقية المجتمع من البدع والضلالات ومن أبرز من قاموا بهذا فقهاء الحنابلة وعلى رأسهم ابن تيمية وأصحابه فكان يقوم على العمل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون الرجوع إلى السلطة المملوكية الحاكمة فيروى أنه فى سنة ٧٠٥هـ أظهر ابن تيمية الإنكار على الفقراء الأحمدية (اتباع الشيخ الرفاعى) فيما يفعلونه من دخولهم فى النيران المشتعلة، وأكلهم الحيات، ولبسهم الأطواق من الحديد فى أعناقهم، وتقلدهم بالسلاسل على مناكبهم .... وقام فى ذلك قياماً عظيماً بدمشق، وحضر جماعة إلى النائب، وعرَّفه أن هذه الطائفة – من الصوفية – مبتدعة، فجمع له ولهم، الناس من أهل العلم، فكان يوماً مشهوداً كادت أن تقوم فيه فتنه واستقر الأمر على العمل بحكم الشرع ونزعهم هذه الهيئات[1].

واتسم بعض فقهاء هذا القرن بالجمود الفكرى والتعصب لأقوال السابقين دونما إبداع وتمحيص لها وكان صاحب الرأى المخالف يتعرض للإهانة من قبل الفقهاء المتزمتين "ففى يوم الاثنين من سنة ست وعشرين وسبعمائة حبس تقى الدين بن تيمية، ومعه أخوة زين الدين بقلعة دمشق، وضرب شمس الدين قيم الجوزية، وشهر* على حمار بدمشق، وسبب ذلك أن ابن قيم الجوزية تكلم بالقدس فى مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء ... فأنكر المقادسة عليه مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضى القضاة جلال الدين محمد القزوينى وغيره من قضاة دمشق. وكان قد وقع من ابن تيمية كلام فى مسألة الطلاق بالثلاث انه لا يقع بلفظ واحد، فقلم عليه فقهاء دمشق. فلما وصلت كتب المقادسة فى ابن القيم، كتبوا فى ابن تيمية وصاحبه ابن القيم إلى السلطان، فعرّف شمس الدين الحريرى قاضى القضاة الحنفية بديار مصر ذلك، فشنع على ابن تيمية تشنيعاً فاحشاً حتى كتب بحبسه، وضرب ابن القيم"[2].

واضح إلى أى مدى كان عقاب المخالف والخارج عن آراء الفقهاء المقلدين حيث أنه يتعرض للإهانة والحبس.

وكان من سمات بعض الفقهاء فى هذا القرن التسرع فى الفتوى بتكفير الناس ولاسيما فقهاء المالكية وكان الفقهاء الشافعية أقل تشدداً من المالكية والحنابلة لأنهم فى نظر الذهبى

---

[1] المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢، ق١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧١، ص ١٦.

* التشهير: عقوبة كانت موجودة فى العصر المملوكى وتقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به فى المدينة ليشهر، وقد تزفه المغانى وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس حوله، وفى نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ٤٢٣.

[2] المقريزى: السلوك، جـ٢، ق١، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

"أكيس الناس وأعلم من غيرهم بالدين، فأس مذهبهم مبنى على اتباع الأحاديث المتصلة، وإمامهم من رءوس أصحاب الحديث، ومناقبه جمة، فإن حصلت يا فلان مذهبه لتدين الله به وتدفع عن نفسك الجهل فأنت بخير... وأما الحنابلة فعندهم علوم نافعة وفيهم دين فى الجملة، ولهم قلة حظ فى الدنيا، والجهال يتكلمون فى عقيدتهم ويرمونهم بالتجسيم، وبأنه يلزمهم، وهم بريئون من ذلك إلا النادر والله يغفر لهم"[١].

ومما يدل على تشدد الفقهاء المالكية ما روى عن القاضى المالكى جمال الدين الزواوى قاضى دمشق (ت ٧١٦هـ) أنه "قد ولى قضاء المالكية بدمشق ثلاثين سنة، بصرامة تامة وقوة فى الأحكام، وشدة فى إراقة دماء الملحدين والزنادقة والمخالفين إلى أن اعتل (أصابته عله) بالرعشه نحو عشرين سنة"[٢].

وكان التعصب لبعض المذاهب الفقهية ظاهرة دينية شائعة فى البيئات العلمية وكان المذهب الشافعى (فى الفروع) غالبا على أهل مصر والشام ولم يكن هذا التعصب مقصورا على الفقهاء وأتباعهم من عامة الناس بل تعداهم إلى المماليك أنفسهم. فيروى أن يلبغا المنصورى كان حنفيا وتعصب لمذهبه وحاباه حتى كان يعطى من يتمذهب لأبى حنيفة العطاء الجزيل. وذكر ابن حجر أنه حاول فى أخر عمره أن يجلس الحنفى فوق الشافعى فعاجله القتل[٣].

وكان اتجاه الفقهاء والمحدثين قويا ونشيطا ونشطت حركة البناء لمؤسساته التربوية فتبارى الأمراء والأغنياء فى بناء مدارس الحديث ومدارس الفقه إما على مذهب واحد أو على المذاهب الأربعة ووقفوا عليها الأوقاف ومن يطالع كتاب النعيمى "الدارس فى تاريخ المدارس"[٤] يرى تلك الكثرة فى هذا القرن.

٣- علماء الكلام:

قام علماء الكلام بالذود عن العقيدة الإسلامية والرد على خصومها من يهود ونصارى وزنادقة وغيرهم ممن كانوا يتعرضون للعقيدة بالطعن والتشكيك وإثارة الشبهات حولها.

وعلم الكلام يتضمن "الحجاج – الدفاع – عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة"[٥].

---

[١] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ص ١٧ – ١٩.

[٢] المقريزى: السلوك، جـ٢، ق١، مرجع سابق، ص ص ١٧٩ – ١٨٠.

[٣] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٤، مرجع سابق، ص ٤٣٨.

[٤] النعيمى: الدارس فى تاريخ المدارس، جزءان، دمشق، ١٣٧٠هـ .

[٥] ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

ويهدف هذا العلم إلى "إقرار العقائد الإيمانية بطريق العقل إلى جانب إقرار المؤمنين القلبى بها والدفاع عن هذه العقائد بإزالة الشبهات المختلفة التى يمكن أن يلحقها بها خصوم هذه العقائد"[١].

وتختلف علاقة الاتجاه الكلامى بالتربية عن اتجاه الفقهاء بها "فإذا كان أهل الفقه رجالاً "عمليين" بمعنى الاشتغال بمواجهة المشكلات والقضايا المتصلة بحياة المسلمين اليومية، فإن أهل الكلام كانوا رجالاً "نظريين" ...ولو أخذنا التربية بمعناها الفنى الذى يحصرها فى نطاق عملية التدريس، فسنجد وجوداً فعالاً للفقهاء دون المتكلمين لكننا لو أخذناها من وجهها الفلسفى وخاصة فى بابها المسمى "فلسفة التربية" فسوف نجد العكس"[٢].

وتشكل مدرسة المتكلمين إحدى مدارس التربية فى الحضارة الإسلامية وتهدف إلى الدفاع عن العقيدة الإسلامية ونشر مبادئ المتكلمين وتفسير النصوص تفسيراً عقلياً ويستفيد أنصار هذه المدرسة من الفلسفة والمنطق للرد على خصومهم وتفنيد حججهم ويعتمد أصحابها على الحوار والجدل.

وكان المذهب الأشعرى هو المذهب السائد فى مجال العقيدة فى هذه الفترة فى مصر والشام وكان يطلق عليه وقتذاك مذهب أهل السنة والجماعة ولم يكن يخالفه إلا الحنابلة وكانت الخلافات بينهما لا تنتهى وكان النزاع العقائدى بينهما مضطرماً زاده اعتماد الحنابلة على النصوص فى دراسة العقائد واعتماد الأشاعرة على الاستدلال العقلى والبرهان المنطقى فى دراستها[٣].

ومما يؤكد تصدى الحنابلة فى هذا القرن للمذهب الأشعرى ما ذكره المقريزى الذى تحدث عن حقيقة هذا المذهب وانتشاره إلى عهد المماليك فى القرن الثامن "........ وبعد السبعمائة من سنى الهجرة اشتهر بدمشق تقى الدين أحمد بن تيمية فتصدى للانتصار لمذهب السلف، وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة والصوفية ..... وكان له ولهم خطوب كبيرة وله إلى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر"[٤].

يتضح من النص السابق أن ابن تيمية أبرز فقهاء الحنابلة فى هذا القرن تصدى لمذهب الأشعرى وبالغ فى إنكاره لأنه كان يعتقد أن العقيدة وما يتصل بها يجب ألا تؤخذ إلا من نصوص الكتاب والسنة لا من الأشعرى وأتباعه الذين رأى فيهم — حسب تصوره —

---

[١] أبو الوفا التفتازانى: دراسات فى الفلسفة الإسلامية، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٧، ص٣.

[٢] سعيد إسماعيل على: اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى، مرجع سابق، ص ١١٩.

[٣] محمد أبو زهرة: ابن تيمية حياته وعصره آراؤه وفقهه، القاهرة، دار الفكر العربى، د. ت، ص ١٦١.

[٤] المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٢، مرجع سابق، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

الانحراف عن عقيدة السلف فى فهم القرآن والسنة وأن اجتهاد أبى الحسن الأشعرى وأتباعـــه ليس ملزماً وأن مذهبه ليس بالضرورة هو القرآن والسنة.

ووجد فى هذا القرن نفر قليل جداً من المتكلمين منهم على سبيل المثال الحسين بـــن المطهر الحلى المعتزلى جمال الدين الشيعى الذى "لازم النصير الطوس مدة، واشتغل بـــالعلوم العقلية فمهر فيها وله كتاب "الأسرار الخفية فى العلوم العقلية" وغـــير ذلـــك وتوفـــى ســنة ٧٢٦هـ"[١].

وقد تشدد بعض الفقهاء والمحدثين فى هذا القرن ضد بعض علماء الكلام وكان الرأى العام ينظر إلى دراسة هذا العلم بشيء من الشك ولم يكن أحد يهتم بهذا العلم إلا القليـــل"... ينبغى أن يعلم أن هذا العلم الذى هو علم الكلام غير ضرورى لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا والأدلـة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا. وأما الآن، فلم يبق منها إلا كلام ننزه البـــارئ عن الكثير من إيهاماته وإطلاقاته ..."[٢].

ومن بين العلماء الذين تشددوا ضد المتكلمين الذهبى الذى يرى أنـــه "لا تقـــع كـــثرة الشكوك والشبه إلا لمن اشتغل بعلم الكلام والحكمة. فدواء هذه رمى هـــذه الأشـــياء المهلكـــة والإعراض عنها بالكلية، والإقبال على كثرة التلاوة والصلاة وإلا غرق فـــى أوديـــة الآراء والعقول ..."[٣].

ويرى التاج السبكى أن كتب علم الكلام التى ألفها المتأخرون أفسدت العقيدة بخـــلاف الكتب الكلامية فى العصور السابقة "وقد اعتبرت – ولا ينبئك مثل خبير – فلم أجـــد أضـــر على أهل عصرنا وأفسد لعقائدهم من نظرهم فى الكتـــب الكلاميـــة التـــى أنشـــأها (ألفاهـــا) المتأخرون بعد الطوسى وغيرهم، ولو اقتصروا على مصنفات القاضى أبى بكـــر البـــاقلانى، والأستاذ أبى إسحاق الأسفراينى وإمام الحرمين وهذه الطائفة لما جرى إلا الخير"[٤].

ويبدو أن ضرر هذه الكتب التى ألفها علماء الكلام المتأخرون كان ســـببه اختلاطـــها بقضايا ومسائل الفلسفة وقد نبه ابن خلدون عن هذا الاختلاط "ثم توغل المتأخرون من بعدهـــم فى مخالطة كتب الفلسفة، والتبس عليهم شأن الموضوع فى العلمين (علم الكـــلام والفلســـفة) فحسبوه فيهما واحداً من اشتباه المسائل فيهما ... بحيث كتب لا يتميز أحد الفنين عن الآخـر،

---

[١] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ١٥٨ – ١٥٩.

[٢] ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٤٢٩.

[٣] الذهبى: الأربعين فى صفات رب العالمين، تحقيق جاسم سليمان الدوسرى، الكويت، الدار السلفية، د. ت، ص ٢٠٣.

[٤] تاج الدين السبكى: معيد النعيم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٦٥.

ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوى (ت ٦٨٥هـ) فى "الطوالع" ومن جاء بعده من علماء العجم فى جميع تآليفهم"[١].

وبالرغم من أن بعض الفقهاء أظهروا العداء لعلم الكلام إلا أنه – كما سبق القول – وجد من اشتغل به فى هذا القرن ولكن على ندرة شديدة ومن أبرزهم: سعد الدين التفتازانى.

ووجد فى هذا القرن بعض المشتغلين بالفلسفة منهم الحسين بن عبد الله الطيبى (ت ٧٤٣هـ) كان حسن المعتقد شديد الرد على الفلاسفة المبتدعة مظهرا فضائحهم مع استيلائهم فى بلاد المسلمين حينئذ شديد الحب لله ورسوله ...... ملازما لإشغال الطلبة فى العلوم الإسلامية بغير طمع بل يفتيهم ويعينهم ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان عرف عنه تعظيم الشريعة مقبلا على نشر العلم آية فى استخراج الدقائق من القرآن والسنة"[٢]

ويبدو أن الفلسفة كانت من العلوم الكريهة فى العصر المملوكى وكان كره الناس لها امتدادا لكراهيتهم لها فى العصر الأيوبى لأن المذهب السنى واضح لا يحتاج إلى الاستعانة بها ولذا كان الفلاسفة مضطهدين فى الدولة الأيوبية[٣].

ومما يدل على كراهية الناس للفلسفة أن ابن الصلاح الشهرزورى من أبرز محدثى القرن السابع الهجرى (ت ٧٤٣هـ) أفتى بتحريم دراسة الفلسفة والمنطق لأن دراستهما فى تصوره تؤدى إلى الإلحاد والكفر وأوجب على ولاة الأمور أن يتعقبوا كل من يشتغل بها "...الفلسفة أس السفة والانحلال والواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم"[٤].

وتتمثل خطورة الفتوى السابقة فى أن صاحبها نفى أى صلة بين العلوم الشرعية والمنطق اليونانى، بل إنه حرم الإطلاع على الكتب الشرعية التى يستعين بالمنطق وتعتمد على مصطلحاته والمقصود كتب علم الكلام[٥].

ونجد فى القرن الثامن الهجرى فتوى شبيهة بالفتوى السابقة بشأن تحريم دراسة المنطق والفلسفة "المنطق نفعه قليل، وضرره وبيل، وما هو من علوم الإسلام"[٦].

---

[١] ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ص ٤٣٦، ٤٣٧.

[٢] ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة، جـ٢، مرجع سابق، ص ١٥٦.

[٣] عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر فى العصريين الأيوبيى والمملوكى الأول، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

[٤] ابن الصلاح: فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث والعقائد، القاهرة، ١٣٤٨هـ، ص ص ٣٤، ٣٥.

[٥] حسان محمد حسان ونادية جمال الدين، مدارس التربية في الحضارة الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٤، ص ٨٩.

[٦] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ص ٢٣، ٢٤.

وسار التاج السبكى على درب شيحة الذهبى فأعتنق رأيه فى تحريم دراسة الفلسفة واضطهاد أهلها حيث يرى أن "من اشتغل بمقالات ابن سينا وغيره وترك القرآن والسنة أن يضرب بالسياط ويطاف به فى الأسواق"[1].

وبرزت أثار كره الرأى العام للمشتغلين بالفلسفة فى هذا القرن فى تراجم بعض العلماء فمن ذلك مثلا عبد القادر بن مهذب بن جعفر الأدفوى (ت ٧٢٥هـ) كان "جوادا ذكيا متواضعا دخل إلى مدينة قوص بالصعيد وكان مقبلا على كتاب "الدعائم" لابن النعمان شيخ طائفة الإسماعيلية الشيعية وكان فيلسوفا يقرأ الفلسفة ويفكر طويلا. قال الأدفوى مرض فلم أصل إليه، ومات فلم أصل عليه"[2].

ويبدو أن "ثمة ارتباطا بين هذا الاتجاه إلى معادة الفلسفة والمنطق وبين نمط التفكير الذى كان يتسم فى جانب كبير منه بالاستسلام والتقليد والتواكلية وعدم الثقة بالنفس والشعور بالذنب، وتوقع العقاب الإلهى فى كل لحظة ممثلا عندهم فى الأوبئة والمجاعات لا فى استبداد المماليك وغير ذلك مما نراه فى تصرفاتهم وفى طرائق تفكيرهم، ولعل بعض أفكار ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٩هـ = ١٣٠٩م) تلميذ المدرسة الشاذلية تبين لنا كيف تغلب لديه التواكل على التوكل، والخوف على المحبة، والرهبة على العدالة والتشاؤم على التفاؤل وهدم جوانب الحياة الدنيا على النضال لبنائها بأيد مؤمنه"[3].

ويبدو أن الابتعاد عن دراسة الفلسفة فى هذا القرن كان سببه الخشية من الإهمال للعلوم الشريعة فقد أراد إبراهيم بن هبة الله الاسنائى أن يقرأ الفلسفة على الشيخ شمس الدين الاصبهانى (ت ٧٤٩هـ) فقال له: حتى تمتزج بالشرعيات امتزاجا جيدا[4].

وكان للمد السنى أثره فى محاصرة المشتغلين بالعلوم العقلية والفلسفية فى العصر الأيوبى ثم امتد ذلك إلى عصر المماليك الذين تشدد بعض سلاطينهم ضد هؤلاء بإيعاز من فقهاء السنة وقضاتهم وكان قد وفد على مصر والشام فى هذه الفترة بعض الفلاسفة والمتكلمين من المشرق والمغرب البارزين وكان من ابرزهم وأثر فى رجال عصره وخرج كثيرا من التلاميذ عضد الدين الأيجى (ت ٧٥٦هـ) قاضى قضاة المشرق وشيخ الشافعية بتلك البلاد

---

[1] تاج الدين السبكى: معيد النعيم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٦٥.

[2] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص٦.

[3] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليم بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ١٣٧.

[4] الأدفوى: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، سلسلة تراثنا، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ٧٥.

وكان إماما فى المعقولات[1] ومن هؤلاء الذين وفدوا إلى الشام قطب الدين الشيرازى الفارسى الأصل من أكبر تلامذة نصير الدين الطوسى[2].

وقتل بمصر والشام بعض المشتغلين بالفلسفة منهم مثلا: محمد بن الباجريقى الزنديق. قال الذهبى: الضال الذى حكم القاضى المالكى بضرب عنقه مرة بعد أخرى لثبوت أمور وكلمات شنيعة[3].

وقتل سنة ٧٢٠هـ أيام السلطان الناصر محمد رجل يدعى إسماعيل بن سعيد الكردى لاتهامه بالكفر والزندقة "وقد نظر فى المنطق فدخل فى كلام لا فائدة له فضبط عليه وكان كثيرا ما يتمادجن ويمزح ويجترئ على الألفاظ الموبقة حتى اشتهر بإسماعيل الكافر ورفع أمره إلى القاضى المالكى فأمر بقتله"[4].

وتبين مما سبق أن الفلسفة كانت من العلوم المرفوضة فى هذا القرن وأن عدد المشتغلين بها كان قليلا جدا وتعرض بعضهم لبعض المضايقات من بعض الفقهاء.

ووجد فى القرن الثامن الهجرى العديد من المتصوفة ويعرض الباحث للمتصوفة.

٤- المتصوفة:

انتشر التصوف فى عصر سلاطين المماليك انتشارا واسعا واتسع نطاقه وكان للصوفية مكانة كبيرة فى مصر والشام وانقسموا إلى طرق عديدة لكل طريقة شيخها وشعارها فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوى وشعارها اللون الأحمر وأطلقوا على أنفسهم اسم "الفقراء" وذلك لأن "الفقر شعار الصالحين" ولكل واحد منهم شيخه الذى يرتبط به وبطريقته واستتبع انتشار التصوف وكثرة المتصوفة كثرة عدد البيوت المخصصة لهم وسميت بالخوانق* والربط والزوايا[5].

---

[1] ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، جـ٦، القاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩، ص ١٧٤.

[2] الشوكانى: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ٢، بيروت، دار المعرفة د. ت، ص ٢٩٩.

[3] ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ٦، مرجع سابق، ص ص ٦٤، ٦٥.

[4] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ١، مرجع سابق، ص ٣٦٧.

* الخوانق مفردها خانقاه وهى بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر أما الرباط فجمعه الربط والرباطات وهو فى الأصل مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو، ثم صار اللفظ يطلق على بيت الصوفية حيث يرابطون للزهد والعبادة والزوايا جمعها الزاوية وهى اسم أطلق قديما على كل مسجد صغير، فيه أحد الرجال المعروفين بالزهد والتقوى ويعظ ويرشد من يتردد على زاويته من الناس وتطور معنى زاوية فى العصر المملوكى فأصبح يقصد به الخانقة أو منزل الصوفية. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ص ٤٣٣، ٤٤٠، ٤٤٤.

[5] سعيد عبد الفتاح عاشور: مرجع سابق، ص ص١٧٩ - ١٨٦.

ويبدو أن تدهور أحوال البلاد فى مصر والشام سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وانتشار الفقر واليأس من الحياة فضلا عن ظلم بعض سلاطين المماليك فى هذا العصر كان حافزا قويا وكبيرا على إقبال الناس وبخاصة فى مصر على حياة التصوف فآمن الناس بمشايخ الصوفية واعتقدوا فى كراماتهم ووجدت الصوفية منفذا إلى قلوب الناس وانتشرت دعوتها وكثر دعاتها وطرقهم وقلما وجد فى عصر سلاطين المماليك عالم أو فقيه لم يكن من المعروفين بالزهد والتصوف.

وكانت السلطة المملوكية تساعد على انتشار الفكر الصوفى اعتناقا له حينا، أو مصانعه لأربابه حينا آخر، واستهواء للشعب أحيانا، أو لهذه الأسباب السياسية والنفسية كلها[١].

ووجد فى القرن الثامن عدد كبير من المتصوفة فى مصر والشام ومن أبرزهم ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٩هـ) المالكى الصوفى وهو من أنبههم وأشهرهم وأكثرهم تصنيفا صحب شيخه أبا العباس المرسى ونبغ وصار إماما عارفا صاحب كرامات وإشارات وقدم راسخة فى التصوف وكان المتكلم بلسان الصوفية فى زمانه[٢].

ومن متصوفة هذا القرن أيضا نصر بن سليمان بن عمر المنبجى (ت ٧١٩هـ) "نزيل القاهرة شارك فى العلوم ثم انعزل وتعبد وانقطع وأقام بزاويته بباب النصر وارتفع ذكره فى سلطنه الجاشنكير لأنه كان يعتقده ولا يخالف أمره وصار يتردد إليه الكبار فيهرب منهم غالبا ... وكان يحط على ابن تيمية من أجل حطه على ابن عربى ولكنه كان لا يعرف ما يعاب به ابن عربى إلا لكونه منسوبا إلى الزهد. قال الذهبى: جلست مع الشيخ نصر بزاويته وأعجبنى سمته وعبادته قل أن ترى العيون مثله ..."[٣].

واشتهر بعض متصوفة هذا القرن بكثير من المكاشفات والكرامات التى هى أقرب إلى الجهل والكفر منها إلى الدين والعلم فقد روى أن أبى الشيخ أحمد بن أحمد بن عبد الله العجمى نزيل القاهرة أنه كان صاحب مكاشفات وللناس فيه اعتقاد كبير وكان السلطان برقوق يجله ويجلسه فى مجلسه العام على المقعد الذى هو عليه، وكان هو يسب برقوقا بحضرة الأمراء، وربما بصق فى وجهه ولا يتأثر وتوفى هذا الشيخ سنة ٨٠١هـ[٤].

---

[١] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٣٩٧.

[٢] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ١، مرجع سابق، ص ص ٢٩١ - ٢٩٣.

[٣] ------------: المرجع السابق، جـ٥، ص ١٦٥.

[٤] السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، مرجع سابق، ص ٤٥٦.

ويبدو أن ضعف المستوى الفكرى والثقافى فى تلك الفترة فضلا عن مظالم المماليك قد ساعد على ترويج ما يشاع من الكرامات واعتقاد الناس الزائد فيها فى مصر والشام وشـمل هذا الاعتقاد عامة الشعب وكذا أمراء المماليك وسلاطينهم.

ووجدت فى هذا القرن طوائف من المجاذيب أو الدراويش الذين اشـتهروا بأفعالـهم الغريبة حتى أن بعضهم حلق لحيته ورأسه وحاجبيه، كما أزال رموش عينيه حتـى لا تفتـن الناس به، فبدوا فى صورة أثارت رعب من رآهم. كذلك عدلت فئات عن التقشف إلى الرذيلة وأصبحت أذكارهم نوعا من الغناء والرقص والتصفيق على أنغام الشبابة والمزمـار والـدف وصاروا لا ينسبون إلى علم ولا ديانة واعتقد الناس فى هؤلاء المجاذيب[1].

ويبدوا أن هؤلاء المتصوفة المتطرفين فى آرائهم وأفعالهم الشاذة والغريبة هم الذيـن كانوا يسمون القلندرية أو القرندربة الذين عناهم ابن خلدون وأشار إليهم "ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلـك صحـت لـهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين"[2].

وكانت لهؤلاء المجاذيب زاوية "وهذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة من الجهة التى فيها الترب والمقابر التى تلى المساكن أنشأها الشيخ حسن الجوالقى القلندرى أحد فقـراء العجم القلندرية، ولما قدم إلى مصر تقدم عند أمراء الدولة التركية وأقبلوا عليه واعتقـدوه ... وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلت أعمالـهم مـن الصوم والصلاة إلا الفرائض ... ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزعموا أنهم قد قنعـوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى واقتصروا على ذلك..."[3]

وهكذا اعتقد الناس فى هؤلاء المجاذيب المنحرفين من الصوفية ولـم يكـن أمـراء المماليك وسلاطينهم أقل اعتقادا فى هؤلاء المجاذيب من عامة الشعب.

وذكر أحد المعاصرين عن مدعى التصوف الذين كثروا فى هذا القرن واشتبه أمرهـم على الناس أنهم "قوم من المفتونين لبسوا ألبسه الصوف لينسبوا إليهم، وما هم منهم بشىء، بل هم فى غرور وغلط، يتسترون بلبسه الصوفية توقيا تارة، ودعوة تارة أخـرى، وينتـهجون مناهج أهل الإباحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعـالى، وأن هـذا هـو الظفـر بالمراد، والاتسام بمراسيم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام. وهذا هو عيـن الإلحـاد

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(2) ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(3) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، مكتبة الثقافة الدينية، مرجع سابق، ص ص ٤٣٢، ٤٣٣.

والزندقة والإبعاد ... ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع..."[1].

وكان للفقهاء موقفهم من الصوفية فى هذا القرن حيث عارضوا أقوال مدعى التصوف وميلهم إلى الكلام بالرموز والألفاظ الغامضة التى لا تعيها العقول كما حاربوا شطحاتهم وخاصة قول بعض الصوفية بالحلول والاتحاد* والتناسخ واعتبروه كفرا فيحكم على القائلين به فى مجلس العدل بالقتل. وممن قتل فى هذا القرن عثمان الدكاكى فقد روى أنه فى سنة ٧٤١هـ "أجتمع القضاة والأعيان لإعدام رجل يدعى عثمان الدكاكى قامت عليه البينة بدعوى الألوهية وطعن فى الأنبياء فحكم عليه القاضى الحنبلى والمالكى بتكفيره وإراقة دمه وإن تاب، فضربت رقبته بدمشق ونودى عليه: هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية، وكان يوما مشهودا وحضر خلق من الأعيان والمشايخ، منهم شيخنا الذهبى وشهر بزندقة عثمان الدكاكى، وكنت حاضرا يوم إعدامه"[2].

وقد هاجم علماء الدين التصوف غير الملتزم ووقفوا أمامه وقفة صلبة وكان ممن اعتقدوا انحرافه تصوف "ابن عربى" ولذا منع فى حلب الدعوة إليه أو مطالعه كتبه أو حتى وجودها فقد مزق علماء الدين فى حلب عام ٧٤٤هـ كتابة "فصوص الحكم بالمدرسة العصرونية تنبيها على تحريم اقتنائه ومطالعته"[3].

يتبين موقف الفقهاء *من التصوف غير الملتزم حيث قاوموه وأنكروا على مدعى التصوف شطحاتهم وترهاتهم.

وتصوره عامة آل أمر التصوف والصوفية فى هذا القرن إلى التدهور والانحطاط وتغيرت أحوالهم من الصلاح إلى الفساد وتخلو عن النظم والآداب التى عرفوا بها بين الناس وصاروا موضع سخرية المجتمع ونقد العقلاء من ذلك أن أذكارهم غدت بصوت مسموع ويشترك فيها جماعة ومن ثم سميت السماعات. ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مصاهر تلك السماعات فإذا بدا معه المتصوف الطرب قليلا، حرك

---

[1] المقريزى: المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، جـ٢، ص ٤١٤.

* كلمتان غريبتان عن الإسلام وأصحاب هذا المذهب كابن عربى والحلاج يرون أن الوجود كله حقيقة واحدة وليس ثمة تفرقة بين الخالق والمخلوق ويقولون بوحدة الأديان وكل هذه السفاهات والتفاهات يرفضها العقل الإسلامى المستنير وليست من الدين فى شيء.

[2] ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٤، مرجع سابق، ص ص ٢٠١، ٢٠٢.

[3] محمد راغب الطباخ الحلبى: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ٢، حلب، دار القلم العربى، ط٢، ١٩٨٨، ص ٣٢٩.

* يقصد الباحث بذلك علماء السنة والحنابلة الذين تصدوا للصوفية المتطرفين.

رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء، ثم إذا تمكن الطرب منه ذهب حياؤه ووقاره، فيقـوم ويرقص، ويعيط ويبكى وينادى: ويدخل ويخرج ويبسط يديه ويرفع رأسه نحو السماء كأنـه جاؤه المدد منها، وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته[1].

واستنكر كثير من المعاصرين ذلك الوضع الذى آل إليه أمر الصوفية ومما قيل فـى ذلك:

صوفية أحدثوا فى ديننا لعبا	وخالفوا الحق دين المصطفى العرب
من اقتدى بهم قد ضل مثلهم	سحقا لمذهبهم ولو كان من ذهب
أهل المراقص لا تأخذ بمذهبهم	فقد تمادوا على التموية والكذب[2].

وكان لازدياد تيار التصوف فى مصر والشام أثره الخطير فـى الحيـاتين الفكريـة والاجتماعية لأن المتصوفة صبغوا القيم والمثل العليا بصبغة الزهد، والرغبـة عـن الدنيـا ومتاعها والاتجاه نحو الآخرة والعمل لها. وترتب على هذه الاتجاهات نشر روح الاسـتكانة والقناعة بالقليل والتذلل للحكام بين عامة الناس، مما ظلت بقاياه فى نفـوس الكثـيرين أمـدا طويلا[3].

ووجد فى القرن الثامن كثير من المؤرخين ويعرض الباحث للمؤرخين:

٥- المؤرخون:

شهد القرن الثامن الهجرى بروز أعلام فى الثقافة الإسلامية كان من بينهم مؤرخون اكتسبوا مكانة مرموقة بين المسهمين فى الفكر التاريخى العربى الإسلامى، منهم: كمال الديـن ابن القوطى (ت ٧٢٣هـ)، وقطب الدين اليونينى (ت ٧٢٦هـ) وابن سيد الناس اليعمرى (ت ٧٣٩هـ) وأبو الحجاج المزى (ت ٧٤٢هـ) وشمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨هـ) وصـلاح الدين الصفدى (ت ٧٦٤هـ) وابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤هـ) وتـاج الديـن السـبكى (ت ٧٧١هـ) وابن كثير (ت ٧٩٤هـ) وغيرهم كثير ممن ترجم لهم ابن حجر.

وقد اعتبر المعنيون بالدراسات التاريخية المزى والذهبى من أبرز مؤرخـى القـرن الثامن اللذين لا ينافسهما أحد[4].

---

(1) ابن الحاج:مدخل الشرع الشريف على المذاهب،جـ٢، القاهرة، المطبعة المصرية،١٩٢٣،ص ص ٢- ٦.

(2) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، القاهرة، طبعة بولاق، ١٨٩٦، ص ٢٢٠.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة، دار النهضة والعربيـة، ١٩٦٩م، ص ٣٥٨.

(4) الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ٢، فرانز شتايز بفيسبادن، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ص ١٦٣.

ويختلف هؤلاء المؤرخون فى نزعاتهم وأهوائهم ومذاهبهم فى كتابة التاريخ فمنهم من يتجه للعناية بكتابة السير مثل محيى الدين بن عبد الظاهر فى سيرة السلطان الظاهر بيبرس المملوكى، ومنهم من يهتم بكتابة التراجم مثل الصفدى فى كتابة (الوافى بالوفيات) والأدفوى (ت ٧٤٨هـ) فى كتابة (الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد) ومنهم من اعتنى بتاريخ الدول الإسلامية عامة مثل بيبرس المنصورى (ت ٧٢٥هـ) فى كتابة (زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة)، والذهبى فى كتابة (تاريخ الإسلام) ومنهم من اتجه للعناية بكتابة تاريخ مصر ومنهم ابن حبيب الحلبى (ت ٧٧٩هـ) فى كتابه (درة الأسلاك فى دولة الأتراك).

وكان لبعض هؤلاء المؤرخين عناية كبيرة بكتابة السيرة النبوية وممن اشتهروا بكتابة السيرة النبوية فى هذا القرن ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) وهو فتح الدين اليعمرى الأندلسى من كبار المحدثين وله كتابات فى السيرة النبوية هما: "عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، فى غزوات سيد ربيعة ومضر إذ هى أشرف شمائل البشر. وهو من مطولات السيرة النبوية استخرجه مما كتب فى هذه السيرة من المؤرخين السابقين وكتاب "بشرى اللبيب فى ذكرى الحبيب"[1].

ويلاحظ أن هؤلاء المؤرخين كتبوا هذه الكتب التاريخية على نظام السنوات وكانوا ينقلون دائما عن السابقين فيما يختص بالحوادث التاريخية القديمة، وأما ما يختص بحوادث العصر الذى عاشوا فيه، فإنهم اكتفوا بإيراد هذه الحوادث إيرادا دقيقا وإن كانوا في الوقت نفسه – لا يتعرضون لنقدها، أو التعليق عليها، أو توضيح ما عسي أن يكون لها من أثر في الحوادث التالية لها، وهكذا [2]

ويتبين مما سبق وجود عدد كبير من المؤرخين في هذا القرن وقد تعددت وتنوعت اتجاهاتهم في تأليفهم للكتب التاريخية واحتل بعضهم مكانة مرموقة كالذهبي الذى يعد أبرز مؤرخي القرن الثامن الهجري.

وقد وجد في هذا القرن بعض الأدباء ولذا يعرض الباحث للأدباء.

٦- الأدباء:

ازدهر الأدب في مصر والشام في هذا العصر وحفل القرن الثامن بالبعض من رجال العلم والأدب وكان اتجاه الأدباء والشعراء "يضم فئة كثيرة العدد، لأن دولة المماليك كانت متعددة الدواوين كثيرة الإجراءات واللوائح والرسوم، وكان ذلك الوضع الإداري يتطلب

---

(١) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر العصريين الأيوبي والمملوكي الأول، مرجع سابق، ص ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢)----------: المرجع سابق، ٢٩٦.

موظفين ذوي سمات خاصة، وكانت الثقافة اللسانية وجودة الخط والمعروفة برسوم الملك وتقاليد الملوك وتنظيمات الحكم من الاهتمامات الأساسية للكتاب، لذا نهض النثر الديواني (الرسمي) ذو الاتجاه السياسي الرسمي أكثر من النثر الفني الإخوانى الذي دار حول أمور أغلبها شخصية. ومما يلفت النظر ظهور لون من النثر الفني أقرب إلي الجمع والحشد لثقافات أدبية أو جغرافية مثل: "نهاية الأدب في فنون الأرب" للنويري (ت ٧٣٣هـ = ١٣٢٢م) "ومسالك الأبصار" لأبن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ) وكتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا " للقلقشندى (ت ٨٢١هـ) وكل كتاب من هذه الكتب يتجاوز عشرة أجزاء، وبعضها (نهاية الأرب) تجاوز الثلاثين مجلدة "[١].

وحرص بعض علماء اللغة في هذا القرن علي عدم التكلم بلغته الأصلية حتى يتمكن من الاستمرار في إجادة اللغة العربية من ذلك مثلا: ابن علاق الذي قال عن نفسه: "بقيت عشرين سنة لا أتكلم بالتركي حرصا علي إتقان اللسان العربي، وكان أصله من مماليك الناصر بن العزيز، ثم تنقل في الخدم وتأمر، وكان من أكابر الفضلاء والأمراء، وله نظم ونثر "[٢].

ويبدو أن "روح التقليد وترديد فكر السابقين كان سمة سائدة في النثر والشعر، فرغم ظهور الموسوعات التي لا تحتاج إلي إبداع وابتكار كثير، كان التقليد سائدا في بيئات الشعراء والكتاب، فأغراض الشعر في غالبيتها دينية أو إخوانية والولوع بالصناعة اللفظية علي نمط القاضي الفاضل كان يصل إلي التكلف والمبالغة وضحالة الفكر في عمومه كان سمة الشعراء الذين عاشوا عصرا من أسوأ عصور الشعر فلم يتمتعوا بتشجيع مادى يكفل لهم التفرغ لطلب الثقافة العقلية، ولم يحظوا بما يثير قرائحهم وينمي استعداداتهم مثلما كان شعراء العصر العباسي، لذا كانوا أصحاب مهن – بعضها متواضع – فمنهم الكحال، والقصاب، والوراق، والحمامي، والبدال... الخ. ذلك لأن الشعر لدي سلاطين أعاجم لم يعد يوفر للشاعر حياة رغدة في ظلال تشحذ مواهبه وتزكي المنافسة بينه وبين الآخرين كما كان الحال في الشعر العربي منذ النعمان بن المنذر ونابغة بني ذبيان في الحيرة إلى سيف الدولة الحمداني وأبي الطيب المتنبي في حلب" [٣]

ووجد في هذا القرن بعض الأطباء ويعرض الباحث للأطباء.

---

[١] عبد البديع الخولي: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ١٢٠.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، مرجع سابق، ص ٣.

[٣]عبد البديع الخولي: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية، مرجع سابق، ص ١٢١.

٧- **الأطباء:**

وجد في القرن الثامن الهجري بعض المشتغلين بالطب منهم مثلا:علم الدين إبراهيم (ت ٧٠٨هـ) رئيس الأطباء بمصر والشام [١].

وكان من سمات بعض الأطباء استخدام الأعشاب والنباتات الطبية في علاج المرضي فمثلا: "محمد بن إبراهيم الأنصاري الغرناطي المعروف بابن السراج الطبيب قرأ الطب علي أبي جعفر الكربي وألف كتابا في النبات، وكان عارفا بالأعشاب"" [٢]. "وأما إبراهيم بن أبي الوحش فهو أول من عمل شراب الورد الطري وعالج الظاهر بيبرس فعوفي فوهب له الأمراء شيئا خارج الحد""[٣].

ومن أطرف ما يذكر أن بعضا من علماء الطب المسلمين لم يضع "تعريفة" موحدة للمرضي بل جعلها "فئات" تتفاوت بتفاوت المستويات الاجتماعية والاقتصادية.. صور أولية لفكرة "الضرائب التصاعدية " أو قل، هي تطبيق لما يسمي بـ "السعر الاجتماعي"، ذلك السعر الذي يوضح للسلعة لا تعبيرا عن تكلفتها + الربح المطلوب، وإنما يوضع علي أساس "القدرة الشرائية" للعميل حتى ولو قل السعر عن التكلفة الحقيقية له[٤]. ومما يؤكد ذلك ما روي عن علي بن عبد الواحد بن محمد رئيس الأطباء في الديار المصرية الذي "انتهت إليه معرفة العلاج ومهرة فى بحيث كان يصف الدواء للفقراء بفلس ويصف ذلك الدواء بعينه للغنى بمائة[٥]."

واهتم بعض الأطباء بتبسيط الطب علي المبتدئين حتى يشجعهم علي ارتياد آفاقه ومن ذلك أن محمد بن محمد الصرنجي "من أهل مالقة – مالطة – كان عارفا بالحساب قائما علي العربية مشاركا في الفقه وكثيرا من العلوم العقلية درس في الطب وشرع في تقييده علي التسهيل فلم يكمله ومات سنة ٧٥٠هـ" [٦].

ويتضح للباحث في ضوء العرض السابق أن القرن الثامن الهجري كان يحفل بالعديد من اتجاهات العلماء والمثقفين فهناك اتجاه أصحاب الحديث والفقهاء وهذان الاتجاهان كانا

---

[١] المقريزي: السلوك، جـ٢، ق١، مرجع سابق، ص ٥٠.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص ٣٧٣.

[٣]--------------: المرجع سابق، جـ١، ص ٧٧.

[٤] سعيد إسماعيل علي: دراسات في التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣١.

[٥]ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص ١٥٢.

[٦]-------------: المرجع السابق، جـ٥، ص ١٥.

مسيطرين علي مسار الحركة الثقافية الواسعة لأنهما كانا يسيران في فلك الاتجاه العام المتمثل في المذهب الأشعري في الأصول والمذهب الشافعي في الفروع وهنـــاك اتجـــاه المتكلميـــن وبعض المشتغلين بالفلسفة وكان هؤلاء قلة قليلة وكان هذا الاتجاه مرفوضا من الرأي العـــام السني المتشدد ضد الفلسفة والثقافات العقلية ووجد في هذا القرن بعض من المؤرخين والأدباء والأطباء. ووجد الصوفية الذين اشتد نفوذهم علي العامة وبعض أصحاب السلطة من المماليك في هذا القرن في مصر والشام. وهذه الاتجاهات كانت تعكس الأوضاع التـــي شـــهدها هـــذا القرن.

الفصل الرابع

الآراء التربوية عند الذهبي

٦٧٣ — ٧٤٨هـ

الفصل الرابع

الآراء التربوية عند الذهبي

٦٧٣ — ٧٤٨هـ

١- مقدمة:

شهد القرن الثامن الهجري بروز العديد من المحدثين الذين كانت لهم آراء تربوية وفي مقدمتهم الإمام الذهبي وظهرت هذه الآراء مرتبطة ببعض الموضوعات التي أهتم بها.

ويحتل الذهبي موقعاً متميزاً في التراث الإسلامي حيث أنه يعد من كبار علماء الحديث والمؤرخين. جمع تاريخ الأمة الإسلامية وتصنيفه ونقد رواة الحديث وقد ترك للأمة عشرات الكتب والمجلدات في الحديث وتراجم الرواة وفي التاريخ ورجاله.

ونظراً للمكانة المرموقة للذهبي في التراث الإسلامي فإن الباحث في هذه الدراسة يهتم بالكشف عن الآراء التربوية للذهبي بعد أن يتناول مولده ونشأته ثم يعرض بعد ذلك لآرائه التربوية.

٢- مولد الذهبي ونشأته:

هو: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي. كنيته أبو عبد الله،ولقبه شمس الدين. والذهبي تركماني الأصل مولده ووفاته في دمشق[1]. اشتهر وصفه بالذهبى وهذا الوصف لأبيه (أحمد) الذى برع في صنعة الذهب المدقوق.

نشأ الذهبي بدمشق وخطا أولى خطواته العلمية فيها وسمع من علمائها وطاف البلاد طلباً للعلم وتحصيله ورحل إلي كثير من بلدان الديار الشامية والمصرية والحجازية المقدسة وحصّل من خلال إقامته في دمشق ورحلاته علماً غزيراً ومتنوعاً وتأثر بالعلماء واستفاد منهم ومن أوضح الأدلة علي ذلك ما ذكره عن رحلته إلي حلب سنة ٦٩٣هـ برفقة والده حيث أخذ من علماء حلب وفى مقدمتهم سنقر بن عبد الله الزينى "رحلت إليه، وأكثرت عنه، ونعم الشيخ كان دينا ومروءة"[2]، وسمعت منه "سنن ابن ماجه كله"[3].

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٢) الذهبى:معجم الشيوخ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطائف، مكتبة الصديق، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٥٢.

(٣) ---- : سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

وتتلمذ الذهبى على نخبة من كبار العلماء المحدثين والفقهاء فى عصره وأخــذ العلــم عنهم سواء بالإجازة أو بالسماع وقد ترجم لكثير منهم فى كتبه المختلفة مثل: "المعجم المختص بالمحدثين"[١] بل وأفر د لهم كتاباً مستقلاً هو "معجم شيوخه"* لكنه فى هذا المعجم لم يستوعبهم كما بين ذلك فى مقدمته "هذا معجم العبد المسكين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايمــاز ابــن الشيخ عبد الله التركمانى الفارقى الدمشقى بن الذهبى، يشتمل على ذكر من لقيته أو كتب إلــىّ بالإجازة فى الصغر، وعلى كثير من المجيزين لى فى الكبر، ولم استوعبهم، وربما أجاز لــى الرجل ولم أشعر به، بخلاف من سمعته فإنى أعرفه"[٢].

ومن أهم شيوخه الذين تتلمذ عليهم وأثروا فى تكوين شخصيته العلمية ابن تيميــة (ت ٧٢٨هـ) وقد توفى قبل الذهبى بعشرين عاماً وكان قد تولى التدريس فى دار الحديث السكرية بدمشق وبعد وفاة ابن تيمية وليها الذهبى وقد أثنى على شيخه ابن تيمية فى أكثر من موضــع من كتاباته "فو الله ما رمقت عينى أوسع علماً ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له ابن تيمية مــع الزهد فى المأكل والملبس والنساء، ومع القيام فى الجهاد والحق بكل ممكن ... وقد قام عليــه ناس ليسوا بأورع منه ولا أعلم منه ولا أزهد منه ... "[٣].

وممن تأثر بهم أيضاً علم الدين البرزالى (ت ٧٣٩هـ) الذى حبب علم الحديث إليــه وحثه على العناية به "وهو الذى حبب إلى طلب الحديث، فإنه رأى خطى، فقال: خطك يشــبه خط المحدثين، فأثر قوله فى، وسمعت منه وتخرجت فى أشياء"[٤].

وذكر فى ترجمته أنه "... مفيدنا ومعلمنا ورفيقنا محدث الشام ومــؤرخ العصــر"[٥] ومن هؤلاء الذين تأثر بهم أبو الحجاج المزىّ (ت ٧٤٢هـ) وقد أثنى عليه الذهبى ونعته بأنه كان "خاتمة الحفاظ وناقد الأسانيد والألفاظ وهو صاحب معضلاتنا وموضع مشكلاتنا"[٦].

---

[١] الذهبى: المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطائف، مكتبة الصديــق، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

* اشتمل هذا المعجم على شيوخ الذهبى بالسماع والإجازة رتبه على حروف المعجم وابتدأ (بالأحمدين، فــى حرف الألف وقد حققه محمد الحبيب الهيلة وصدر فى مجلدين الأول يقع فى (٤٤٢) صفحة، والثـانى (٤٢٩) صفحة. أما المعجم المختص بالمحدثين فهو موضوع لترجمة طلبة العلم والحديث النبوى فى عصره ويحتـوى على ٣٩٤ ترجمة مرتبة على حروف المعجم وهو محقق حققه أيضاً حقيقة محمد الهيليــة، وروحيــة عبـد الرحمن السيوفى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

[٢] الذهبى: معجم الشيوخ، مرجع سابق، ص ١٣.

[٣] ----: بيان زغل العلم والطلب: مرجع سابق، ص ١٨.

[٤] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

[٥] الذهبى: معجم الشيوخ، مرجع سابق، ص ٤٣٥.

[٦] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٥، مرجع سابق، ص ص ٢٣٥، ٢٣٦.

وترجم الذهبى لشيخه المزى فذكر عنه "ترافق هو وابن تيمية كثيراً فى سماع الحديث، وفى النظر فى العلم، وكان يقرر طريقة السلف فى السنة، ويعضد ذلك بمباحث نظرته وقواعد كلامية، وجرى بيننا مجادلات ومعارضات فى ذلك، تركها أسلم وأولى"[١].

أتصل الذهبى اتصالاً وثيقاً بهؤلاء الثلاثة* البارزين من شيوخ الحديث فى هذا القرن وترافق معهم طيلة حياته. وكان الذهبى أصغرهم سناً، وكان أبو الحجاج المزى أكبرهم، وكان بعضهم يقرأ على بعض، فهم شيوخ وأقران فى الوقت نفسه، وقد ساعد من قوة هذه العلاقة وذلك الاتصال الوثيق اتجاههم نحو طلب الحديث منذ فترة مبكرة وميلهم إلى آراء الحنابلة ودفاعهم عن مذهبهم، مع أن المزى والبرزالى والذهبى كانوا من الشافعية. وكان كل واحد منهم محباً للآخر ذاكراً فضله[٢].

وكان ابن تيمية أكثر الثلاثة أثرا فى شخصية الذهبى وتوجهاته وأفكاره ومنهجه وأثرت صله الذهبى بابن تيمية فيما اختصر وألف من كتب[٣] وحبه للحنابلة ومذهب السلف وبغضه لعلم الكلام ولفلسفة ومحاربة أهل البدع من الصوفية[٤] مع أن الذهبى قد خالفه وأخذ عليه "الكبر والعجب، وفرط الغرام فى رياسة المشيخة والازدراء بالكبار"[٥].

كانت حياة الذهبى العلمية تنم عن اهتمامه بثلاثة علوم أساسية برع فيها وكونت فى جملتها شخصيته العلمية والتربوية وهى القراءات، والحديث، والتاريخ، فأما علم القراءات فقد اهتم بسماع القرآن عن شيوخ القراء فقد روى عن نفسه أنه قرأ بالسبع على الإمام المقرئ

---

[١] الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٤، بيروت، دار إحياء التراث العربى، د.ت، ص ١٤٩٩.

* صلة الذهبى الوثيقة بهؤلاء الثلاثة – وبخاصة ابن تيمية – وميلهم الشديد نحو مذهب السلف ومخالفة متأخرى الأشاعرة وعلماء الكلام قد أدى فى أحايين كثيرة إلى إيذائهم واتهامهم بما ليس فيهم ومن مظاهر ذلك إيذاء المزى وإيداعه فى السجن وحرمان الذهبى من مشيخة "دار الحديث الأشرفية" بعد وفاة المزى لأن الذهبى ليس أشعريا فعين تقى الدين السبكى، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٤، مرجع سابق، ص ٣٧، والسبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٦، ص ص ١٧٠، ١٧١، وابن حجر: الدرر الكامنة، جـ٥، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

[٢] بشار عواد معروف الذهبى ومنهجه فى (تاريخ الإسلام) مرجع سابق، ص ص ٩٩ – ١٠٣.

[٣] من ذلك مثلا: المنتقى من منهاج الاعتدال فى نقض كلام أهل الرفض والاعتزال لشيخة ابن تيمية.

[٤] ذكر فى ترجمة شيخة ابن العديم (ت ٧٠٤هـ): "وكان يدخل فى ترهات الصوفية"، الذهبى: معجم الشيوخ، ص ٨٥.

[٥] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ١٨.

النحوى محمد بن منصور الحلبى (ت ٧٠٠هـ)، وكان شيخ القراء بالتربة العادلية، وأحد المتصدرين بها وبالجامع الأموى[1].

وعرف الذهبى بتفوقه فى هذا الفن "علم القراءات" واشتهر به بين علماء عصره ومن بعدهم فوصفه تلميذه الحافظ الحسينى (ت ٧٦٥هـ) بأنه "قدوة الحفاظ والقراء"[2].

وأما الحديث فقد اهتم به اهتماماً كبيراً حتى صار من أبرز المحدثين فى هذا القرن ومما يدل على ذلك أن معظم تراجمه فى كتابيه "تاريخ الإسلام" و "سير أعلام النبلاء" هم من المحدثين وأيضاً خصص كتباً مستقلة لتراجمهم مثل: "تذكرة الحفاظ"، و"المعجم المختص بالمحدثين" وهذا شىء طبيعى إذا نظرنا إلى تربيته ونشأته وتتلمذه على كبار علماء الحديث.

وأما التاريخ فقد اهتم به اهتماماً كبيراً ويرتبط مفهومه عند الذهبى بالحديث وعلومه ومن ثم جاءت شهرته بأنه من كبار المؤرخين وإذا ذكر الذهبى قفزت إلى الذهن صفتاه البارزتان المتلازمتان: المحدث المؤرخ ويكفى أن نعلم أنه طالع على تأليف كتابه "تاريخ الإسلام" كثيراً من المصنفات التاريخية الضخمة التى ألفت فى القرون السابقة واختصر أخرى وترجم فيه للأعلام والمشاهير منذ بزوغ فجر الإسلام وحتى نهاية القرن السابع فى بلاد الإسلام المختلفة وشملت تراجمه المحدثين والفقهاء والمؤرخين والمفسرين والخطباء والقضاة والنحاة والشعراء والزهاد والحكام والسلاطين وكان عمله العلمى التربوى يقوم على التلخيص والاقتصار على الأهم فالمهم وقد بين ذلك فى مقدمة كتابه السابق: "أما بعد فهذا كتاب نافع إن شاء الله، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع جمعته، وتعبت عليه واستخرجته من عدة تصانيف، يعرف به الإنسان مهم ما مضى من التاريخ، من أول تاريخ الإسلام إلى عصرنا هذا من وفيات الكبار من الخلفاء والوزراء والزهاد والفقهاء والمحدثين والعلماء والسلاطين والوزراء والنحاة والشعراء، ومعرفة طبقاتهم وأوقاتهم وشيوخهم وبعض أخبارهم بأخصر عبارة وألخص لفظ، وما تم من الفتوحات المشهور والملاحم المذكورة والعجائب المسطورة من غير تطويل ولا استيعاب ولكن أذكر المشهورين ومن يشبههم، وأترك المجهولين ومن يشبههم... وقد طالعت على هذا التأليف من الكتب مصنفات كثيرة، ومادته•

---

(1) الذهبى: معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار، جـ٢، تحقيق شعيب الأرناؤوط وبشار عواد وصالح مهدى عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ص ٧١١، ٧١٢.

(2) الحافظ الحسينى: ذيل تذكرة الحفاظ، دمشق ١٣٤٧هـ، ص ٣٤.

• لخص الذهبى واختار مادة هذا الكتاب الضخم الذى يعد من أمهات مصادر التاريخ الإسلامى فى عصرنا وأحصى وذكر منها فى مقدمته سبعاً وثلاثين مرجعاً وهو أضخم مؤلفات الذهبى ويقع فى واحد وعشرين مجلداً ترجم فيه لعدد هائل يقدر بنحو أربعين ألف ترجمة وتنوعت تراجمة فشملت كل فئات الناس من علماء وأمراء وفقهاء وغيرهم من جميع بلاد الإسلام وهو شديد الاعتناء بتراجم المحدثين نظراً لشغفه بالحديث وأهله.

من: "دلائل النبوة" للبيهقى، و"السيرة النبوية" لابن إسحاق، و"المغازى" لابن عائذ، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد، و "التاريخ الكبير" للبخارى.... وقد طالعت عليه أيضا من التواريخ التى اختصرتها: "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر، و"تاريخ مصر" لابن يونس، و"تاريخ نيسابور" للحاكم .... وطالعت أيضا كثيرا من تاريخ الطبرى، وتاريخ ابن الأثير (المعروف بالكامل)، و"تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضى ...و"مرآة الزمان" لسبط بن الجوزى"[١].

واهتم الذهب بعلوم أخرى كالفقه والنحو واللغة الأدب والشعر إلا أنه لم يشتهر فيها كشهرته فى القراءات والحديث والتاريخ.

يتبين مما سبق أن دراسات الذهبى لم تقتصر على جانب واحد لكنها فى الوقت نفسه لم تخرج عن دائرة العلوم النقلية عموما والعلوم المساعدة لها من تاريخ ولغة وأدب.

وكان الذهبى مولعا باختصار الكتب حتى ليخيل إلى الباحث عن تراجمه وكتبه أنه قلما وقع فى يده كتاب أعجبه إلا اختصره "كالمحلى لابن حزم"* وكان يحب أن يختصر بعض كتبه التى ألفها بنفسه أحيانا كتاريخ الإسلام وقد سمى مختصره "سير أعلام النبلاء" وتذهيب التهذيب، وسمى مختصره "الكاشف" وله مختصرات أخرى كثيرة[٢].

وعمل الذهبى فى ثلاث وظائف هى الإقراء، والخطابة، وتولى مشيخة كبريات مدارس الحديث بدمشق فبالنسبة لوظيفة الإقراء تصدر فى مرحلة مبكرة من حياته العلمية حلقة الإقراء بالجامع الأموى عوضا عن شيخة شمس الدين الدمياطى الدمشقى الشافعى وذلك فى أوائل سنة ٦٩٣هـ وعمره عندئذ قريب من عشرين سنة وذكر فى ترجمته لشيخه الدمياطى "مات فى صفر سنة ثلاث وتسعين وست مائة .... نزل لى عن حلقته فى مرضه"[٣].

---

[١] الذهبى: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، جـ١، القاهرة، مكتبة القدسى، ١٣٦٧هـ، ص ص ١٣ - ١٧.

* كتاب "المحلى" فى الفقه لابن حزم الظاهرى (ت ٤٥٦هـ) واختصره الذهبى وسماه "المستحلى فى اختصار المحلى".

[٢] عزة على عيد عطية: تحقيق كتاب "الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة" للذهبى، القاهرة دار النصر للطباعة، د. ت، ص ص ٤٠ - ٤٢.

[٣] الذهبى: معجم الشيوخ، مرجع سابق، ص ٥١٩.

وتولى الذهبى الخطابة بمسجد قريته "كفر بطنا" وهى قرية بدمشق وكـــان قــد بلــغ الثلاثين من عمره وسكن هناك[(١)].

وتولى الذهبى كثيراً من مشيخة الحديث وعمل مدرساً بها ومن أبــرز دور الحديــث التى تولى مشيختها "دار الحديث بتربة أم الصالح" ففى شوال من سنة ٧١٨هــ توفى الشــيخ كمال الدين أحمد بن محمد ابن الشريشى شيخ دار الحديث بتربة أم الصالح وكانت هذه الــدار من أكبر .. دور الحديث بدمشق وقد شغل الشريشى مشيختها ثلاثاً وثلاثين ســـنة فتولاهــا الذهبى بعده وقد بلغ الخامسة والأربعين. يذكر ابن كثير فى حوادث سنة ٧١٨هــ: "وفى يــوم الاثنين من ذى الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبى المحدث الحافظ بتربــة أم الصالح، عوضاً عن كمال الدين بن الشريشى، توفى بطريق الحجاز فى شوال، وحضر عند الذهبى جماعة من القضاة"[(٢)].

وترك الذهبى السكن فى قريته "كفر بطنا" واتخذ فى هذه المدرسة "دار الحديث بتربــة أم الصالح" سكناً له ثم مات فيه بعد ذلك.

وكان الذهبى عند وفاته يتولى مشيخة الحديث فى خمسة أماكن هـــى: دار الحديــث العروية[(٣)]، ودار الحديث النفيسة[(٤)]، ودار الحديث التنكريــة[(٥)]، ودار الحديــث الفاضليــة[(٦)]، وتربة أم الصالح وقد ولى مشيختها بعده ابن كثير[(٧)].

وتتلمذ على يد الذهبى عدد كبير من العلماء من ابرزهم تاج الدين السبكى (٧٢٧هــ — ٧٧١هــ) وصلاح الدين الصفدى (ت ٧٦٤هــ) وغيرهما ممن تزخربهم كتب التراجم .

[(١)] ابن كثير : البداية والنهاية، جــ١٤، مرجع سابق، ص ٢٨.

[(٢)] ------: المرجع السابق، جــ١٤، ص ٨٨.

[(٣)] هذه الدار بمشهد عروة الموصلى (ت ٦٢٠هــ) بالجانب الشرقى من صحن الجامع الأمــوى، النعيمــى: الدارس فى تاريخ المدارس، جــ١، دمشق، ١٣٧٠هــ، ص ٨٢.

[(٤)] تولى الذهبى تدريس الحديث بها عوضاً عن شيخة ورفيقة البرزالى، النعيمى: الدارس فى تاريخ المدارس، جــ١، مرجع سابق، ص ٧٩.

[(٥)] منسوبة إلى الأمير تنكز نائب السلطنة بالشام (ت ٧٤١هــ)، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، جــ١، ص ١٢٧.

[(٦)]النعيمى: الدارس فى تاريخ المدارس، جــ١، مرجع سابق، ص ٩٤.

[(٧)] ذكر ابن كثير فى حوادث سنة ٧٤٨هــ: "وفى يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة حضرت تربة أم الصالح – رحم الله واقفها – عوضاً عن الشيخ شمس الدين الذهبى، وحضر جماعة من أعيان الفقهاء، وبعض القضاة، وكان درساً مشهوداً ولله الحمد والمنة" ابن كثير، البداية والنهاية، جــ١٤، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

وتبوأ الذهبى مكانة رفيعة عند المحدثين والمؤرخين والنقاد واعتمـدوا علـى آثـاره وانتفع به الخاصة والعامة منذ عصره وحتى أيامنا هذه من محدثيـن ومؤرخيـن وبـاحثين وطلاب علم فاشتهرت كتبه فى أيامه وتداولها الناس فى عصره "ورغب الناس فى تواليفـه، ورحلوا إليه بسببها، وتداولوها قراءة ونسخا وسماعا"[١].

واثنى عليه مشايخه وتلامذته فقد وصفه شيخه علم الدين البرزالى (ت ٧٣٩هـ) بأنـه "رجل فاضل، صحيح الذهن، اشتغل ورحل، وكتب الكثير، وله تصانيف واختصارات مفيـدة، وله معرفة بشيوخ القراءات"[٢].

ووصفه تلميذه تاج الدين السبكى بأنه "شيخنا وأستاذنا، .... محدث العصر اشـتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ، بينهم عموم وخصوص: المزى والبرزالى والذهبى والشـيخ الإمام الوالد، لا خامس لهؤلاء فى عصرهم .... وهو إمام الوجود حفظـا، وشـيخ الجـرح والتعديل، وهو الذى خرجنا فى هذه الصناعة، وأدخلنا فى عداد الجماعة .... وأقام بدمشـق يرحل إليه من سائر البلاد وتناديه السؤالات من كل ناد"[٣].

وصنف الذهبى مصنفات عديدة ومتنوعة ففى العقيـدة "العلـو الأعلـى الغفـار"[٤]، و"المنتقى من منهاج الاعتدال فى نقض كلام أهل الرفض والاعتزال" لابن تيميـة[٥]، وفـى الحديث له مصنفات جمة من أبرزها "ميزان الاعتدال فى نقد الرجال"[٦] ومختصر المسـتدرك للحاكم[٧]، "الموقظة" فى علم المصطلح[٨]، وفى الفقه "مختصر المحلى لابـن حـزم" وسـماه "المستحلى"[٩] وفى التاريخ له العديد من المصنفات من أبرزهـا "تـاريخ الإسـلام ووفيـات

---

[١] ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٣، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

[٢] نقلا عن عبد الستار الشيخ: الحافظ الذهبى، مرجع سابق، ص ٣٣٥.

[٣] تاج الدين السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٢، مرجع سابق، ص ٢٢.

[٤] الذهبى: مختصر العلو الأعلى للعلى الغفار، تحقيق ناصر الدين الألبانى، حلب، المكتب الإسلامى، د.ت.

[٥] ----: المنتقى من منهاج الاعتدال فى نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، تحقيق محب الدين الخطيـب، القاهرة، المطبعة السلفية ١٣٧٤هـ.

[٦] -----: ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، تحقيق على محمد البجاوى، القاهرة، دار الفكر العربى، د. ت.

[٧] -----: مختصر كتاب المستدرك على مستدرك الحاكم، الرياض، مطابع الهيئة الحديثة، د. ت.

[٨] -----: الموقظة فى علم مصطلح الحديث: تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، المكتب الإسلامى، حلـب، ط١، ١٤٠٥هـ.

[٩] -----: المستحلى فى اختصار المحلى لابن حزم ولا تعرف منه نسخة حتى اليوم، بشار عواد معروف: الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٥١.

المشاهير والأعلام"[١]، و "سير أعلام النبلاء" وفى القراءات "التلويحات فى علم القــراءات"[٢]، و "معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار". ومن مصنفاته "الكبائر"[٣]، و"الطب النبوى".

ومن مصنفات الذهبى الوثيقة الصلة بالتربية مباشرة "بيان زغل العلم والطلب" وهــى رسالة صغيرة بين فيها آراءه فى مختلف العلوم وطلابها وأوضاع المهتمين بها وذكــر فــى مقدمتها: "أعلم أن فى كل طائفة من علماء الأمة ما يذم ويعاب، فتجنبه".

وذكر بأسلوبه السلس تلك العيوب مخصصاً لكل علم نصيباً من الكتاب فتنــاول فيــه القراءة والتجويد والحديث والفقه وفقهاء المذاهب الأربعة ووجه إلى أهل كل مذهب نصحــه وبين فيهم رأيه ثم النحو واللغة والتفسير وعلم الكلام والمنطق والفلسفة والفرائض والإنشــاء والشعر وعلم الحساب والوعظ والرسالة – على صغرها – بالغة الأهمية لأنها تصور الحالـة العلمية فى عصر الذهبى وتطالع القارئ بصور طريفة عن أوضاع بعض العلــوم وعلمائــها وأسلوب تفكيرهم وأحياناً نقائصهم وعيوبهم وهى تحوى بعضاً من الآراء التربويــة للذهبــى وينقد فيها الأوضاع التربوية السائدة فى عصره.

ويجد الباحث بعض آرائه التربوية فى بعض العناوين أو معانى الآيات أو الأحــاديث على طريقة المحدثين.

٣- الآراء التربوية للذهبى:

تناول الذهبى فى آرائه التربوية الهدف التربوى، والإنسان، والعلم ومجالاته، وطــرق التعليم، وبعض مبادئ التعليم، وآداب التعليم، ونقده للبيئات العلمية والتربويــة ثــم التربيــة الأخلاقية.

أولاً: أهداف التربية:

يعتبر تحديد الأهداف التربوية من الأمور الهامة فى ممارسة العمــل الــتربوى لأن هذه الأهداف هى الموجهة لهذا العمل والأهداف التى تناولها علماء الفكر الـــتربوى متعــددة "ويتناول التربويون عادة أهداف التربية الإسلامية منطلقين من رؤاهم الثقافية، فبعضهم يراهــا أهدافاً دينية وعقلية وثقافية ونفسية وآخر يفصلها إلى أهداف دينية وعقلية واجتماعية وماديــة، وآخرون يرون أنه ليس ثمة أهداف مرتبطة بالتربية عند العرب (يقصــدون التربيــة عنــد المسلمين) وأن الصواب (فى رأيهم) أن نذكر أصحاب المذهب ثم نذكر الهدف التربوى الــذى

---

[١] الذهبى : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مرجع سابق.

[٢] فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربى، القاهرة، ١٩٧١، ص ٤٧.

[٣] الذهبى: الكبائر، القاهرة، دار الغد العربى، ط٤، د. ت.

يناسب مذهبهم ويجب أن نعتمد فى الأهداف التربوية على الأصول الإسلامية لأن الأهـــداف التربوية هى منطلق النشاط التربوى فى الإسلام ولا يمكن تفسير هذا النشاط بدون الرجـــوع إلى الأصول الإسلامية التى نبع منها التصور الإسلامى للتربية ودورها فى المجتمع"(١).

ويرى الذهبى أن الهدف الأكبر للتربية يتمثل فى تربية الإنسان العابد الذى يتقرب إلى الله بالطاعات ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه "إن الواجب على كل مسلم أن يتقرب إلى الله بكل ما يمكنه من القربات، ويعبده ويستفرغ وسعه فى القيام بالأوامر والطاعات، وأنفع الوســـائل وأنجح القربات امتثال الأوامر واجتناب المنهيات"(٢).

وعبر الذهبى عن الطريقة الصحيحة للعبادة والمنهج القويم فيها بكلام بديع "الســـلوك الكامل (يقصد العبادة الحقة أو الكاملة) هو الورع فى القوت، والورع فى المنطق (الســكوت)، وحفظ اللسان، وملازمة الذكر، وترك مخالطة العامة، والبكاء على الخطيئة، والتلاوة بالترتيل والتدبر، والإكثار من الصوم المشروع، ودوام التهجد، والتواضع للمسلمين ... وجهاد العدو، وحج البيت، وتناول الطيبات فى الأحايين (الأوقات) وكثرة الاستغفار فى السحر، فهذه شـمائل الأولين، وصفات المحمدين، أماتنا الله على محبتهم. (٣)"

ويتفرع عن الهدف الأكبر للتربية أهدافا فرعية منها: الأهداف الخلقية التى تهتم بتربية المسلم على الالتزام بالفضائل والبعد عن الرذائل ودعا الذهبى المسلم إلى أن يتحلى بـالأخلاق الفاضلة التى تتمثل فى قراءة القرآن والعلم النافع والإخلاص لله والأمر بالمعروف واجتنـــاب الرذائل والإكثار من الدعاء والتواضع وصلة الرحم ، ويرى أن هذه سمات أصحاب الأخـلاق الفاضلة "إن ترتيل سور من القرآن الكريم فى تهجد قيام الليل، مع المحافظة علـــى النوافـل الراتبة، وصلاة الضحى... مع النظر فى العلم النافع والاشتغال به مخلصا لله، مـــع الأمــر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، مع أداء الفرائض فى جماعـــة بخشـــوع وطمأنينة، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء، والاستغفار، والصدقة، وصلـــة الرحم، والتواضع، والإخلاص لله فى جميع ذلك، لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليميـــن وأولياء الله المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب"(٤).

وتهدف التربية عند الذهبى إلى التمسك بالسنة النبوية ومتابعة الرسول ﷺ فى جميـع الأحوال والتعبد بالسنن الصحيحة والبعد عن الهوى ومجانبة الابتداع " وكل من لم يلزم نفســه

---

(١) عبد البديع الخولى: التربية الإسلامية من الأصول والتطبيقات، كلية التربية، جامعة الأزهر، ١٩٩٥، ص٦

(٢) الذهبى: الطب النبوى، تحقيق عادل أبو المعاطى، القاهرة، دار البشير، ١٩٨٧، ص ٤٨.

(٣) ---- : سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، مرجع سابق، ص ص ٩٠،٩١.

(٤) ---- : المرجع السابق، جـ٣، ص ٨٤ .

فى تعبده وأوراده بالسنة النبوية، يندم ويسوء مزاجه (خلقه)ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرءوف الرحيم بالمؤمنين الحريص على نفعهم، ومازال معلما للأمة أفضل الأعمال .. ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة، وجنبنا الهوى والمخالفة (مخالفة السنة النبوية)" [١].

ويحرص الذهبى على تربية المسلم بالالتزام بالسنة ويشدد على ذلك ويحذر المسلم من الخوض فى علم الكلام ويدعو لالتزام مذهب السلف "فتمسك بالسنة، والزم الصمت، ولا تخض فيما لا يعنيك، وما أشكل عليك فرده إلى الله ورسوله وقف وقل : الله ورسوله أعلم"[٢].

وفى موضع آخر يمقت الابتداع والانحراف عن الحق "يكفى المسلم فى الإيمان أن يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره،... وأن الله ليس كمثله شئ، وأن ما ورد من صفاته المقدسة حق، يمر كما جاء، وأن القرآن كلام الله وتنزيله، وأنه غير مخلوق، إلى أمثال ذلك مما أجمعت عليه الأمة ، ولا عبرة بمن شذ منهم، فإن اختلفت الأمة فى شئ من مشكل أصول دينهم، لزمنا فيه الصمت، وفوضناه إلى الله، وقلنا: الله ورسوله أعلم، ووسعنا فيه السكوت [٣].

ويزيد الذهبى الأمر توضيحا فيذكر "فو الله لأن يعيش المسلم جاهلا خلف البقر، لا يعرف من العلم شيئا سوى سور من القرآن يصلى بها الصلوات ويؤمن بالله واليوم الاخر خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب (يعنى من كتب علم الكلام)، أو عمل مائة خلوة، أى كما يفعل أدعياء التصوف" [٤].

يتبن مما سبق أن الذهبى يستهدف تربية الشخصية المسلمة وفق المنهج السلفى ويرى أن علم الكلام وما يدعيه منحرفي الصوفية وما يجري مجرى ذلك من الأهواء والبدع والضلالات هي علوم مهلكة لا تلائم علم النبوة ولا توافق توحيد المؤمنين ويسلم بأن اتباع الكتاب والسنة أفضل وهذا أمر طبيعى يساير روح العصر حيث كان من أهم أهداف التربية وقتذاك التمسك بطريقة أهل السنة ومجانبة أهل البدعة واتباع مذهب السلف ، ويتفق مع الاتجاه العام والواقع الاجتماعى.

ومن أهداف التربية عند الذهبى نشر العلم وعدم كتمانه فقد أوجب على أهل العلم أن يبلغوه وينشروه ولا يكتمونه عن الناس واعتبر كتمان العلم كبيرة من الكبائر لما ثبت من

---

[١] الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ٣، مرجع سابق، ص٥٧ .

[٢] ----: المرجع السابق، جـ٢، ص١٤٢ .

[٣]----: نفس المرجع السابق، جـ١٩، ص٣٤٦ .

[٤]---- : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، جـ ٣، مرجع سابق، ص ٦٦٠.

الأدلة على ذلك وقد ضمن ذلك فى عنوان (الكبيرة الثامنة والثلاثون) التعلم للدنيا وكتمان العلم. قال سبحانه وتعالى "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون" آل عمران:١٨٧. قال الواحدي: نزلت هذه الآية فى يهود المدينة أخذ الله ميثاقهم فى التوارة ليبين شأن محمد ﷺ ونعته ومبعثه ولا يخفونه"[١]وقال ﷺ : "من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار" [٢].

يتبين أن الذهبى يعتبر أن حرمان الناس من التعليم يعد ذنبا يقترفه القائمون على العلم ويستشهد على ذلك بالكتاب والسنة وتؤكد النصوص الإسلامية على أن المرء المسلم ملزم بتبليغ ما لديه من علم إلى من لا يعلم وأن كل مسلم يجب عليه أن يتعلم ليعلم غيره والعلماء سيسألون يوم القيامة عن تبليغ العلم وطلب العلم فريضة وتعليمه كذلك.

ويرى الذهبى أن التعليم أول وسيلة تربوية للإصلاح ويقرر أن إصلاح الجاهل المرتكب لكبيرة من الكبائر وهو لا يعرف أنها ذنب أو كبيرة لا يكون إلا بتعليمه أولا وتعريفه بالكبائر ثم استتابته وندمه ثانيا بعد معرفة عظم الجرم الذى ارتكبه عن جهل "وأعلم أن كثيرا من الكبائر، بل عامتها إلا الأقل، يجهل خلق كثير من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد، فإن عرف هذا موبقات الكبائر، وحذر منها، وأركان الفرائض واعتقدها فهو سعيد، وذلك نادر... فلا يأثم أحد إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجة عليه... وقد كان سادة الصحابة بالحبشة، وينزل الواجب والتحريم على النبى ﷺ ، فلا يبلغهم تحريمه إلا بعد أشهر، فهم فى تلك الأشهر معذورون بالجهل، حتى يبلغهم النص، وكذا يعذر بالجهل كل من لم يعلم حتى يسمع النص والله تعالى أعلم" [٣].

ويقرر ذلك فى موضع آخر "كثير من الجهال يقعون فى المعاصى وذلك بسبب قلة معرفتهم وسماعهم للعلم ولذلك قال أبو الدرداء : كن عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك وهو الذى لا يعلم ولا يتعلم ولا يسمع العلم ولا يحب من يعمل ذلك"[٤].

وهكذا استنبط الذهبى اشتراط التعلم والمعرفة لانطباق إثم الكبائر ويعتبر مرتكبى الكبائر من أشد الناس حاجة إلى الإصلاح حيث لا يتسرع فى تكفيرهم قبل التماس العذر لهم وتعليمهم إياهم كما رأينا كي يكفوا ويقلعوا عن المعاصي ويعني هذا أن المتعلم يصبح من

---

[١] الذهبى : الكبائر، مرجع سابق، ص ص ١٥٨،١٥٧.

[٢] الترمذى: سنن الترمذى، جـ٥، كتاب العلم، باب ما جاء فى كتمان العلم، تحقيق وشرح احمد محمد شاكرن بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٥٧هـ - ١٩٣٨من ص ٢٩.

[٣] الذهبى : الكبائر ، مرجع سابق ، ص ١٧.

[٤]-----: المرجع السابق ، ص ٦٦.

التائبين بعد أن كان من الأشقياء المرتكبين للكبائر وينصلح حاله ويتغير سلوكه بالتربية والتعليم.

وتهدف التربية عند الذهبى إلى تربية المسلم على الصدق والأمانة العلمية ويعنى هذا أن يكون ناقل العلم أميناً على ما ينقل ويتأكد من صحة النصوص وسلامتها وخصوصاً أحاديث النبى ﷺ ومن ثم يجدر بطالب العلم أن يتثبت من صحة الأحاديث ويفلى سند الحديث من العلل والكذابين ومن التحريف ولذلك ينقد الذهبى الطالب أو العالم الذى لم يصل إلى هذه الدرجة فى نقد الحديث " وأى خير فى حديث مخلوط صحيحه بواهيه (يعنى ضعيفه) ، وأنت لا تفليه، ولا تبحث عن ناقليه (يعنى سنده)" [1].

ولا خير فى علم لم تتحقق هذه الوظيفة فى علمائه وطلابه ولذا قام العلماء المختصون كالإمام الذهبى لتحقيق هذا الغرض العلمى التربوى وكانت وسيلتهم فى ذلك دراسة أحوال رواة الحديث النبوى وكتابه والمصنفين فيه لمعرفة مدى صدقهم وأمانتهم وحيادهم فى نقل ما نقلوا من أحاديث وقد ألف الذهبى كتباً متعددة تخدم هذا الغرض منها : (تذكرة الحفاظ) و (ميزان الاعتدال فى نقد الرجال) الذى ذكر فى مقدمته العبارات والمصطلحات التى اعتمدها للدلالة على مدى تحقيق الأمانة العلمية أو عدم تحقيقها التى تتمثل فى الصدق والحفظ الجيد الخالى من الغلط والأوهام وسلامة عقيدة راوى الحديث من البدع "...هذا كتاب جليل مبسوط، فى إيضاح نقلة العلم النبوى، وحملة الآثار ... وقد أحتوى كتابى هذا على ذكر الكذابين الوضاعين المتعمدين قاتلهم الله، وعلى الكذابين فى أنهم سمعوا ولم يكونوا يسمعوا، ثم على الكذابين فى لهجتهم لا فى الحديث النبوى، ثم على المتروكين الهلكى الذين كثر خطؤهم وترك حديثهم ولم يعتمد على روايتهم، ثم على الحفاظ الذين فى دينهم رقة، وفى عدالتهم وهن، ثم على المحدثين الضعفاء من قبل حفظهم، فلهم غلط وأوهام... ثم على المحدثين الصادقين أو الشيوخ الذين فيهم لين ولم يبلغوا رتبة الأثبات المتقنين، ثم على خلق كثير من المجهولين... ثم على الثقات الأثبات الذين فيهم بدعة، أو الثقات الذين تكلم فيهم من لا يلتفت إلى كلامه فى ذلك الثقة، لكونه تعنت فيه، وخالف الجمهور من أولى النقد والتحرير... فأعلى العبارات فى الرواة المقبولين: ثبت حجة ، وثبت حافظ، وثقة متقن... وأردى (أسوأ) عبارات الجرح : دجال كذاب، أو وضاع يضع الحديث ، ثم متهم بالكذب ... ليس بحجة ، اختلف فيه، صدوق لكنه مبتدع، سيئ الحفظ ... " [2].

---

[1] الذهبى : بيان زغل العلم والطلب ، مرجع سابق ، ص ١٢.

[2] -----: ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، جـ ١، مرجع سابق ، ص ص ١-٤.

ومن أهداف التربية عند الذهبى التربية على الدقة والضبط والإتقان ويعد هذا الـهدف امتداداً للهدف السابق حيث أنه لا تتم معرفة رواة الأحاديث إلا إذا كتبت أسماؤهم وشكلت بدقة ولذلك عنى علماء الحديث بضبط ألفاظ الحديث بالشكل والنقط وكذلك ضبط أسماء الرواة الذين تتشابه أسمائهم حتى أصبح تحقيق هذا الهدف التربوي يربى الدقة والإتقان في نفوس طلاب العلم والنساخ وقد ألف الذهبى كتاب (المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم) : "هذا كتاب مبارك، جم الفائدة في معرفة ما يشتبه ويتصحف من الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب، مما اتفق وضعاً واختلف نطقاً•، ويأتي غالبه في الأسانيد والمرويات ، اخترته وقربت لفظه وبالغت في اختصاره ... واعلم أن العمدة في مختصرى هذا على ضبط القلم••، إلا فيما يصعب ويُشْكِل••• فيقيد ويُشَكل ... فأتقن يا أخى نسختك واعتمد على الشكل والنقط ، ولابد وإلا لم تصنع شيئاً"(1) .

يتبين أن الذهبي يستهدف تربية المسلم على الدقة وضبط كلمات الأحاديث النبوية ، وهذا كله يحتاج إلى وقت وتعلم واستعمال اليقظة والانتباه والفكر في كل ما يطالعه طالب العلم وتدريبه على الإتقان والاهتمام بكل ما يكتب كما يربى فكره على الوضوح واستبعاد اللبس والغموض .

وتهدف التربية عند الذهبي إلى تربية العواطف الربانية بالعلم كالخوف من الله والخشوع له حيث يرى أن العالم لا يكون عالماً إلا إذا حقق له العلم هذه الوظيفة ويستدل بقوله تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء" "فاطر : ٢٨" . ويعنى العلماء بالله عز وجل ، قال ابن عباس : يريد إنما يخافنى من خلقى من علم جبروتي وعزتي وسلطانى . وقال مجاهد والشعبي : "العالم من خاف الله تعالى" وقال ربيع بن أنس : "من لم يخش الله فليس بعالم"(2) .

• مثل كلمتي (نافع ، يافع) فالأولى بالنون والثانية بالياء المثناة التحتية.

•• يقصد بضبط القلم تسمية الحروف والحركات بأسمائها لأن الاقتصار على وضع النقط والحركات معوض للخطأ .

••• أي توضع فوق الحركات . وهذان اللفظان (يُشكِل ، ويُشكَل) خير مثال لما يحتاج إلى التقييد والشكل والحركات.

(1) الذهبي : المشتبه في الرجال : أسمائهم وأنسابهم" جـ١ ، تحقيق على محمد البجاوى ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦٢ ، ص ص ١ ، ٢ .

(2) الذهبي : الكبائر ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ .

ويرى الذهبى ضرورة تحقيق تقوى الله والخشوع له في مختلف العلوم التي يطلبها طالب العلم ، فمثلاً في صنعه الإنشاء "وليكن رأس مال المنشئ تقوى الله ومراقبته" [١] .

ويمدح بعض قراء القرآن الكريم "فقد رأيت منهم من يقرأ صحيحاً ويطرب ويبكي"[٢] والبكاء نتيجة عاطفة صادقة.

وكى يتحقق أهداف التربية فلابد من التعرف على الإنسان ومكوناته.

ثانياً: الإنسان ومكوناته عند الذهبي:

الإنسان هو موضوع التربية وفهم طبيعة المتعلمين يساهم في وضع المناهج والمحتويات والوسائل التعليمية وطرق التدريس التي تناسب هذه الطبيعة .

وإذا كان الإنسان هو موضوع التربية ومحورها فإن "البحث في طبيعته والكشف عن قواه وملكاته وميوله وقيمة والفطرى والمكتسب فيه وأثر الوراثة والبيئة وغيرها هو وجهة المهتمين بالتربية وبدون ذلك لا نعرف كيف نربى الإنسان ولا تحقق بهذه التربية الأهداف المتوخاة منها"[٢] .

ويتحدث الذهبي عن أطوار نمو الإنسان ويشرح حقيقته وكيفية خلقه ويذكر ما جاء بشأن مراحل نموه فى القرآن والحديث الشريف "سألنى بعض الإخوان عن أن أذكر له شيئاً عن خلق الإنسان فأجبت سؤاله رجاء من عند الله. قال الله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" المؤمنون ١٢ –١٤ قوله تعالى "ولقد خلقنا الإنسان" يعنى ولد آدم، والإنسان اسم جنس يقع على الواحد والجمع (من سلالة). قال ابن عباس : السلالة صفوة الماء ، وقال مجاهد : يعنى من بني آدم ، وقال عكرمة: هو الماء يسيل من الزهر ، والعرب تسمى النطفة سلالة والولد سليلاً وسلالة لأنهما مسلولان منه من طين. يعنى طين آدم . والسلالة تولد من طين خلق آدم منه ، وقيل المراد بالإنسان : هو آدم (ثم جعلناه نطفة) يعنى الإنسان جعلناه نطفة (في قرار مكين) يعنى الرحم ، مكين : أى هيئ لاستقرارها إلى بلوغ أمرها ... وأتفق الأطباء على أن خلق الجنين في الرحم يكون في نحو الأربعين ، وفيها تتميز أعضاء الذكر دون الأنثى لحرارة مزاحه. وروى ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم

---

[١] الذهبى : بيان زغل العلم والطلب ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

[٢] عبد البديع الخولى : التربية والتعليم عند ابن الجوزي، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩١، ص ٥٩.

يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه وأجله وعمله، وشقى أو سعيد "[١]. وقوله : "ثم يكون علقة مثل ذلك". والعلقة: قطعة دم جامد. "ثم يكون مضغة مثل ذلك" أى لحمة صغيرة، وهى الأربعون الثالثة، فيتحرك كما قال عليه السلام: "فينفخ فيه الروح". وقوله سبحانه : "ثم أنشأنه خلقاً آخر". قال ابن عباس وغيره: هو نفخ الروح فيه وتصريف أحواله بعد الولادة .. "فتبارك الله أحسن الخالقين" أى استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال "أحسن الخالقين" المصورين المقدِّرين. والخلق فى اللغة: التصوير، يقال : رجال خالق أى صانع" [٢].

وتناول الذهبى مكونات الإنسان وهى: الجسم، والقلب والعقل والروح ويعرض الباحث لهذه المكونات كما رآها الذهبى ولنبدأ بالجسم :

يعتبر الجسم من مكونات الإنسان وقد اهتم الذهبى بالجسم ومتطلباته وكشف عن دواعى الاهتمام به ومظاهره ويرى أن البدن خلق من أمشاج مختلفة وأن صيانته تكون باستعمال النافع ودفع الضار "المرء مجبول على صيانة نفسه، والبدن مخلوق من أمشاج مختلفة، قال الله تعالى: "إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه" الإنسان:٢. والأمشاج: الأخلاط، وقوامه وحفظه بتعديل مزاجه، وهذا يكون باستعمال النافع ودفع الضار وهو غرض الطب. والمرض يحلل الرطوبات الأصلية التى منه خلق الآدمى ويعفنها ، وصناعة الطب تمنع العفونة وتحفظ الرطوبة عن سرعة التحلل"[٣].

ويرى الذهبى أن صلاح جسد الإنسان يتوقف على صلاح قلبه ويسوق من الأدلة ما يدعم ذلك "أعلم أن صلاح الجسد متوقف على صلاح القلب، فأصلح قلبك يصلح جسدك"[٤]. قال رسول الله ﷺ : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب"[٥].

ويرى الذهبى أن وقاية البدن من الأمراض التى تصيبه لا تكون إلا بالقرآن الكريم وأداء العبادات ويذكر من الآثار الإسلامية ما يؤكد ذلك ويعتمد عليها بدون تحليل غالباً. قال تعالى: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" الإسراء:٨٢. قيل من ليست

---

[١] البخارى: صحيح البخارى ، جـ٢، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة، بيروت، دار الفكر ، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، ص ٣٠٦.

[٢] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٣٩٤، ٣٩٥.

[٣] -----: الطب النبوى، مرجع سابق ، ص ٢٩١.

[٤] -----: المرجع السابق ، ص ٣٦٦.

[٥] البخارى: صحيح البخارى، جـ ١ ، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ، ص ٣٣.

للتبعيض، ومعناه وننزل من القرآن ما كله شفاء ورحمة ... والقرآن شفاء للأجساد بـــزوال الأمراض عنها. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد مـــن أهله نفث عليه بالمعوذات". وقال على رضى الله عنه : " خير الدواء القرآن" ... وإذا كـــان بعض الكلام له خواص تنفع بإذن الله تعالى فما ظنك بكلام الله سبحانه وتعالى؟[1] ... قـــال أبو هريرة: "رآنى رسول الله ﷺ وأنا نائم أتلوى من وجع بطنى ، فقال: أشكم درد ؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال : قم فصل فإن فى الصلاة شفاء"[2]. وكلمة "أشكم درد" لفظة فارسية معناها: أبك وجع البطن؟ فأشكم : البطن ، ودرد : وجع قال العلماء : فـــى هـــذا الحديـــث فائدتـــان: أحدهما: أنه عليه السلام تكلم بالفارسية، والثانية: أن الصلاة قد تبرئ من وجع الفؤاد والمعـدة والأمعاء. ولذلك ثلاث علل: الأولى: أمر إلهى حيث كانت عبادة، والثانية: أمر نفسى، وذلـــك أن النفس تلهى بالصلاة عن الألم ويقل إحساسها به فتستظهر القوة على الألم فتدفعه، والمـاهر من الأطباء يعمل كل حيلة فى تقوية القوة، فتارة يقويها بالتغذية، وتـــارة بتحريـــك الســـرور والفرح، وتارة بالرجاء... والصلاة قد تجمع أكثر من ذلك ، إذ يحصل للعبد فيها من الخشـية والخوف والرجاء والحياء والحب وتذكر الآخرة ما يقوى قوته ويشرح صدره ، فيندفع بذلـــك مرضه ... وفى الصلاة أيضاً أمر طبيعى رياضة النفس ورياضة الجسد، لأنها جامعة بيـــن قيام وركوع ... وغير ذلك التى يتحرك معها مفاصل البدن، ويتلين بـــها أكـــثر الأعضـــاء، لاسيما المعدة والأمعاء... " [3].

ويتحدث الذهبى عن أحوال بدن الإنسان ويرى أن له ثلاثة أحوال: الصحة، والمرض، وحالة ثالثة لا صحة فيها ولا مرض ويقرر أن الصحة من أعظم نعم الله على العبد لأنـــه لا يمكن للعبد أن يتعبد لخالقه إلا بوجودها ويسوق من الأدلة ما يدعم ذلك "وأحوال بدن الإنســـان ثلاثة : الصحة ، والمرض، وحال لا صحة لا مرض كالناقة والشيخ . فالصحة هيئة بدنيـــة تكون الأفعال معها سليمة، فالعافية أفضل ما أنعم الله به عى الإنسان بعد الإسلام، إذ لا يتمكن من حسن تصرفه والقيام بطاعة ربه إلا بوجودها ولا مثل له ، فليشكرها العبد ولا يكفرهـا[4]. وقد قال ﷺ : "نعتمان "مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ[5]. وقيل: العافية تـــاج

---

[1] الذهبى : الطب النبوى، مرجع سابق ، ص ص ٣٦٦ ، ٣٦٧.

[2] ابن ماجة : سنن ابن ماجة، جـــ ٢، كتاب الطب، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، القـــاهرة، دار الحديث، ١٩٩٩م، ص ٢٦٩.

[3] الذهبى : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٧١ – ٣٧٣.

[4] الذهبى: المرجع السابق، ص ٥٧.

[5] البخارى: صحيح البخارى، جـــ٤، كتاب الرقاق، باب ما جاء فى الصحة والفراغ، ص ١٧٨.

على رءوس الأصحاء لا يبصره إلا المرضى، وقيل: العافية نعمة مغفول عنها .... وحفظ الصحة أشرف المطالب فإن بها يحصل تمام أمر الدين والدنيا"[١].

ومن الجدير بالملاحظة أن الذهبى أدرك أن انفعالات النفس تؤثر فى الجسم وان ثمة أعراض نفسانية تحدث تغييرات فى بدن الإنسان "البدن يتغير من جهة الأعراض النفسانية وهى: الغضب، والفرح، والهم، والغم، والخجل فأما الغضب فإنه يسخن البدن ويجففه، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ[٢]، روي "أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أوصنى، قال: لا تغضب"[٣]. الحديث معناه أنك لا تفعل بموجب الغضب ... ولذلك يجب على كل من يسرع إليه الغضب، أو كان سيئ الأخلاق أن يروض نفسه حتى لا يغلبه الغضب فيفعل بموجبه، وهذا معنى قوله تعالى: "والكاظمين الغيظ" آل عمران: ١٣٤. أثبت لهم الغيظ، ومدحهم على كظمه وقد كان ﷺ يغضب حتى يعرف ذلك فى وجهه ... وأما الفرح فمن شأنه تقوية النفس والحرارة، ومتى أسرف (يعنى فى الضحك) قتل بتحليله الروح، وقد ذكر ذلك عن غير واحد أنهم ماتوا من شدة الفرح، وقد نهى عنه بقوله عز وجل: "إن الله لا يحب الفرحين" القصص: ٧٦.وأما الفرح الإيمانى فمحمود مستحب، لقوله سبحانه: "فرحين بما أتاهم الله من فضله" آل عمران:١٧ والهم والغم يحدثان الحميات اليومية، وقد كان ﷺ يستعيذ من الهم والغم، وينبغى لمن كثر همه أن يتشاغل بما ينسيه ذلك ... وأما الخجل: فهو فعل ما يستحيا منه[٤].

واهتم الذهبى بضرورة توفير الغذاء المناسب لإمداد الجسم بالطاقة التى يحتاجها للقيام بأنشطته المختلفة ووقايته من الأمراض ويدعو إلى الاعتدال فى تناول الطعام ويرى أنه ليس من أسباب الصحة أن يملأ الإنسان معدته بالطعام ويسوق من شواهد القرآن والسنة ما يؤكد ذلك "اعلم أن أخذ الغذاء فى وقت الحاجة سبب لدوام الصحة، وعلامة الحاجة أن تتذكى حاسة الشم، ويقل الريق فى الفم، ويتزايد الطلب، فعند ذلك يجب استعمال الغذاء، والمدافعة به منهكة للبدن، مجففة له محرقة لمزاجه، وكذلك أخذ الغذاء من غير حاجة إليه يورث البلادة والكسل، وهو أحد الأسباب فى حدوث الأمراض ... وليؤكل فى الصيف البارد، وفى الشتاء الحار، وينبغى أن يصلح حاره بأبارده، وحلوه بحامضه، ودسمه بمالحه... قال على بن الحسين بن واقد: جمع الله سبحانه الطب كله فى نصف آية فقال سبحانه: "وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا". الأعراف: ٣١. وقال عمر رضى الله عنه: "إياكم والبطنة، فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم،

---

[١] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٦٠، ٢٤٣.

[٢] ----: المرجع السابق، ص ص ١٠١ - ١٠٤.

[٣] البخارى: صحيح البخارى، جـ٤، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ص ١٠٨.

[٤] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ١٠٥.

مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد، فإنه أصلح للجسد، وأبعد عن السرف... وأعلم أن الشبع بدعة ظهرت بعد القرن الأول[1]، قال رسول الله ﷺ: "المؤمن يأكل فى معاء واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء"[2]." ولا تدخل الحكمة معدة ملئت طعاما، فمن قل طعامه قل شربه، ومن قل شربه خف منامه، ومن خف منامه ظهرت بركة عمره، ومن امتلئ بطنه كثر شربه، ومن كثر شربه ثقل نومه، ومن ثقل نومه محقت بركه عمره فإذا اكتفى بدون الشبع حسن اعتدال بدنه، وصلح حال نفسه وقلبه، فإياكم وفضول المطعم فإنه يسم القلب بالقسوة، ويبطيء الجوارح عن الطاعة، ويصم الأذان عن سماع الموعظة"[3].

وهكذا نجد الذهبى يحث على إعطاء الجسم حقه من الغذاء عند الحاجة ويبين أن جسم المسلم أمانة لديه عليه حق إقامته بالطعام والشراب ودعا إلى الاعتدال فى تناول الطعام وساق ما يدل لى ذلك.

ويرى الذهبى أن الإنسان يجب أن يهتم بجسمه وأن يلبى بالاعتدال مطالبه ويحذر من إهمال الجسم ويعيب على المتصوفة تركهم المباح من الطعام وتقللهم من الغذاء ومنع أنفسهم من الراحة وبين أن ذلك يعد مخالفه صريحة لتعاليم الإسلام فى العناية بالجسم "من بالغ فى الجوع والشراب من الصوفيه، كما يفعله الرهبان، ورفض سائر الدنيا، ومألوفات النفس من الغذاء والنوم وإتيان الأهل فقد عرض نفسه لبلاء كبير وفاته بذلك كثير من تعاليم السنة، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، والسعادة متابعة السنة، فزن الأمور بالعدل وصم وافطر، ونم وقم..."[4].

ويبين الذهبى أن الله تعالى قد أباح لنا الطيبات ويتخذ من النبى ﷺ قدوة فى حبه للطيبات والتمتع بها "قد خاطب الله المؤمنين بقوله: "وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما" الجمعة: ١١. فما عنفهم عز وجل على التجارة الرابحة واللهو الذى لم يحرمه علينا، إلا إذا تركوا الجمعة والجماعة والصلاة المفروضة لذلك، وسكت عما عدا ذلك فهو مما عفا عنه، وقد كان النبى ﷺ صاحب الملة الحينفية السمحة يبتسم ويضحك، وربما مزح وجارى زوجته وأركب ابنى بنته الحسن والحسين على ظهره وقال:" نعم الجمل جملكما، ... ويتفرج على لعب الحبشة هو وزوجته إلى غير ذلك ... وهو محب للنساء اللاتى هن من

---

[1] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٦٢ – ٦٨.

[2] البخارى: صحيح البخارى، جـ٣، مرجع سابق، كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل فى معى واحد، مرجع سابق، ص٤٢٥.

[3] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٦٩.

[4] ----: سير أعلام النبلاء، جـ١٤، مرجع سابق، ص ص ٦٩، ٧٠.

زينة الدنيا، وللطيب والثياب النقية الجميلة والحلوى، والعسل واللحم، والصوت الطيب لا سيما بأصدق الكلام وأفصحه وأطيبه. وكان يحب الطيبات ولا يكثر منها، إذ الإكثار من المباحـات يضيع الأوقات عن فعل القرب والطاعات، فإنه كان عليه الصلاة والسلام مع وصفه بما ذكرنا صواما قواما بكاء من عظمة الله اواها منيبا حليما وقورا .. وفيه جمعت المحاسن والأخـلاق الحميدة المرضية وبمجموع ما ذكرنا وبأمثاله صار أكمل الخلق كلهم"[1].

يتضح أن الذهبى يحث المسلم على تلبية احتياجات الجسم المختلفة والتمتع بالطيبـات ويدعو إلى إشباع حاجة الجسم فى إطار ما دعا إليه الدين الإسلامى الصحيح لا كمـا يفعـل بعض الصوفية من حرمان الجسم من حاجاته ودوافعه الأولية وهذه نظرة يرفضها الإسلام.

وحرص الذهبى على مراعاة الرغبات الغريزية فى الإنسان وضرورة إشباعها ولكـن بالطريقة الشرعية"النكاح من سنن المرسلين. قال رسول الله ﷺ : "من استطاع منكم البـاءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج"[2] ... وكان النبى ﷺ يتعاهد النكاح ويـأمر بـه.[3]وقال: "إنما حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة" [4]ولذلك أمـر به، وحث عليه، وقرنه بذكر الصلاة، ليحضر العبد فى الصلاة خـالى السـر مـن الأفكـار والوساوس الرديئة، فتكون صلاته تامة كاملة، .. ولما تعذر بقاء الشخص الواحد بعينه خلـق الله تعالى أعضاء التناسل لبقاء نوعه، وهى الذكر والأنثيان من الرجل، والرحم والثديان مـن المرأة ...."[5].

ومن مظاهر اهتمام الذهبى بتربية الجسم أمر المسلم بتجنب الأماكن الموبوءة وعـدم مخالطة الحاملين للعدوى والمسارعة إلى التداوى من الأمراض "الطاعون هو المـوت مـن الوباء، وهو فى الطب: ورم ردىء قتال يخرج بتلـهب عظيـم[6]. قـال رسـول الله ﷺ : "الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل أو على من كان قبلكم فـإذا سـمعتم بـه بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" [7].. وفـى نهيـه

---

[1] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٨٦.

[2] البخارى: صحيح البخارى، جـ١، مرجع سابق، كتاب الصوم، باب من خاف على نفسه العزوبة، ٤٥١.

[3] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٩١.

[4] الطبرنى: المعجم الأوسط، جـ١، تحقيق عمرو محمود الطحـان، الريـاض، مكتبـة المعـارف، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ص ٩٦.

[5] الذهبى: الطب النبوى، ص ص ٩٢، ٩٣، ٤٠٧.

[6] المرجع السابق، ص ٣٥٠.

[7] البخارى: صحيح البخارى، جـ٤، كتاب الطب، باب ما يذكر فى الطاعون، ص ٢٤.

عليه السلام عن القدوم عليه فائدتان: إحداهما: لئلا يستنشقوا الهواء العفن الفاسد فيمرضوا. ثانيهما: لئلا يجاورا والمرضى فتتضاعف البلية ... وقوله: "لا تخرجوا فراراً منه" إثبات للتوكل والتفويض، وقيل إنما حذر عليه السلام من الانتقال لأن الانتقال يغير المزاج ويضعف القوى ... وأما قوله: "وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه" لأن مثل هذا الداء العظيم إذا وقع بأرض اضعف الأبدان وأثر فيها، وقد ثبت أن الانتقال يضعف الأبدان أيضاً فتتفاقم البلية، فلذلك نهى عن ذلك"[١].

ومن مظاهر اهتمام الذهبى بتربية الجسم عنايته بالرياضة البدنية وحثه على ممارستها لما لها من أثر فى قوة الجسم وقدرته على القيام بوظائفه المختلفة ومن ألوان الرياضة البدنية التى حث الذهبى على ممارستها ركوب الخيل والغزو فى سبيل الله والسفر "اعلم أن الحركة المعتدلة اقوى الأسباب فى حفظ الصحة، فإنها تسخن الأعضاء، وتحلل فضلاتها، وتجعل البدن ضعيفاً نشيطاً ... وأى عضو كثرت رياضته قوى ونشط، ولكل عضو رياضة تخصه، فللصدر القراءة، وليبتدئ فيها من الخفية إلى الجهرية، وللبصر الخط الدقيق، وللسمع الأصوات الرقيقة الطيبة، وركوب الخيل باعتدال رياضة البدن كله وقد شرع لنا رسول الله ﷺ تصلح أبداننا وقلوبنا [٢]لقوله ﷺ : "اغزوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا"[٣].

ومن مظاهر اهتمام الذهبى بالتربية الجسيمة الأخذ بقواعد الصحة البدنية وممارسة العادات الصحية السليمة فى المأكل والمشرب كنظافة الأيدى ويتخذ الذهبى من تعاليم الإسلام باعثاً لتعليم هذه العادات الصحية ويعدد هذه العادات الصحية التى يدعو الدين إلى الحرص عليها "كان عليه الصلاة والسلام لا ينفخ فى طعام ولا شراب ولا يتنفس فى الإناء والتمشى بعد العشاء نافع، وتجزىء عنه الصلاة ليستقر الغذاء فى قعر المعدة فيجود هضمه ... ولا يشرب الماء عقب اخذ الطعام ولا فى خلاله ... وليتجنب الشديد البرد فإنه مؤذ لآلات النفس ولا سيما بعد الطعام الحار، وعلى الخلو، وعقيب الفاكهة والحلو والحمام والجماع. وقال ابن عباس: نهى ﷺ أن يشرب من فىء السقاء" وقال حذيفة: "كان عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك وقد ورد فى السنة آثار تدل على تقليم الأظافر ونتف الإبط والطيب والغسل يوم الجمعة"[٤].

---

[١] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٣٥١، ٣٥٢.

[٢] ----: الطب النبوى: مرجع سابق، ص ص ٧٩، ٨٠.

[٣] الطبرانى: المعجم الأوسط، جـ٩، كتاب من اسمه موسى، مرجع سابق، ص ١٤٤.

[٤] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٨، ١٢٠، ٤١٥.

ويحرص الذهبى على أن يأخذ الناس الدواء إذا دعت الحاجة وربط بين علاج المرض وسنة الرسول ﷺ واستدل بالأدلة الشرعية الداعية إلى التداوى ويبدو أنه قد شاعت فى عصر الذهبى أفكار تنكر العلاج وتعاطى الدواء للشفاء من الأمراض وزعم أصحابها أنها خروج عن التوكل ولا يجوز التداوى "إن الغاية من الطب حفظ الصحة فالطب يحفظ صحة الصحيح ويردها بقدر الإمكان على العليل. ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال: "العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان" ولم يصح عنه هذا، بل هذا قول الشافعى، والطب من السنن القائمة لأنه فعله عليه الصلاة والسلام وأمر به والأحاديث فى هذا الباب كثيرة. وقد أجمعوا على جواز التداوى، وذهب قوم إلى أن التداوى أفضل[١]. العموم قوله عليه الصلاة والسلام: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء" [٢] وكان عليه الصلاة والسلام يديم التطبب فى صحته ومرضه ... والتوكل اعتماد القلب على الله، وذلك لا ينافى الأخذ بالأسباب فإن المعالج الحاذق يعمل ما ينبغى ثم يتوكل على الله فى نجاحه ...."[٣].

ويتبين مما سبق اهتمام الذهبى بالجسم كأحد مكونات الإنسان وحديثه عن الاهتمام بالجسم ورعايته بالغذاء والكساء والنظافة وإشباع حاجاته الحيوية يتفق مع النظرة الإسلامية التى تدعو إلى العناية بالجسم لأن الجسم القوى هو عدة المسلم التى تمكنه من أداء الوظائف الأساسية والتكاليف الشرعية كالعبادات وغيرها "وليس الإهمال لمطالب الجسم سوى العرض الظاهر لمفاهيم خاطئة تاجر بها البعض وانخدع بها بعض المسلمين فنسوا تربية الإسلام المعتدلة فأهملوا أجسامهم مع أن إهمال الجسم وحرمانه من أحد مطالبه الحيوية يصيب قوى الإنسان الأخرى بالضعف والاضطراب، يستوى فى ذلك القلب والعقل وغيرهما، وأن قوى الإنسان تتفاعل وتتكامل"[٤].

والقلب أحد المكونات الأساسية للإنسان ويرى الذهبى أن الله تعالى "جعل القلب معدن الحياة وكما يخرج من الدماغ أعصاب توصل للأعضاء الحس والحركة، كذلك يخرج من القلب شريانات نابضة توصل للأعضاء مادة الحياة"[٥].

ويرى الذهبى أن شفاء القلوب يأتى مع القرآن الكريم الذى هو شفاء للأبدان أيضا ويشير إلى بعض الأمور التى من شانها أن تعمل على إصلاح القلوب ويسوق شواهد تؤكد

---

[١] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٢٩٢، ٢٩٣.

[٢] البخارى: صحيح البخارى، جـ٤، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ص ١٣.

[٣] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

[٤] عبد البديع الخولى: التربية والتعليم عند ابن الجوزى، مرجع سابق، ص ٧٢.

[٥] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٤٠١.

ذلك "إن القرآن كما يشفى من أمراض الجسد فكذلك يشفى من الضلالة والجهالة والشبهات، فهو شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وشفاء للجسد بزوال الأمراض عنها[1]. قال تعالى: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" الإسراء: ٨٢. وقيل: إن رجلا شكى إلى النبى صلى الله عليه وسلم قساوة قلبه فقال: "امسح رأس اليتيم وأطعمه"[2]. ويروى عنه أنه قال: "أذيبوا طعامكم بذكر الله والصلاة، ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم"[3]. وهناك أمور تصلح القلب وتدفع الوسواس وهى: أكل الحلال، وملازمة الورع، وترك ركوب الرخص بالتأويلات، وحفظ الجوارح الظاهرة، وحراسة الجوانح الباطنة، وسياسة النفس بالعلم، وصيانة السر بالمراعاة، والابتهال إلى الله عز وجل أن يعيذك من شر نفسك وهواك وشيطانك ... فعالج قلبك بهذه الأدوية كما تعالج جسدك بتلك الأدوية تفز بالعافية التامة الكاملة فى الدنيا والآخرة"[4].

ويعد العقل من المكونات الهامة للإنسان عند الذهبى ويرى انه من أعظم نعم الله على الإنسان "أكمل ما خلق الله فينا هو العقل الذى لو كان يشترى لبذلت فيه الأرواح فضلاً عن الأموال"[5].

ويرى الذهبى أن ذهاب العقل يعنى ذهاب الدين "إذا ذهب العقل ذهب الدين كله، وإذا ذهب الدين كان إلى جهنم المصير أعاذنا الله منها"[6].

ومن أجل الحفاظ على عقل المسلم وأدائه لوظائفه كان الذهبى يأمر بالابتعاد عن كل ما يخرج العقل عن طبيعته المميزة المدركة كشرب الخمر "كان من أعظم نعم الله علينا بعد أن هدانا للإسلام بتحريم الخمر علينا فإن تحريمها كان من كمال ديننا ورحمة ربنا بنا، فإن شاربها يذهب بأكمل ما خلق الله فينا وهو العقل .... ومن شربها علم مفاسدها ومضارها، فإن شاربها يستبيح القبائح والمحرمات من الفروج الحرام، حتى لو وقعت له ذات محرم لاستحلها وافترسها، مع ما فيها من القبائح: من البول فى الثياب، والقيء على الفراش

---

(1) الذهبى : الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

(2) البيهقى: السنن الكبرى، جـ٤، كتاب الجنائز، باب ما يستحب من مسح رأس اليتم وإكرامه، القاهرة، دار الفكر، د. ت، ص ٦١.

(3) ----- : شعب الإيمان، جـ٥، تحقيق محمد بسيونى، زغلول، باب فصل فى ما يقول إذا فرغ من الطعام، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص ١٢٤.

(4) الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٣٧٨ - ٣٨٠.

(5) ----: المرجع السابق، ص ١٥٨.

(6) -----: نفس المرجع السابق، ص ٣٢٤.

والقماش، وغير ذلك من المحرمات، من قتل النفس التى حرم الله وغير ذلك. ومن أسرف فى شربها قد تقتله ويبقى أياماً مخموداً منها لا يأكل الطعام، ولا يصحو من رقدة المنام ... وقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن الخمر ليس بدواء ولكنه داء، وذلك لما فيه من المضار والمفاسد من ذهاب العقل...."[1].

ومن وظائف العقل عند الذهبى التفكير "فتفكر أيها الإنسان فى مبدئك ومنتهاك وعقباك، وأسأل العزيز الغفار أن يعفو عنك ويجتبيك ويرضاك"[2].

واستخدم الذهبى فى تربية العقل عدة وسائل: منها طلب العلم "فالذى يحتاج إليه الحافظ أن يكون تقياً ذكياً، نحوياً لغوياً، زكياً حيياً سلفياً، يكفيه أن يكتب بيده مائتى مجلد، ويحصل من الدواوين المعتبرة خمس مائة مجلد"[3].

ومن هذه الوسائل أيضاً النظر والاعتبار "أمرنا الله ورسوله بالتشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والإقبال عليها، وتعظيم خالقها[4]. قال تعالى: "قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض" يونس: ١٠١. وقال "أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء" الأعراف: ١٨٥.

ومن الوسائل التى استخدمها الذهبى لتربية العقل نقد كل ما يراه غير صحيح أو مخالفاً للحق والشرع والعقل والحس والواقع التاريخى ومما يدل على ذلك ما روى عن محمد بن عباس المكى قال سمعت الوركانى جار أحمد بن حنبل يقول: "يوم مات أحمد بن حنبل وقع المأتم والنَّوح فى أربعة أصناف: المسلمين، واليهود، والنصارى، والمجوس. وأسلم يوم مات عشرون ألفاً. قلت: هذه حكاية منكرة، تفرد بنقلها هذا المكى عن هذا الوركانى، ولا يعرف ... ثم العادة والعقل تحيل وقوع مثل هذا، وهو إسلام ألوف من الناس لموت ولى الله، ولا ينقل ذلك إلا مجهول لا يعرف ... فلو وقع ذلك لاشتهر ولتواتر، لتوفر الهمم والدواعى على نقل مثله بل لو أسلم لموته مائة نفس، لقضى من ذلك العجب، فما ظنك؟"[5].

ويرى الذهبى أن من تسبب فى إضرار عقله بعدم الأكل أو فى خلوة من الخلوات فهو عاص لله عز وجل ويقرر أن متابعة السنة أولى من ذلك فقد ذكر فى ترجمة أحمد بن سهل

---

[1] الذهبى : الطب النبوى، نفس المرجع السابق، ص ١٥٨.

[2] ----: المرجع السابق، ص ٤١٠.

[3] ----: سير أعلام النبلاء، جـ١٣، مرجع سابق، ص ٣٨٠.

[4] ----: المرجع السابق، جـ١٥، ص ٣٩٣.

[5] ----: سير أعلام النبلاء، جـ١١، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

البغدادى الزاهد: " قيل: إن ابن عطاء قد فقد عقله ثمانية عشر عاماً، ثم ثاب إليه عقله ثبت الله علينا عقولنا وإيماننا، فمن تسبب فى زوال عقله بجوع، ورياضة صعبة وخلوة، فقد عصى وأثم، وضاهى من أزال عقله بعض يوم بسُكر فما أحسن التقيد بمتابعة السنن والعلم"[1].

ويرى الذهبى أن للعقل حدوداً لا يسمح له بتجاوزها ويركز فى أكثر من موضع على تبيان الحدود التى يقف عندها العقل من ذلك الأمور الغيبية التى اختص الله سبحانه بعلمها "إن العقل البشرى يعجز عن قصور معرفة كنه الروح، وحياة الشهيد بعد قتله، وحياة الأنبياء الآن، ووصف الجنة وما فيها، .. وكيف يتعدى العقل على البحث فى مثل هذه الغيبيات التى لم ترد إلا عن طريق الوحى، وله المثل الأعلى والكمال المطلق ....."[2].

ويرى الذهبى أن بعض المتكلمين وأصحاب الرأى أعملوا عقولهم فيما يجب التسليم فيه من أمور تتصل بالله تعالى ويبين أن على العقل أن يفوض الأمر لله فيما يعجز عن فهمه ويورد أمثلة عديدة تثبت عجز العقل وقصوره عن إدراك بعض الحقائق "... إذا كان الموصوف عز وجل لم نره، ولا أخبرنا أحد أنه عاينه مع قوله لنا فى تنزيله: "ليس كمثله شىء" فكيف بقى لأذهاننا مجال فى إثبات كيفيه البارئ، تعالى الله عن ذلك؟ فكذلك صفاته المقدسة، نقر بها ونعتقد أنها حق، ولا نمثلها أصلاً ولا نتشكلها"[3].

ويؤكد ذلك فى موضع آخر "فقِّر بدينك، وإياك وآراء المتكلمين، وآمن بالله وما جاء عن الله على مراد الله، وفوض أمرك إلى الله"[4].

يتبين أن للعقل – فيما يرى الذهبى – حدوداً يقف عندها إدراكه لأنه يعجز عن إدراك الحقائق الغيبية وأن الوحى يغنى عن العقل فى إدراك هذه الحقائق ونلاحظ أنه انطلق فى حديثه عن العقل من الأصول الإسلامية وابتعد عن تفسيرات المتكلمين والفلاسفة لأن النقل عنده مقدم على العقل.

أما الروح فمن مكونات الإنسان وهى ذلك السر الإلهى الذى يفيده الجسم للحياة ووضح الذهبى أن حقيقة الروح لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى "ما يشك مسلم فى خلق الأرواح، وأما سؤال اليهود لنبينا ﷺعن الروح فإنما هو عن ماهيتها وكيفيتها، ولا يعلم كنهها إلا الله تعالى، والله خالق كل شىء، وخالق أرواحنا ودوابنا وموتنا وحياتنا"[5].

---

(1) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، مرجع سابق، جـ١٤، ص ٢٥٦.

(2) ----: مختصر العلو، مرجع سابق، ص ص ٢٧٠ ، ٢٧١.

(3) ----: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ص ص ٦١٠، ٦١١.

(4) ----: مختصر العلو، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

(5) ----: المرجع السابق، ص ص ٢٧٠، ٢٧١.

ويتسق ما ذكره الذهبى عن الروح مع القرآن الكريم الذى يقرر أن حقيقة الروح لا يعلمها إلا الله ويشهد لذلك قوله سبحانه: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى" الإسراء: ٨٥.

ولم يتوسع الذهبى فى الحديث عن النفس ويرى أن الله "أعطى كل نفس خلقها وهداها، وألهمها فجورها وتقواها، وألهمها منافعها ومضارها، وابتلاها وعافاها"[١].

يتضح أن الذهبى متأثر بأسلوب القرآن فى حديثه عن النفس ويرى أن الله هو الذى خلق هذه النفس وأودع فيها الفجور والتقوى وهذا يتفق مع قوله تعالى: "ونفس وما سواها: فألهمها فجورها وتقواها" الشمس: ٧ – ٨. وهذا يعنى أن "الإنسان فى الإسلام ليس خيراً بطبعه وتأتيه المفاسد من المجتمع كما يرى روسو وأمثاله، وليس شراً بطبعه معقوداً بناحيته الخطيئة كما يرى أباء الكنيسة وأمثالهم، وإنما الإنسان ذو استعداد للخير والشر وعمله هو الذى يرجح أحد الاستعدادين، فطاقته فى معظمها طاقة محايدة تصلح للخير والشر بحسب ما تتلقاه من توجيه"[٢].

ويرى الذهبى أن كل مخلوق فيه جزء نافع وآخر ضار فإذا تغلب الجزء النافع كان المخلوق نافعاً وهذه حكمة من حكم الله تعالى وقد أرسل الله الرسل إلى الناس لإصلاح أحوالهم فمنهم من تغلب خيره وشره فكان مصيره الجنة ومنهم من انتكست فطرته فغلب شره على خيره فكان مصيره النار ويسوق حديثاً للنبى ﷺ فى هذا المعنى "اعلم أن كل مخلوق فيه جزء نافع وجزء ضار، فإن غلب الجزء النافع كان ذلك المخلوق محموداً نافعاً وبالضد، وكانت الحكمة فى ذلك ليمتاز سبحانه وتعالى بصفة الكمال المطلق الذى لا يشاركه فيه غيره من خلقه، فلما اقتضت الحكمة إصلاح هذه المفردات بعضها ببعض كذلك، اقتضت إصلاح نوع الإنسان بعضه ببعض، فأرسل الحق سبحانه وتعالى إليهم الرسل صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين، مبشرين ومنذرين لإصلاح فاسدهم، وتكميل ناقصهم ... فلما أرسلت إليهم الرسل كان منهم من غلب خيره على شره فأجاب وأطاع، وقبل هدى الله، ففاز بالبرء (الشفاء) من داء الجهل، فصارت دار العاقبة داره، وجنة النعيم قراره، وكان منهم من غلب شره على خيره فأعرض ونأى بجانبه، فمات بدائه فصارت النار داره، وجهنم مصيره ..."[٣] وقد ضرب رسول الله ﷺ لهذا المعنى مثلاً فقال: "إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل

---

[١] الذهبى : الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٤٧.

[٢] عبد البديع الخولى: الطبيعة الإنسانية فى الإسلام، مجلة التربية، جامعة الأزهر، العدد الرابع والعشرون، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٨٧.

[٣] الذهبى: الطب النبوى: مرجع سابق، ص ص ٢٨٠، ٢٨١.

الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به"[١].
فانظر رحمك الله فى قوله ﷺ : "فكانت منها طائفة طيبة"[٢].

وفيما يتصل بالفعل الإنسانى فإن الذهبى يقرر ما ذهب إليه السلف• أن أعمال العباد مخلوقه لله ومقدرة ويدعو إلى الإيمان بقضاء الله وقدره خيره وشره ويرى شمول قدرة الله وإرادته ويسوق من شواهد القرآن الكريم والسنة النبوية ما يؤكد ذلك ويضمّن ذلك كله (الكبيرة الحادية والأربعون) التكذيب بالقدر "قال الله تعالى: إنا كل شىء خلقناه بقدر" القمر: ٤٩. قال ابن الجوزى فى تفسيره فى سبب نزولها قولان أحدهما: أن مشركى مكة أتوا رسول الله ﷺ يخاصمونه فى القدر فنزلت هذه الآية وروى أبو أمامة أن هذه الآية نزلت فى القدرية، والقول الثانى أن أسقف نجران جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد تزعم أن المعاصى بقدر ليس كذلك فقال ﷺ "أنتم خصماء الله" فنزلت هذه الآية "وإنما قيل لهم خصماء الله لأنهم يخاصمون فى أنه لا يجوز أن يقدر المعصية على العبد ثم يعذبه عليها .... وقال ﷺ "كل شىء بقدر حتى العجز"[٣]. وقال ابن عباس: كل شىء خلقناه بقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه قال الله تعالى: "والله خلقكم وما تعملون" الصافات: ٩٦. قال ابن جرير: فيها وجهان، أحدهما: أن تكون بمعنى المصدر فيكون المعنى: والله خلقكم وعملكم. والثانى: أن تكون بمعنى الذى فيكون المعنى. والله خلقكم وخلق الذى تعملونه بأيديكم من الأصنام، وفى هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقه .. وسئل ﷺ عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره": قوله "أن تؤمن بالله" الإيمان بالله هو التصديق بأنه سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال منزه عن صفات النقص وأنه فرد صمد خالق جميع المخلوقات متصرف فيها بما يشاء يفعل فى ملكه ما يريد .. والإيمان بالقدر هو التصديق بما تقدم ذكره وحاصله ما دل عليه قوله تعالى "والله خلقكم وما تعملون"

---

[١] البخارى: صحيح البخارى، جـ١، مرجع سابق، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ص ٤١.

[٢] الذهبى: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ٢٨٣.

• عقيدة الذهبى السلفية لها أثر بارز فى شخصيته ومنهجه ولذلك يكثر من النقول عنهم ويسير على منهجهم.

[٣] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٦، كتاب القدر، باب كل شىء بقدر، القاهرة، دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧، ص ٢٠٤.

وقوله "إنا كل شيء خلقناه بقدر"[١]. ومن ذلك قوله ﷺ فى حديث ابن عباس "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"[٢]. ومذهب السلف وأئمة الخلف أن من صدق بهذه الأمور تصديقاً حازماً لا ريب فيه ولا تردد كان مؤمناً حقاً سواء كان ذلك عن براهين قاطعة أو اعتقادات جازمة والله أعلم"[٣].

ويتبين مما سبق أن الذهبى يقرر أنه ليس ثمة جبر ولا نفى للقدر والإنسان فاعل مختار والله سبحانه خالق الإنسان وخالق أفعاله وأن على العبد المؤمن أن يؤمن بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته واستدل على ذلك كله بنصوص من القرآن والسنة وأقوال بعض السلف. ويحث الإسلام على العلم لأنه نور يهتدى به الإنسان ويخرج به من الظلمات إلى النور ويعرض الباحث للعلم عند الذهبى.

ثالثاً: العلم عند الذهبى:

لقد فضل الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعلم وبه استحق خلافة الله فى الأرض وسجدت له الملائكة ووجه الإسلام المسلمين إلى الاستزادة من العلم النافع وليس ثمة دين كالإسلام اعتنى بالعلم أبلغ العناية وأتمها فحث على طلبه وتعلمه وتعليمه وقد تضافرت كثير من الأحاديث النبوية بعد القرآن الكريم فى بيان فضله ومكانة العلماء عند الله وعند الناس وهى كثيرة ومعلومة من ذلك مثلاً: قوله تعالى فى بيان مكانة العلماء "يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" المجادلة: ١١.

واهتم الذهبى بالعلم لمكانته الهامة فى الإسلام ويرى أن العلم النافع هو العلم الدينى وهو ما يبنى على الكتاب والسنة ويدعو إلى التزام تراث السلف ويحذر من علوم أهل البدع "نسأل الله علماً نافعاً، أتدرى ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً. فعليك يا أخى بتدبر كتاب الله تعالى، وبإدمان النظر فى "الصحيحين"، و"سنن النسائى"، و "رياض الصالحين" للنووي، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة*، وطيش رءوس أهل الخلوات**، فالخير فى متابعة السنة النبوية"[٤].

---

[١] الذهبى: الكبائر، مرجع سابق، ص ص ١٦٥ – ١٦٨.

[٢] الترمذى: سنن الترمذى، جـ٤، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، مرجع سابق، ص ٥٧٦.

[٣] الذهبى: الكبائر، مرجع سابق، ص ١٦٨.

* يقصد بذلك علماء الكلام والمنطق والفلاسفة.

** يقصد بذلك الصوفية أهل الخلوة.

[٤] الذهبى: سير أعلام النبلاء، جزء ١٩، مرجع سابق، ص ٣٤.

إن المقصود بالعلم لدى الذهبى – كما سبق – هو العلم الدينى المستمد من الكتاب والسنة وعلم السلف ويحذر من العلوم المنحرفة عن الكتاب والسنة وهذا هو مفهوم العلم عنده.

ويدلى الذهبى برأيه فى مسألة افضلية طلب العلم على العبادة ويرى أن هذه المسألة مختلف فيها ويبين أن الذى يتحرى الإخلاص فى طلب العلم فطلبه للعلم أولى وأما من يطلب العلم لذاته فالعبادة أولى "هذه مسألة مختلف فيها: هل طلب العلم أفضل، أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر؟ فأما من كان مخلصاً لله فى طلب العلم، وذهنه جيد، فالعلم أولى، ولكن مع حظ من صلاة وتعبد، فإن رايته مجداً فى طلب العلم، لاحظ له فى القربات، فهذا كسلان مهين، وليس هو بصادق فى حسن نيته. وأما من كان طلبه الحديث والفقه غية ومحبة نفسانية، فالعبادة فى حقه أفضل، بل ما بينهما أفعل تفضيل، وهذا تقسيم فى الجملة. فقل – والله – من رأيته مخلصاً فى طلب العلم ....."[1].

ولا ينفصل العلم النافع عن العمل عند الذهبى "وأما اليوم فما بقى من العلوم القليلة إلا القليل، فى أناس قليل، ما أقل من يعمل منهم بذلك القليل فحسبنا الله ونعم الوكيل"[2].

يعمل الذهبى ليكون العلم نافعاً أن يقترن بالعمل ويرثى لقلة العلم والعمل فى عصره ومن شروط العلم النافع كما يرى الذهبى أن يراد به وجه الله "قد يكون طلب العلم مذموم فى حق بعض الرجال: كمن طلب العلم ليجارى به العلماء، ويمارى به السفهاء، وليصرف به الأعين إليه، أو ليعظَّم ويقدَّم، وينال من الدنيا المال والجاه والرفعه، فهذا أحد الثلاثة الذين تسجر بهم النار. ولو كان أفنى – هذا – عمره فى معرفة الموسيقى والعروض والكيمياء، ومعرفة علم الهندسة أو كان شاعراً مادحاً للرؤساء لكان أخف لإثمة وأبعد له من النار. فإن أضيف إلى همة هذا المتخلف نسأل الله العفو – أن ينال بعلمه مرامه (غرضه) من القضاء والتدريس فيظلم ويحكم بغير ما أنزل الله، ويأكل المال إسرافاً وبغياً،ولا يتأبى عن مكروه فقد تمت خسارته. فإذا انضاف إلى المجموع أنه متلطخ (متلبس) – بالفواحش فياخيبته ..."[3].

ولعل بعض ما يعانيه المسلمون الذين أربوا على مليار نسمة، من ضعف فى التربية راجع إلى الرياء وعدم الإخلاص فى تنشئة أبناء المسلمين، واتخاذ التربية أحياناً حرفة من لا

---

[1] الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ٧، مرجع سابق، ص ١٦٧.

[2] ----: تذكرة الحفاظ، جـ٣، مرجع سابقع سابق، ص ١٠٣.

[3] ----: رسالة فى مسائل فى طلب العلم، تحقيق جاسم سليمان الدورسرى، مرجع سابق، ص٢١٠،٢١١.

حرفة له أو وسيلة للاكتساب والاستغلال أو تقديم الخدمة لبعض النفطيين الذين يشترون كل شيء حتى القيم والتاريخ"[١].

وفى حديث الذهبى عن العلم نجده يركز بصفة خاصة على العلوم النقلية أكثر من غيرها ولذا يقسم العلوم إلى خمسة أقسام من وجهة نظر فقهيه فرض ومستحب ومباح ومكروه وحرام "طلب العلم وتعليمه على الأقسام الخمسة فرض ومستحب ومباح ومكروه وحرام فالفرض إما على كل أحد كالصلاة وما عرف بالضرورة من دين الإسلام من الأوامر والنواهى التى لا يشب الغلام فى بلد إلا وهو يدرسها، وإما فرض كفاية كحفظ القرآن، والفرائض والمناسك الواجبة ومعرفة الحلال والحرام، والمستحب طلب علم الفقه والإمعان فيه، ومعرفة أقوال الصحابة والتابعين وحججهم من الكتاب والسنة الصحيحة، ونحو ذلك ومعرفة التفسير، وما لابد منه من معرفة العربية ولغة القرآن والحديث والفقه، ومهمات الطب، وما صح من الحديث النبوى وما حسن، وما ثبت من القراءات وغير ذلك ومعرفة سيرة النبى ﷺ ومغازيه وسيرة الخلفاء الراشدين، ومعرفة رجال الحديث، وجرحهم وتعديلهم، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذه العلوم إلى أن ينتقل العالم إلى المباح من معرفة تاريخ العالم واللغات والشعر المباح، وليس من العلوم الإسلامية ما كله حق وتعلمه متعين غير الكتاب العزيز، فإنك تنتقل بعده إلى علم حفظ متون حديث الصحيحين والسنن الأربعة والموطأ ... ومعرفة اختلاف أقوال العلماء ... والمكروه منه الدخول فى دقائق (تفاصيل) علم الكلام وكره الجدل والمناظرة فيه، وربما هو محرم ومن العلوم المحرمة النظر فى المنطق والنفس والعقل والكل والكلى والعرض والجسم، وهذه الأدواء المهلكة، وعلم السحر والكيمياء* والشعوذة والتنجيم والرمل، وبعضها كفر صراح"[٢].

يحث الذهبى فيما سبق على تعلم العلوم الشرعية ويرى أن فرض العين هو ما يجب على كل مسلم تعلمه وفرض الكفاية مثل له بحفظ القرآن ومعرفة الشعائر الدينية ومثل للعلم المستحب بالفقه وأقوال الفقهاء والتفسير وعلوم اللغة العربية والسير ومثل للعلم المباح بالتاريخ والشعر وأما العلم المكروه فمثل له بعلم الكلام واعتبره محرما وإضافة إلى الفلسفة وواضح أنه يعطى الأولوية فى الإطلاع على العلوم النقلية دون سواها.

---

(١) عبد البديع الخولى: الفكر التربوى عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

* الكيمياء عند القدماء علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية، وجلب خاصة جديدة إليها ولا سيما تحويلها إلى ذهب. فهو من الحيل وليس علما وهذا مقصود الذهبى ولا يقصد ما نعرفه نحن الآن عن "علم الكيمياء" .

(٢) الذهبى: رسالة فى مسائل فى طلب العلم، مرجع سابق، ص ص ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٣.

وكان للذهبى موقف من العلوم العقلية التى تشمل المنطق والفلسفة والفلك والهندسة والطب وغيرها حيث انه لا يركز عليها كثيراً كما يركز على العلوم النقلية ويعتبرها – من وجهة نظره – ترفاً لا ثواب فيه ولا عقاب عليه "المنطق نفعه قليل، وضرره وبيل، وما هو من علوم الإسلام ... والفلسفة ما ينظر فيها من يرجى فلاحه، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه، فإن هذا العلم فى شق وما جاءت به الرسل فى شق (جانب)، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والعاملين بها علماً وعقداً (أى معتقداً) إلا الحريق والإعدام من الوجود إذا الدين ما زال كاملاً حتى عربت هذه الكتب، ونظر فيها المسلمون فلو اعدمت لكان فتحاً مبيناً والحكمة الرياضية فيها حق من طبائع هندسية وحساب ونحو ذلك وفيها أباطيل وتنجيم وما أشبهه، فباطلها يؤذى المرء فى دينه ويضلله، وحقها صنعة وإتقان وتحرير مما لا أجرفيه ولا وزر، والحكمة الطبيعية (العلوم الطبيعية) لا باس بها لكنها ليست من علوم الدين، ولا مما يتقرب به إلى الله ولا من زاد المعاد بل هى صنعه بلا ثواب ولا عقاب إذا كان صاحبها سليم الاعتقاد وعادلاً خيراً كما رأينا جماعة منهم، وقد يثاب الرجل على تعلمها بالنية إن شاء الله تعالى، وعلم الحساب من علوم القبط والفرس، ليس من علوم الإسلام وهو صنعة ومعيشة ينال بها الرجل السعادة والدنيا"[1].

تأتى العلوم الدينية فى رأس قائمة المنهج الذى حدده الذهبى فالمنهج لديه يتضمن علوم الدين وحدها ويدعو لالتزام تراث السلف من الفقهاء والمحدثين وأما العلوم العقلية المساعدة للعلوم الدينية فهو لا يهتم بها واستبعدها من منهج التعليم وكان الاهتمام بالعلوم النقلية عاماً بين كثير من مفكرى هذا العصر وكانت العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية مهيمنتين على المناهج الدراسية الأخرى وكان لها المكان الأول فى معظم مؤسسات التعليم لارتباطها بالدين من ناحية وبالدولة وحياة الناس من ناحية أخرى.

وإذا جاز لنا أن نقارن بين الذهبى وشيخه ابن تيمية الذى تأثر به كثيراً فإن ابن تيمية الإمام السلفى رغم اعتزازه بالكتاب والسنة إلا أنه كان منفتحاً على الثقافات الأجنبية فأخذ عن الفلاسفة – رغم اختلافه معهم – ما اعتقد انه صواب فى نظرته إلى الطبيعة الإنسانية والمعرفة. وهذا نهج يحمد لابن تيمية ويتفق مع طبيعة الإسلام الذى يوجهنا إلى الكتاب والسنة كمصدر وحيد للدين، وإلى الانتفاع بخبرات الآخرين وثقافاتهم فيما هو من شئون الدنيا طالما لا يتعارض ذلك مع الأصول الإسلامية وابن تيمية فى هذا الاتجاه سما كثيراً على معظم

---

[1] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ص ٢٣ – ٢٦.

المشايعين له من المعاصرين (كالذهبى، وابن رجب الحنبلى) الذين حصروا المعـــارف فـــى العلوم الشرعية وعادوا الثقافات العقلية ونسبوا ذلك إلى السلفية والسلفية من ذلك براء"[1].

وهكذا انتهى الذهبى الذى أراد أن يسير على درب ابن تيمية إلى الوقوف عند علـــوم السلف وعارض العلوم الطبيعية وغيرها واعتبرها كلها صنعة من الصنائع التـــى لا يثـــاب صاحبها عليها ولا يعاقب إذا لم يتكبر على الناس ولا يتحامل عليهم "ولو اقتصر رأى الذهبـى على الدعوة للجمع بين علوم الدين واللغة والطب والحساب والهندسة وعدم التفريـــق بينـــهما لكان لراية اعتبار جدير بالنظر، ولكنه حين جرد هذه العلوم من قيمتها وقرر أنها لا تجلـــب ثوابا ولا يتسبب إهمالها بعقاب فقد أركسها فى قائمة الابتذال ومهد لظهور المنـــهاج الضيـــق الذى اقتصر على علوم الشرع والدين ونظرة الذهبى فى ذلك تغاير نظرة السلف الذين دعـــا إلى التزام تراثهم والذين لم يغفلو الجانب الجمالى والفكرى فى أى موضوع من موضوعـــات المنهاج"[2].

وتختلف نظرة الذهبي للعلم عن النظرة الإسلامية لأن العلم الذي يحث عليه الإســـلام يتسم بالشمولية حيث أنَ العلم الذى يحث عليه الإسلام هو الـــذى يشـــمل العلـــوم الدينيـــة والدنيوية "وبعض المسلمين لم يفهم أن العلم فى الإسلام يشمل الوجود كله فى تكامل فـــأصبح اهتمامهم منصبا على التفريعات الخلافية الصغيرة فى علوم الشريعة مع إهمالهم لقضايا كبرى تهم المسلمين وللعلم نصيب كبير فى تطويعها لخير المسلمين ... ويبـــدو لكـــل منصـــب أن تطبيق التوجيهات والمبادئ الإسلامية فى العلم والتعليم يدفع بالمسلمين إلى النهضة ومنافســـة الكبار فى عصرنا. لكن يحول دون ذلك بعض الجامدين وبعض المستغربين الذين يريدون أن يحصروا الإسلام فى معارف تتصل بالعقيدة والعبادة بمفهومها الضيق الذى لا يرى فى العقيدة والعبادة إلا شأنا فرديا. ومن ثم غابت الرؤية الاجتماعية للمبادئ الإسلامية وغابت معها أبعاد هامة للعلم والمعرفة فى الإسلام"[3].

ويجب أن نؤكد علي أنه ليس في الإسلام انشقاق أو انفصال بين العلوم الدينية والعقلية أو علوم الدنيا فقد كانت "الجوامع أو الجامعات تدرس علوم الدين، وعلوم الدنيا معـــا، وكـــان

---

(1) عبد البديع الخولى: الفكر التربوى عند ابن تيمية، مرجـــع سابق، ص ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(2) ماجـــد عرسان الكيلانى: تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، مرجـــع سابق، ص ٢٢١.

(3) عبد البديع الخولى: العلم فى الإسلام، مجـــلة التربية، كلية التربيـــة جـــامعة الأزهـــر، العـــدد الثـــالث والعشرون، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢، ص ص ٣٩٣ - ٣٩٤.

كثير من العلماء التجريبيين هم في نفس الوقت علماء دين مثل القاضي ابن رشد الحفيد مؤلف "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" في الفقه المقارن ومؤلف "الكليات في الطب"[١].

وثمة مصادر يكتسب الإنسان من خلالها العلم ويعرض لها الباحث عند الذهبى:

مصادر العلم عند الذهبى:

يمكن تصنيف مصادر العلم عند الذهبى على النحو التالى:

ما جاءت به الرسل والأنبياء عن الله (الوحى)، والعقل، والقلب، والحواس، ويبدأ الباحث بالوحى.

يرى الذهبى أن الوحي هو المصدر الأساسى للتعرف على المعرفة الدينية وما يتصل بعالم الغيب ويتعلم الإنسان هذه الأمور عن طريق الوحى الخاص بالأنبياء والرسل وليس هناك من مجال لمعرفة هذه الأشياء إلا لوحي ويعتبر الوحي عند الذهبى أساس لكل وسائل المعرفة الأخرى "العلم النافع هو ما نزل به القرآن، ونشره الرسول ﷺ قولا وفعلا ولم يأت نهى عنه"[٢].

ويبين الذهبى أن الله تعالى قد أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم "الإيمان بالرسل هو التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى وأيدهم الله بالمعجزات الدالة على صدقهم وأنهم بلغوا عن الله رسالاته وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به وأنه يجب احترامهم وأن لا يفرق بين أحد منهم"[٣].

ويرى الذهبى أن المعرفة إذا كانت تتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله فلا سبيل لمعرفتها إلا بالوحى وينبغى علينا الإيمان والتسليم للنصوص وعدم الخوض فى معرفتها ويقرر أن هذه المعرفة تؤخذ من الوحى المتمثل فى القرآن والسنة "وقد فسر علماء السلف المهم من الألفاظ وغير المهم ... وآيات الصفات وأحاديثها لم يتعرضوا لتأويلها أصلا ... فنؤمن بذلك ونسكت اقتداءا بالسلف ... فالكتاب والسنة نطق بها، والرسول ﷺ بلغ، وما تعرض لتأويل، مع كون البارى قال: "لتبين للناس ما نزل إليهم" النحل: ٤٤، فعلينا الإيمان والتسليم للنصوص، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم"[٤].

---

[١] يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، القاهرة، دار الصحوة، د.ت، ص ص ١٧،١٦.

[٢] الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٩، مرجع سابق، ص ٣٤٠.

[٣] الكبائر، مرجع سابق، ص ١٦٧.

[٤] سير أعلام النبلاء، جـ١، مرجع سابق، ص ٥٠٦.

يتبين أن الوحى يمثل مصدرا أساسيا من مصادر العلم عند الذهبى ومن خلاله يتعلـــم الإنسان ما لم يكن يستطيع أن يصل إليه عن طريق الوحى وخصوصا مـــا يتصـــل بالعقـــائد والغيبيات.

ويعتبر العقل من مصادر العلم لدى الذهبى والعقل عنده يعنى القلب ويستدل على ذلك بأقوال بعض السلف "قال سبحانه: "وأعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه" الأنفال: ٢٤. قـــال مجاهد: المعنى يحول بين المرء وعقله حتى لا يدرى ما تصنع بنانه وقال تعالى: "إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب" ق: ٣٧. أى عقل واختار الطبرى أن يكون ذلك إخبارا من الله تعالى أنه أملك لقلوب العباد منهم وأنه يحول بينهم وبينها إن شاء حتى لا يدرك الإنســـان شـــيئا إلا بمشيئة الله عز وجل"[١].

ويرى الذهبى أن الشريعة جاءت بما يحار فيه العقل ويقصر عن إدراكه "كان النبـــى ﷺ يتنفس فى الشراب ثلاثا ويذكر أنه أروى وأبرأ وأمرأ ... والمراد بالتنفس هنا الشـــرب بثلاثة أنفاس يفصل فاه عن الإناء. وأما نهيه عليه الصلاة والسلام عن التنفـــس فـــى الإنـــاء فالمراد به من يشرب وهو يتنفس فى الإناء من غير إبانة عن فيه فربما يخرج مــــن الريـــق شىء فى المشروب، وقد ينتن الإناء مع تكرار ذلك ... وأما كونه اروى: أى أشد ريا مــــن تناوله دفعه، وأما أبرأ فهو من برأ من مرضه إذا صح، وأما أمرأ أى أخف لأنه من مـــرىء الطعام أى أشهى فهذه دقائق حكيمة، وحقائق نظرية، يعجز عن جزالتها غيره ﷺ مـــن ذوى البصائر، ويقصر عنها حكماء الأوائل والأواخر، فصلوات الله وســـلامه علـــى هـــذا النبـــى الطاهر......"[٢].

وإذا كان الذهبى قد اعتبر العقل من مصادر العلم فإنه يرى أنه لابد من الاعتماد على النقل وطلب الحق من النقل خشية أن يقع فى الزيغ ويضل فهو لا يثق فيه ثقة مطلقة لأن النقل لديه أسبق من العقل لا سيما فيما لا يستطيع العقل إدراكه، ومن ثم ينتقد المتكلمين الذين خالف بعضهم النصوص والقواعد الشرعية وهذا شائع فى عديد من كتاباته "النزول والكلام والســـمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شىء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر"[٣].

---

[١] الذهبى: الكبائر، مرجـــع سابق، ص ٢٥١.

[٢] ---: الطب النبوى، مرجـــع سابق، ص ص ٧٥ - ٧٧.

[٣] مختصر العلو، مرجـــع سابق، ص ٢٣١.

ويذكر ذلك فى موضع آخر "إن من البلاء أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وتقدَّم عقول الفلاسفة، ويعزل منقول أتباع الرسل (يعنى الوحى)، ويمارى فى القرآن، ويتبرم بالسنن والآثار، وتقع فى الحيرة. فالفرار قبل حلول الدمار، وإياك ومضلات الأهواء، ومجاراة العقول، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم"[1].

وذكر الذهبى فى ترجمة الدارقطنى (المحدث): "لم يدخل الرجل أبداً فى علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض فى ذلك، بل كان سلفياً"[2].

ويعد القلب من مصادر المعرفة التى يستطيع الإنسان الوصول بها إلى العلم ويرى الذهبى أن القلب أحد مصادر العلم ويستشهد على ذلك ببعض الأحاديث النبوية "عن سالم عن عبد الله قال: كان كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يحلف "لا ومقلب القلوب". ومعناه يصرفها أسرع من ممر الريح على اختلاف فى القبول والرد والإرادة والكراهة وغير ذلك من الأوصاف ...[3] وقالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك. فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى قال: وما يؤمننى يا عائشة والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء إذا أراد ان يقلب قلب عبد قلبه"[4] فإذا كانت الهداية معروفة والاستقامة على مشيئته موقوفة والعاقبة مغيبة والإرادة غير مغالية فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك ذلك أن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله فى هذه الدار عليك فمهما افتخرت بذلك كنت مفتخراً بمتاع غيرك وربما سلبه عنك فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، أضحت وزهرها يابس هشيم إذا هبت عليها الريح العقيم. كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم. ويصبح وهو بمعصية الله مظلم سقيم ذلك تقدير العزيز العليم"[5].

ويرى الذهبى أن الحواس مصدر من مصادر العلم ويستدل على ذلك بالقرآن الكريم وأقوال بعض السلف "قال الله تعالى: ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً" الإسراء: ٣٦. قال الواحدى فى تفسير قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) قال الكلبي: لا تقل ما ليس لك به علم. وقال قتادة: لا تقل سمعت ولم تسمع،

---

[1] الذهبى : تذكرة الحفاظ، جـ١، مرجع سابقـع سابق، ص ٣٢٩.

[2] -----: سير أعلام النبلاء، جـ١٦، مرجـع سابق، ص ٤٥٧.

[3] الكبائر، مرجـع سابق، ص ص ٢٥٠، ٢٥١.

[4] الترمذى: سنن الترمذى، جـ٤، مرجـع سابق، كتاب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ص ٣٩٠.

[5] الذهبى: الكبائر، مرجـع سابق، ص ٢٥٢.

ورأيت ولم تر، وعلمت ولم تعلم. والمعنى لا تقولن فى شىء بما لا تعلم (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) قال الوالبى عن ابن عباس: يسأل الله العباد فيم استعملوها وفى هذا زجر عن النظر إلى مالا يحل، والاستماع إلى ما يحرم وإرادة ما لا يجوز والله أعلم"[1].

وتدل الآية الكريمة السابقة التى استدل بها الذهبى على أن الحواس (ومنها السمع والبصر والفؤاد) مصادر تستخدم للوصول إلى العلم وأنها متكاملة مع بعضها وسيسأل الله الناس عن هذه الحواس التى زودهم بها يوم القيامة فى استخدامهم إياها كما ذكر ذلك الذهبى نقلاً عن ابن عباس فى تفسير الآية الكريمة.

وتناول الذهبى الحواس والإدراك الحسى أثناء كلامه عن آيات الله سبحانه وتعالى فى خلق الإنسان فذكر حكمة الله تعالى فى جعل الحواس الخمس وآلات الإدراك الحسى كلها فى الرأس، وجعل حاسة البصر فى مقدمه ليكون كالطليعة والحرس الكاشف للبدن، وذكر تركيب العين، وتكلم عن خلق الله للأذن وذكر حكمة الله فى خلق الأنف والفم وحاسة اللمس التى أودعها فى اللحم، وبها ندرك جميع الملموسات وذكر حكمة الله فى جعله فى الدماغ ثلاثة بطون الأول للتخيل والثانى للفكر والثالث للذكر[2].

ومع أن الذهبى يذهب – كما ذكرنا سابقاً – إلى أن الحواس من مصادر العلم إلا أنه يرى إمكان حصول العلم عن غير طريق الحواس وبدون تعلم وهو الإلهام الذى يمنحه الله لبعض عباده الصالحين ويستدل على ذلك بالقرآن والسنة "قال تبارك وتعالى: "فألهمها فجورها وتقواها" الشمس: ٨. الإلهام: إيقاع الشىء فى النفس. قال سعيد بن جبير: ألزمها فجورها وتقواها، وقال ابن زايد جعل ذلك وبتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها للفجور والله أعلم. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الله من على قوم فألهمهم الخير فأدخلهم فى رحمته وابتلى قوماً فخذلهم وذمهم على أفعالهم ولم يستطيعوا غير ما ابتلاهم فعذبهم وهو عادل"[3]. "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون" الأنبياء: ٢٣"

ويرى الذهبى أن الكشف مصدر من مصادر العلم وهو وسيلة الخاصة من الناس ويسميه بالفراسة ويسوق أدله من القرآن والسنة تؤكد ذلك "قال رسول الله ﷺ : "اتقوا فراسة

---

(١) الذهبى : الكبائر ، مرجع سابق، ص ١٨٢.

(٢) ----: الطب النبوى، مرجع سابق، ص ص ٤٠١ – ٤١٤.

(٣) ----: الكبائر، مرجع سابق، ص ٦٦.

المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى"[1]. وعن أنس قال قـال رسـول الله ﷺ : "إن لله عبـادا يعرفون الناس بالتوسم"[2]. فالفراسة* استدلال بالأحوال الظاهرة على الكامنة، وقيـل: هـى خاطر يهجم على القلب فينفى ما يضاده، وله على القلب استيلاء كاستيلاء الأسد على فريسته، فهو مشتق من ذلك، وفراسة الشخص بحسب ما عنده من العقل والإيمـان والعلـم بـأصول الفراسة قال الله تعالى "إن فى ذلك لآيات للمتوسمين" الحجر: ٧٥. أى للمتفرسـين، ويقـال: توسمت فيه الخير أى رأيت، وينفع عند اشتباه المرض، فالطبيب ينظر فى مزاج البدن وفـى اللون والسحنة واللمس والعين"[3].

يتبين أن الكشف أو الفراسة من مصادر العلم لدى الذهبى ويرى أن معرفة الأخـلاق الباطنة فى الإنسان إنما يستدل عليها من معرفة علتها بالأحوال الظاهرة وهى المزاج البدنـى ويبدو أن هذا المصدر المعرفى ليس متاحا لكل الناس وإنما هو للخاصة مـن النـاس الذيـن يصطفيهم الله من عباده.

هذه هى أهم مصادر العلم لدى الذهبى وهذه المصادر يمكن تصنيفها تحـت فئتيـن: مصادر إلهية وهى الوحى الخاص بالأنبياء والرسل، والثانية مصادر بشرية وتتمثل فى العقـل والقلب والحواس وهى مصادر عامة لكل الناس وأما الإلهام والكشف أو الفراسة فهى لبعـض الخاصة ممن يحبهم لله ويجتبيهم، وقد استدل الذهبى على ذلك كله بشواهد من القرآن والسـنة ووسائل اكتساب المعرفة "يدركها من القرآن الكريم والسنة الشريفة معظم المسـلمين علمـاء وعامة، لكن بعض المسلمين صوفية وفلاسفة يرون بالإضافة إلى هذه الوسائل (وهى الحواس، والعقل، والقلب) وسائل أخرى للمعرفة عنى بها الصوفية والمتفلسفة ومـن أهمـها الكشـف والإلهام والحدس"[4].

وتتعدد طرق التعليم لإتاحة الفرصة لكل إنسان أن يتعلم ويعـرض البـاحث لطـرق التعليم:

---

[1] الترمذى: سنن الترمذى، جـ٥، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بـاب ومـن سورة الحجـر، مرجـع سابق، ص ٢٧٨.

[2] الطبرانى: المعجـم الأوسط، جـ٣، كتاب من اسمه إبراهيم، باب إبراهيم بن عبد الله، مرجـع سـابق، ص ٢٨٥.

* الفراسة: هى الحكم بمقتضى الأحوال الظاهرة المحسوسة فى الجـسد على الأحوال الباطنة، فخـر الديـن الرازى: الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم كأنهم كتاب مفتوح - تحقيـق وتعليـق مصطفـى عاشور، القاهرة ـ مكتبة القرآن، ١٩٨٧م، ص ٢٧.

[3] الذهبى: الطب النبوى، مرجـع سابق، ص ص ٣١١ - ٣١٣.

[4] عبد البديع الخولى: العلم فى الإسلام، مرجـع سابق، ص ٣٦٤.

طرق التعليم:

يستخدم المعلمون العديد من طرق التعليم لتربية المتعلمين وهذه الطرق ليست واحدة في كل عصر بل تتغير وتتنوع من عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر وقد تعددت طرق التعليم بتعدد العلوم التى سادت فى القرن الثامن الهجرى وسيبين الباحث الطرق التى كانت تستخدم لدى المعلمين فى هذا القرن وقد احتوى كتاب الدرر الكامنة على إشارات كثيرة تؤكد هذا التنوع فى الطرق منها:

(أ) الحفظ:

كان الحفظ بطبيعة الحال هو أهم الطرق وأكثرها شيوعا واستخداما ولا عجب فى ذلك، فالمجتمع تسوده الأمية، ولا مطابع هناك ووسيلة النشر الوحيدة هى (النسخ) وهى عملية صعبة ومكلفة. فكان الاعتماد على الذاكرة فيها يودع الكتاب فكأنها توفر لصاحبها نسخة منه[١].

وكانت هناك أسباب هامة للحفظ تتصل بطبيعة المادة التعليمية ومكانتها لدى المعلم والمتعلم والمجتمع مثل القرآن الكريم وتعليم بعض مبادئ الدين الإسلامى والشعر.

وكان الحفظ من الأساليب الهامة فى التعليم عند كثير من المتعلمين حيث "كان حفظ المتون فى الفقه والنحو – ألفيه بن مالك – والقراءات، وحفظ بعض الكتب من الأمور المألوفة ومعروف أن إجازة "العراضة" التى كان يتقدم لها فى شرخ الشباب عادة كانت تعتمد على ما حفظه الطالب من كتاب، أو أكثر، فإذا ما استبان لشيخه قوة حفظه منحه هذه الإجازة ولا شك أن هذه الوسيلة كانت هامة فى التعليم لا سيما تعلم المراحل الأولى، لأنها تنصب على حفظ القرآن الكريم، وعيون الشعر العربى ومتون العلوم وأصولها، وهذه لا غنى عنها فى الدين وتقويم اللسان والإلمام بأساسيات العلوم،وقد مدح المعاصرون بعض العلماء لأنهم يحفظون كتبا كثيرة وذكروا فى تراجم كثير من العلماء البارزين انه "حفظ كذا. وكذا" وعددوا كتبا كانوا يتداولون حفظها فى الفقه وغيره، وما نعيبه على هؤلاء أن بعضهم كان يعطل ما منحه الله من عقل وإدراك، وعندما تأتيه مشكلة أو تواجهه قضية بمتاح من محفوظاته دون أن يحرك سواكن عقله أو يشحذ ملكاته، ومن هنا كان التقليد السائد فيهم، وكان التعصب لآراء السلف، وهما من الشارات الظاهرة لعجز الفكر، وضعف الثقة فى النفس"[٢].

---

[١] سعيد إسماعيل على: دراسات فى التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٧.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

واشتهر الذهبى بالحفظ وبعض مترجميه ذكر انه "حافظ لا يجارى، ولا فظ لا يبـارى" أتقن الحديث ورجاله ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس ... اجتمعت به ولم أجد عنده جمود المحدثين[١].

ويتبين شيوع الحفظ من كثرة الإشارة إليه لدى الشخصيات التى ترجم لها ابن حجـر ولذا فإنه يذكر عن محمد الأربلى الموصلى أنه قرأ القرآن وكان ذكيا "سريع الحفظ" وقد حفـظ الحاوى فى (الفقه) فى ستين يوما وشرح الشمسية فى المنطق فى يوم واحد وشـرح الكافيـة والشافية[٢].

وكانت المجالس تعقد فى بعض الأحيان لاختبار أشد الناس حفظا أمام جمع غير قليـل من الناس فروى ابن حجر عن البعض أنه كان يسـتحضر الصحـاح والجمـهرة والنهايـة وغيرها، وحفظ الفائق للزمخشرى كله، وقد عقدت له مجالس متعددة بسبب ذلك ويحضر هـذه الكتب وغيرها ويأخذ كل من المحاضرين مجلدة من الكتب ويمتحنه فيمهر فيها، حكى ذلـك الصفدى وعماد الدين بن كثير[٣].

(ب) الإملاء:

كان الإملاء على الطلاب أسلوبا معروفا، وكانت له آدابه ومبادئه، وكـانت ظـروف العصر التى تتمثل فى قلة الكتب وارتفاع أثمانها، والاهتمام ببعض العلـوم كعلـم الحديـث الشريف وغير ذلك تدفع إلى الاهتمام بهذه الوسيلة، وفى تراث العرب كثير من الكتب التـى عرفت "بالأمالى" كأمالى أبى على القالى وغيره. وعندما أتم ابن حجر العسقلانى تأليف كتابـه "فتح البارى" بشرح صحيح البخارى فى عشرين مجلدة أقام حفلا كبـيرا انتجعـه العلمـاء والشعراء والطلاب ثم بدا فى إملاء كتابه على الطلاب فى خانقاه بيبرس حتى أكمل نسخة فى أعوام، فكان هذا من المآثر السنية، والفضائل الجليلة التى زادت فى رفعته[٤].

وتفيد طريقة الإملاء هذه فى كتابة العلم وتدوينه بحيث يستطيع المتعلم الرجوع إلـى الموضوع عندما يريد فيتعلمه وهذه الطريقة من أقدم الطرق التعليمية فـي تـاريخ التربيـة

---

[١] الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٢، مرجـع سابق، ص١٦٣.

[٢] ابن حجـر العسقلانى: الدرر الكامنة ، جـ ٤، مرجـع سابق، ص ١٧٥.

[٣] المرجـع السابق : جـ ٤ ، ص ٢٨٢.

[٤] عبد البديع الخولى / الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجـية، مرجـع سابق، ص ٣٧٧.

الإسلامية وذكر السيوطي أن "حافظ العصر زين الدين العراقي شرع في إملاء الحديث سنة ٧٩٦هـ فأحيا الله به سنة الإملاء، بعد أن كانت داثرة فأملي أكثر من أربعمائة مجلس"[١]،

وقدروى ابن حجر عن أبى بكر المقدسى انه حضر على جده عماد الدين جزءا فيه مجلسان من امالى ابى الحسن بن زرقوقه بسماعه له على عبد الرحمن بن على اللحمى (ت ٧٩٩هـ)[٢].

(ج) التلقين:

كان من الطرق الشائعة وقد عبر عنه بـ "السماع" من جانب المتعلمين بحيث كثر إيراد هذه الطريقة فى ترجمات أكثر من أن تعد أو تحصى، فعلى وجه التقريب، ما من عالم أو متعلم إلا ونقرأ أنه "سمع" كتاب كذا عن فلان وفى بعض الأحوال نجد كلمة "التلقين" مذكورة بنصها[٣].

ومما يدل على شيوع هذه الطريقة فى هذا القرن ما روى عن محمد بن نصير نزيل دمشق (ت ٧١٨هـ) أنه "تصدر للإقراء والتلقين"[٤].

(د) النظم:

ولأن الشعر كلام موزون منظوم ومقفى يصبح أقرب إلى الأسماع وأقرب إلى الحفظ فضلا عما به من "موسيقية" ... ومن هنا فقد لجأ إليه البعض ليصوغ به القواعد والمبادئ والأفكار تسهيلا لتعلمها وحفظها كما فى ألفية بن مالك (فى النحو)[٥].

وروي أن أحمد بن عمر الحموى الأصل الشافعى كان عارفا بالقراءات وله فيها نظم سماه عقد البكر وله نظم فى أشياء متعددة[٦].

(هـ) القراءة:

وكان بعض المعلمين يطلب من الطالب أن يقرأ أمامه فيصحح له ما يقرأ أو يشرحه من ذلك مثلا ما ذكره الذهبى من أنه قرأ على أبى بكر الجزرى المقرئ التجريد لا بن الفحام،

---

[١] السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامن، جـ١، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

[٣] سعيد إسماعيل على: دراسات فى التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

[٤] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٥، مرجع سابق، ص ٤٦.

[٥] سعيد إسماعيل على : دراسات فى التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

[٦] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ١، مرجع سابق، ص ٢٤١.

وكان ينقل من الشواذ كثيرا وانتفع به جماعة في القراءات "ولعله قرأ أكــــثر مــن خمســين سنة"[1].

(و) الوعظ:

وهو ما نتناوله اليوم فى باب الدعوة والتوجيه والإرشاد وهــــو عــادة مــا يتنــاول الموضوعات الدينية البحتة ولاشك أن عدداً كبيراً من الفقهاء استخدم هذه الطريقة فى تربيـــة الناس فى هذا القرن الثامن وممن استخدم هذه الطريقة محمد الأنصارى التونسى الذى "كان له أتباع وشهرة. وكان يعمل المواعيد ويصدع بالحق وكان يحصل له حال فـــى أثنـــاء وعظـــة وهذان من شدة الاندماج بطبيعة الحال"[2].

ويقوم الواعظ بحث الناس على فعل الخير واجتناب الشر ويستعين فى ذلـــك بـــالعبر والنصائح الموجودة فى القرآن الكريم والسنة النبوية وتفيد هذه الطريقة فى زجر الناس عــــن المعاصى وترغيبهم فى الخير شريطة أن يبتعد الواعظ عن أسلوب الأوامر والنواهى.

(و) المحاضرة:

ليست أسلوباً مستقلاً قائماً بذاته بعيدة عن بعض الطرق السابقة فهى تظهر على ســبيل المثال فى مجال التلقين كما أنها تستخدم أيضاً لـــ (الوعظ). فقط أهم ما يميزهـــــا أن ينفـــرد المعلم بالحديث وعرض الموضوع، فهو صاحب الدور الإيجابى والتلاميــــذ مــن يســـمعونه وينصتون[3].

وممن اشتهروا بإتقانهم للمحاضرة فى القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد المحسن بن أبى الحسن البغدادى الحنبلى فقد كان "حسن المحاضرة طيب الأخلاق وأخذ عنه جمـــع جـــم، وانتهى إليه علو الإسناد فى بغداد (ت ٧٢٨هـــ)"[4].

(ز) المناظرة:

كانت المناظرة من أرفع الأساليب التى يجدها المؤرخ للتربية الإسلامية، ولم تكن فـــى أغلب الأحوال تمارس داخل قاعات الدرس والتعليم فى المؤسسات التربوية وإنما فى المحـــافل

---

[1] ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة، جـــــ١، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

[2] ------------: الدرر الكامنة، جــــ٥، مرجـــع سابق، ص ٨٧.

[3] سعيد إسماعيل على: دراسات فى التربية الإسلامية، مرجـــع سابق، ص ٢٤١.

[4] ابن حجـــر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـــــ٢، مرجـــع سابق، ص ١٤٧.

والمجالس العلمية كذلك لم تكن فى غالب الأحوال بين التلاميذ والمعلم إنما كانت بين العلماء والمفكرين والفقهاء كأنداد[١].

وكانت هذه الطريقة ملموسة بين كبار العلماء وغيرهم لعدة أسباب منها: التعصب المذهبى، ومخالفة بعض الآراء للاتجاه العام والجمود الفكرى لدى بعض العلماء وردود بعضهم على بعض بتأليف الرسائل ويعد السيوطى نموذجا لذلك حيث كان رجلا غضوبا لا تهدأ أغضبته إلا برسالة فى الرد على من أغضبه إفحاما وانتصارا للنفس فى بعض الأحوال[٢].

وقد اشتهر بعض علماء القرن الثامن الهجرى بالمناظرة والجدل ومن هؤلاء مثلا: أبو بكر بن عمر بن سلار الذى "كان حسن المناظرة قوى الجدال ... وكان جيد العبارة كثير الفضائل"[٣].

وروى عن أمير كاتب بن العمي الحنفى انه قدم دمشق سنة ٧٢٠هـ ودرس وناظر وظهرت فضائله ولم تقتصر مناظراته على الشفاهة وحدها وإنما امتدت إلى الكتابة إذ كتب رأيا يتصل بفقه الصلاة فرد عليه السبكى وغيره[٤].

ويبدو أن هذه الطريقة التى اشتهر بها بعض المفكرين قد جرحت عن مسارها الصحيح حيث تحولت من مقارعة الحجة بالحجة إلى الشحناء التى لا تليق بأهل العلم من المتناظرين ولذلك يصف الذهبى ما كان يراه من بعض علماء عصره وضيقهم بالمناظرة العلمية "قال الضياء: كان الموفق لا يناظر أحدا إلا وهو يبتسم قلت: بل أكثر من عاينا لا يناظر أحدا إلا وهو ينسم"[٥].

وذكر التاج السبكى فى معرض نقده لبعض علماء عصره حيث يعيب على بعضهم ولعه بالمناظرة ليس بهدف العلم وإنما بغرض السفسطة والجدل والابتعاد عن الحق "ومن العلماء طائفة أحبت العلم والمناظرة وان يقال: فلان اليوم فقيه البلد، ... واستهانت هذه الفرقة بالنوافل ... وإذا سألت واحدا من هؤلاء: أصليت الظهر؟ قال لك: قال الشافعى: طلب

---

[١]سعيد إسماعيل على: دراسات فى التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

[٢]عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصرفي دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

[٣]ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ١، مرجع سابق، ص ٤٨٣.

[٤] المرجع السابق، جـ١، ص ٤٤٣.

[٥] الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ٢٢، مرجع سابق، ص ١٧٠.

العلم افضل من صلاة النافلة أو قلت له: أخشعت فى صلاتك؟ قال: ليس الخشوع من شـــروط صحة الصلاة ... ويخشى على من هذا شأنه المروق من الدين"[١].

ولا ينكر أحد أثر المناظرة فى شحذ الذهن وتقوية الحجة وتعويد المتنـــاظرين الثقـــة بالنفس ومن مزايا هذه الطريقة "أن من شأنها أن تبنى شخصية المتعلم، لأن المتعلم الذى يتمتع بحرية النقاش والمناظرة يكون واثقا من نفسه، قوى الحجة فيما يعرفه، غواصا إلـــى أســـرار المعرفة، لسنا إيجابيا فى التعلم، قادرا على نقد نفسه. وهذه مزايا لا تظهر فى طريقة الحفـــظ التقليدية التى تجلب الملل والسأم. وهى أفضل من طريقة الوعظ المباشر والتلقين"[٢].

(ح) الرحلة فى طلب العلم:

إن الرحلة في طلب العلم مهمة جليلة ومن ثم يحث الإسلام على الانتقال من مكان إلى آخر لتلقي العلم مباشرة عن العلماء الكبار وقد تستغرق هذه الرحلة عدة ســـنوات ويحصـــل المتعلم من خلال رحلاته إلى البلاد الإسلامية المختلفة علما غزيرا من خلال مقابلاته لمشاهير العلماء وقد اهتم العديد من راغبى العلم بالرحلة فى طلب العلم وحرصوا على الارتحال إلـــى البلاد التى تعج بالعلماء الكبار وجرت عادة المحدثين والعلماء فى العهود السابقة على التبكـير بطلب العلم والارتحال للرواية وسماع الحديث وكان الآباء يحثون أبنائهم ويشجعونهم علـــى التبكير فى الرحلة وطلب العلم وكثيرا ما كان أحدهم يصطحب ابنه معه ليحضـــره مجـــالس العلماء أو يوجهه إلى عالم شهير أو بلد يغص بالعلماء وكان للرحلات أثر عظيم فـــى تربيـــة المتعلمين من جميع النواحى العلمية والعقلية والدينية والثقافية.

ويرى ابن خلدون أن "الرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم"[٣].

وكانت الرحلة فى طلب العلم "أمرا يحمد عليه فى هذا العصر ويعد من مفاخر العـــالم أن له رحلة لكنها تطورت فى عصر المماليك، لأن مصر – أصبحت بعد إحياء الخلافة فيـــها ولأسباب أخرى – مركز العلماء، ومن ثم رحل إليها العلماء من المشـــرق والمغـــرب، لـــذا تطورت رحلة علماء مصر وأصبحت رحلات علمائها "مجاورة" أى رحلـــة أو أكـــثر إلـــى الأرضى المقدسة فى الحجاز يستغرق فيها العالم والطالب فترة من الزمـــان، وكـــانت هـــذه "المجاورة" تستمر أحيانا عدة سنوات يقيم فيها العالم فى الأرض المقدسة يعلم ويتعلم، وكـــان بعض العلماء يجاور مرة أو أكثر، وبعض النساء كن يجاورن ويلتقين بالعلماء فى المجـــاورة

---

[١] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجـــع سابق، ص ٦٨.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى فى الأندلس، مرجـــع سابق، ص ٦٧.

[٣] ابن خلدون: المقدمة، مرجـــع سابق، ص ٣٥٩.

وكان لهذا الأسلوب أثر كبير فى نشر العلم وتبادل الأفكار المختلفة حيث يلتقى علماء البـــلاد الإسلامية فى الحجاز للحج في شهور أو للمجاورة فيتبادلون الآراء ويأخذ بعضهم عن الآخــر بعض تصانيفه ويملي بعضهم كتبه على الآخرين، وفى هذا إنماء وازدهار للعلوم آنذاك"[1].

لقد كان العلماء يرتحلون لنشر العلم "ورحلات المسلمين وبخاصة علماء الحديث فـــي طلب العلم لا يعرف التاريخ لها نظيرا. ومن طالع رحلات الأئمة مثل الشافعي، وابن حنبـــل، والبخاري ومسلم وغيرهم، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول في طلب العلم ... فقد تلقـــوا عن شيوخهم هذه الحكمة: لا ينال العلم براحة الجسم"[2]

وما من شك فى أن الرحلة من أجل طلب العلم مهمة جليلة تســـاعد علـــى اكتســـاب خبرات الآخرين والتعرف على علومهم ومناهجهم وفى هذا إثــــراء للعلـــم والفكـــر وتنميـــة المعارف ومدارك المرتحلين.

ومن الطرق المعروفة فى ذلك العصر "الاستفسارات العلمية من علماء البلدان المختلفة عن طريق إرسال رسائل لهم تتضمن سؤالا أو أكثر فيجيب العالم عليه ويرسل إجابتـــه إلـــي المستفسر، ويشبه هذا ما يعرف الآن "التعليم بالمراسلة" وبعض العلماء وكان يرسل إلى أخـــر يستأذنه فى أن يروى عنه أو يسند إليه تعليم بعض مؤلفاته وأنهم كانوا يمنحون إجــــازة فـــى ذلك"[3].

هذه الطرق وغيرها يرتبط بها مبادئ تربوية توجه العملية التعليمية لتحقيـــق أفضـــل النتائج ويرى الذهبى أن هناك بعض المبادئ للتعليم ويعرض الباحث لبعضها مـــــن منظـــور الذهبى:

بعض مبادئ التعليم:

هناك مجموعة من المبادئ التى تساعد على التعلم منها: التدرج فى طلب العلـــــوم فلا ينبغى إلقاء العلم إلى المتعلم دفعه واحدة وإنما على التدريج ويراعى مستوى التلاميذ.

ويرى الذهبى أن التدرج من المبادئ الهامة للتعلم "شأن طالب العلـــم أن يـــدرس أولا مصنفا فى الفقه، فإذا حفظه بحثه، وطالع الشروح، فإن كان ذكيا، فقيه النفس، ورأى حجـــــج

---

[1] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر، مرجـــع سابق، ص ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

[2] يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، مرجـــع سابق، ص ص ١٠٢،١٠١.

[3] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجـــــية، مرجـــع سابق، ص ٣٧٨.

الأئمة (احتجاجات العلماء)، فليراقب الله، وليحتط لدينه، فإن خير الدين الورع، ومـــن تـــرك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، والمعصوم من عصمه الله"[١].

ويتضح استخدام التدرج فى الإسلام من النظرة إلى التكاليف الشرعية فلم تنزل مـــرة واحدة إنما نزلت فى فترات مراعية الأولويات وظروف الناس ويعنى التدرج فـــى التعليـــم أ، المتعلم ينتقل باستخدام التدرج من المحسوس إلى المعقول ومن الجزء إلى الكل ومن الســـهل إلى الصعب حتى يكون أكثر قابلية للفهم والاستيعاب من قبل المتعلمين.

ومن المبادئ الهامة فى العملية التعليمية ربط العلم بالعمل حيث يحث الإسلام على أن يضع المتعلم ما تعلمه موضع التنفيذ ويتضح من القرآن أهمية الربـــط للمعلومـــات النظريـــة بالتطبيق والممارسة العملية فيقرن الله الإيمان بالعمل الصالح فى قوله تعالى: "إن الذين أمنـــوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هـــم يحزنون": البقرة: ٢٢٧. ويذكر ابن مسعود أن الرجل زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كـــان إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهم ويعمل بهن[٢]. ويحذر القرآن كثيرا مـــن عمل بلا قول بضرورة الالتزام بما نقوله قال سبحانه وتعالى "يا أيها الذين آمنوا لم تقولـــون مالا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون" الصف: ٢ — ٣.

ويحرص الذهبى على أن يتطابق العلم والعمل وأن يكون سلوك أهل العلم تطبيقا لمـــا يعلمونه ويتحدث عن نفر من العلماء تخالف أقوالهم أفعالهم حيث أنهم "نالوا العلـــم، وتولـــوا المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم وارتكبوا الكبائر والفواحش، فتبا لـــهم، فمـــا هـــؤلاء بعلماء، وبعضهم لم يتق الله فى علمه ... وخلف من بعدهم خلف بان (ظهر) نقصهم فى العلم والعمل، غاية المدرس منهم أن يحصل كتبا مثمنة (ثمينة) يخزنها وينظر فيها يوما مـــا، ولا يعمل بما فيها"[٣].

إن العلم إذا لم يصحبه عمل والتزام كان وبالا علي صاحبه ولا خير في علم لا ينفـــع صاحبه. ومن مبادئ التعليم عند الذهبي الاهتمام بالحفظ "من أراد أن يقوي حافظته فليكثر من الحفظ"[٤].

---

[١] الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـــ٨، مرجـــع سابق، ص ٩٠.

[٢] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، المقدمة، جـــ١، القاهرة، دار التراث، د. ت، ص ٣.

[٣] الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـــ٧، مرجع سابقـــع سابق، ص ص ١٥٢ – ١٥٣.

[٤] ----: الطب النبوي، مرجـــع سابق، ص٧٩.

ويعد إخلاص النية لإرضاء الله فى طلب العلم من مبادئ التعليم لدى الذهبى وهذا المبدأ متضمن أيضا فى الكبيرة الثامنة والثلاثين (التعلم للدنيا وكتمان العلم) فقد اعتبر (التعليم للدنيا) من كبائر الذنوب وساق الأدلة على ذلك "... قال رسول الله ﷺ "من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة"[١]. يعنى ريحها وقال صلى الله عليه و سلم: "من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار"[٢].

وقد ضمن الذهبى معنى هذا المبدأ فى الكبيرة السابعة والثلاثين: (الرياء)[٣] و ساق حديثا نبويا يؤكد على أهمية إخلاص النية لله فى طلب العلم روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فى سبيل الله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قابلت فيك حتى استشهدت ... ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرها قال: فما عملت فيها: قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم وقرأت ليقال هو قارئ ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار"[٤].

ويرى الذهبى أن الفهم من مبادئ التعليم "... امرنا بالإنصات إلى قارئ لنفهم ونعقل ونتدبر"[٥].

واضح أن الذهبى يحرص على أهمية الفهم والتدبر وخصوصا عند الاستماع إلى قراءة القرآن الكريم.

ومن مبادئ التعليم عند الذهبى الابتعاد عن التقليد "... فالله تعالى ما أوجب عليهم (يعنى الفقهاء) تقليد إمامهم، فلهم أن يأخذوا ويتركوا كما قال الإمام مالك رحمة الله تعالى: "كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا صاحب هذا القبر". فيا هذا، إذا وقفت غدا بين يدى الله تعالى فما حجتك؟ إن قلت: قلدت إمامى، يقول لك: فما أنا أوجبت عليك تقليد إمامك"[٦].

---

[١] أبو داود: سنن أبو داود، جـ٣، كتاب العلم، باب طلب العلم لغير الله، القاهرة، دار الحديث، ١٩٨٨، ص ٣٢١.

[٢] الترمذى: سنن الترمذى، كتاب العلم، باب طلب العلم لغير الله، مرجع سابق، ص ٣٢.

[٣] الذهبى: الكبائر، مرجع سابق، ص ١٥٤.

[٤] الحاكم: المستدرك على الصحيحين، جـ١، كتاب العلم، باب العلم، بيروت، دار الكتاب العربى، د. ت، ص ١٠٧.

[٥] الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ١٢٤.

[٦] ------: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ١٥.

وبين الذهبى فى موضع آخر انه لا يلتزم بتقليد مذهب فقهى واحد إلا شخص قاصر غير متمكن فى الفقه أو متعصب لمذهب معين "ما يتقيد بمذهب واحد إلا من هو قاصر فى التمكن من العلم كأكثر علماء زماننا، أو من هو متعصب"[١].

ومن مبادئ التعليم عند الذهبى التسامح مع الآخرين وعدم التعصب الفكرى والموضوعية ومناقشة آراء الغير بروح علمى فى البحث ولذلك يخاطب بعض فقهاء الأحناف فى عصره "ولا يكن همك الحكم بمذهبك ولا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب واحبها إلى الله تعالى، فإنك لا دليل لك على ذلك، ولا لمخالفك أيضا بل الأئمة رضى الله عنهم على خير كثير ولهم فى صوابهم أجران على كل مسألة، وفى خطأهم أجر"[٢].

ومما يدل على تسامح الذهبى وموضوعيته واعتداله ما ذكره فى ترجمة ابن حزم الظاهرى "ولى أنا ميل إلى أبى محمد لمحبته فى الحديث الصحيح، ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه فى كثير مما يقوله فى الرجال والعلل، والمسائل الخطيرة فى الأصول والفروع، وأقطع بخطئه فى غير ما مسألة، ولكن لا أكفره، ولا أضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه"[٣].

والمسلم الحق يوالى جميع الأئمة ويشيد بفضلهم ولا يعتقد فيهم العصمة ولا يجعله تقليد واحدا منهم متعصبا على غيره أو يفرط فى حبه فينحرف عن الصواب ويدور مع الحق حيث دار.

ومن مبادئ التعليم عند الذهبى الدعوة إلى الإخلاص فى البحث والإنصاف والاعتدال فى النقد ومن ذلك مثلا ما ذكره فى ترجمة ابن عبد البر القرطبى "وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، ولكن إذا أخطأ إمام فى اجتهاده، لا ينبغى لنا أن ننسى محاسنه، ونغطى معارفه (أي نجهل علومه)، بل نستغفر له، ونعتذر عنه"[٤]، وفى موضع أخر "إنما الكلام فى العلماء مفتقر (محتاج) إلى وزن (ميزان)بالعدل والورع"[٥].

آداب التعليم:

وبعد أن عرض الباحث لطرق التعليم ومبادئه يعرض بعض ما كان سائدا فى أوسلط المتعلمين من آداب عل العلاقات بين المتعلمين والمعلمين تتضح فالمتعلم اليوم هو المعلم فى

---

[١] الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ١٤، مرجع سابقع سابق، ص ٤٩١.

[٢] ----: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ١٦.

[٣] ----: سير أعلام النبلاء، جـ١٨، مرجع سابقع سابق، ص ٢٠٢.

[٤] ----: المرجع السابق، جـ١٨، ص ١٥٧.

[٥] ---- : نفس المرجع السابق، جـ٨، ص ٤٤٨.

الغد والآداب السائدة تشبه الأعراف المتداولة ويعرض الباحث لآداب التعليم من منظور الذهبى:

يعتبر المعلم حجر الزاوية فى العملية التربوية ولكى يقوم بكل مسئولياته فلابد أن تتوافر فيه صفات أخلاقية وعلمية وشخصية قد لا تتوافر لدى البعض لما لها من أثر عظيم فى عقول ونفوس الطلاب والاقتداء به ومن ثم حدد الذهبى بعض الآداب التى يجب أن يتحلى بها كل من المعلم والمتعلم والدور الذى يقوم به كل منهما لإثراء العملية التعليمية.

كان من آداب التعلم عند الذهبى حسن النية وابتغاء رضا الله سبحانه وتعالى فقد حرص على أن يصحح كل من المعلم والمتعلم نيته لأن تصحيح النية فى العلم والعمل والإخلاص لله أساس القبول وإلا تحول ذلك إلى الرياء فخاب وخسر من عمل هذا وقرر أن يكون العمل مقرونا بحسن القصد والتوجه إلى الله وهذا شائع فى كتاباته "تصحيح النية من طالب العلم متعين، فمن طلبه للمكاثرة أو المفاخرة أو ليروى، أو ليتناول الوظائف أو ليثنى عليه وعلى معرفته فقد خسر، وإن طلبه لله، وللعمل به، ولنفع الناس، فقد فاز، وإن كانت النية ممزوجة بالأمرين فالحكم للغالب،وأما إن كان طلبه لفرط المحبة فيه،مع قطع النظر عن الأجر وعن بنى أدم، فهذا كثيرا ما يعترى طلبه العلوم، فلعل النية أن يرزقها الله بعد. وأيضا فمن طلب العلم للآخرة كساه العلم خشية لله، واستكانة وتواضع ... فليحتسب المحدث بحديثه"[1].

ويخاطب الذهبى طالب العلم بأن يتحرى النية فى طلب العلم "إن كانت همتك (أى قصدك) كمهمة إخوانك من الفقهاء الذين قصدهم المناصب والعمل والمدارس والدنيا والرفاهية والثياب الفاخرة، فليست هذه نية خالصة. وتذكر قول الرسول ﷺ : "من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار"[2].

وإخلاص النية لله فى طلب العلم يكاد يجمع عليه جميع المربين المسلمين فى جميع العصور وأكدوا عليه فى العديد من كتاباتهم وحذروا من أن يكون الهدف من تعلم العلم طلب الرياسة والمال والجاه لأن العلم يعتبر عبادة يتقرب بها المرء إلي الله والنية ركن من أركانها ومن ثم اشترطوا أن يكون طلبه خالصا لوجه الله تعالي.

ومن آداب التعليم عند الذهبى أن يعلم العالم حسبة لله ولا يطلب أجرا "من العلماء من لديه أموال يتاجر فيها، وهذا المعلم لا أرتاب أنه يحرم عليه أخذا الجامكية* لأنه من الأغنياء

---

[1] الذهبى: الموقظة فى علم مصطلح الحديث، مرجع سابق، ص ٦٥

[2] بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ص١٦، ١٧.

* الجامكية: جمعها جوامك وهى مصطلح مملوكى يعنى الراتب المربوط لشهر أو أكثر، سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ٤٢٦.

التجار، ومن ذوى الثروة واليسار ... إذ أخذ الجامكية إنما غرضه الاستعانة على طلب العلم ونشره، وهذا العالم فى غنى عن أخذ صدقات الملوك والأمراء، ولا يحل له أن يـــأخذ علـــى علمه أجرة ولا ثمناً"[١]

ومن آداب التعليم عند الذهبى إحياء السنة والحرص على متابعتها وتجنب البدع "غلاة المعتزلة، وغلاه الشيعة، وغلاة الحنابلة، وغلاة الأشاعرة، وغلاة المرجئة، وغلاة الجهميـــة" وغلاة الكرامية، قد ماجت بهم الدنيا وكثروا، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء، نســـأل الله العفـــو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العـــالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العـــبرة بكثرة المحاسن"[٢].

وذكر فى ترجمته لأحمد بن عطاء الهجيمى الصوفى "ما كـــان الرجـــل يـــدرى مـــا الحديث، ولكنه عبد صالح، نعوذ بالله من ترهات (أباطيل الصوفية)، فلا خير إلا فى الاتبـــاع، ولا يمكن الاتباع إلا بمعرفة السنن"[٣].

وكان من آداب التعليم عند الذهبى التواضع ومجانبة الكبر ورأى أن العـــالم لابـــد أن يتحلى بالتواضع "أشر أنواع الكبر من يتكبر على العباد بعلمه فإن هذا لم ينفعـــه علمـــه ... ومن طلب العلم للفخر والرياسة وتكبر على المسلمين فهذا من أكبر الكبر ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر"[٤].

ويذكر ذلك فى موضع آخر "وأحذر الكبر والإعجاب بعلمك ويا سعادتك إن نجوت من ذلك (يعنى من الكبر والتزمت بالتواضع)"[٥].

ويرى الذهبى أن من آداب التعليم أن يكون قول العالم مطابقاً لعلمه ويتجنب قول ما لا يفعل وساق أدلة تؤكد ذلك "... قال ابن مسعود: من تعلم علماً لم يعمل به لم يزده العلـــم إلا كبراً[٦]. وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "يجاء بالعالم الســـوء يـــوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النـــار عليه فيقولون: أى فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال كنـــت

---

[١] الذهبى: رسالة فى مسائل فىطلب العلم، مرجـــع سابق، ص ٢١٢.
[٢] ----: سير أعلام النبلاء، جـــ٢٠، مرجع سابق، ص ص ٤٥، ٤٦.
[٣] ----: المرجـــع السابق، جـــ٩، مرجع سابق، ص ٤٠٩.
[٤] ----: الكبائر، مرجـــع سابق، ص ص ٨٥، ٨٦.
[٥] ----: بيان زغل العلم والطلب، مرجـــع سابق، ص ١٨.
[٦] _____: الكبائر، مرجـــع سابق، ص ١٥٨.

أمركم بالمعروف ولا أتيه، وأنهاكم عن المنكر وأتيه"[1]. وقال هلال ابن العلاء: طلب العلم شديد وحفظه أشد من طلبه والعمل به أشد من حفظه والسلامة منه أشد من العمل به"[2].

ومن آداب التعليم عند الذهبى أن يبتعد المتعلم عن الجدل فى قضايا العلم ولو كان على الحق وعدم التعصب للرأى "احذر المراء (الجدل) فى البحث وإن كنت محقا، ولا تنازع (تختلف) فى مسألة لا تعتقدها"[3].

وكان من آداب التعليم لدى الذهبى استمرار التعلم والصبر على طلب العلم ويتفرغ له ويستمر فى طلبه حتى الممات فقد أرشد طالب العلم ونصحه بـ "ألا يفترعن طلب العلم إلى الممات، بنية خالصة وتواضع، وإلا فلا يتعن (أى يتحمل ولا يتضجر ويصبر)[4]."

ويرى الذهبى أن من آداب المتعلم أن يوطن نفسه على احتمال المتاعب ويصبر على مشاق الارتحال فى طلب العلم ومما يدل على ذلك ما ذكره فى ترجمه الإمام البخارى "وأما جامعه الصحيح فأجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى، وهو أعلى شيء فى وقتنا إسنادا للناس، ومن ثلاثين سنة يفرحون بعلو سماعه، فكيف اليوم؟ فلو رحل الشخص لسماعه من مسيره ألف فرسخ لما ضاعت رحلته، وأنا أدري أن طائفة من الكبار يستقلون عقلى فى هذا القول، ولكن: ما يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها. ومن جهل شيئا عاداه"[5].

ويرشد القرآن الكريم المتعلم إلى أنه مهما تخيل مكانته فى العلم فهناك من هو أعلم منه قال تعالى: "وفوق كل ذى علم عليم" يوسف: ٧٦. والعالم والمتعلم مدعوان لاستمرار العلم والصبر عليه والعلم لا نهاية له وعلى المسلم أن يستزيد منه ويجد فى السعى إليه حتى الممات. قال سبحانه مخاطبا نبيه ﷺ : "وقل رب زدنى علما"، طه: ١١٤.

ومن آداب التعليم عند الذهبى إزالة الجهل عن نفس المتعلم وسؤال أهل العلم "... ليس من جهل علما حجة على من علمه، وإنما يقال للجاهل: تعلم، وسل أهل العلم إن كنت لا تعلم، لا يقال للعالم: أجهل ما تعلم. ورزقنا الله وإياكم الإنصاف"[6].

---

[1] البخارى: صحيح البخارى،جـ٢،كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقه،مرجع سابق، ص٣١٨.

[2] الذهبى: الكبائر، مرجع سابق، ص ١٥٩.

[3] ----: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ص ١٧، ١٨.

[4] ----: سير أعلام النبلاء، جـ١٣، مرجع سابقـع سابق، ص ٣٨٠.

[5] ----: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مرجع سابق، ص٢٤٢.

[6] -----: سير أعلام النبلاء، جـ١٠، مرجع سابق، ص ص ١٧٠، ١٧١.

ويرى الذهبى أن من آداب التعليم أن يكون المعلم أو العالم دائم الإطلاع على العلم والثقافة فى مجال تخصصه ويقرر حقيقة العالم الفقيه "قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ما رأيت فى كتب الإسلام فى العلم مثل "المحلى" لأبن حزم، وكتاب "المغنى" للشيخ موفق الدين بن قدامة، قلت: لقد صدق الشيخ عز الدين، وثالثهما: "السنن الكبرى" للبيهقى، ورابعهما: "التمهيد" لابن عبد البر: فمن حصل هذه الكتب، وكان من أذكياء المفتين، وأدمن المطالعة فيها، فهو العالم حقا"[1].

ويوجه طالب الحديث فى عصره إلى نسخ بعض أمهات كتب الحديث ومختصراته الجامعة ثم مطالعه هذه الكتب فى مجال الحديث ليكون على خبرة كافية بالحديث وقد اختار الذهبى أنماطا ونماذج رأى أنها تيسر العلم له "فطالب علم الحديث اليوم (القرن الثامن) ينبغى له أن ينسخ هذه الكتب: (الجمع بين الصحيحين) للحميدى الأندلسى (ت ٤٨٨هـ) (وهو تلخيص لصحيحى البخارى ومسلم)، و (الأحكام الكبرى) للحافظ عبد الحق الأشبيلى (ت٥٨١هـ)، و (الأحاديث المختارة) للضياء المقدس (ت ٦٤٣هـ)، ويدمن النظر فى هذه الكتب الحديثيه، ويكثر من فهم واستيعاب مصنفات البيقهى فإنها نافعة ومفيدة، ولا أقل من مطالعة مختصر فى الحديث ككتاب (الإلمام فى أحاديث الأحكام) لابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ) ودراسته"[2].

ويرى الذهبى أن من آداب التعليم أن يرفق المعلم بالمتعلم ويأخذ بيده وييسر ولا يعسر ويشفق على المخطئ ويرشده إلى الصواب بأسلوب حسن "... من زاره – صلوات الله وسلامه عليه – وأساء أدب الزيارة، أو سجد للقبر أو فعل ما لا يشرع، فهذا فعل حسنا وسيئا فيعلم برفق، والله غفور رحيم. فوالله ما يحصل الانزعاج لمسلم ... وكثرة البكاء، إلا وهو محب لله ولرسوله، فحبه المعيار والفارق بين أهل الجنة وأهل النار"[3].

ويرى الذهبى أن على العالم أن يرفق بالمتعلم وخصوصا إذا كان قد نشأ فى بلاد الكفر وقدم إلى بلاد الإسلام "ينبغى للعالم ألا يستعجل على الجاهل، بل يرفق به ويعلمه مما علمه الله، ولا سيما إذا كان قريب العهد بجاهلية، قد نشأ فى بلاد الكفر البعيدة وأسر وجلب إلى أرض الإسلام، وهو تركى أو كرجى مشرك لا يعرف بالعربى، فاشتراه أمير تركى لا علم عنده ولا فهم. فبالجهد إن تلفظ بالشهادتين، فإن فهم بالعربى، حتى يفقه معنى الشهادتين

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء، جـ١٨، مرجع سابق ، ، ص ١٩٣.

(٢) -----: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ١٢.

(٣) -----: سير أعلام النبلاء، جـ٤، مرجع سابقـع سابق، ص ٤٨٥.

بعد أيام وليال، فبها ونعمت ... فمن أين لهذا المسكين أن يعرف شرائع الإسلام، والكبـــائر، واجتنابها ..."[1].

وكان من آداب التعليم عند الذهبى عدم التحاسد والتباغض فقد لفت أنظار العلماء إلـــى أن تكون العلاقات فيما بينهم قائمة على أساس الاحترام المتبادل والتعاون والحب والابتعـــــاد عن الطعن والغمز واللمز "كلام الأقران بعضهم فى بعض ينبغى أن يطوى ولا يروى، لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصـــم الله، ومـــا علمت أن عصرا من العصور سلم أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل فى قلوبنا غلا للذين أمنوا إنك رءوف رحيم"[2].

يرى الذهبى أنه لا يوجد فى عصر من العصور إلا والعلماء، يحقد بعضـــهم علـــى بعض وقل أن يسلم أحد من العلماء من الانتقاد إما حسدا من الأقران والمعاصرين من وجهـــة أو تعصبا من المخالفين من جهة أخرى أو تعنتا وضيق صدر بالحق من آخرين من جهة ثالثة ولذا يدعو العلماء إلى تجنب التحاسد والتحاقد لأن ذلك من الأخلاقيات المذمومة التى لا تليـق بأهل العلم وتوقير بعضهم لبعض أولى".

ومن آداب التعليم عند الذهبى وخصوصا المحدث أن يمتنع عن الحديث عنـــد كـــبر السن، خوف الاختلاط وألا يتحدث بالحديث مع وجود من هو أولي منه أن يتطيـــب ويكـــون على هيئة حسنة ويروى الحديث بتؤدة وأن يراعى قدرات واستعدادات مـــن يســـمعون منـــه الحديث ويتجنب رواية الأحاديث الموضوعة "... وليمتنع من الحديث مع الهرم وتغير الذهن ... فإن اختلط وخرف امتنع من أخذ الإجازة منه، وألا يحدث مع وجود من هو أولى منــــه لسنه وإتقانه ... وأن يكون المحدث حسن الهيئة، فقد رأى أن مالكا رحمة الله كـــان يغتســـل للتحديث ويتطيب، ويزبر مع من يرفع صوته (أى يزجره وينـــهاه)، ويرتـــل الحديـــث، وألا يتسرع فى ذكره ... وليجتنب المحدث رواية المستنكرات، مما لا تحمله قلوب العامة، فـــإن روى ذلك فليكن فى مجالس خاصة، ويحرم عليه رواية الحديث الموضوع، إلا أن يبينه للناس ليحذروه"[3].

ومن آداب التعليم عند الذهبى عدم اتباع السلطان ويرى أن العلماء مطلوب منهم أمـــو زائد على العمل بعلمهم وهو صدعهم بالحق جهد طاقتهم فى كل موقف يتطلب ذلـــك وعـــدم

---

[1] الذهبى : الكبائر، مرجـــع سابق، ص ١٧.

[2] ----: ميزان الاعتدال فى نقد الرجـــال، جـــ١، مرجع سابق، ص ١١.

[3] ----: الموقظة فى علم مصطلح الحديث، مرجـــع سابق، ص ص ٦٥ – ٦٧.

تزيين الباطل أو السكوت عليه خوفا من سطوة الجبابرة وألا يخشوا فى الحق لومة لائم فقد علق على حديث: (الدين النصيحة) بكلمة رائعة: "فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهى قوله (الدين النصيحة)، فمن لم ينصح لله وللائمة وللعامة، كان ناقص الدين. وأنت لو دعيت: يا ناقص الدين، لغضبت، فقل لى: متى نصحت لهؤلاء؟ كلا والله، بل ليتك تسكت، ولا تنطق، أو لا تحسن لإمامك الباطل، وتجرئه على الظلم وتغشه. فمن أجل ذلك سقطت من عينه، ومن أعين المؤمنين. فبالله قل لى: متى يفلح من كان يسره ما يضره؟ ومتى يفلح من لم يراقب مولاه؟ ومتى يفلح من دنا رحيله ... فما شاء الله كان، وما نرجو صلاح أهل الزمان، لكن لا ندع الدعاء، لعل الله أن يلطف، وأن يصلحنا"[1].

هذه جملة من الآداب التى أوردها الذهبى واستنبطها الباحث من كتاباته والتى ينبغى للعالم والمتعلم التحلى بها لكى تجدى العملية التعليمية وتؤتى أكلها واهتمامه واضح بتوضيح العلاقة بين المعلم والمتعلم وتحديد الآداب التى تقوى هذه العلاقة بحيث توفر جوا طيبا تتم فيه العملية التعليمية وهى تكشف إلى حد كبير عن حرص الطلاب على العلم واحترام المعلمين وهذه الآداب التى تحدث عنها الذهبى بناها على أساس مزاولته للتدريس فضلا عن أن وجود علاقة طيبة بين المعلم والمتعلم من العوامل الهامة فى نجاح العملية التربوية. وهذه الآداب بعض منها يعكس أوضاع المعلمين والمتعلمين فى زمانه والبعض الآخر لم يختلف كثيرا عما تحدث عنه وتناوله المربين المسلمين السابقين وكان لهذه الآداب أثرها الإيجابى على أرض الواقع الإسلامى حيث أسهمت فى تخريج العلماء وهى تتفق وتعاليم الإسلام التى تحث على تحلى كل من طرفى العملية التعليمية بهذه الأخلاقيات ومدارسنا وجامعاتنا فى أمس الحاجة اليوم إلى هذه الآداب والأخلاقيات وخصوصا فى وقتنا الراهن حيث ساءت العلاقات فى بعض البيئات العلمية وتدنت أخلاقيات بعض المعلمين والمتعلمين.

وهذه الآداب وغيرها "تكشف عن قيم إيجابية يتصف بها طالب العلم صغيرا أو كبيرا، ولا يخلو معلم فى الإسلام من أن يكون طالب علم، وقد أفاض العلماء فى بيان هذه الآداب، كما أفاضوا فى آداب المعلم وواجباته تجاه طلابه، وكلها تكشف عن الحرص الشديد على المعرفة فى الإسلام وسبل اكتسابها وآداب الطلب والتعليم مما يوفر البيئة الصالحة لنمو المعارف وازدهارها وتوجيهها التوجيه الأمثل، زيادة إيمان بالله وخشية له، وزيادة فهم للمخلوقات وزيادة نفع للإنسان فى الدنيا والآخرة"[2].

---

[1] الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٧، مرجع سابق، ص ١٢٥.

[2] عبد البديع الخولى: العلم فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٩١.

رابعا: نقد الذهبى للبيئات العلمية والتربوية:

كانت للذهبى بعض المآخذ على البيئات العلمية فى عصره وقد ضمن هذه المآخذ كتابه "بيان زغل العلم والطلب" الذى ذكر فى مقدمته: "اعلم أن فى كل طائفة من علماء الأمة ما يذم ويعاب فتجنبه"[١].

وجعل يفصل هذه العيوب فى كل علم على حدة فعاب على القراء والفقهاء والمحدثين وعلماء اللغة والنحويين والمفسرين والشعراء والصوفية وبين رأيه فى هذه العلوم وطلابها وأوضاع المهتمين بها.

(أ) علم القراءات والتجويد:

عاب الذهبى على أهل هذا العلم أمورا أهمها: التنطع والتحرير الزائد اللذين يصرفا عن التدبر والخشوع ويأخذ عليهم الغرور والكبر وازدراء الحفاظ والعيب على المسلمين باللحن ويرى أن انشغال القراء المجودين بالتجويد يجعلهم قليلي الحظ من العلم بالتفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم "فالقراء المجودة (المجودين)" فيهم تنطع وتحرير زائد يؤدى إلى أن المجود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف والتنطع فى تجويدها بحيث يشغله ذلك عن تدبر معانى كتاب الله تعالى ويصرفه عن الخشوع فى التلاوة لله ويجعله مزدريا بحفاظ كتاب الله تعالى. فينظر إليهم بعين المقت وأن المسلمين يلحنون، وبأن القراء لا يحفظون إلا شواذ القراءة فليت شعرى: أنت ماذا عرفت؟ وما علمك، وأما عملك فغير صالح"[٢].

يعيب الذهبى على القراء أنهم يعيبون غيرهم من القراء والعوام ويرون أنهم أفضل منهم وينبههم إلى نقص عملهم وأن علمهم بالتجويد وحده غير كاف للحصول على مرضاة الله والعمل بما يرضى الله وفق شريعته وسنة نبيه وبهذا يريد أن يكثرغرورهم ويردهم إلى جلدة الصواب والتواضع والاستزادة من العلم.

ويعيب الذهبى على بعض القراء أيضا ثقل القراءة وبعدها عن الخشوع والخوف من الله والمبالغة فى النغم والتمطيط والقراءة أيضا على الجنائز "... وأما تلاوتك فثقيلة عرية عن الخشوع والحزن والخوف، فالله يوفقك، ويبصرك رشدك، ويوقظك من رقدة الجهل والرياء. وضدهم قراء النغم والتمطيط وهؤلاء فى الجملة من قرأ منهم بقلب وخوف قد ينتفع به فى الجملة، فقد رأيت من يقرأ (أى القرآن) صحيحا ويطرب ويبكى. نعم ورأيت من إذا قرأ

---

[١] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ٩.

[٢] ----: المرجع السابق، ص ص٩، ١٠.

قسى القلوب وأبرم النفوس، وبدل كلام الله تعالى وأسوأهم حالا الجنائزية، والقراء بالروايات وبالجمع* وشعارهم فى تكثير وجوه حمزة، وتغليظ تلك اللامات وترقيق الراآت. اقرأ يا رجل واعفنا من التغليظ والترقيق وفرط الإمالة، والمدود ووقوف حمزة، فإلى كم هذا؟ وآخر منهم أن حضر فى ختمه أو تلافى فى محراب جعل ديدنه إحضار غرائب الوجوه والسكت ... وأتى بكل خلاف ونادى على نفسه أنا "أبو فلان" فاعرفونى فإني عارف بالسبع (القراءات السبع). إيش يعمل بك؟ لا صبحك الله بخير. إنك حجر منجنيق ورصاص على الأفئدة"[1].

يأخذ الذهبى على بعض قراء القرآن الكريم فى عصره بعدهم عن الخشوع وانشغالهم بتكثير وجوه القراءات والمبالغة فى استحضار كل وجوه القراءات والبعد عن الإخلاص لله وقصد الرياء بهذه المبالغات ويوجههم إلى التواضع وعدم احتقار غيرهم من قراء القرآن وحفاظه وعامة المسلمين وتستهدف هذه النظرات التربوية النقدية الحرص على تدبر معانى كتاب الله بدلا من المبالغة فى مراعاة مخارج الحروف والتنطع فى تجويدها بعيدا عن الخشوع والخوف من الله تعالى عند تلاوة القرآن والتأثر به وأن يتعبد القارئ بالتلاوة ويقصد الأجر والثواب لا السمعة ولا الرياء ولا التكسب بالدنيا ولهذا عاب على القارئ بالسبع مبالغته فى القراءة بقصد المباهاة "أنا أبو فلان فاعرفونى" ونقداته هذه تدل على رسوخ قدمه فى فهم دقائق هذا العلم.

(ب) علم الفقه:

كان الفقهاء ذوى مكانة علمية كبيرة فى نفوس الناس فى مصر والشام فى هذا القرن وبالرغم من ذلك كانت لبعضهم بعض العيوب أخذها الذهبى عليهم ومنها التقيد والتعبد بتقليد إمام المذهب المتبع وتعصب الفقيه لمذهبه المنتمى إليه والتطلع إلى المناصب والمباهاة والسمعة "... فالله ما أوجب عليهم تقليد إمامهم ... وإن كانت همتك فى طلب الفقه الجدال والمراء والانتصار لمذهبك على كل حال وتحصيل المدارس والعلو فما هذا فقها أخرويا، بل هذا فقه الدنيا، فما ظنك تقول غدا بين يدى الله تعالى: تعلمت العلم لوجهك وعلمته فيه، فاحذر أن تغلط وتقولها فيقول لك: "كذبت إنما تعلمت ليقال عالم، وقد قيل ثم يؤمر بك مسحوبا إلى النار". كما رواه مسلم فى الصحيح ... فلو كنت ذا صنعة لكنت بخير تأكل من كسب يمينك وعرق جبينك وتزدرى نفسك، ولا تتكبر بالعلم، أو كنت ذا تجارة لكنت تشبه علماء السلف الذين ما أبصروا المدارس ولا سمعوا بالجهات، وهربوا لما للقضاء طلبوا، وتعبدوا بعلمهم

---

* ينقد أولئك الذين يفاخرون بمعرفته بالقراءات السبع أو العشر ويأتون بغرائب الوجوه ليشار إليهم بالعلم والمعرفة.

[1] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ص ٩، ١٠.

وبذلوه للناس ورضوا بثوب خام وبكسره كما كان من قريب الإمام أبو إسحاق صاحب "التنبيه" وكما كان بالأمس الشيخ محيى الدين صاحب "المنهاج"، وكما ترى اليوم سيدى عبد الله بـــن خليل"[١].

ويعيب الذهبى على بعض الفقهاء المالكية مسارعة بعضهم إلى الفتوى بدون تـــأهيل ويرى أن المفتى يجب عليه أن يراقب ربه ويتريث فى فتواه ولا يكفر أحدا إلا بدليل "الفقـــهاء المالكية على خير واتباع وفضل إن سلم قضاتهم ومفتوهم من التسرع فى الدماء، والتكفير فإن الحاكم والمفتى يتعين عليه أن يراقب الله تعالى، ويتأنى فى الحكم بالتقليد ولا سيما فى إراقـــة الدماء ... فيا هذا إذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك لم أبحت دم فلان فما حجتـــك؟ ...[٢] ثبت أن النبى ﷺ قال: "أول ما يقضى بين الناس فى الدماء"[٣].نعم من رأيته زنديقا عـدوا لله فاتق الله وأرق دمه ابتغاء وجه الله بعد أن تستفتى قلبك وتستخير الله فيه"[٤].

كان الفقهاء المالكية بيدهم دفة سياسة القضاء وكانوا أحوج إلى سرعة البت فى الأمور الخطيرة على العقيدة والدولة كالزندقة والخروج على الحكام ولذا اشتهروا أكثر من غـــيرهم بالتسرع فى الحكم والإفتاء ومن ثم انتقدهم الذهبى وعاب عليهم التسرع فى الإفتاء.

ويأخذ الذهبى على بعض فقهاء الحنفية تحايلهم على الشرع لإبطال أحكامـــه وعـدم العمل بالنصوص التى يقولون بها "الفقهاء الحنفية أولو التدقيق والرأى والذكاء والخـــير مـن مثلهم إن سلموا من التحايل والحيل على الربا، وإبطال الزكاة ونقر الصلاة والعمل بالمســائل التى يسمعون النصوص النبوية بخلافها"[٥].

ويظهر لنا مما تقدم أن أهم العيوب التى أخذها الذهبى علـــى الفقـــهاء هـــى التقليـد واستهداف المناصب والدنيا والرفاهية وهذا العيب الذى يحذر منه الذهبى يؤدى بصاحبه إلـــى ارتكاب كبيرة (التعلم للدنيا) ويبعده عن النية الخالصة لله تعالى ويغفل عن وابتغاء مرضاة الله فى نشر العلم وهداية الناس وهذا لا ينبغى لعالم مخلص بل هو مما ابتعد عنه علماء الســـلف كما وصفهم الذهبى وهو عيب لا يكاد يخلو منه بعض طلاب العلـــم مـــن مرضـــى القلـــوب والنفوس– وقد سبق انتقاد بعض القراء بمثل هذا النقد – ومما عابه على الفقهاء كذلك التكسب

---

[١] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجـــع سابق، ص ص ١٥ – ١٧.

[٢] الذهبى : المرجـــع السابق، ص ١٥.

[٣] البخارى: صحيح البخارى: جـــ، كتاب الديات، باب قوله تعالى "ومن يقتل مؤمنـــا متعمـــدا"،مرجـــع سابق، ص ٢٨١.

[٤] الذهبى : بيان زغل العلم والطلب، مرجـــع سابق، ص ١٥.

[٥] ----: المرجـــع السابق، ص ١٦.

بالعلم وقد حذر منه الذهبى لأنه يحول العلم إلى مهنة دنيوية والذهبى يندب العلماء إلى طلــب الرزق بمهنة دنيوية ليظل طلبهم ونشرهم للعلم عبادة خالصة لله وعلاج هذا العيـــب بـــالعمل والكسب وابتغاء الرزق يربي التواضع ويجعل طالب العلم (يزدرى نفسه) فـــلا يـــترفع عـــن العمل (ولا يتكبر بالعلم) كما ذكر الذهبى وأيضا يعيب على بعضهم التسرع فى الحكم والإفتاء ويخص بذلك فقهاء المالكية.

وقد أشار لعلاج هذا التسرع ببعض الأمور منها: استشعار الخوف من الله وأن يستفتى القاضى قلبه فى الحكم على الواقعة التى أمامه وأن يستخير الله قبل البت فى الحكم ومراقبـــه الله تعالى فى كل أحكامه.

ويبدو للباحث ما يراه مفيدا فى طرق تدريس الفقه فى مدارسنا على النحو التالى:

١-ليس الفقه تقليدا لمذهب بعينه بحذافيره بل الفقه أن يؤخذ من كل مذهب ما يوافق الدليـــل وأن أساس الفقه هو كتاب الله وسنة رسو له ﷺ وأن يعول على الدليل ويحترم كل الأئمة واحترام كل صاحب حق منصف مخلص وعدم الاعتقاد فى عصمة الفقهاء فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام ومن ثم يكون هناك فقه موحد يمثـــل الأمة الإسلامية ويدرس لجميع المتعلمين بدلا من الفقه المذهبى.

٢-وجوب ارتباط الفقه بالقرآن والسنة حتى يشعر المتعلمون عند دراستهم للفقه أنـــهم بـــهذه الدارسة مقيدون بالأدلة من الكتاب والسنة لا بأقوال الفقهاء وأن مدى ارتباطهم بأى مذهب من المذاهب الفقهية مرهون بمدى موافقته فى تلك القضية لأدلة القرآن والسنة.

٣-منع التعصب المذهبى وقطع دابره وإزالته من النفوس فليس ثمة مذهب أفضل من آخـــر فى جميع القضايا "بل الأئمة الأربعة كلهم على خير" ولذلك يجب تدريس نبذة عـــن كـــل مذهب فقهى تدريسا حياديا.

٤-إن الفقهاء يحملون وينشرون علما دينيا ربانيا يحقق شرع الله ويصلـــح نفـــوس النـــاس ويتحقق بتطبيقه الأمن والسعادة فى المجتمع ومن ثم يجب بيان وإبراز أخـــلاق الفقـــهاء الأوائل من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين.

٥-الفرائض* فرع من فروع الفقه لكن بعض الفرضيين والفقهاء يبالغون فى افتراض مسائل ما وقعت ولا تقع والتوسط فى ذلك هو الأفضل "الفرضيون داخلون فى الفقهاء، إذ هـو كتاب من كتب الفقه، وهو علم مليح، والإمعان فيه يفوت الوقت، والتوسط فى ذلك جيـد، فكم من مسألة فيه ما وقعت ولا تقع أبداً "(١).

وانتقد الذهبى المشتغلين بعلم "أصول الفقه"** من المقلدين ودعاهم إلى عدم التكسـب بهذا العلم "اصول الفقه لا حاجة لك به يا مقلد، ويا من يزعم أن الاجتهاد قد انقطع، وما بقـى مجتهد ولا فائدة فى أصول الفقه إلا أن يصير محصلة مجتهدا، فإذا عرفه ولم يفك تقليد إمامـه فلم يصنع شيئا بل أتعب نفسه وركب على نفسه الحجة فى مسـائل. وإن كـان يقـرؤه (أى يدرسه) لتحصيل الوظائف، وليقال (أى عالم) ... فهذا من الوبال، وهو ضرب من الخبـال (الجنون)"(٢).

(جـ) طلاب الحديث

أما عن طلاب الحديث والمحدثين فقد أخذ عليهم الجهل وعدم فهم الحديـث، وعـدم القدرة على التمييز بين صحيح الحديث وموضوعه والسماع على جهلة الشيوخ المتساهلين فى إثبات السماع وإعطاء الإجازات ليكثر طلابهم وليحظوا بالشهرة وعلو الإسناد مـن روايـة الحديث "وأما المحدثون فغالبهم لا يفهمون، ولا همة لهم فى معرفة الحديث، ولا فى التدين به، بل الصحيح والموضوع عندهم بنسبه إنما همتهم فى السماع على جهلة الشيوخ، وتكثير العـدد من الأجزاء والرواة. لا يتأدبون بآداب الحديث، ولا يستفيقون من سكرة السماع، الآن يسـمع الجزء ونفسه تحدثه: متى يرويه أبعد الخمسين سنة، ويحك ما أطول املـك وأسـوا عملـك. معذور سفيان الثورى إذ يقول: "لو كان الحديث خيرا لذهب كما ذهب الخير". صدق والله وأى خير فى حديث مخلوط صحيحة بواهية، وأنت لا تفليه ولا تبحث عن ناقليه، ولا تدين الله بـه.

---

* علم الفرائض: هو علم باحث عن أحوال قسمة التركة على مستحقيها على فروض مقدرة فى الكتاب والسنة وهو فرع من علم الفقه إلا أنه لكثرة اعتناء العلماء به لعسره وأهمية أفردوه بالتأليف حتى أصبح علما قائمـا بذاته، يراجـع: طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، مراجـعة وتحقيـق كامل بكرى وعبد الوهاب أبو النور، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨، ص ٦٠٠، وابن خلدون: المقدمـة، مرجـع سابق، ص ٤٢٣.

(١) الذهبي: بيان زغل العلم والطلب، مرجـع سابق، ص ٢٤.

** علم أصول الفقه علم ثمرته العملية الاجـتهاد وهو من أعظم العلوم الشرعية وأجـلها قدرا وأكثرها فـائدة ويعنى النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هى الكتاب ثم السنة، ابن خلدون: المقدمة، مرجـع سابق، ٤٢٤.

(٢) الذهبي: بيان زغل العلم والطلب، مرجـع سابق، ص ٢١.

أما اليوم فى زماننا فما يفيد المحدث الطلب والسماع مقصود الحديث من التدين به، بل فـــائدة السماع ليروى فهذا والله لغير الله خطابى معك يا محدث لا مع من يسمع ولا يعقل ولا يحافظ على الصلوات ولا يجتنب الفواحش ... فإيش السماع على جهلة المشـــيخة الذيـــن ينـــامون والصبيان يلعبون والشبيبة يتحدثون ويمزحون وكثير منهم ينعســـون ويكـــابرون، والقـــارئ يصحف* وإتقانه في تكثير: "أو كما قال". والرضع يتصاعقون** بالله خلونا فقد بقينا أضحوكة لأولى المعقولات (يقصد علماء الكلام) يظنون بنا: هؤلاء هم أهل الحديث، نعم ماذا يضر ... لكنك معذور فما شممت للإسلام رائحة ولا رأيت أهل الحديث ... فأفضل من فى وقتنا اليوم من المحدثين على قلتهم، نظير صغار من كان فى ذلك الزمان على كثرتهم. وكم من رجـــل مشهور بالفقه والرأى فى الزمن القديم أفضل فى الحديث من المتأخرين ... فما أدركنا مـــن أصحاب الحديث إلا طائفة كقاضى ديار مصر وعالمها تقى الدين بن دقيق العيد ... وأدركنـا من عكر الطلبة (أسوأهم) شهاب الدين ابن الدقوقى ... ونحمد الله، فى الوقت أناس يفـــهمون هذا الشأن ويعتنون بالأثر: كالمزى، وابن تيمية، والبرزالى ... وجماعة سواهم فيهم العكـــر والغثاء ... والله يستر"[١].

يبدو لنا ما أخذه الذهبى على بعض محدثى عصره حيث ابتلى بطلاب للحديث ليســـوا – فى الأغلب – على المستوى اللائق بعلمهم ويفتقدون المهارات المطلوبة لهذا العلم ويعيـــب عليهم كثرة جمع الأحاديث وحفظها دونما تعقل وتدبر وعدم تطبيق ما يروونه مـــن أحـــاديث ويرى أن بعض المحدثين قد صاروا أضحوكة لعلماء الكلام لعدم وجود من يعتنى بـــالحديث وروايته ويشيد بأئمة الحديث السابقين وقلة قلية من المتأخرين وعدد بعضا من أفاضلهم فـــى عصره بعد أن انتقد الغثاء منهم.

وكان الذهبى كمحدث يعرف خطر الحديث المنسوب كذبا إلى رسول الله ﷺ وكذلـــك نجده يحذر المحدثين من الروايات الباطلة ويرى أن نقد الأحـــاديث وتنقيتـــه الصحيـــح مـــن الضعيف أمانة يسأل عنها العالم المحدث لأن ذلك أمانة يسأل عنها المحدث لأن الشريعة مبنية

---

* التصحيف الخطأ فى الصحيفة.

** أى تعلو أصواتهم والذهبى يتحدث عن صورة لجـــمهور طلاب الحديث فى بعض مدارسه فهم مزيجـــ من مختلف الأعمار يجـــتمعون على شيخ جـــاهل بالحديث ويستمعون إلى قارئ غير متقن ولا فاهم يخطـــئ ولا يصحح له وهم فى له وصخب لأهم لهم سوى السماع بل التسجـــيل فى (طباق الســـماع) وهـــى صـــورة لا تنطبق إلا على بعض مدارس الحديث لأن ثمة شيوخ لا يسمحون بهذه الأخطاء.

[١] الذهبى: بيان زغل العلم والطلب، مرجـــع سابق، ص ص ١١ – ١٣.

على الأحاديث الصحيحة "إن كل من روى حديثا يعلم أنه غير صحيح، فعليه التوبة أو يهتكه (أى يفضحه)"[١].

(د) علم التفسير:

أما علم التفسير فيرى الذهبى تقصير بعض علماء زمانه فيه فينعى عليهم ذلك ويحثهم على التزام التفسير بالمأثورة مع نقده لكثرة أقوال السلف فى الآية الواحدة "قل من يعتنى اليوم بالتفسير، بل يطالع المدرسون تفسير الفخر الرازى، وفيه إشكالات وتشكيكات لا ينبغى سماعها، فإنها تحير وتمرض، وتروى ولا تشفى غليلا، نسأل الله العافية وأقوال السلف فى التفسير مليحة، لكنها ثلاثة أقوال وأربعة أقوال فصاعدا فيضيع الحق بين ذلك، فإن الحق لا يكون فى جهتين وربما احتمل الفظ معنيين"[٢].

يلوم الذهبى علماء عصره على تقصيرهم فى العناية الكافية بعلم التفسير فهم يكتفون بتفسير الفخر الرازى وفيه بعض خروج على المنقول من تفاسير السلف ويستحث الذهبى الهمم للعناية بعلم التفسير ويرى أن التفسير بالمعقول على طريقة الفخر الرازى لا تخلو من أخطار تشكك فى العقيدة ولا يرى قراءة هذه التفاسير ويرى أن أقوال السلف في التفسير لا توصل إلي المعني المقصود في تفسير كل آية لتعدد أقوال المفسرين مع اعترافه بأن بعض ألفاظ القرآن قد يحتمل معنيين.

(هـ) رأيه في علم أصول الدين (علم الكلام):

اختلفت الآراء فى عصر الذهبى حول مدلول هذا الاسم وكانت جذور هذا الاختلاف ترجع إلى عهد السلف ولذلك حاول أن يحدد هذا العلم قبل إبداء رأيه فيه وقرر أن لهذا العلم معنيين: المعنى المتبادر بالبديهة وهو أن أصول دين الإسلام هو حفظ الكتاب والسنة والمعنى المتعارف ويكون إما فى عرف السلف وإما فى عرف الخلف وبعد ذلك يبدى ميله إلى رأى السلف ويحكم رأيهم فى رأى الخلف ويرى أن بعضا من أتباع التابعين بدأ يسلك الأسلوب العقلى المنطقى فى بيان العقيدة الإسلامية فحط من قدره من أدركه وطال عمره من اتباع السف كابن حنبل ورماه بالبدعة لأنه سأل عن أمور عقيدية غيبية لا تعرف إلا بالدليل ويقور أنه نشأ عن أصول الخلف خلافات أدت إلى التكفير وتفريق الأمة والسلامة والعافية من كل هذه الخلافات العودة فى أمور العقيدة إلى نصوص القرآن والسنة ويشيد بشيخه ابن تيمية فى براعته فى المنطق والفلسفة "أصول الدين: هو اسم عظيم وهو منطبق على حفظ الكتاب

---

[١] الذهبى : ميزان الاعتدال، جـ٤، مرجع سابق، ص٩٤.

[٢] -----: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ٢٠.

والسنة، فهما أصول دين الإسلام، ليس إلا، وأما العرف فى هذا الاسم فهو مختلف باختلاف النحل. فأصول دين السلف*: الإيمان بالله، وكتبه، ورسله... وأصول دين الخلف: هو ما صنفوا فيه وبنوه على العقل والمنطق. فما كان السلف يحطون على سالكه ويبدعونه**، وبينهم اختلاف شديد فى مسائل مزمنة، تركها من حسن إسلام العبد، فإنه يورث أمراضا فى القلوب... والسلامة والعافية أولى بك، فإن برعت فى الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة، وآراء الأوائل ومجازات*** العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك فى ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقربها، وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والهجر والتضليل والتكفير والتكذيب بحق وبباطل. فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة (يقصد علم الكلام والفلسفة)منورا مضيئا علي محياه سيما السلف، ثم صار مظلما مكسوفا، عليه قتمة (ظلمة): عند خلائق من الناس، ودجالا أفاكا كافرا: عند أعدائه(****)، ومبتدعا فاضلا محققا بارعا: عند طوائف من عقلاء الفضلاء وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدين، ومحيي السنة: عند عوام أصحابه. هو ما أقول لك"[١].

(و) رأيه التربوي في علم اللغة والنحو "علوم اللغة العربية وفنونها":

-علم النحو: يري الذهبي أن علم النحو يجب أن يبقي خادما لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وإلا فقد وظيفته في صونهما عن اللحن وفي المساعدة علي إعرابهما وفهمهما "النحويون لا بأس بهم، وعلمهم حسن يحتاج إليه، لكن النحوي إذا أمعن في العربية وعري من علم الكتاب والسنة، بقي فارغا بطالا لعابا، ولا يسأله الله تعالي، والحالة هذه، عن علمه في الآخرة، بل هو(النحو) كصنعة من الصنائع (مهنة من المهن)كالطب والحساب والهندسة، لا يثاب عليها ولا يعاقب إذا لم يتكبر علي الناس ولم يتحامل عليهم واتقى الله، وتواضع وصان نفسه "[٢].

---

* يقابل علم التوحيد أو العقيدة في عصرنا ويمثل أصول التربية الإسلامية التي يجب تربية النشء المسلم عليها.

** يقصد أن السلف ينسبونه إلي البدعة أو يرمونه بها.

*** الصواب – والله أعلم – محارات العقول والمعني فإن برعت في المواطن التي تحار فيها العقول ووفقت.

**** ليس كل من كفر أو ضلل أو كذب علي حق والصواب الرجوع إلي سيرة ابن تيمية وكتبه للحكم فيما قال خصومه والذهبي هنا لم ينتهج نهجا علميا موضوعيا فالسلامة من كل الناس ليست علي كل حال حجة وليس ذلك مقياسا أو دليلا علي ضرورة ترك أسلوب ابن تيمية المصلح المجدد في الدفاع عن الدين بالعقل والنقل معا.

[١] الذهبي: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ٢٢.

[٢] الذهبى :المرجع السابق، ص ١٩.

واضح أن قيمة النحو عند الذهبي مرهونة بمدى اقترانه بالقرآن والحديث فالنحوي يبقي علمه فارغا من المحتوى ما لم يقصد به الاستعانة علي فهم الكتاب والسنة وتعلمهما وحسن النطق بهما من غير لحن ويصبح علمه كأي علم دنيوى لا يثاب عليه ولا يعاقب مادام لا يؤذى الناس.

علم اللغة* : أما رأي الذهبي في علم اللغة فيبدو أشد اهتماما بها لاعتقاده أن فهم اللغة والعناية بها وسيلة هامة لفهم القرآن والحديث ولذلك نجده قد انتقد واقع اللغة وفنونها في القرن الثامن الهجري ولاحظ الضعف اللغوي السائد في عصره ووضع اللوم علي علماء اللغة** لأنهم اختفوا من ساحة التعليم وتقويم الألسن فساد الجهل بلغة القرآن والحديث "اللغويون قد عدموا في زماننا، فتجد الفقيه لا يدري لغة الفقه، والمقرئ لا يدري لغة القرآن، والمحدث لا يعتني بلغة الحديث فهذا تفريط وجهل، وينبغي الاعتناء بلغة الكتاب والسنة ليفهم الخطاب"(١).

إن اللغة العربية ينبغي تكريمها والاهتمام بها لأن فهم القرآن والسنة لا يتم إلا بفهم اللغة والعناية بها وإهمال تعلمها تفريط وجهل من قبل طلاب العلوم الشرعية.

الإنشاء: ويقصد به الذهبي علم الكتابة الديوانية (كاتب الإنشاء) الموظف الحكومي عند الخليفة أو السلطان ويري أنه فن من فنون الدنيا لأنه عمل دنيوي يمارسه القائمون علي الدواوين يرفعون ما كتبوا من إنشائهم إلي القضاة أو الولاه يبينون له الوقائع أو الخصومات وأنه يحتاج إلي مهارات نفسية وعقلية كالذكاء والمزاج الثابت غير المتقلب والقدرة علي الإبداع والتخيل والنضج في التفكير ويحتاج المنشئ كذلك إلي خبرات وعلوم شتي كاللغة ليختار الألفاظ المناسبة والنحو لكي لا يخطئ والإلمام بالتاريخ والسير ويري أن أشد ما يحتاج إليه المنشئ تقوي الله ومراقبته وجعل إرضاء الله هدفه الأول والأخير "الإنشاء فن من أبناء الدنيا ليس من علم الآخرة في شيء، والكامل في محتاج إلي مشاركة قوية في العلوم الإسلامية، ويريد عقلا تاما ورزانة وسرعة فهم وقوة تخيل وبصرا باللغة والنحو وخبرة بالمعاني والبيان، والسير وأيام الناس وفنون الآداب وحسن كتابة، ولكن ليكن رأس مال المنشئ تقوي الله ومراقبته فربما وضع لفظة تعجبه يهوي بها إلي النار وهو لا يدري، وربما أبدع في سطر

---

* يقصد بعلوم اللغة العربية ما يسمى بالآلات: النحو والصرف وعلم البلاغة والشعر والنثر، ويقصد بالمواد الشرعية: علوم الفقه والتفسير والحديث وأصول الفقه وأصول الدين وغيرها. انظر عبد البديع الخولي: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٣٥٩.

** لعله يقصد تقصير طلاب العلوم الشرعية كالحديث والفقه والقرآن أما علماء اللغة أنفسهم فقد ألفوا في عصر الذهبي مثل: "لسان العرب " و "مختار الصحاح"، و "المصباح المنير" وغيرها.

(١) الذهبي: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ٢٠.

ترتب عليه خراب مصر (بلد) وربما أعان علي تعلمه سفك الدماء الحرام. فانظر أين أنت يـا بليغ ؟ ... فكمل براعة البلاغة بإرضاء ربك الأعلى، وبنصح رب الأمر فهنا كمال البلاغـة أن كنت من المتقين، وأن تعذر ذلك فدينك ما منه عوض..."[1].

هذا تحليل موجز سريع لهذا الفن وما يحتاجه صاحبه فهو في رأي الذهبي فن خـاضع لذوق المنشئ وهو عمل دنيوي لأنه كـان فـي زمانـه وسـيلة لكسـب المـال والشـهرة ويحتاج المنشئ إلي ملكات وصفات نفسية وعقلية معينة ويحتاج إلي علوم مختلفة لأنـه قـد يضمن إنشاء معني آية أو حديث ويحتاج إلـي تبصـر باللغـة والنحـو وخـبرة بـالمعني والبيان والسير ليستشهد بها عند الضرورة لفنون الأدب كالشعر والنـثر والمقامـة والقصـة ليقتبس إن احتاج إلي الاقتباس أو يقلد أساليب الفصحاء والبلغاء وأهم شئ يحتاجـه المنشـئ تقوي الله لأنه ربمـا يعيـن بقلمـه وبلاغتـه علـي سـفك دم حـرام وتعنـي تقـوي الله ومراقبة إحقاق الحق وإيصال الحقوق إلي أهلها والخوف من الله وإبطال الباطل و محاربتـه والإخلاص لله مبدأ تربوي هام لأن توخي هذا الهدف التربوي من خصائص النفوس الصادقـة لأن "من اتقى الله كفاه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله تعالي سلط عليه من أرضاه، وإنها لكبيرة، إلا علي الخاشعين"[2] .

الشعر: يعتبر الذهبي الشعر من فروع الإنشاء وفنونه ويقومـه بمعيـاره الـتربوي الأخلاقي جريا مع الاتجاه القرآني حيث يزنه بميزان القرآن الذي يعيب علي الشعراء عمومـا كذبهم ومبالغتهم ثم يستثني منهم المدافعين عن العقيدة وعن الحق ويعيب الشعر بأمور أهمـها: أن أكثره ذو محتوي قبيح من حيث المؤدي والمعني وأن بيت ماله الكـذب والإسـراف فـي المدح والهجاء و إن معظمه مستمد من الكذب والمبالغات وأن الشاعر الكذاب المسرف فـي التكسب بشعره مع رقة الدين مشمول بآيات القرآن التي تذم الشعر ويري أن معظم الشـعراء المجودين لا يتصونون من الهجاء ويصنف الشعراء علي مراتب ويضرب لنا نموذجـا مـن الشعراء المشهورين لكل صنف وهذا التصنيف منسجم مع تقويمه بالشعر فكما قومه بمـيزان القرآن الكريم كذلك قوم الشعراء بالميزان نفسه "الشعر: فن من فنون المنشئ، وهـو كـلام، فحسنه حسن وهو قليل، وقبحه قبيح، وهو الأغلب، وبيت ماله الكذب والإسراف فـي المـدح والهجو(الهجاء)، والتشبيه، والنعوت (الأوصاف)، والحماسة، وأملحه أكذبه، فإن كان الشـعر بليغا مفوها مقداما علي الكذب في لهجته، مصرا علي التكسب بالشعر رقيق الدين فقـد قـرأ

---

[1] الذهبي :بيان زغل العلم والطلب، مرجـع سابق، ص ٢٥.

[2] ----: المرجـع السابق، ص نفس الصفحة.

مقت الشعر في صورة الشعراء*، ويندر علي الشعراء المجودين أن يتصونوا من الهجاء، وربما أدي الأمر بالشاعر بالتجاوز إلي الكفر. والشاعر المحسن كحسان بن ثابت** والمقتصد كعبد الله بن المبارك، والظالم كالمتنبي والسفيه الفاجر كيوسف بن الحجاج *** والكافر كذوي الاتحاد**** فأخطر لنفسك أي واد تسلك"[1].

يجعل الذهبي الشعر من فنون الإنشاء ويلحقه به ويقسم الشعر بحسب معناه إلي حسن وقبيح ويري أن أغلبه القبيح لأن الكذب بيت ماله وأن المتكسب به ضعيف الدين ينطبق عليه قوله تعالي: "والشعراء يتبعهم الغاوون... الآية" والمعيار الذي وزن به الشعر والشعراء هو القرآن الكريم.

والذي يتأمل تراجم وشعر الشعراء الذين أشار إليهم الذهبي وجعلهم نماذج لأصناف الشعراء يجد أنه اعتمد هذا التصنيف علي الأساس التالي: الأول: صنف محمود نذر نفسه وشعره للدعوة وإلي العقيدة والأخلاق الحميدة والدفاع عن الإسلام وقدوتهم حسان بن ثابت وهؤلاء الشعراء هم الذين حققوا وظيفة الشعر التربوية فغرسوا في النفوس بشعرهم الحماسة للعقيدة. الثاني: صنف مقتصد: يقتصر علي البيت والبيتين ويستخدم شعر نادر للدعوة إلي العقيدة والأخلاق ومثالهم ابن المبارك. الثالث: صنف ظالم للشعر ولنفسه وهو الذي لا يوظف الشعر للدعوة إلي الله وإنما للفخر بنفسه وقومه والغزل والهجاء. الرابع: صنف سفيه فاجر يستخدم الشعر لوصف الملذات وفضح أعراض الناس ونسائهم ووأد الأخلاق ومثاله ابن حجاج الثقفي. الخامس: صنف يزعم أنه يعشق الإله ويمجده بالشعر وهو كافر منحرف عن العقيدة وهذا الصنف يجب الحذر منه والبعد عن شعرهم وكتبهم وقد عبر عنهم الذهبي بـ (ذوي الاتحاد) وهم القائلون بأن الخالق والمخلوق شئ واحد تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا.

---

* يشير إلي قوله تعالي: "والشعراء يتبعهم الغاون"الشعراء: ٢٢٤.

** حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي صلي الله عليه وسلم جند شعره لنصرة الإسلام وهجاء المشركين بكفرهم (ت ٥٤هـ).

*** هو يوسف بن الحجاج الثقفي الواسطي كاتب من الشعراء مولده ومنشؤه بالكوفة، وإقامته بواسط وكان من شعراء هارون الرشيد ومن عشراء إبراهيم الموصلي وصحب أبا نواس وأخذ عنه وروي له وكان متهما بالمجاهرة في الملاذ وهو القائل: وابتغ للذتك الهوي ودع الملامة للمليم، الزركلي: الأعلام، جـ٨، بيروت، دار العلم للملايين، د.ت، ص ٢٢٤.

**** يقصد بذلك غلاة الصوفية المنحرفين الذين يقولون باتحاد الخالق والمخلوق كما قال ابن عربي في فتوحاته المكية.

[1] الذهبي: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص٢٦.

(ز) رأيه في المؤرخين:

يعتبر التاريخ من العلوم الإنسانية الهامة وهو من مكونات الشخصية المسلمة مع الدين واللغة ومادة التاريخ لها أثرها في نفوس المتعلمين حيث تساهم "في تربية المواطنيـن تربيـة خلقية وعقلية وقومية وهو ما نفتقده علي الوجه الأكمل في مدارسنا اليوم، هذا فضلا عـن أن في دراسته توجيها إلي الموضوعية والحكم المحايد علي الأشياء"[١].

وسبق للباحث أن ذكر أن الذهبي اهتم بالتاريخ اهتماما كبيرا وتظهر أهميته كمـؤرخ فى مصنفاته المتعددة فى مختلف فنون التاريخ وهو يمتاز عن غيره من مؤلفى كتب الـتراجم بأنه لم يقتصر فى تأليفه على عصر معين أو فئة معينة بل تناولت كتاباتـه جميـع عصـور التاريخ الإسلامى وكان من المعنيين بالنقد بحيث أصبح يحتل مكانا بارزا فى كتبه واعتـبره جزءا أساسيا من منهجه فى الدراسة التاريخية[٢].

وللذهبي المؤرخ في تصنيفاته نقدات قيمة وجهها لبعض المؤرخين وكان يبدي رأيـه في كل أمر يري أن غيره أخطأ فيه وينقد كل ما يراه غير صحيح فمن ذلك مثلا ما ذكره فـي ترجمته سفيان الثوري: "وأما الرواة عنه فخلق (أي أناس كثيرون)، فذكر أبـو الفـرج بـن الجوزي أنهم أكثر من عشرين ألفا، وهذا مدفوع ممنوع، فإن بلغوا ألفا، فبالجهد، وما علمـت أحدا من الحفاظ روي عنه عدد أكثر من مالك، وبلغوا بالمجـاهيل وبـالكذابين ألفـا وأربـع مائة"[٣].

ورفض الذهبي ما ذكر من كثرة عدد من يحضر مجالس وعظ ابن الجوزي فذكر فـي ترجمته: "وكان ذا حظ عظيم وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسـه الملـوك والـوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء، لا يكاد المجلس ينفض عن ألوف كثيرة، حتى قيل في بعض مجالسه: أن حزر الجمع بمائة ألف (أي قدر عدد من يحضر مجالس وعظه بمائة ألـف). ولا ريب أن هذا ما وقع، ولو وقع لما قدر أن يسمعهم، ولا المكان يسعهم"[٤].

واضح أن الذهبي يوجه إلي التثبت والتأكد فيما يورده بعض المؤرخين من روايـات وفي هذا تربية علي الدقة والأمانة في نقل جميع الأخبار والحقائق العلمية.

---

(١) عبد البديع الخولي: الفكر التربوي في الأندلس، مرجـع سابق، ص ١٦٧.

(٢) بشار عواد معروف:الذهبى ومنهجـه فى كتابه "تاريخ الإسلام"، مرجـع سابق، ص ص٤٦٧،٤٦٨،٤٧٨

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٧، مرجـع سابق، ص ٢٣٤.

(٤) الذهبي: مرجـع سابق، جـ٢١، ص ٣٧٠.

(ح) رأيه فى التصوف :

ويعتبر علم التصوف من "العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هـؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهـم طريقـة الحـق والهداية وأصلها العكوف علي العبادة والانقطاع إلي الله تعالي، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلـوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف..."[1].

والتصوف هو العلم الذي يبحث في الجانب الأخلاقي والعاطفي من الثقافة الإسـلامية والذي يهمنا منه هو الجانب الأخلاقي والتربوي الذي يفيد في مجال التربية والسلوك.

ويري الذهبي أن التصوف الصحيح هو الذي يستمد قواعده وأصولـه مـن الكتـاب والسنة النبوية وتتمثل معالمه في اتباع هدى الرسول ﷺ وهدي أصحابه ولـزوم تقـوي الله والتخلق بالأخلاق الكريمة ويري أن الصوفي إذا لم يلتزم بالكتاب والسنة ضل الطريق ويـوي أن بعض المتصوفة خاضوا في أمور لا دليل لهم عليها وما هي إلا خطرات ووساوس وأوهام انحرفوا بها عن التصوف الحق والصحيح "التصوف الحق والصحيح هو السير علـي نـهج الصحابة رضوان الله عليهم، ولزوم تقوي الله، والجهاد في سبيله، والتأدب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبر، والقيام بخشية وخشوع، وصوم وقت، وبذل المعروف، وكثرة الإيثـار، وتعليم العوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزز (العزة)علي الكافرين، والعالم إذا عري (خلا)مـن التصوف والتأله فهو فارغ، كما أن الصوفي إذا عري من علم السنة زل عن سواء السـبيل، وقد خاض المتصوفة في أسرار عظيمة، ما معهم علي دعواهم فيها سوى ظن وخيـال، ولا وجود لتلك الأصول من الفناء والصحو والمحو والسكر إلا مجرد خطرات ووساوس ما تفـوه بعبارتهم صديق ولا صاحب ولا إمام من التابعين، فإن طالبتهم بدعاويهم مقتـوك، وقـالوا: محجوب، وأن سلمت لهم قيادك تخبط ما معك من الإيمان، وهبط بك الحـال علـي الحـيرة والحال، ورمقت العباد بعين المقت، وأهل القرآن والحديث بعيـن البعـد، وقلـت: مسـاكين محجوبون. فلا حول ولا قوة إلا بالله ..."[2].

وذكر في ترجمة محمد بن منصور البغدادي: "متي رأيت الصوفي مكبا علي الحديـث فثق به، ومتي رأيته نائيا عن الحديث فلا تفرح به، لاسيما إذا أضيف إلـي جهلـه بـالحديث عكوف علي تراهات الصوفية، ورموز الباطنية، نسأل الله السلامة"[3].

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، مرجـع سابق، ص ٤٩٩.

[2] الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٥، مرجع سابقـع سابق، ص ص ٤٠٩،٤١٠.

[3] ----:المرجـع سابق، جـ١٢، ص ٢١٣.

وإذا كان الذهبي قد رفض أغاليط المنحرفين من الصوفية إلا أنه كان يحترم شـــيوخ التصوف القدامى الذين التزموا بالكتاب والسنة ويكثر من الثناء علي الصـــادقين الصـــالحين الأتقياء منهم في تراجمه له من ذلك مثلا ما ذكره عن الشيخ عبد القادر الجيلاني "هو الشـــيخ الأمام الزاهد، ليس في كبار مشايخ الصوفية من له أحوال وكرامات أكثر منه، لكن كثير منها غير صحيحه"[1].

ولا يألو الذهبي جهدا في القدح ببعض منحرفى الصوفية ومشعوذيهم الذين حادوا عن الكتاب والسنة فمن ذلك مثلا ما ذكره عن عفيف التلمساني (ت ٦٩هـ): "التلمساني: عفيـــف الدين سليمان بن علي الأديب الشاعر، أحد زنادقة الصوفية"[2].

واضح أن الذهبي يؤيد التصوف المعتدل والمقبول السني الذي يلتزم أصحابه بـــالقرآن والسنة أما التصوف الذي يحيد أصحابه عنهما فإنه يمقته ويقدح في أصحابه.

ويجدر بدعاة الإصلاح في مجتمعاتنا الإسلامية أن يفكروا بجدية في إصلاح طوائـــف الصوفية وإصلاحهم سهل ميسور ولديهم الاستعداد الكامل له ولعلهم أقرب النـــاس إليـــه لـــو وجهوا نحوه توجيها صحيحا، ويتطلب هذا تفرغ نفر من العلماء والدعاة والمربين الصـــالحين العاملين لدراسة هذه المجتمعات والإفادة من هذه الثروة العلمية وتخليصها مما علق بها وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة.[3].

ومن الإنصاف وإحقاق الحق أن نبين أن في التصوف والتراث الصوفي علي ما فيـــه من مآخذ فوائد لا تنكر: "أنه يجمع كثيراً من أقوال الصالحين، وحكم الزهاد والعبـــاد وأهـــل التقوى, وأهل البصيرة، وفي لفتات روحية مشرقة في فهم الآيات والأحاديث والتعليق عليها لا توجد لدي غيرهم، واعتني الصوفية بدراسة آفات النفوس وكيفية وقايتها وعلاجها عناية كبيرة ولا توجد هذه العناية عند غيرهم، وقد رفض الصوفية الأوائل كل محاولـــة لإخراجـــه عـــن الشرع، وأبو إلا تقيده بالكتاب والسنة، ومن هذه الفوائد أن بعضاً من أئمة الدعوة السلفية تكلـــم عن التصوف وألف فيه ورد علي باطله وأشاد بما فيه من حق كـــابن تيميـــة وتلميـــذه ابـــن القيم"[4].

---

[1] الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـــ ٢٠، مرجـــع سابق،ص ص٤٣٩،٤٥١.

[2] ---: العبر في خبر من عبر، جـــ٣، تحقيق محمد السيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص ص٣٧٢،٣٧٣.

[3] حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، د.ت، ص ٢٨.

[4] يوسف القرضاوي: ثقافة الداعية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٨، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦م، ص ص ٨٢،٨٣.

ولابد من التأكيد علي أن التصوف قد "استطاع بالفعل أن يلعب دورا كبيرا في تكوين الفكر التربوي الإسلامي وكذلك في توجيه بعض مظاهر الحياة التربوية في العصور الإسلامية. نقول ذلك بغض النظر عن الاعتقاد بصحة النهج الصوفي أو خطئه"[1].

يتبين في ضوء العرض السابق أن الذهبي وجه بعض انتقاداته التربوية لأصحاب العلوم في عصره وبين تقصير كل قوم في مجال اختصاصهم وهذه الصورة النقدية التي قدمها الذهبي لبعض معاصريه من العلماء علي اختلاف مشاربهم نراها الآن في بعض المعاصرين "فكأننا لسنا أمام حديث الماضي وإنما نحن أمام حديث حاضر وهذا أمر متوقع لا يدهشنا لأن السلوكيات والأفكار وليدة ظروف وأوضاع، فالمعرفة وأن بدت مجردة حينا إلا أنها تجسم أوضاعا اجتماعية حينا آخر سواء كنا في القرن السادس أم في القرن الخامس عشر، ولا سبيل للخروج من ذلك إلا بالتقوى"[2].

ولا يكفي في تربية الشخصية المسلمة الاهتمام بالجانب العلمي فقط بل لابد من العناية بالجانب الخلقي لذا سيعرض الباحث للتربية الأخلاقية عند الذهبي.

خامسا: التربية الخلقية :-

تعتبر التربية الخلقية روح التربية الإسلامية لأن الأخلاق هي الدعامة الأولي في بناء المجتمع الإسلامي السليم ومن أهم الأهداف التي تسعي التربية الإسلامية إلي تحقيقها الهدف الأخلاقي ولذلك تركز التربية الإسلامية علي القيم والمبادئ والمثل الأخلاقية في النفوس.

وتستهدف التربية الخلقية في القرآن الكريم والسنة النبوية تشكيل شخصية مسلمة تتحلى بالقيم الإسلامية والفضائل الخلقية وبناء مجتمع تسوده مجموعة من القيم والمثل العليا وتحرص علي تنشئة إنسان مسلم يسلك في إطار مجموعة من القيم المتضمنة في القرآن والسنة بحيث يكون سلوكه متسما بهذه القيم والفضائل المستمدة منهما.

وأهتم الذهبي مباشرة بالجانب الخلقي وحث المسلمين علي الالتزام بالسلوكيات الحسنة والبعد عن المعاصي والرذائل ولعل الدافع لعناية الذهبي بهذا الموضوع هو ارتباطه بالواقع السيئ الذي عايشه من ناحية ورغبته في تطهير وتنقية مجتمعه المتخلف الذي عاشه من الرذائل من ناحية أخرى.

---

(١) سعيد إسماعيل علي: اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٢) ------------: نقد ابن الجوزي للعلماء، مجلة دراسات تربوية، مجلد ٤، جـ٢٠،أغسطس، سبتمبر، ١٩٨٩م، ص ٢٤.

ويبدو أن المظالم التي شاهدها من بعض الولاة والأمراء وانتشار الرذائـــل والبــدع والضلالات والخرافات وما إلي ذلك. هذه المظاهر التي شاهدها وعاينها عكست فـــي نفســه الرغبة في تنقية مجتمعه من هذه الأخطاء والانحرافات اللاأخلاقية وولدت لديه توجهات بارزة نحو تصحيح المسار وحرص علي إبراز أهمية الأخلاق الحسنة وأثرها التربوي في المجتمـع المتخلف الذي عاشه والذي آل أمره إلي التدهور لاسيما في هذا الجـانب الأخلاقـي بـالذات ولذلك اتجه إلي الواقع لمعرفة الداء والدواء وســعي لإصلاحــه وبيــن خطــر المعــاصي (الكبائر)علي الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة واستهدف من وراء ذلك كله إيجــاد مجتمـع إسلامي صالح يتحلى أفراده بالأخلاق الفاضلة وابتعادهم عن الرذائل والمفاسد.

واهتم الذهبي فعليا بهذا الجانب في طلابه وهذا الجانب يعتبر الجانب العملي التطبيقي في حياة الناس بعامة والعلماء بخاصة والعلم إذا لم يصحبه عمل والتزام كـــان وبـــالا علـــي صاحبه وقد ظهر هذا الاهتمام الفعلي في شخصه هو أولا ثم طلابه الذين تربوا علـــي يديــه وأخذوا العلم عنه. ومما يؤكد ذلك ما ذكره عن نفسه "... وجمـــع تواليــف، يقـــال مفيــدة، والجماعة (يقصد الناس)يتفضلون ويثنون عليه، وهو أخـــبر بنفســه وبنقصــه فـــي العلــم والعمل*،والله المستعان، ولا قوة إلا بالله، وإذا سلم لى إيمانى فيا فوزي"[١].

وذكر في ترجمة عثمان بن يوسف المالكي ما يدل علي تواضعـــه"أخـــي وحبيبـــي، وشيخي. أحسن الله جزاءه... قل من رأيت في صلاحه مثله، وهو خير مني، وأشد حبا لـــي في الله"[٢].

وكان الذهبي يتحلى بالصفات الخلقية الكريمة مثل: الخشية من الله والتلاوة والتعبـــد وله في ذلك كلمات تعبر عن ذلك "كل من لم يخش أن يكون من أهل النار، فهو مغرور، قـــد أمن مكر الله به"[٣].

ويري أن "للصادق أن يقل من الكلام والأكل والنـــوم والمخالطـــة، وأن يكـــثر مـــن الأوراد، والتواضع، وذكر الموت، وقول: لا حول ولا قوة إلا بالله"[٤].

---

* هذا يدل علي تواضعه.

[١] الذهبي: المعجـــم المختص بالمحدثين، مرجع سابق، ص ٩٧.

[٢] ----: المرجـــع السابق، ص ١٥٦.

[٣] ----: سير أعلام النبلاء، جـــ٦، مرجع سابق، ص٢٩١.

[٤] ----: المرجـــع السابق، جـــ١٤، ص ٥٣٤.

وتبدى هذا الاهتمام بالأخلاق في طلابه ويتضح هذا فيما ذكره بعض تلاميذه "وجمع ونفع الناس، وكان صالحا خيرا، له قيام ليل، وعبادة، وتلاوة، وبر، وصدقة، رحمه الله بكرمه"[١].

ويبدو أن المعاصي التي شاهدها الذهبي وعج بها مجتمعه قد دفعته إلي تأليف كتابه "الكبائر"* الذي يحفل بالعديد من الأخلاقيات الحسنة والسيئة والذي أحصي فيه ستا وسبعين (كبيرة) عرضها عرضا نبويا علي طريقة علماء الحديث ثم ذكر الكبائر واحدة تلو الأخرى ومنهجه في ذلك: التعريف – أحيانا – بالكبيرة ومعناها ووفقها ومجالاتها ومدلولها ثم يذكر الآيات التي وردت بشأنها ثم الأحاديث الواردة في ذلك وأحيانا يذكر أقوال الصحابة والتابعين والسلف وقد يشرح معاني الكلمات الغامضة ويبين الحكم الشرعي علي فاعل تلك الكبيرة.

والأسلوب التربوي السائد في هذا الكتاب أسلوب وقائي إصلاحي يقوم علي الوقاية من الجريمة قبل اقترافها وتربية النفس علي كراهيتها والحذر من جميع الكبائر والبعد عنها واتقاء الوقوع خوفا من غضب الله أو الحرمان من الجنة أو الوقوع في اللعنة وقد نظر الذهبي إلي هذه المعاصي نظرة دينية اجتماعية سياسية.

ويعرض الباحث لمجموعة من الصفات الخلقية التي حث الذهبي المسلم علي التحلي بها:

(أ) الإخلاص :

يعد الإخلاص من الأخلاق الكريمة التي حث عليها الإسلام وحث الذهبي المسلم علي التحلي بهذا الخلق الرفيع في القول والفعل ودعاه إلي الابتعاد عن الرياء "الكبيرة السابعة والثلاثون: الرياء: قال تعالي: "فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون والذين هم يراءون ويمنعون الماعون" الماعون: ٤ –٦. وقال تعالي: "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا" الكهف: ١١٠. أي لا يرائى بعمله. وقال عليه الصلاة والسلام: "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قيل: وما هو يا رسول الله ؟ قال: الرياء. يقول الله تعالي يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلي الذين كنتم تراءونهم بأعمالكم

---

[١] ابن رافع السلامي: الوفيات، جـ٢، تحقيق صالح مهدى عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، د.ت، ص ٥٦.

* الكتاب يتألف من: مقدمة يليها ذكر ست وسبعين كبيرة يجب علي المسلم اجتنابها وأورد في كل كبيرة منها الآيات القرآنية المحرمة لها والأحاديث المانعة منها وبعض الحكايات المؤيدة له وقد جري فيه علي طريقة الترغيب والترهيب ويتساهل في إيراد الأحاديث غير الصحيحة أحيانا وينقد أسانيد الحديث في الغالب وهو مطبوع ومتداول.

فانظروا هل تجدون عندهم جزاء"[1]... وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله انظـــروا إلـــي عبدى كيف يستهزئ بي ... وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: للمرائى ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقـــص إذا ذم به. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجـــل النـــاس شرك والإخلاص أن يعفيك الله منهما. فنسأل الله المعونة والإخلاص في الأعمـــال والأقـــوال والحركات والسكنات إنه جواد كريم"[2].

(ب) الصدق:

يعد الصدق من أبرز الصفات الخلقية التي حثنا عليها الإسلام ورغبنا فيها قال تعالي: "يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين" التوبة: ١١٩. ويحث الذهبي المسلم علـــي التحلي بخلق الصدق والبعد عن الكذب ويسوق من الأدلة ما يدعم كلامه ، قال تعالي: "قتـــل الخراصون"الذاريات: ١٠. أي الكذابون. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : "إن الصدق يهدي إلي البر وإن البر يهدي إلي الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحـــرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلي الفجور وإن الفجور يهدي إلي النـــار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[3] ... وقال ابن مســـعود: لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى ينكث في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عنـــد الله من الكاذبين، فينبغي للمسلم أن يحفظ لسانه عن الكلام إلا كلاما ظهرت فيه المصلحة فـــإن في السكوت سلامة والسلامة لا يعد لها شئ..."[4].

(ج) الأمانة:

خلق إسلامي رفيع دعانا الإسلام إلي التحلي بهذا الخلق وحذرنا مـــن الخيانـــة قـــال تعالي: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلي أهلها" النساء: ٥٨. وحـــرص الذهبـــي علـــي ضرورة تنشئة المسلم علي التحلي بهذه الصفة الخلقية وحذره من الخيانة "قال تعالي: يا أيـــها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون" الأنفال: ٢٧. قال الواحدى رحمه الله تعالي نزلت هذه الآية في أبا لبانة حين بعثه ﷺ إلي بني قريظة لما حاصرهم وكان

---

[1] احمد بن حنبل: المسند، جـ٦، كتاب حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، بـــيروت، دار الفكـــر، ط٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص ٥٩٦.

[2] الذهبي: الكبائر، مرجـــع سابق، ص ص ١٥٤ - ١٥٦.

[3] البخاري: صحيح البخاري، جـ٤، كتاب الأدب، باب قوله تعالي: "يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مـــع الصادقين"مرجـــع سابق، ص ١٠٣.

[4] الذهبي: الكبائر، مرجـــع سابق، ص ص ١٣٦ - ١٣٨.

أهله وولده فيهم فقالوا: يا أبا لبانة ما تري لنا إن نزلنا علي حكم سعد فينا فأشار أبو لبانة إلـي حلقه أي أنه الذبح فلا تفعلوا فكانت تلك منه خيانة لله ورسوله قال أبو لبانة: فما زالت قدمـاي من مكاني حتى عرفت إني خنت الله ورسوله وقوله "وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون" عطـف علي النهي أي ولا تخونوا أماناتكم. قال ابن عباس: الأمانات الأعمال التي ائتمن الله عليـها العباد يعني الفرائض يقول لا تنقضوها. قال الكلبي: أما خيانة الله ورسوله فمعصيتهما وأمـا خيانة الأمانة فكل واحد مؤتمن علي ما افترضه الله عليه إن شاء الله خانها و إن شاء أداهـا لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالي وقوله "وأنتم تعلمون" إنها أمانة من غير شبهه. وقال تعـالي "إن الله لا يهدي كيد الخائنين"أي لا يرشد كيد من خان أماناته يعني أنه يفتضح في العاقبة بحرمان الهداية[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلـف وإذا ائتمن خان"[2].

وكان الذهبي أميناً دقيقاً في مؤلفاته الحديثية وكانت دقته وأمانته العلمية تدفعانه إلـى التثبت فيما يأخذ به من أحاديث ويتضح لنا أمانته ودقته حين نراه يذكر الأحاديث التي تؤيـد مذهبه فيقول هذا صحيح وهذا ضعيف وهذا موضوع بخلاف ما عليه علمـاء عصـره مـن تصحيح كل ما يؤيد مذاهبهم وإن كان ضعيفاً أو واهياً.

ومما يؤكد ما سبق أنه لم يكن عنده جمود المحدثين ولا تقليد النقلة رغم أنه عاش فـي عصر استشرى فيه التقليد وغلب علي علمائه الجمود فكان مستقل المنهج حريصاً علي صحـة ما ينقله ونقد ما خالف الصواب وقل أن يغادر سنداً في بعض رواته كلام إلا بينه بما يشـفي الصدر وهذا من دقته وأمانته "... اجتمعت به وأخذت عنه، وقرأت عليه كثيراً من تصانيفـه، ولم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودنة (غفلة أو بلادة) النقلة، بل هو فقيه النظر، له دربـة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات، وأعجبني منـه مـا يعانيـه فـي تصانيفه، من أنه لا يتعدى حديثا يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن، أو ظلام إسـناد، أو طعن في رواته، وهذا لم أرى غيره يراعي هذه الفائدة فيما يورده"[3].

(د) الاعتدال والإنصاف والتراجع عن الخطأ :

كان الذهبي يتوخى دائما جانب الاعتدال والإنصاف في تراجمه وتراجعه عن الخطـأ وقد احتوت كتاباته الشيء الكثير من هذا القبيل وكانت هذه الصفة الخلقية بارزة عنده واضحة

---

[1] الذهبي: الكبائر ، مرجـع سابق، ص ١٦٠.

[2] البخاري: صحيح البخاري، جـ١، مرجـع سابق، كتاب الإيمان، بيان علامة المنافق، ص ٢٨.

[3] الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٢، مرجـع سابق، ص ١٦٣.

أشد الوضوح ولم يكن يسلم بكل ما ينقل بل ينتقد ويبدى رأيه ويصدره باعتدال بلا محاباة في المدح أو القدح فهو إمام ناقد مع الإنصاف والاعتدال ومما يدل علي ذلك "ومن كفر ببدعة وإن جلت (ظهرت)، ليس هو مثل الكافر الأصلي ولا اليهودي والمجوسي، أبي الله أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر... كمن عاندا الرسول، وعبد الوثن، ونبذ الشرائع وكفو، ولكن نبرأ إلي الله من البدع وأهلها"[1].

وفي موضع أخر يري أن "الكمال عزيز، وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطة (أي هفوة أو زلة)، ولعله رجع عنها. وقد يغفر له باستفراغه الواسع في طلب الحق"[2].

ويدعو ويستغفر لكل من طلب الحق بإخلاص ويرجو له الرحمة "فكل من قصد الحق من هذه الأمة فالله يغفر له. أعاذنا الله من الهوى والنفس"[3].

ونجد الذهبي يتراجع عن الخطأ في بعض المواضع من كتبه عندما يظهر له دليل قوي علي خطأ رأى ذكره سابقا من ذلك تراجعا عن قوله في "تاريخ الإسلام" في عمر الصحابي سلمان الفارسي أنه (٢٥٠) سنة "وقد ذكرت في تاريخي الكبير أنه عاش مائتين وخمسين سنة، وأنا الساعة (يقصد هذا الوقت) لا أرتضي ذلك ولا أصححه"[4].

(هـ) الإحسان إلي الجار وعدم إيذائه :

من الصفات الخلقية الرائعة التي حثنا عليها الإسلام ودعانا إليها أن نحسن إلي جيراننا ولا نؤذيهم ونعرف لهم حقوقهم وفي هذا السياق حث الذهبي المسلم علي الإحسان إلي الجار وحذره من إيذائه وساق من الكتاب والسنة ما يؤكد ذلك "قال ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلي جاره"[5]. وقال : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره"[6]. والجيران ثلاثة جار مسلم قريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق القربى وجار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام والجار الكافر له حق الجوار. وينبغي للجار أن يتحمل أذى الجار فهو

---

[1] الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٨، مرجع سابقع سابق، ص ١٥٧.

[2] ----: المرجع سابق،جـ١٦، ص٢٨٥.

[3] ----: نفس المرجع السابق، جـ٢٢، ص٣٩.

[4] ----: نفس المرجع السابق، جـ١، ص ص ٥٥٥، ٥٥٦.

[5] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، جـ٢، كتاب الإيمان، باب الحث علي إكرام الجار، مرجع سابق ص ٢٠.

[6] البخاري: صحيح البخاري، جـ٤، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، مرجع سابق، ص٨٦.

من جملة الإحسان إليه ... فإذا كان الجار صاحب كبيرة فلا يخلو إما أن يكون متسترا بـــها ويغلق بابه عليه فليعرض عنه ويتغافل عنه وإن أمكن أن ينصح في السر ويعظه فحســن وإن كان متظاهرا بفسقه مثل مكاس أو مرابي فتهجره هجرا جميلا وكذا إن كان تاركا للصلاة فـي كثير من الأوقات فمره بالمعروف وانهه عن المنكر مرة بعد أخري وإلا فاهجره في الله لعلــه أن يرعوى ويحصل له انتفاع بالهجرة من غير أن تقطع عنه كلامك وهديتك فإن رأيته متمردا عاتيا بعيدا عن الخير فاعرض عنه واجتهد أن تتحول من جواره فقد تعوز رسول الله ﷺ من جار السوء [١].

ويري الذهبي أن علي المسلم إذا كان جاره من الشيعة الروافض أو مبتدع أن يعلمــه إن استطاع وإن عجز عن ذلك فلا يجبه ولا يصادقه ويبتعد عنه ويحث المسلم علي معاملــة الجار الذمي معاملة حسنة ولكن لا يتودد إليه "فإن كان جارك رافضيا أو صاحب بدعة كبـيرة فإن قدرت علي تعليمه وهدايته فاجتهد وإن عجزت فانجمع عنه ولا تـــواده ولا تصافــه ولا تكون له مصادقا ولا معاشرا والتحول أولي بك فإن كان جارك يهوديا أو نصرانيا في الدار أو في السوق أو في البستان فجاوره بالمعروف ولا تؤذه فإن له حق الجوار فأما من جعل إجابــة دعوتهم ديدنه وعاشرهم وباسطهم فإن إيمانه يرق (يضعف). وقد قال الله تعالي فـــي كتابــه الكريم "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم... الآية" المجادلة: ٢٢." [٢]

(و) التواضع :

يعد التواضع من الصفات الخلقية الأصيلة في الإسلام ومن مكارم الأخلاق وقد حـــث الذهبي المسلم علي التحلي بهذه الصفة فدعا المسلم إلي أن يتواضع لإخوانه ويخفض جناحـــه لهم ويظهر العزة علي الكافرين ولا يتذلل لهم ولا يتضاءل (يضعف) لهم تعظيمـــا لحرمــة الإسلام وإعزازا للدين من غير أن تؤذيهم ولا تودهم كما تود المسلم"[٣].

ويري الذهبي أن ثمة أخلاق سيئة ورذائل مذمومة يجب علي المسلم تجنبـــها وهــي رذائل أخلاقية يكرهها الله ورسوله ولا يرضاها لعباده وقد عرضها الذهبـــي عرضـــا يبعــد النفوس عن اقترافها وبين عقوبتها عند الله تعالي واعتمد في ذلك علي الكتاب والسنة وبعــض أقوال السلف الصالح ومن هذه الرذائل ما يلي:

---

[١] الذهبي: حق الجـــار، تحقيق أبي إســـماعيل هشـــام بـــن إســـماعيل الســـقا، الريـــاض، عـــالم الكتـــب، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ص١٢، ١٦، ٤٦، ٤٧، والكبائر، مرجع سابق ، ص٢٢٧.

[٢] ----: المرجـــع السابق، ص ٤٨.

[٣] ----: حق الجـــار، مرجـــع سابق، ص ٤٩.

(أ) عقوق الوالدين:

أمرنا الله تبارك وتعالي بالإحسان إلي الوالدين والبر بهما وطاعتهما في غير ما موضع من كتابه الكريم قال سبحانه: "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا" النساء: ٣٦. وحثنا رسولنا الكريم علي البر بالوالدين وحذرنا الله ورسوله من عقوقهما.ويوي الذهبي أن عقوق الوالدين كبيرة من الكبائر ورذيلة أخلاقية سيئة وحث المسلم علي تجنبها وساق من الأدلة ما يؤكد ذلك "قال تعالي: "وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا "الإسراء: ٢٣. أي برا بهما وشفقة وعطفا عليهما (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كليهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما) أي لا تقل لهما بتبرم إذا كبر وأسنا وينبغي أن تتولي خدماتهما ما تولياه من خدمتك علي أن الفضل للمتقدم وكيف يقع التساوي وقد كان يحملان أذاك راجين حياتك وأنت إن حملت أذاهما رجوت موتهم ثم قال تعالي: "وقل لهما قولا كريما"أي لينا لطيفا (وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيرا)الإسراء: ٢٤. وقال تعالي: "أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير" لقمان: ١٤. فانظر رحمك الله كيف قرن شكرهما بشكره. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها (إحداها) قوله تعالي (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) النساء: ٥٩. فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه (الثانية)قوله تعالي: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة"المزمل: ٢٠ فمن صلي ولم يزك لم يقبل منه (الثالثة) قوله تعالي: "أن اشكر لي ولوالديك" فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه[١]... وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين"[٢]... الحديث فانظر كيف قرن الإساءة إليهما وعدم البر والإحسان بالإشراك..."[٣].

(ب) الكبر والفخر والخيلاء والعجب والتيه :

من محاسن أخلاق المسلم التي يتحلى بها التواضع في غير مذلة ولا مهانة والمسلم لا يتكبر علي أحد لأن الله ذم الكبر ومقت المتكبرين لأنه يعي قوله تعالي: "ولا تمش في الأرض مرحا"الإسراء: ٣٧، لقمان: ١٨. ويري الذهبي أن الكبر والفخر والخيلاء والعجب والتيه رذائل سيئة وأخلاقيات مذمومة لذا طالب بتنشئة الفرد المسلم علي تجنبها والابتعاد عنها "الكبر والفخر والخيلاء والعجب والتيه قال تعالي: "وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب"غافر: ٢٧... وقال بعض السلف أول ذنب عصي الله به

---

[١] الذهبي: الكبائر، مرجع سابق، ص ص ٤٢،٤٣.

[٢] البخاري: صحيح البخاري، جـ٤، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ص ٧٨.

[٣] الذهبي: الكبائر، مرجع سابق، ص ٤٣.

الكبر. قال تعالي: وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لأدام فاسجدوا إلا إبليس أبي واستكبر وكان من الكافرين" البقرة : ٣٤. فمن استكبر علي الحق لم ينفعه إيمانه كما فعل إبليس[١]. وعن النبيﷺ قال: "لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من كبر"[٢]... وقال سبحانه: "ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور" لقمان: ١٨. أي لا تمل خدك معرضاً متكبراً والمرح التبختر... "[٣].

(ج) النميمة:

تعتبر النميمة من جملة الأخلاق المذمومة شرعاً ويجدر بالمسلم أن يتجنبها لأن الله ورسوله حذرانا من ذلك ويري الذهبي أن النميمة من الرذائل السيئة ويدعو المسلم إلي اجتنابها ويسوق من الشواهد القرآنية والحديثية ما يدعم ذلك "النمام وهو من ينقل الحديث بين الناس علي جهة الإفساد بينهم. هذا بيانها وأما أحكامها فهي حرام بإجماع المسلمين وقد تظاهرت علي تحريمها الدلائل الشرعية من الكتاب والسنة قال الله تعالي: "ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء فميم" القلم: ١١[٤]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "لا يدخل الجنة نمام"[٥]... وينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة للمسلمين أو دفع معصية... وقال الحسن البصري: من نقل إليك نقل عنك فاحذره... ويقال عمل النمام أضر من عمل الشيطان لآن عمل الشيطان بالوسوسة وعمل النمام بالمواجهة..."[٦].

(د) غش الإمام الرعية وظلمه لهم:

المسلم يري أن العدل بمعناه العام من أوجب الواجبات وألزمها إذ أمر الله به في قوله: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإتياء ذي القربى" النحل: ٩٠. وأخبر سبحانه أنه يحب أهله "إن الله يحب المقسطين" الحجرات: ٩. كما أمر به في الأحكام. قال تعالي: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلي أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" النساء: ٥٨. ومن ثم يعدل المسلم في قوله وحكمه ويتحرى العدل في كل شأنه حتى يكون خلقاً له ووصفاً لا ينفك عنه

---

[١] الذهبي: الكبائر ، المرجع سابق، ص ص ٨٣،٨٤.

[٢] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، جـ٢، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، مرجع سابق ، ص٨٩.

[٣] الذهبي: الكبائر، مرجع سابق، ص٨٤.

[٤] ----: المرجع السابق، ص ١٧٢.

[٥] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، جـ٢، باب غلظ تحريم النميمة، مرجع سابق، ص ١١٢، البخاري، جـ٤، كتاب ما يكره من النميمة، مرجع سابق، ص ٩٤.

[٦] الذهبي: الكبائر، مرجع سابق، ص ص ١٧٣،١٧٥.

ومن مظاهر العدل في الحكم بين الناس بإعطاء كل ذي حق حقه ويجدر بالحاكم المســـلم أن يسود أفراد الرعية بالعدل بعيداً عن الحيف والظلم والجور لأن الدولة المسلمة تنهار بســـبب ظلم الحكام.

ويحث الذهبي أئمة المسلمين علي العدل وتجنب غش الرعية وظلمهم لهم وكان هـــذا شائع في زمانه من قبل بعض السلاطين ولذا نراه يحذر من هذه الرذيلة ويطـــالب بضـــرورة تنشئة المسلم علي تجنبها ويدعم كلامه بأدلة من الكتاب والسنة "الكبيرة السادسة عشرة: غـش الإمام الرعية وظلمه لهم. قال الله تعالي: "إنما السبيل علي الذين يظلمون الناس ويبغون فـــي الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم" الشوري: ٤٢. وقال تعالي: "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"الشعراء: ٢٢٧. وقال تعالي: "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كـــانوا يفعلون" المائدة: ٧٩[١]. وقال رسول الله ﷺ : "من غشنا فليس منا"[٢]. وقال: "ما من راع غش رعيته فهو في النار"[٣] وقال ﷺ "من استرعاه الله رعية ثم لم يحطها بنصحه إلا حرم الله عليه الجنة وفي لفظ "يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنـــة "[٤]... ومـــن دعائه ﷺ "اللهم من ولي من أمر هذه الأمة شيئاً فرفق بهم فارفق بهم ومن شق عليهم فاشـــقق عليه" وقال ﷺ "أشد الناس عذاباً يوم القيامة إمام جائر"[٥]. وفي الحديث أنه ﷺ قال: "أيـــــها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فـــلا يســـتجيب لكـــم وقبـــل أن تستغفروا الله فلا يغفر لكم. إن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركـــوا الأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله علي لسان أنبيائهم ثم عمهم البلاء"[٦].

واضح موقف الذهبي من حكام عصره وأكثرهم من العُصاة ولذا فإنه يعتـــبر غشـــهم للرعية وظلمهم إياهم كبيرة من الكبائر التي هدد الرسول ﷺ المجتمع الساكت عنها بالـــهلاك في الدنيا واللعنة في الآخرة وهذا يدل علي أن إصلاح الرعية وإقامة العدل بين أفرادها يوفـــر الأمن للناس والسلطان بالعكس من الجور والظلم والغش ويدل أيضاً علي أن إقامـــة الأمـــر

---

[١] الذهبي:الكبائر ، مرجـــع سابق، ص ص ٧٨،٧٩.

[٢] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي،جـــ٢، كتاب الإيمان، باب قوله عليه الصلاة والسلام من غشـــنا فليـــس منا، مرجع سابق، ص١٠٨.

[٣] الطبراني: المعجـــم الكبير، جـــ٢٠، كتاب الميم، باب معقل بن يسار، تحقيق حمدى عبد المجـــيد السلفي، ط٢، العراق، ١٩٣٧م، ص ٢٨.

[٤] -----: المعجـــم الكبير، جـــ٢٠، كتاب باب الميم، مرجـــع سابق، ص ٢٠٦.

[٥] أبي يعلي: مسند أبي يعلي، جـــ٢، تحقيق حسن سليم أسد، كتاب من مسند أبي سعيد الخدري، دمشـــق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٤،ص ٣٤٣.

[٦] الطبراني: المعجـــم الأوسط، جـــ٢، كتاب من أسمه أحمد، باب أحمد بن محمد، مرجع سابق، ص ٩٧.

بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الحكومة المسلمة والعدل أساس الملك وقاعدة أساسية للمجتمع ومن ثمرته إشاعة الطمأنينة في النفوس ومن ثم "أمر النبي ﷺ أمته بتولية ولاة الأمور عليهم وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلي أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالي"[1]. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وما أحرى حكام المسلمين أن يلتزموا بتحقيق العدل بين الناس وأن يتجنبوا الظلم والغش حتى تستقيم أمور البلاد والعباد وليس بمسلم من يظلم ويبطش ويتجبر والظلم مرتعه وخيم.

(هـ) الغضب:

من الأخلاق المذمومة التي حرص الإسلام علي تحذير المسلمين منه ويري الذهبي أن علي المسلم أن يتجنب هذا الخلق الرذيل والسيئ ويبين دواء الغضب "نهي الرسول ﷺ عن الغضب وقال عن ذلك: "إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفئ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ"[2]. وفي رواية "إني لأعرف كلمة لو قالها (يعني الغاضب) لذهب عنه الذي يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"[3].

واستخدم الذهبي بعض أساليب التربية الأخلاقية فمن ذلك أسلوب الموعظة والنصح والإرشاد ويري أن لأسلوب الموعظة تأثير تربوي كبير في غرس الأخلاق في النفوس فضلا عن التأثير في قلوب ونفوس الموعوظين وتغيير ما بأنفسهم وسلوكياتهم إلي الأفضل غير أنه يري أن "الوعظ فن يحتاج إلي إلمام بالعلوم الشرعية وخاصة التفسير والقصص الصحيحة عن الأنبياء والصالحين والزهاد وأن الواعظ يجب أن يكون فصيحا شجاعا لا يخشى إلا الله وأن أساس الوعظ الزهد في الدنيا والإخلاص ويستدعي معرفة حسنة بالتفسير وإكثارا من حكايات الفقراء والزهاد. وعدته التقوى والزهد. فإذا رأيت الواعظ راغبا في الدنيا قليل الدين فأعلم أن وعظه لا يتجاوز الأسماع وكم من واعظ مفوه قد أبكي وأثر في الحاضرين تلك الساعة، ثم قاموا كما قعدوا. ومتي كان الواعظ مثل: الحسن، * والشيخ عبد القادر الجيلاني** – رحمهما الله تعالي – أنتفع به الناس"[1].

---

[1] ابن تيمية: الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية، القاهرة، المكتبة العلمية، د.ت، ص٧.

[2] الطبراني: المعجم الكبير، كتاب العين، جـ١٧، باب عطية بن سعد السعدى، مرجع سابق، ص ١٦٧.

[3] البخاري: صحيح البخاري، جـ٤، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، مرجع سابق، ص ١٠٨.

* يقصد بذلك الحسن البصري من التابعين كان إمام أهل البصرة وولد سنة ٢١هـ وتوفي سنة ١١٠هـ وهو من مشاهير الوعظ.

ويؤخذ من النص السابق أمور تربوية هامة منها مثلا :

١-أن يكون الواعظ قدوة حسنة حتى ينتفع الموعوظون بكلامه فلا يخالف قوله فعله.

٢-أن يكون فاهما أحكام الشريعة ومشكلات الناس.

٣-أن يمزج الجزاء الطيب والجزاء السيئ.

٤-أن يحرص في وعظه للمسلمين علي أن يفتح لهم أبواب الرحمة بفضل الله ولا يقنطهم من رحمته.

وهذا الأسلوب سائد في كتابات الذهبي ولاسيما كتابه (الكبائر) من ذلك مثلا: "موعظة: عباد الله إن أيامكم قلائل ومواعظكم قواتل، فليخبر الأواخر الأوائل، وليستيقظ الغافل قبل سير القوافل، يا من يوقن أنه لا شك راحل..."[(٢)].

ويعد أسلوب التربية بالموعظة من الأساليب الهامة في مجال التربية الإسلامية وذلك لأن "الموعظة تفتح طريقها إلي النفس مباشرة عن طريق الوجدان. وتهزه هزة وتثير كوامنه لحظة من الوقت... وحين توجد القدوة الصالحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفوس. وتصبح دافعا من أعظم الدوافع في تربية النفوس. ثم إنها من جانب أخر ضرورية ولازمة. ففي النفس دوافع فطرية في حاجة دائمة للتوجيه والتهذيب ولابد في هذا من موعظة، والإنسان الكبير كالطفل الصغير في حاجة دائمة إلي المواعظ... فقد يعدل الحاكم ويظلم المحكومون، ويستعلي القائد ويذل الشعب، مدفوعين، بما ركب في طبيعة الإنسان من ضعف واتباع الشهوات لابد حينئذ من الموعظة والقرآن مليئ بالمواعظ والتوجيهات"[(٣)].

ويتبين مما سبق حرص الذهبي علي تربية المسلمين صغارا وكبارا - علي ممارسة الفضائل والتحلي بها والابتعاد عن الرذائل والتخلي عنها واستهدف بذلك إيجاد مجتمع مسلم صالح يتحلى أفراده بالأخلاق الفاضلة ويتجنبوا الأخلاق السيئة المذمومة (الرذائل)وكان يرد الأخلاق إلي أصل واحد وهو الدين والدين مصدره الكتاب والسنة ولذا اعتمد في ذلك عليهما واستخدام في ذلك بعض أساليب التربية الأخلاقية كأسلوب الموعظة.

** يقصد الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٦٥١هـ) من كبار الزهاد المتصوفين وبرع في أساليب الوعظ وهو حنبلي المذهب وتصدر للتدريس والإفتاء ببغداد. ملخصا عن الزركلي: الأعلام، جـ٤، ص ٤٧.

(١) الذهبي: بيان زغل العلم والطلب، مرجع سابق، ص ص ٢٨،٢٧.

(٢) ----: الكبائر، مرجع سابق، ١٥٦.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، جـ١، القاهرة، دار الشروق، ط١٤، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م،ص ص ١٨٧، ١٨٨.

الفصل الخامس

الآراء التربوية عند تاج الدين السبكي

٧٢٨ – ٧٧١ هـ

الفصل الخامس

الآراء التربوية عند تاج الدين السبكي

٧٢٨ — ٧٧١ هـ

١- مقدمة :

شهد القرن الثامن الهجرى عدداً لا بأس به من الفقهاء المشهورين كان من أبرزهم الفقيه تاج الدين السبكي الذى احتوت كتاباته على بعض الآراء التربوية التي سيعرض لها الباحث في هذا الفصل وسيكون المدخل إلى هذه الآراء الحديث عن مولده ونشأته ثم يثني الباحث بالحديث عن آرائه التي طرحها في ميدان التربية الإسلامية.

٢- المولد والنشأة :

تاج الدين السبكي هو عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ويلقب بقاضى القضاة تاج الدين أبو نصر شيخ الإسلام تقي الدين السبكي نسبه إلى سبك من أعمال المنوفية بمصر ولد في القاهرة سنة ٧٢٧ هـ وتوفى سنة ٧٧١هـ [١].

ويعد تاج الدين السبكي الشافعي المذهب الأشعرى العقيدة من أعظم رجال تلك الأسرة المنوفية الذين ذاع صيتهم في دولتى المماليك لامتيازهم في العلم وفي مناصب التدريس والقضاء[٢].

نشأ في بيت عريق اشتهر بالعلم والتقوى فأبوه كان قاضى القضاة وكان من أبرز الفقهاء المجتهدين في العصر المملوكي . وتلقى تاج الدين السبكي ما كان يتلقاه في زمنه كل من طلب العلم من قرآن وحديث وفقه وأصول وتفسير وعروض . ولما بلغ اثنتي عشرة سنة ولى أبوه قضاة الشام فذهب معه إلى دمشق (٧٣٩) وفيها أتم دراسته على كبار المشايخ وعرف بالذكاء والجد والتحصيل وممن سمع منهم بدمشق زينب بنت الكمال . ومؤرخوا ذلك العصر لا يهتمون بذكر المعاهد التى تلقى العلم فيها من يترجمون له . بل عنايتهم بذكر

مشايخه وهم محقون في ذلك فليست العبرة بالمكان بل بالأستاذ وكان نظام التعليم وقتذاك لا يقيد الطالب بمعهد بعينه بل ينتقل بينها ويأخذ عمن يشاء[٣].

---

[١] ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، جـ٣ ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩ - ٤١ .

[٢] محمد الصادق حسين : البيت السبكي بيت علم في دولتي المماليك ، مرجع سابق ، ص ١٢.

[٣] ــــــــــ : المرجع السابق ، ص ص ١٤ ، ١٥ .

وحفظ لنا تاج الدين نفسه في كتابه "طبقات الشافعية الكبرى" معلومات عن مشـــايخه وبعض رفقائه في طلب العلم منها صورة حية لبعض أساتذته ورأيه فيهم آثرنا إثباتها هنا لأنها من الجلاء بحيث تنقلنا إلى عصره وكأننا ونحن نقرأها نصحبه في حياته الدراسية اليوميـــة . ذكر في سياق كلامه عن شيخه المزى* وقيمته العلمية : "وكنت أنا كثير الملازمة (المصاحبة) للذهبي أمضى إليه في كل يوم مرتين بكرة والعصر وأما المزي فما كنت أمضى إليـــه غـــير مرتين في الأسبوع ، وكان سبب ذلك أن الذهبي كان كثير الملاطفة والمحبة فيَّ بحيث يعرف من عرف حالى معه أنه لم يكن يجب أحداً كمحبته فيَّ وكنت أنا شاباً فيقع ذلك منـــى موقعـــاً عظيماً ... وأما المزى فكان رجلاً عبوساً مهيباً ، وكان الوالد يجب أن أُلازم المزى أكثر من ملازمة الذهبي لعظمة المزي عنده ، وكنت إذا جئت غالباً من عند شيخ يقـــول : هـــات مـــا استفدت ، ما قرأت ، ما سمعت ، فأحكى له فكنت إذا جئت من عند الذهبي يقول جئـــت مـــن عند شيخك ، وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحقاري يقول جئت من جـــامع ســـكر لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب يقول جئـــت من الشامية لأني كنت أقرأ عليه فيها ... وأما إذا جئت من عند المزي فيقول جئت من عنـــد الشيخ ويفصح بلفظ الشيخ ، ويرفع بها صوته وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبـــت فـــي قلبي عظمته ويحُثني على ملازمته" (1) .

وتتلمذ تاج الدين على نخبة ممتازة من شيوخ عصره وتأثر بهم كثيراً واستفاد منـــهم وعلى رأس شيوخه والده تقى الدين السبكى** (ت ٧٥٦هـ) المصري الشافعي قاضي القضاة ومن كبار فقهاء العصر المملوكي الذى اعتني بابنه ورباه على حب العلم واهتم بتثقيفه علـــى كبار العلماء ممن يثق فيهم ويطمئن إلى علمهم ويعد والده هو أول معلم له في صغره وممـــا يدل على تأثيره بأبيه أنه جمع فتاويه "فتاوى السبكي" وكثيراً ما كان يشير إليه في العديد مـــن كتاباته.

ومن شيوخه البارزين الذهبي مؤرخ الإسلام ومحدث العصر وقد لازمه تـــاج الديـــن وأخذ عنه الكثير وتخرج به وقد أثني الذهبي على تلميذه وترجم له في "المعجم المختص" فذكر

---

* هو أبو الحجاج المزى (ت٧٤٢هـ) نسبة إلى "المِزَّة" أحد أحياء دمشق الآن وهو من مشاهير محدثى القرن الثامن الهجري وترجم له بن حجر في درره ، جـ٥ ، ص ص ٢٣٥ ، ٢٣٦، وترجم له تاج الدين الســـبكي في الطبقة السابعة من طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، مرجع سابق ، ص ٣٩٥ .

(1) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

** ترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة ، جـ٣ ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٤ - ١٤٢.

عنه "عبد الوهاب ابن شيخ الإسلام تقى الدين كتب عنى أجزاء نسخها وأرجو أن يتميز فـــي العلم ، درس وأفتى وعني بهذا الشأن"[1] .

وأثني على تاج الدين السبكي ابن كثير الذى كان معاصراً له حيث ذكر أنـــه "جـــرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاضى مثله ، وحصل له من المناصب والرياسة ، ما لم يحصل لأحد مثله ، وأبان في محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة حتى أفحم خصومـــة مع كثرتهم ، ثم لما عاد عفا وصفح عن كل من أساء إليه ، وكان كريماً مهيباً" [2] .

ووصفه ابن حجر بأنه "كان ذا بلاغة وطلاقة لسان عارفاً بالأمور وانتشرت تصانيفـه في حياته ، ورزق فيها السعد ، وكان جيد البديهة ، طلق اللسان ، أذن له ابن النقيب بالتدريس والإفتاء ، ودرّس في غالب مدارس دمشق"[3] .

مهر تاج الدين وهو شاب فإذن له في الإفتاء وهو في نحو العشرين . وتولـــي فـــي دمشق التدريس في كثير من مدارسها وناب عن أبيه في الحكم ووليَّ دار الحديث الأشـرفية . عام٧٥٤هـــ تولى وظيفة موقع* الدست وذلك بين يدي الأمير علاء الدين أمير علي من علـــي الماردينى نائب الشام وتولى الخطابة في الجامع الأموى ثم صار في السلطة الثانية للنـــاصر حسن قاضي قضاة الشام وبقى في هذا المنصب من سنة ٧٥٦هــ إلى ســـنة ٧٧١هــــ مـــع استثناء الفترات التي عزل فيها وهي ثلاث فمدة ولايته قضاء الشام أقل من أربعة عشر ســـنة ووليه وهو في نحو الثلاثين وقد ظل في ذلك المنصب إلي أن وافاه الأجل[4] .

يتبين نبوغ التاج العلمي حيث سمح له بالتصدر للفتوى وهو في سن صغيرة وباشـــر أيضاً التدريس في مدارس دمشق ثم نيابته عن أبيه في القضاء وتوليه الخطابـــة وكـــل هـــذه الوظائف باشرها رغم صغر سنه.

---

[1] الذهبي : المعجم المختص بالمحدثين ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

[2] ابن كثير : البداية والنهاية ، جـــ ١٤ ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .

[3] ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، جـــ٣ ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩ ، ٤٠ .

* سمو بكتاب الدست لأنهم كانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فـــي المواكـــب، علـــي ترتيب منازلهم في المقدمة، ويقرأن القصص علي السلطان، بعد قراءة كاتب السر، علي ترتيـــب جلوســـهم ويوقعون علي القصص كما يوقع عليها كاتب السر ويقرأون القصص على السلطان وهم أحق كتاب ديـــوان الإنشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص ، الأعش : صبح الأعشى ، جـــ١ ، مرجع ســـابق ، ص ١٣٧ .

[4] محمد الصادق حسين : البيت السبكي بيت علم في دولتي المماليك ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

ولم تكن حياته في هذه المدة حياة الموظف الكبير الراضى من المنصب بمظهره ونفوذه المكتفى بأداء العمل الرسمي بل كانت حياة التأليف والمحن حياة الكفاح والنضال وفيها بدت شخصيته واستقلاله برأيه واعتداده بنفسه فتراه مثلاً يذكر في ورقة كتبها إلى نائب الشام: "وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق لا يقدر أحد يرد عليَّ هذه الكلمة وهو مقبول فيما قال عن نفسه"[1].

ويرى الباحث أن هذه المقولة فيها إدعاء ومبالغة مرفوضة وهي تنم عن اعتداد تاج الدين بنفسه بيد أنه لا يجوز له أن يدعى أنه أوحد المجتهدين في عصره بل كان هناك فقهاء مجتهدون لهم مكانتهم كابن تميمة وغيره . وقد أخطأ السيوطي عندما قرر أن كلام التاج السبكي مقبول فيما قاله عن نفسه ولا يجوز البتة للعالم مهما كان علمه أن يدعى أنه أعلم الناس لأن الله تعالى يقول : "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" الإسراء : ٨٥ . ومن ظن أنه علم فقد جهل والتواضع من سمات أهل العلم لا الكبر والإدعاء والغرور .

ولقد طارت شهرة التاج السبكي في جميع الأقطار الإسلامية وأصبح عندة الناس في الفتيا وكان أهل مصر يرسلون إليه يستفتونه في كثير مما يعرض لهم [2].

ولم يعش تاج الدين السبكي إلا نحو أربعة وأربعين عاماً لكن حياته على قصرها كانت مليئة بالإنتاج العلمي حيث صنف في نواحي شتى من المعرفة ومن أبرز تصانيفه "جمع الجوامع"* في أصول الفقه، و"شرح مختصر ابن الحاجب في الأصول وسماه "رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب" في أصول الفقه والترشيح في اختيارات والده في الفقه ، وشرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي ، والأشباه والنظائر[3] . "وطبقات الشافعية الكبرى" و "منع الموانع" وهو تعليق على "جمع الجوامع"[4] .

---

[1] السيوطي : حسنى المحاضرة في أخيار مصر والقاهرة ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ٢٨٣ .

[2] محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو : من مقدمة تحقيق "طبقات الشافعية الكبرى" ، جـ١، مرجع سابق، ص١٠.

* طبع هذا الكتاب مع شرح له هو : حاشية العلامة البنائي على متن جمع الجوامع ، جزاءان ، ط٢ ، مطبعة الباني الحلبي ، د.ت، وهو مصنف في أصول الفقه.

[3] د. تاج الدين السبكي : الأشباه والنظائر ، تحقيق عادل أحمد عبد المقصود ، بيروت ، دار الكتب العملية ، ط١ ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ وهو جزءان .

[4] محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو : من مقدمة تحقيق طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١،مرجع سابق، ص٢٣ .

ومن تصانيفه كذلك معيد النعم ومبيد النقم" [1] . وبنى المؤلف كتابه على مبدأ تربوي هام وهو ذكر ما يحفظ على الإنسان في هذه الحياة النعمة التي أسداها الله إليه ويدفع عنه السوء والبأساء من خلال قيام كل فرد في المجتمع المسلم بما يجب عليه ويلتزم بشرع الله في كل أعماله وفصل القول فيما يطلب في كل عمل ووظيفة ليتكون مجتمع صالح في هذه الحياة وقد أعانه على هذا سعة فقهه وخبرته بأحوال عصره حيث تولى عدة وظائف جعلته قريبة من الحكام وسواد الناس وعامة الشعب "والحاصل ــ وهو المقصود ــ أنه ما من عبد إلا ولله تعالى عنده نعمة ، يجب عليه أن ينظر إليها ، ويشكرها حق شكرها بقدر استطاعته ، حسب ما وصفناه ، ولا يستحقرها ، ولا يربأ بنفسه عليها . وذلك ميزان يستقيم في كل الوظائف ، فليعرض كل ذى وظيفة تلك الوظيفة على الشرع ، فإن سيدنا ومولانا ونبينا وحبينا وشفيعنا محمد صلى الله عليه وسلم يبين لنا أمر ديننا كله ، فما من منزلة إلا وأبان لنا عما ربطه الشارع بها من التكاليف ، فليبادر صاحبها إلى امتثاله ،منشرح لصدر، راضياً، ... وإلا فإن هو تلقاها بغير قبول ، ولم يعطها حقها خُشِى عليه زوالها عنه ... وإذا زالت فليعلم أن سبب زوالها تفريطه في القيام بحقها"[2] .

وجعل كتابه هذا أمثلة عملية تناول فيها طبقات الأمة حكومة وشعباً وبين ما على كل منها من واجبات وهذه الأمثلة عرض لها التاج لتطبيق وتوضيح الهدف التربوي الذى بني عليه كتابه وقد بلغت مائه وثلاثة عشر مثالاً أعلاها وفي مقدمتها "الخليفة فمن دونه من السلطان ونوابه"وأدناها وآخرها في السلم الاجتماعي "الشحاذ في الطرقات". "ونحن نرى أن نخص غالب الناس بأمثلة تستوعب معظم الوظائف التي استقرت عليها قواعد المسلمين في هذا الزمان ونذكر ما يطالب به صاحب تلك الوظيفة ويخشى عليه سوء العاقبة بسبب التفريط فيه ما يكون موقظاً له من سنة الغفلة ومرشداً لعل الله سبحانه وتعالي ينفع به أقواماً"[3] .

ويعتبر هذا الكتاب تصنيفا متفردا ضمن تصانيف التاج السبكي ووثيقة عمل كاملة في حدود عصره لأنه "دراسة لأحوال الأمة الإسلامية في عصره ونقد لطوائف الناس وتوضيح لأخطائهم ورسم السبيل إلى إصلاحهم"[4] .

---

[1] تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم،مرجع سابق.

[2] ------------:معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ١١٤ .

[3] ------------: نفس المرجع السابق ، ص ص ٢٠ ، ٢١ .

[4] محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو: من مقدمة تحقيق كتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، جـ١، مرجع سابق، ص ١٠ .

ويري البعض أن هذا الكتاب "مرجع للمصلح الاجتماعي الذي يعنيه تقويم الشعوب وتثقيف إعوجاجهم، وهو مدد عظيم الشأن لساسة الشعوب الذين يرغبون في سياسة شعوبهم سياسة رشيدة لا عنت فيها ولا حيف"[1].

ويعتبر هذا الكتاب نقطة تحول في حياة التاج من عالم ومدرس وقاضي إلي ناقد مصلح حيث لمس نواحي الضعف في حكومة المماليك وفي طبقات الأمة لذلك العصر فتصدي لنقدها بصراحة وجرأة ثم وصف وسائل الإصلاح وهي تدور حول قيام كل بواجبه في دائرة عمله.

ويحوى الكتاب السابق بعضاً من الآراء التربوية مثل : العلم والعلماء ومثالبهم والصوفية وغير ذلك من آراء وثيقة الصلة بالتربية الإسلامية من وجهة نظر التاج السبكي وفي حدود عصره وهو فقيه أصولى يتسق فكره مع التوجهات العملية للفقه ولذا فإن آرائه التربوية تتسم بالطابع الفقهي ويعتمد كثيراً على النقل والأخذ من النصوص الإسلامية .

٣- الآراء التربوية :

تناول التاج السبكي في آرائه التربوية الهدف التربوي والإنسان ومكوناته والعلم ومصادره ومبادئ التعليم وآداب التعليم وبعض المواصفات الخاصة للمعلم الجيد ومواصفات معلم الكتاب وبعض النظرات النقدية لبعض العلوم وطلابها وعلمائها ووسائل التعليم غير النظامي ثم التربية الخلقية .

ويبدأ الباحث بالحديث عن أهداف التربية عند التاج السبكي :

أولاً : أهداف التربية :

باستقراء كتابات الفقيه التاج السبكي نجد أن الهدف العام من التربية عنده يتمثل في الدعوة إلي الإصلاح الشامل إصلاح الحكومة والمجتمع المضطرب الذى عاش فيه فلقد حزَّ في نفسه ما رأى من سوء حال بعض سلاطين هذه الحقبة وظلمهم واستبدادهم وخبر عن كثب أهل الحكم وهو يشغل أعلى المناصب في دولة المماليك (منصب قاضي القضاة)ومن ثم رأى أن يخرج من نطاق عمله الديني الرسمى كقاضى للقضاة إلى نطاق ديني وتربوي يتمثل في الدعوة إلى الإصلاح ووجه النصائح لأهل الحكم ودعاهم جميعاً إلى الالتزام بشرع الله عز وجل وحرص على ترشيد السلطة وتوجيهها إلى الشرع من أجل إقامة مجتمع متماسك بهذا الشرع ويلتزم أفراده بالأمانة والعدل وأن يؤدى كل امرئ عمله وفق شرع الله وقد تكرر هذا

---

[1] محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون: من مقدمة تحقيق كتاب معيد النعم ومبيد النقم للتاج السبكي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٤٨، ص٣.

في عديد من كتاباته "الحاجب: وظيفة قديمة وكان يسمى قديماً قائد الجيش . ولـم يكـن فـي الزمن الماضى يحكم والآن اصطلحت الترك على أنه يفصل في القضايا ، فنقول:عليه رفـع الأمور إلى الشرع ، وأن يعتقد أن السياسية لا تنفع شيئاً بل تضر البلاد والرعايا ، وتوجـب الهرج والمرج ومصلحة الخلق فيما شرعه الخالق الذى هو أعلم بمصالحـهم ، ومفاسـدهم ، وشريعة نبينا محمد ﷺ متكلفة بجميع مصالح الخلق في معاشهم ومعادهم . ولا يأتى الفساد إلا من الخروج عنها ، ومن لزمها صلحت أيامه ، واطمأنت ، وقد اعتبرت ــ ولا ينبئـك مثـل خبير ــ فما وجدت ، ولا رأيت ، ولا سمعت بسلطان ، ولا نائب سلطان ، ولا أمـير ، ولا حاجب ، ولا صاحب شرطة يلقى الأمور إلى الشرع إلا وينجو بنفسه مـن مصـائب هـذه الدنيا... وأيامه أصلح ، وأكثر أمنا وطمأنينة ، وأقل مفاسد . وأنت إذا شئت فأنظر تواريـخ الملوك والأمراء العادلين ، والظالمين ، وانظر أي الدولتين* أكثر طمأنينـة وأطـول أيامـا؟ وكذلك اعتبرت فلم أر ولم أجد من يظن أنه يصلح الدنيا بعقله ، ويدير البلاد برأيه وسياسته ، ويتعدى حدود الله وزواجره إلا وكانت عاقبته وخيمة ... فمن خطر له أنه إن لم يسفك الدماء بغير حق ، ويضرب المسلمين بلا ذنب لم تصلح أيامه فعرفه أنه جهول باغ أحمق حمـار**، دولته قريبة الزوال ، وهو شقى في الدنيا والآخرة ... فإن قال حمار من هؤلاء: أنا من أيـن أعرف هذا وأنا عامى تركي (مملوكي) لا أعرف كتابا ولا سنة ؟ قلنا له : هذا لا ينفعك عنـد الله شيئا ، ألم يجعل الله لك عينين ، ولسانا وشفتين ، وهداك النجدين ... ولا ينفعـك يـوم القيامة شيء من هذه الأقاويل . وإن عجزت عن الفهم فما لك والدخول في هذه الوظيفة؟"(1) .

ويقرر ذلك في موضع آخر عند حديثه عن نواب السلطة ويـرى أن مـن واجبـهم التحاكم إلى شرع الله عز وجل ويوجب كذلك على كل مسلم أن ينقاد لشرع الله حتى تسـتقيم أمور البلاد والعباد "نواب السلطة ***" ... ومن حقهم إلقاء مقاليد الأحكام إلى الشرع لأنـه لا حاكم إلا الله تعالى ، ولن تفعل العقول شيئا فإذا رأيت من يعيب على نائب السـلطة انقيـاده للشرع وينسبه بذلك إلى اللين والرخاوة فأعلم أنه يخشى عليه أن يكون ممن طبع الله على قلبه

* يتحدث عن الدولة الفاسدة والدولة العادلة مؤكدا علي أن الدولة الفاسدة أقل طمأنينة وأقل أياما.

** واضح لهجة السخرية اللاذعة لسلاطين المماليك في عصره.

(1) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ص ٣٨ ، ٣٧ .

*** مفرد النواب النائب وهو من يقوم عن السلطة في الحكم وفي تنفيذ أمره وكان لسلطان المماليك نواب فـي الجهات النائية فله نائب في الإسكندرية والوجه البحرى والقبلي وفي الشام وكان بعض سـلاطينهم يتخـذون أحيانا نائبا في الحضرة أي القاهرة ويسمى النائب الكافل وكان يضطلع بشئون السلطة حتى قيل إنه سـلطان مختصر لأنه اشترك مع السلطان في إصدار القرارات وتعيين الموظفين، القلقشندي: صبح الأعشى ، جـ٢، مرجع سابق، ص١٦.

وأن عاقبته وخيمة ، بل حق على كل مسلم الرضا بحكم الله تعالى والانقياد له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون الكافرون الظالمون*" [1] .

وهكذا تبين أن تحكيم شرع الله والتحاكم إليه الهدف الرئيسي للتربية عند السبكي إذ أنه يمثل دعامة الإصلاح الأولى للمجتمع وأن بقاء الحكام وزوالهم وكذا المجتمعات مرهون بانقياد المجتمع إلى شرع الله وأن السياسة الظالمة المنحرفة عن الشرع لا تفيد بل إن الحكم بها يضر بأحوال العباد والبلاد وجدير بالحاكم المسلم أن يحكم بما أنزل الله وإلا فليعتزل الحكم ما دام لا يرضي بشرع الله .

ومن أهداف التربية عند التاج السبكي وجوب نشر العلم والتعليم بين المسلمين وعدم كتمانه ويرى أن هذا المبدأ هو الذى يجب أن يجمع عليه كل العلماء مهما اختلفت مذاهبهم وعلومهم "العلماء فرق كثيرة منهم المفسر والمحدث والفقيه والأصولى والمتكلم والنحوي وغيرهم وحق عليهم جميعا إرشاد المتعلمين ، وإفتاء المستفتين ، ونصح الطالبين ، وإظهار العلم للسائلين ، فمن كتم علما ألجمه الله بلجام من نار"[2] .

يتبن أن التاج السبكى يرى أن من أبرز واجبات العلماء أن يبلغوا العلم وينشروه ومسئوليتهم في ذلك أكثر من غيرهم لما رزقهم الله من القدرات والاستعدادات العقلية ولا يقتصر هذا الواجب علي تخصص دون آخر.

ويرى السبكي أن نشر العلم والمساهم في نشره يقع على عاتق أولياء الأمور في الدولة حيث يقومون بتعيين فقيه في كل قرية يكلف بتفقيه الناس في دينهم ويعجب من شأن بعض أوليا الأمور في عصره الذين يعتنون بأبدان أبنائهم ولا يعتنون بتعليمهم الدين وينفقون أموالهم على الأطباء لمعالجة أجساد أولادهم "من حق نواب السلطة إقامة فقيه في كل قرية لا فقيه فيها ، يعلم أهلها أمر دينهم . ومن العجيب أن أولياء الأمور يستخدمون في كل حصن طبيبا ويستصبحونه في أسفارهم بمعلوم (أجر) من بيت المال ولا يتخذون فقيها يعلمهم الدين وما ذلك إلا لأن أمر أبدانهم أهم عندهم من أمر دينهم"[3] .

وتهدف التربية عند التاج السبكي إلى التمسك بالسنة وطريقة أهل السنة والجماعة ومحاربة أهل البدع والأهواء ويرى أن من واجب الحكام ملاحقة هؤلاء ومن واجب علماء

---

* سورة المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .

(١) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(٢) ------------: المرجع السابق ، ص ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٣)------------ : معيد النعم ومبيد النقم،مرجع سابق، ص ٢٤ .

الدين كذلك الرد على أهل البدع وحماية السنة وهذا أمر طبيعي يساير روح العصر "من واجب نواب السلطة أن يطاردوا أهل البدع والأهواء ، ويكفوا شرهم عن المسلمين ، ويقاوموا من يسب الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ... وعلى علماء الدين واجب الاشتغال بالرد على أهل البدع والأهواء"[١] .

يتبين أن السبكي يستهدف بالتربية الحرص على إتباع السنة النبوية والتمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة وهي عقيدة أبي الحسن الأشعرى التي كان معظم الناس يعتقدونها في مصر والشام في هذا القرن ويدعوا العلماء والحكام إلى مناهضة أهل البدع من الشيعة وغيرهم والرد عليهم وكان هذا من أهداف التربية عند كثير من المربين في هذا القرن نظرا لتفشي البدع .

ويتفق هذا مع الواقع الاجتماعي والتعليمي وقتذاك حيث كانت القيم تتجه إلى المحافظة والتمسك الشديد بطريقة أهل السنة والجماعة ومحاربة السنة وأهل البدع .

وتهدف التربية عند السبكي إلى الدعوة إلى التسامح والتعاون ونبذ التعصب والتقليد للسابقين "... ومنهم (من العلماء) من تأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب ، ويركب الصعب والذلول في العصبية (التعصب) وهذا من أسوأ أخلاقه . ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض* إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره . ويا ويح هؤلاء . أين هم من الله تعالى ؟ ولو كان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى حيين لشدد النكير (الإنكار) على هذه الطائفة . وليت شعرى لم لا يتركوا أمر الفروع التي العلماء فيها على قولين ، من قائل : كل مجتهد مصيب ، وقائل : المصيب واحد، ولكن المخطئ يؤجر ، واشتغلوا بالرد على أهل البدع والأهواء"[٢] .

وتعتبر تربية النفس وتهذيبها من أهداف التربية عند السبكي حيث يرى أنه لابد من تربية النفس وتأديبها وتهذيبها وقد اقتدي بوالده في هذا الصدد حيث نقل التاج عن أبيه ما يدل على أنه كان كثير المجاهدة والتأديب لنفسه وتأثر به التاج في هذا ويذكر "نقلت من خط الشيخ

---

[١] تاج الدين السبكي :معيد النقم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

* واضح ما اتسم به بعض فقهاء هذا القرن من تجمد عند أراء السلف وتعصب لها ويبدو أن التعصب كان عنيفاً علي أشده.

[٢] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

الإمام (يقصد والده)* : وجدت الصلاح كله في كلمة من الحديث النبوى . الذي يقـــول فيــه عليه الصلاة والسلام "عليك بخويصة نفسك" وقوله "وليسعك بيتـــك" . أمـــا قولـــه : "عليـك بخويصة نفسك" فإن في الاشتغال بنفسه تهذيبها وتنقيتها من الدنس ، ويُكسُبها الصفات الحميدة التي تجاور بها رب العالمين ، والاشتغال بالناس لا خير فيه . وأما قولـــه "وليســعك بيتـك" فالسلامة في العزلة ، ومتى خرج الإنسان من بيته تعرض للشقاء ، ورأيت بخط الشيخ الإمـلم رضى الله عنه في حائط خلوته تجاه وجهه ما نصه : "عليك بخويصة نفسك" "كن حلَس بيتـك" كأنه كتبه تذكره لنفسه ، كلما أراد أن يخرج من البيت رحمه الله . ما كان أكـــثر مجاهدتــه لنفسه"[١] .

ويحث التاج السبكي المسلم علي أن يتعهد نفسه بالعبادة مراقبة الله وينبـــه علـــى أن النفس تحتاج إلى المجاهدة والتربية والتأديب "فعليك أن تتعهد نفسك بالعبادة ومراقبـــة الحــق ... واعلم أن للشيطان وساوس وتخييلات ، وأنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وأن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك ، وأنها ـــ أعنى نفسك والشيطان ـــ ربما أرياك الباطل حقـاً ، واسترقاك من حيث لا تدرى ، واسترقاك وأنت تظن أنك حر ، فأقطع واجزم بأنك مفــرط لا محالة ، واستغفر الله تعالى ، واضرع إليه ... "[٢] .

ويظهر للباحث مما تقدم أن التربية عند التاج السبكي كانت في أهدافها تربية وثيقـــة الصلة بالمجتمع وقضاياه.

وحتى تتحقق الأهداف التربوية المنشودة لابد من فهم لطبيعة الإنسان ويتناول البـلحث الإنسان ومكوناته وأفعاله في فكر التاج السبكي :

ثانياً: الإنسان ومكوناته عند التاج السبكي :

الإنسان موضوع التربية ومن ثم لابد من التعرف على طبيعته كي يتسنى لنا تربيته ، ويرى السبكى أن بعض العلماء المسلمين لهم وجهات نظر متعددة في تعريف الإنسان "اختلف العلماء في حقيقة الإنسان فذهب المتكلمون إلى أنه الهيكل المخصوص وهذا رأي الجمـــهور والمختار عند أكثر المتكلمين ... واختلفوا هل هو مجموع النفس والبدن ... قلـــت (يعنـــى

---

* كثيراً ما ينقل التاج السبكي عن والده تقى الدين وهذا يدل على تأثره الشديد به ولا أدل على هذا من أنه عقد له ترجمة مطولة في كتابه "طبقات الشافعية الكبرى" جـــ١٠،ص ص ١٣٩ - ٣٣٩ وذكر في نهايتـــها "... فهذه نبذة مما شاهدته من حاله ، وعرفته من مكارم أخلاقه..." ص ٢٢٠ .

[١] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـــ١٠، مرجع سابق ، ص ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

[٢] ------------: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ص ١٩ - ١١٥ .

السبكي) ويمكن الجواب بأنا نقول لم نعن بالإنسان البدن بمجرده بل البدن المتقوم بهذه الـروح البشرية"[١] .

واضح أن التاج السبكي يعرض لأقوال العلماء في حقيقة الإنسان ويرى أنــه البـدن والروح معاً. وتحدث السبكي عن مكونات الإنسان وهي الجسم ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والنفس.

يرى التاج السبكي أن الجسم من مكونات الإنسان وينبه إلى أن الله تعالى زود الجسـم بمجموعة من الحواس وطالب بتوظيف هذه الحواس في إطار التوجيه الإسلامي "... الضابط أن تستعمل نعم الله في طاعته وتتوقى من الاستعانة بها على معصية .. فمـن شـكر نعمـة الأذنين ألا تسمع حراماً ، وأن تستر كل عيب تسمعه . فإن أنت تصدقت بدرهمين شـكراً لله تعالى على نعم الأذنين وهتكت كل قبيح سمعته وأصغيت إلى كل حرام وعيتـه فلسـت مـن الشاكرين ... ومن شكر نعمة العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وتغضهما عن كل قبيـح إلى غير ذلك من أحكام النظر . فإن أنت أخذت تصلى كل ليلة ركعتين علـى شـكر نعمـة العينين وأنت مع ذلك تستعملها في النظر إلى المحرم ، فلست بشـاكر هـذه النعمـة حـق شكرها"[٢] .

ويرى التاج السبكى أن للجسم حاجات أساسية لابد من إشباعها مثل المأكل والمشـوب إلا أنه يدعو إلى القصد والاعتدال "لا يجوز تجاوز الشبع في الأكل ، والرى في الشرب، وإن لم يضر ، إذ لم يكن فيه نفع معتبر"[٣] .

ويرى التاج السبكي أن العقل من مكونات الإنسان ويعرض للتعريفات المختلفة التـي وردت للعقل "المأثور عن شيخنا أبي الحسن الأشعرى أن العقل هو العلم وعن الباقلاني : أنـه العلوم الضرورية . وقال البعض : أنه العلم الضروري ، وقال الشافعي هو آلة التمييز . وقال إمام الحرمين (الجويني) : العقل هو غريزة تتأتى بها إدراك المعلومات والمختار عندنـا (أى عند الأشاعرة) في تعريف العقل أنه ملكة يتأتى بها إدراك المعلومات"[٤] .

ويرى التاج السبكي أن العقل نوعان وأن عقول الناس متفاوتة "وأما العقل فبه تُنـاول سعادة الدينا والآخرة"، والعقل نوعان : مطبوع ومكتسب فمن سُلبٌ المطبوع والعياذ بـالله ، لا

---

[١] تاج الدين السبكي: الأشباه والنظائر ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ، وأيضاً جمع الجوامـع ، جــ١، مرجع سابق، ص ٦٥.

[٢]---------: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ص ١٧ ، ١٨ .

[٣]---------: طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، مرجع سابق ، ص ٢٣٠ .

[٤]---------: الأشباه والنظائر ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ص ١٧ ، ١٨ .

كلام معه ، ومن رُزق المطبوع وبصيره يميز بها ، فحق عليه أن يكتسب كل يوم ، بل كل لحظة ، عقلاً جديداً من مثله ومن أكبر منه ومن أصغر ، ففي كل رأس حكمة ، وعند كل أحد رأى وفائدة ، ويتولد من الرأيين رأي أعلى منهما ، كما تتولد النتيجة من مقدمتين ، ويتفاوت الناس في العقول تفاوتاً لا نهاية له ، والعاقل دائماً في زيادة وبالعقل تنال الدنيا والآخرة ، فإن العاقل لا يسعى إلا في مرمة (قصد) لمعاش ، أو صلاح لميعاد ، ولا خير فيما سوى هذين ، فحفظ دنياه لمرمة معاشه ، وحفظ دينه لصلاح معاده (أخرته) وإذا سمع كلمة يميز بعقله في معناها ، وعاقبة العمل بها" [1] .

واضح حديث التاج السبكي عن العقل حيث يبرز أهميته بالنسبة للإنسان وأن الإنسان ينال السعادة في دنياه وأخراه به ويقسم العقل إلى قسمين مطبوع (غريزي) أو فطري ، ومكتسب وهما متكاملان ويرى أن العقل المكتسب ينمو ويزيد ويستفيد من آراء الصغار والكبار وأن عقول البشر متفاوتة وأن العاقل يوظف طاقته الفكرية في إصلاح معاشه ومعاده وليس ثمة خير في غير هذين الأمرين أو الهدفين فيحفظ دنياه بهدف معاشه ويحفظ دينه لصلاح أخرته.

وإذا كان التاج السبكي يعطي هذه الأهمية للعقل إلا أنه يرى قصور العقل البشري وينبه إلى أن له حدودا لا يتخطاها "إن حكم الرب تبارك وتعالى منها ما ندركه ، ويتفاوت فيه بقدر تفاوتنا في العلوم والمعارف ، ومنها ما تقصر العقول عن إدراكه"[2] .

وينبه السبكي على تباين الحدود التي يقف عندها العقل ويرى أنه ليس في قدرة البشر إدراك حكم الله تعالى كلها ويسلم الأمر كله لله "لأن العقول لن تفعل شيئا"[3] .

ويرى السبكي أن على العقل أن يسلم الأمر لله فيما لا يعجز عن فهمه وخصوصا في الأمور الغيبية التي لا تدرك لا بالعقل ولا بالحواس "إن أمور الآخرة من الغيب الذى لا مجال للعقل فيه"[4] .

وإذا كان التاج السبكي وضع للعقل هذه الحدود والضوابط التي لا يتخطاها فإنه وضع له تحفظات في التعامل مع المخلوقين وهو أن يتدبر ويتأمل ولا يقلد "إياك أن تبادر بإنكار شيء قبل التأمل والفكرة" [5] .

---

[1] تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، مرجع سابق ، ص ٣٠١ .

[2] ---------: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

[3] ---------: المرجع السابق ، ص ٢٤ .

[4] ---------: جمع الجوامع ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

[5] ---------: المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٤٣٨ .

ومن وسائل تربية العقل عند السبكي الحفظ "فعليك أيها الطالب بحفظ عباراته (كتاب جمع الجوامع) لا سيما ما خالف فيها غيره كالمختصر والمنهاج"[1] .

ومن وظائف العقل عند السبكي الفهم "فأفهم أن كل من وصل لك على يديه خير من المخلوقين فهو كذلك في قبضة رب العالمين . فاشكره وحده ولا تشرك به أحدا" [2] .

ومن وظائف العقل عند السبكي التفكير والتذكر والنظر في الأمور ورؤيتها "إذا فهمت أيها العاقل ــ وفقنا الله وإياك لمرضاته وأحلنا وإياك بكرامته بحبوبه جناته ...ما شرحناه لك، فإذا انزوت عنك نعمة ، فأول متعين عليك ، إن كنت باغيا عودها، البحث عن سبب انزوائها . بأن تنظر إلى وظيفتك ، وتفريطك فيها ، بالإخلال بواحدة من وظائف الشكر ، وتعلم أنك أتيت منها ، فتذكر ذلك . فمتى ذكرته وكان تعلق قلبك بها صادقا، وعلمت أنه السبب في زوالها ، ندمت ــ ولا بد ــ عليه وتبت عنه . وعقدت النية على أنك إن عادت إليك النعمة لم تعد إليه . فإن قلت:. لا أذكر تفريطا ، فأنت إذا جاهل ..." [3] .

واضح مما سبق اهتمام السبكي بالعقل ويظهر ذلك في بيان مكانته ومفهومه ودوره في حياة الإنسان وضوابطه وحدوده وأنه عند حديثه عنه ابتعد عن كلام الفلاسفة عن العقل .

ويرى السبكي أن القلب من مكونات الإنسان لأن الإيمان محله قلب الإنسان "لفظ الإيمان باتفاق المسلمين لا يخرج عن أعمال القلب والجوارح ، وما تركب منهما ، ثم اختلفوا على أربعة مذاهب : مذهب يرى أن الإيمان يكون في القلب واللسان وسائر الجوارح ، وهم فرق أعظمها قدرا وأكثرها عددا وأعز نفرا أصحاب الحديث ... وبعضهم يرى أن الإيمان إنما يكون في القلب واللسان دون سائر الأعضاء ، ومذهب ثالث يرى أن الإيمان لا يكون إلا في القلب وحده دون سائر الجوارح ، والرابع إنما يكون في اللسان دون سائر الجوارح . فإن قلت : فإلى أي مذهب من هذه المذاهب تذهبون ؟ قلت القول بأن الإيمان تصديق القلب ، وأن النطق لابد منه وهو ما عليه قدوتنا أبو الحسن الأشعري" [4] .

وينبه التاج السبكي إلى أن شكر الله تعالى يكون بالقلب "وشكر المنعم أي وهو الثناء على الله تعالى لإنعامه بالخلق والرزق والصحة وغيرها بالقلب بأن يعتقد أنه وليها" [5] .

---

[1] تاج الدين السبكي : جمع الجوامع، جـ٢،مرجع سابق، ص ٤٣٨ .

[2] ---------: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

[3] ---------: المرجع السابق ، ص ١١٥ .

[4] ---------: طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، مرجع سابق ، ص ص ٨٧ - ٩٧ .

[5] ---------: جمع الجوامع ، جـ١٠ ، مرجع سابق ، ص ص ٦٠ ، ٦١ .

وتعتبر الروح إحدى مكونات الإنسان عند السبكي ويرى أنه لا يجوز الخـوض فـي معرفة كننها لأنه لا يعلم حقيقتها إلا الله "وحقيقة الروح وهي النفس لم يتكلم عليها محمد صلى الله عليه وسلم وقد سئل عنها لعدم نزول الأمر ببيانها. قال تعالى "ويسئلونك عن الروح قـل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" الإسراء : ٨٥ . فنمسك نحن عنها ولا نعبر عنها بأكثر مما جاء في القرآن"، وأن النفس (الروح) باقية بعد موت البدن منعمة أو معذبـة وفي فنائها عند القيامة تردد قال الشيخ الإمام الوالد : والأظهر لا تفني أبدا لأن الأصل فـي بقائها بعد الموت استمراره" [١] .

إن الروح كجزء من مكونات الإنسان سر من أسرار الله لا كنهه أحد والواجب التسليم بما جاء في القرآن الكريم وتفويض الأمر فيما هو غيب عنا أسلم وأولى .

وفي حديث السبكي عن النفس يرى أن النفس والروح شيء واحد وأنهما واحـد وأن صفاتها تتفاوت "إن مسمى النفس والروح شيء واحد خلافا لمن يقول أنها غير النفس ويقـول النفس أمارة بالسوء والروح أمارة بالخير وأن الروح لا تفارقه عند النـوم والنفـس بخلافـه والراجح أنهما واحد وأن صفاتها تتفاوت فتكون أمارة ولوامة وملهمـة ومطمئنـة وراضيـة ومرضية وكاملة" [٢] .

واضح أن السبكي يتابع القرآن الكريم في الحديث عن النفس حيث ذكر القرآن "النفس الأمارة بالسوء التي تنساق بلا كابح عن رغباتها وشهواتها "وما أبرئ نفسي أن النفس لأمـارة بالسوء إلا ما رحم ربي .. يوسف: ٥٣. والنفس اللوامة التي توالي اللوم والندم على ما فـات حتى تروض رغباتها وتسيطر عليها "لا أقسم بيوم القيام ولا أقسم بالنفس اللوامة" القيامة ١-٢ وذكر النفس المطمئنة الراضية المرضى عنها من الله "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعـي إلـى ربك راضية مرضية" الفجر : ٢٧ — ٢٨" [٣] .

ويرى التاج السبكي أن على الإنسان أن يجاهد نفسه وأن رياضة النفـس وتقويمـها تكون بتطهيرها من الأخلاق المذمومة واللجوء إلى الله "خاتمة فيما يذكر من مبادئ التصـوف المصغي للقلوب وهو كما قال أبو حامد الغزالي تجريد القلب لله واحتقار ما سـواه ... وذو النفس الأبية التي تأبى إلا العلو الأخروى يرفعها بالمجاهدة عن سفاسف الأمور من الأخـلاق المذمومة كالكبر والغضب والحقد والحسد وسوء الخلق وقلة الاحتمال ويجنح بها إلى معاليـها

---

[١] تاج الدبن السبكى: جمع الجوامع، مرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤١٩ .

[٢]----------: نفس المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤١٩ .

[٣] عبد البديع الخوالي : التربية والتعليم عند ابن الجوزى ، مرجع سابق ، ص ص ٨٩، ٩٠ .

من الأخلاق المحمودة كالتواضع والصبر وسلامة الباطن والزهـد وحسن الخلق وكثرة الاحتمال فهو عالي الهمة وهذا مأخوذ من حديث الرسول ﷺ : "إن الله يحب معالي الأمـور ويكره سفاسفها ومن عرف ربه بما يعرف به من صفاته تصور تبعيده لعبده بإضلاله وتقريبه له بهدايته فخاف عقابه ورجا ثوابه فأصغي إلى الأمر والنهي منه فامتثل مأموره واجتنب منهية فأحبه مولاه فكان مولاه سمعه وبصره ويده التي يبطش بها واتخذه وليا إن سأله أعطاه وإن استعاذ به أعاذه ... ودنئ الهمة لا يرفع نفسه بالمجاهدة عن سفاسف الأمور ولا يبالي بما تدعوه نفسه إليه من المهلكات فيجهل فوق الجاهلين ويدخل تحت ربقة المارقين وإن لم تطعك النفس الأمارة بالسوء لحبها بالطبع للمنهى عنه من الشهوات فلا تبدو لها ولا شهوة إلا اتبعتها فجاهدها وجوبا لتطيعك في الاجتناب كما تجاهد من يقصد اغتيالك بل أعظم لأنها تقصد بك الهلاك الأبدى باستدراجها لك من معصية إلى أخرى فإن فعلت فتب على الفور وإن لم تقلع فتذكر هاذم اللذات" [1] .

واضح أن التاج السبكي يدعو إلى تربية النفس ومجاهدتها وترويضها على الطاعات ويرى أنها مياله إلى الشهوات والمجاهدة تكون بالإقلاع عن الذنوب والتوبة والإنابة إلى الله وواضح أنه استفاد في بعض ما ذكره من تجارب الصوفية وهي في هذا المضمار تراث كبير والتأثير الصوفي أوضح من أن يستدل عليه .

وفيما يتصل بأفعال الإنسان فإن السبكي يعرض لآراء العلماء في ذلك "الفرق في هذه المسألة ثلاثة : الجبرية* قالوا : لا قدرة للعبد أصلا وهذا باطل .. وجمهور المعتزلة قالوا : أن العبد مستقل بإيجاد فعله بقدرته ودواعيه ولولا ذلك لم يحسن التكليف والثواب والعقاب، الفرقة الثالثة وهم القائلون بأن العبد غير مستقل وهم جميع أهل السنة . قالوا : الله خالق لأفعال العباد كما هو خالق لكل شيء . قال سبحانه وتعالى : "والله خلقكم وما تعلمون" الصافات:٩٦ . ومذهب أهل السنة توسط بين الجبرية والقدرية وقالوا الأمر مزج ولابد من اعتبار الأمرين جميعا فالفعل من الله خلقا ومن العبد كسبا فهو اختيار ممزوج بجبر وعبروا عن ذلك بالكسب لقوله تعالى : "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" الأنفال : ١٧. فأثبت له الرمى ونفاه عنه" [2] .

ويذهب السبكي إلى إثبات قدرة حقيقة للعبد على فعله "وكل واقع بقدرة الله وإرادته وهو خالق كسب العبد أي فعله الذى هو كاسبه لا خالقه قدر له قدرة هي استطاعته تصلح

---

[1] تاج الدين السبكي : جمع الجوامع ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ص ٤٣٠ – ٤٣٣ .

* ابتاع جهم بن صفوان الذين يرون أن الإنسان مجبر على أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار.

[2] تاج الدين السبكي : جمع الجوامع ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

للكسب لا للإبداع بخلاف قدرة الله فإنها للإبداع لا للكسب فالله خالق غير مكتسب والعبد مكتسب غير خالق فيثاب ويعاقب على مكتسبه الذى يخلقه الله عقب قصده له وهذا أي كون فعل العبد مكتسب له مخلوقا لله توسط بين قول المعتزلة أن العبد خالق لفعله لأنه يثاب ويعاقب عليه وبين قول الجبرية أنه لا فعل للعبد أصلا وهو آلة محضة كالسكين في يد القاطع ومن ثم فإن العبد مكتسب لا خالق لكون قدرته للكسب لا للإبداع فلا توجد إلا مع الفعل من أجل ذلك نقول الصحيح أن القدرة من العبد لا تصلح للضدين أي للتعلق بهما" (١) .

ويتفق ذهب إليه السبكي مع الأشاعرة الذين يرون أن "للإنسان كسبا يثاب به ويعاقب عليه والإنسان وكسبه مخلوقان من الله ، ويوشك الأشاعرة أن يكونوا جبريين بهذا" (٢) .

ويرى التاج السبكي أن "جميع ما نتعاطاه باختيارنا نعمة الله تعالى ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا ودواعينا وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا وسكناتنا من خلق الله ونعمته فنحن نشكر بنعمته نعمته" (٣) .

يتبين أن تاج الدين السبكي يذهب مذهب أهل السنة في أن الله تعالى خالق لكي شيء ومن ذلك أفعال العباد ويتابع الأشاعرة في هذا الذين يقرون بأن الله خالق كل شيء وأن الإنسان فاعل لأفعاله وأنهم بها يثابون وعليها يعاقبون وهذا يختلف تماما عن موقف أهل الجبر الذين نفوا أي قدرة للإنسان في فعله ومن ثم لا مكان للتربية ولا أثر لها في تغييره وتشكيل سلوكه.

ولقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية وعلماء السلف والمذاهب الفقهية وجمهور الفرق الكلامية على أن للإنسان اختيارا في فعله ، وعلى إمكانية تغير سلوك الإنسان ، وتغير عاداته ومهاراته واتجاهاته ، بل بضرورة هذا التغيير أحيانا وهذا التغيير يحدث بالتعلم (٤) .

أما بعض الأقوال التي قالت بالجبر فقد رفضها جمهور المسلمين وهي لا تعبر عن اتجاه إسلامي بقدر ما تعبر عن محاولات فردية لا يعتد بها "ولم تكن في كل الأحوال خالصة لوجه لله وإنما كانت تعبيرا عن مصالح شخصية وأهواء سياسية في بعض فترات التاريخ الإسلامي، ومن هذا الباب الفهم الخاطئ للقضاء والقدر وأنه في الأسباب لا في النتائج ، وإسقاط التدبير البشرى لوجود الرعاية الإلهية وغير ذلك من الدعاوى التي أخمدت الروح

---

(١) تاج الدين السبكي: جمع الجوامع ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٢) عبد البديع الخولي : الطبيعة الإنسانية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

(٣) تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٤) عمر الشيباني : فلسفة التربية الإسلامية ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ١١١.

الوثابة التي أودعها الله الطبيعة الإنسانية فغدا المسلمون جهلاء ضعفاء مع أنهم لا يكفون عن تلاوة الكتابة المنزل الذي يدعو إلى العلم والقوة من مظانها المختلفة لكنها قراءة بلا تدبر ولا وعي" [١] .

ويحث الإسلام على العمل لأهمية في حياة الفرد والمجتمع فبواسطته يعرف الفرد احتياجاته وكيفية إشباعها وحاجة الإنسان للعلم ملحة وضرورية ويعرض الباحث للعلم عند التاج السبكي :

ثالثا: العلم عند التاج السبكي:

ميز الله تعالى الإنسان بالعلم ولقد حث الإسلام المسلمين على العلم واعتنى به عناية كبيرة وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تبرز مكانة العلم والعلماء في الإسلام من ذلك مثلا : قوله تعالى "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات" المجادلة : "وقال سبحانه : "قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون" الزمر : ٩ ومن الأحاديث الدالة على التعلم والتعليم قوله عليه الصلاة والسلام "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"[٢] . إلى غير ذلك من الأحاديث التي حفلت بها كتب السنة .

ويبين التاج السبكي موقف الناس من العلم وينقل ذلك عن أبيه "نقلت من خطه ، رضى الله عنه هذه الكلمات لنفسي ولغيري مما أرجو النفع بها إن شاء الله تعالى : من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة : الدين ، والعقل ، والعلم ... وأما العلم : فمن الناس من لا ذهن له، فلا يكلف بذلك ، ويكفيه العلم بما يصلحه من أمر الدين ، وتعاطيه أسباب الزيادة على ذلك كضرب في حديد بارد ، ومن الناس من له ذهن ، فحق عليه أن يستعمله في علم ينتفع به في الدنيا والآخرة ، بقدر ما يحمله ذهنه ، فمن مقل ومن مكثر ، على حسب احتماله ذهنه" [٣] .

يرى التاج السبكي أن العلم من أسباب سعادة الإنسان ويوضح موقف الناس من العلم فمنهم من لا عقل له وهؤلاء يعطون من العلم حسب قدراتهم واستعداداتهم ويتعلمون ما يفيدهم في دينهم وإعطائهم من العلم أكثر مما تحتمله عقولهم لا جدوى منه ومنهم لهم عقول فهؤلاء يجب عليهم أن يوظفوا عقولهم في علوم تفيدهم في الدنيا والآخرة بقدر قدراتهم وميولهم .

---

[١] عبد البديع الخولي : الطبيعة الإنسانية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

[٢] البخاری : صحيح البخاری ، جـ١ ، مرجع سابق ،كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقه في الدين ، ص ٣٩.

[٣] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، مرجع سابق ، ص ٢٩٩ .

ويوضح الاهتمام العام للتاج السبكي أنه كان يركز بصفة خاصة على العلوم النقليـــة أكثر من غيرها لأنه من علماء النقل وهذا أمر طبيعي يساير روح العصر حيث كان الســيادة للعلوم الدينية، لذلك فقد أهتم بالفقه وقد بلغ من اهتمامه أنه ملأ كتابة (طبقات الشافعية الكبرى) بمسائلة وبسط فيها مناظراته كما اهتم بأصول الفقه وصنف في ذلك مختصرا جمعه من زهار مائه مصنف* مع زيادات قيدها ، وبلاغة في الاختصار وعني بالحديث فروى الســـنة عـــن حفاظ عصره واهتم بالجرح والتعديل وله في نقد الرجال نظرات نقدية وناقش مشكلات العقيدة وخلافيات علم الكلام في كثير من المواضع وأفاض في مسائله كالحديث عن الإيمان والإسلام والإحسان مما يدل على بصره بعلم الكلام** واهتم كذلك بالتاريخ وله ولع بمعرفة الحـــوادث التاريخية وسير الرجال واهتم باللغة وملأ كتابه الطبقات بمسائل النحو والصـــرف واعتنـــي بالشعر .

ويقسم التاج السبكي العلوم إلى ثلاثة أقسام هي : الفقه وأصول الدين (علـــم الكـــلام) والتصوف "علوم الشريعة في الحقيقة ثلاثة : الفقه وأصول الدين ، والتصوف، وما عدا هـــذه العلوم إما راجع إليها ، وإما خارج عن الشريعة . فإن قلت علماء الشريعة وأصحاب التفســير والحديث والفقه ، فما بالك أهملت الحديث والتفسير ، وذكرت بدلهما الأصول والتصـــوف ، وقد نص الفقهاء علي الخروج المتكلم من سمة العلماء، قلت: أما خروج المتكلـم مـــن سـمة العلماء فقد أنكره الشيخ الأمام تقى الدين في كتابه "الإبهاج في شرح المنهاج وقال : الصواب ودخوله في عداد العلماء إذا كان متكلما على قوانين الشرع ودخول الصوفى إذا كـــان كذلـــك وهذا هو الرأي السديد عندنا ، وأما أننا لم نعد أصحاب والتفسير والحديث فما ذلك إخراجـــا لهم، معاذ الله بل نقول التفسير والحديث من أصول الدين وفروعه وهما داخلان في العلميـــن فأفهم"[١] .

وقد وقف الفقيه تاج الدين السبكي موقفا متشددا من علم الكلام والمنطق والفلسفة حيث أفتى بتحريم الاشتغال بدراسة الفلسفة ووجه نقده العنيف إلى العلماء الذين أقتفوا أثر الفلاســفة المسلمين كالفارابي وابن سينا وغيرهما وأبان عن خطر الفلاسفة على عوام المسلمين ويتحدث عن "طائفة من العلماء اتبعت طريقة أي نصر الفارابي ، وابن سينا وغيرهما مـــن الفلاســفة الذين نشأوا في هذه الأمة ، واشتغلوا بأباطيلهم وجهالتهم ، وسموها الحكمة الإسلامية ، ولقبوا

---

* ذكر هذا التاج السبكي في مقدمة كتابه : جمع الجوامع ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣ – ٢٥

** الجزء الأول من كتابه طبقات الشافعية الكبرى حافل بمسائل تتعلق بعلم الكلام ويعول على الأشاعرة كثيرا وينتصر لرأيهم في النهاية.

[١] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ١١٧ .

أنفسهم حكماء الإسلام ، وهم أحق بأن يسموا سفهاء جهلاء من أن يسموا حكمــــاء ، إذ هــم أعداء أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ، والمحرفون لكلم الشريعة عـــن مواضعـــه ، عكفوا على دراسة ترهات هؤلاء الأقوام وسموها الحكمة ، واستجهلوا من عرى عنـــها . ولا تكاد تلقى أحدا منهم يحفظ قرآنا ، ولا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعمـــرو الله إن هؤلاء لأضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى .. فالحذر الحذر منهم . وقد أفتى جماعة من أئمتنا ومشيختنا ومشيخة مشيختنا بتحريم الاشتغال بالفلسفة" [1] .

كان هذا هو رأي التاج السبكي في الفلسفة حيث يحذر من دراستها ويرى أنـــها مـــن العلوم الضارة على عوام المسلمين ويلاحظ تعصبه الشديد ضد دراستها ويصدر فتواه بتحريـم دراستها لأن فيها شر وخطر علي العقيدة مع أن الإسلام يدعو إلي التأمل والتفكـير وأعمـال العقل واحترامه مع الأخذ بالأدلة والبراهين ولا يتوفر ذلك بسهولة بـــدون دراســة المنطــق والفلسفة.

وبالرغم من موقفه المتشدد من الفلسفة إلا أنه في موضع آخر يقف موقفا معتدلا بيــن فيه الطريق القويم لدراسة المنطق والفلسفة ويجيز دراستها شريطة إطلاع المسلم أولا علــى العلوم الشرعية وتمكنه منها وأن تكون عقيدته صحيحة وألا يخلط كلام علماء الكلام بكـــلام الفلاسفة حيث حدث ضرر عظيم بسبب هذا الخلط إلا أنه يعود ثانية ويفتى باضطهاد من ابتعد عن الكتاب والسنة واشتغل بكلام الفلاسفة "وأما المنطق فإنه حرام على من لم ترسخ قواعـــد الشريعة في قلبه، ويمتلئ جوفه من عظمة هذا النبي الكريم عليه الصـــلاة والســلام ويحفــظ القرآن الكريم ، وشيئا كثيرا من الأحاديث النبوية على طريقة المحدثين ويعرف مـــن فــروع الفقه ما يسمى به فقيها ، مفتيا مشارا إليه من أهل مذهبه إذا وقعت حادثة فقهية أن ينظر فـــي الفلسفة . وأما من وصل إلى هذا المقام فله النظر فيها للرد على أهلها ، ولكـــن بشــرطين : أحدهما أن يثق من نفسه بأنه وصل إلى درجة لا تزعزعها رياح الأباطيل ، وشبه الأضـــاليل وأهواء الملاحدة . والثاني ألا يمزج كلامهم بكلام علماء الإسلام . فلقد حصل ضرر عظيـــم على المسلمين بمزيج كلام الحكماء بكلام المتكلمين ، وأدى الحال إلى طعن المشبهة وغـيرهم من رعاع الخلق في أصحابنا ، وما كان ذلك إلا في زماننا وقبله بيسير، منذ نشأ نصر الديــن الطوسي ومن تبعه لاحياهم الله ــ فإن قلت: فقد خاض حجة الإسلام الغزالي والإمـــام فخــر الدين الرازي في علوم الفلسفة ودونوها . وخلطوها بكلام المتكلمين فهلا تنكر عليها ؟ قلـت : إن هذين إمامان جليلان ولم يخض واحد منهما في هذه العلوم حتى صار قدوة فـــي الديـــن ، وضربت الأمثال باسمهما في معرفة علم الكلام على طريقة أهل السنة والجماعة من الصحابة

[1] تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

والتابعين فمن بعدهم . فإياك أن تسمع شيئا غير ذلك ... فمن وصل إلى مقامهما لا ملام عليه بالنظر في الكتب الفلسفية ، بل هو مثاب مأجور ... وقد اعتبرت – ولا ينبئك مثل خبير – فلم أجد أضر على أهل عصرنا وأفسد لعقائدهم من نظرهم في الكتب الكلامية التي أنشأها (ألفها) المتأخرون بعد نصر الدين الطوسي ، وغيرهم . ولو اقتصر على مصنفات الباقلاني وإمام الحرمين الجويني وهذه الطبقة لما جرى إلا الخير . ورأي فيمن أعرض عن الكتاب والسنة واشتغل بمقالات ابن سينا ومن نجا نحو ... أن يضرب بالسياط ، ويطاف به الأسواق، وينادى عليه : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، واشتغل بأباطيل المبتدعين" [1] .

واضح أن تاج السبكي يضع بعض الضوابط لمن أراد أن يدرس ويطلع على الفلسفة والمنطق ويؤيد موقف بعض العلماء والأشعريين الذين خاضوا في دراسة الفلسفة كأبى حامد الغزالي والباقلاني والجويني وهم من أبرز علماء الأشاعرة المتقدمين وبين ضرر كتب علماء الكلام التي ألفوها في القرون المتأخرة ويرى أنهم لو اقتصروا على مصنفات أئمة الأشاعرة السابقين لكان أفضل وبين رأيه فيمن اشتغل بمقالات ابن سينا وغيره من الفلاسفة المسلمين أن يجلد ويطاف به في الأسواق وهذا تعصب منه لا نوافقه عليه فالمنطق والفلسفة فيهما ما يمدح وما يذم ولا حرج على المسلم من دراستهما وفق الضوابط الشرعية .

إن التاج السياسي يركز كثيرا على العلوم النقلية وكانت العناية بها مجال اهتمام ودراسة ومن سمات هذا العصر الذي تشدد في معارضة العلوم العقلية كعلم الكلام، والمنطق والفلسفة وخصوصا من قبل أنصار الاتجاه المحافظ (النقلي).

وثمة مصادر للحصول على العلم يعرض لها الباحث عند السبكي :

مصادر العلم :

يذكر التاج السبكي مصادر للعلم ويراها متمثلة في الدين (الكتاب والسنة) ، الإجماع والقياس والحواس والعقل والقلب والإلهام.

١- الدين والوحي :

يرى التاج السبكي أن الوحي المتمثل في الكتاب والسنة هو المصدر الأساسي للتعرف على المعرفة الدينية وما يتصل بعالم الغيب وليس ثمة مصدر لمعرفة هذه الأشياء سوى الوحي الخاص بأنبياء الله ورسله والقرآن هو الأساس والسنة شارحه مبينه "مصلحة الخلق فيما شرعه الخالق الذى هو أعلم بمصالحهم ومفاسدهم ، وشريعة نبينا محمد صلى الله عليه

---

[1] تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ص ٦٤ ، ٦٥ .

وسلم متكفلة بجميع مصالح الخلق في معاشهم ومعادهم ، ولا يأتي الفساد إلا مـــن الخـــروج عنها، ومن لزمها صلحت أيامه ، وأطمأنت ، ولم يقض رسول الله صلى الله عليه وسلم نحبـه حتى أكمل الله لنا ديننا" [1] .

ويرى التاج السبكي أن الله تعالى أرسل رسله وأيدهم بالمعجزات التي تؤكد صدقـــهم "أرسل الرب رسله" مؤيدين منه بالمعجزات الباهرة أي الظاهرات وخص محمـــداً صلـــى الله عليه وسلم منهم بأنه خاتم النبيين ونزل الله عليه ــ الفُرقان ليكون للعالمين نذيراً..." [2] .

ويرى السبكي أن الوحي قد أخبر عن معلومات تتصل بعالم الغيب وهـــي حـــق لأن الوحي قد أخبرنا عنها" ... الحشر للخلق بأن يحييهم الله بعد فنائهم الصـــراط وهـــو جســـر ممدود على ظهر جهنم والميزان أمور غيبية وهي حق للنصوص الواردة فـــي ذلـــك . قـــال تعالى: "وحشرناهم فلم فغادر منهم أحداً" الكهف ٤٧ . وروى أنه يؤتى بابن آدم فيوقف بيـــن كفتى الميزان الخ والجنة والنار مخلوقتان للنصوص الدالة على ذلك" [3] .

ويوضح السبكي السنة بأنها "أقوال محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله ومنها تقريـــره لأنه كف عن الإنكار والكف فعل وتشرك السنة الكتاب في الأوامر والنواهي ..." [4] .

ويعد الإجماع من مصادر العلم عند التاج السبكي ويرى أنه "من الأدلة الشرعية وهـو اتفاق مجتهدين الأمة بعد وفاة نبيها محمد ﷺ في عصر على أي أمر كان... الصحيح أنـــه حجة في الشرع قال تعالى : "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير ســبيل المؤمنين فوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصير" النساء ١١٥. توعد فيها على إتباع غـير سبيل المؤمنين فيجب ابتاع سبيلهم وهو قولهم أو فعلهم فيكون حجة" [5] .

ويعد القياس* من مصادر العلم لدى التاج السبكي ويعرف علماء الأصول القياس بأنــه "بيان حكم أمر غير منصوص على حكمة بإلحاقه بأمر معلوم حكمه بالنص عليه في الكتاب أو السنة، وبه ترد الأحكام التى يجتهد فيها المجتهد إلى الكتاب والسنة ... وهو عمل عقلى تقره

---

[1] تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

[2]-----------: جمع الجوامع ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ص ٤١٥ ، ٤١٦ .

[3]-----------: المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٢١ .

[4]-----------: نفس المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

[5]-----------: نفس المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ص ١٧٦ ، ١٩٥ .

* القياس: مصدر من مصادر التشريع الإسلامي ولمزيد من التعرف عليه تراجع كتب أصول الفقه لأنه مـــن موضوعاته.

بدائه العقول ... وأصل من أصول الاستنباط ثبت بالكتاب والسنة ، وهو في حقيقة معناه ليس إلا إعمالاً للنصوص بأوسع مدى للاستعمال ، فليس تزيداً عليها ، ولكنه تفسير لها" [١] .

ويرى السبكي أن القياس "من الأدلة الشرعية وهو حمل معلوم على معلوم من العلم بمعني التصور أي إلحاقه في حكمه لمساواته في علة حكمة وهو حجة في الأمور الدنيوية و القياس من الدين لأنه مأمور به لقول تعالى "فاعتبروا يا أولى الأبصار" الحشر : ٢. والاعتبار قياس الشيء بالشيء ولعمل كثير من الصحابة به متكرراً شائعاً مع سكوت الباقين وهو حجة إلا في الأمور العادية والخلقية أي التي ترجع إلى العادة والخلقة كأقل الحيض أو النفاس ثم القياس فرض كفاية على المجتهدين يتعين على مجتهد احتاج إليه بأن لم يجد غيره في الواقعة أي يصير فرض عين عليه وهو جلي وخفي [٢] .

والقياس عملي عقلي وهو أحد مصادر العلم العقلية ويمكن الحصول على العلم بواسطته.

وتعتبر الحواس من مصادر العلم عند السبكي ويرى أن "العقل لا يدرك المحسوسات أصلاً وإنما تدركها الحواس والعقل إنما يدرك الأمور الكلية وأما على طريق المتأخرين القائلين بأن العقل يدرك المحسوسات أيضاً لكن بواسطة الحس ، فينبغي أن تسمى حركتها في المحسوسات فكراً أيضاً" [٣].

ويتناول التاج السبكي الحواس بنظرة أصولية فيرى أنه "يجوز التخصيص بالحس" كما في قوله تعالى في الريح المرسلة على عاد تدمر كل شيء* أي تهلكه فإنا ندرك بالحس أي المشاهدة ما لا تدمير فيه كالسماء . والحس شامل للحواس الخمس مع أن الحاكم إنما هو العقل بواسطتها فيرجع ذلك إلى التخصيص بالعقل ولذلك اقتصر جماعة منهم ابن الحاجب على العقل والمراد بالحسي ما يدرك به بواسطة الحس فلو اقتصر على العقل لتوهم قصر المخصص على العقل وحده ولا يشمل التخصيص به بواسطة الحس ، ويجوز التخصيص**

---

[١] محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٣٧٧ هـ ــ ١٩٥٨م ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ .

[٢] تاج الدين السبكي : جمع الجوامع ، جــ٢ ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٢ ، ٢٠٨ .

[٣]----------: المرجع السابق ، جــ١ ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

* لم يذكر التاج السبكي نص الآية وهي قوله تعالى "تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم" الأحقاف : ٢٥.

** نصت كتب الأصول شافعية كانت أو حنفية أو مالكية على أن التخصيص هو قصر العام على بعض أفراد بالإرادة الأولى فيكون المخصص مبنياً لإرادة الخصوص ويكون بالعقل والعرف والحس ، يراجع محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣.

أيضاً (بالعقل) كما في قوله تعالى "الله خالق كل شيء" الزمر : ٦٢ . فإنـــا نـــدرك بـــالعقل ضرورة أن تعالي ليس خالقاً لنفسه" [١] .

ويعتبر العقل من مصادر العلم عند السبكي وينقل ما ذكره الحارث المحاســبي عــن العقل ويعقب عليه "العقل عند الحارث المحاسي هو نورالغريزة والتجارب ، يزيـــد ويقــوى بالعلم والحلم . قلت : هذا الذى قاله الحارث في العقل قريب مما نقل عنه أنه غريزة يتأتى بها إدراك العلوم" [٢] .

ويأتي العقل عند التاج السبكي بمعني القلب "اختلف أئمتنا في محله فــالمعروف عــن الشافعية أن محله القلب ، وهو الصحيح الذي دلت عليه صرائح الكتاب والسنة . قال ســبحانه "فتكون لهم قلوب يعقلون بها" الحج : ٤٦[٣] .

ويرى التاج السبكي أن العقل مقياس لمن أحب أن يتطلع إلى مكانة من هو أعلم منـــه لأنه به يميز "إن الذى يحب أن يطلع على منزلة من هو أعلم منه ، في العلم ، يحتـــاج إلـــى العقل والفهم فبالعقل يميز، وبالفهم يقضى وأقول : لابد مع تمام العقل من مداناة مرتبته فـــي العلم لمرتبة الآخر ، فلا يعرف أحد ممن جاء بعد أبى حامد الغزالي قدر الغزالي، ولا مقــدار علمه إلا بمقدار علمه . سمعت الشيخ الإمام رحمه الله يقول : لا يعرف قدر الشخص في العلم إلا من ساواه في رتبته و خالطه مع ذلك" [٤] .

وفي حديث التاج السبكي عن العقل كمصدر للعلم يرى أن ثمة أمور يعجز العقل عــن الخوض فيها ولذا من الأفضل التسليم والتفويض واقتفاء نهج السلف في ذلك "وما صـــح فـــي الكتاب والسنة من الصفات نعتقد ظاهر المعني منه وننزه عند سماع المشكل منه كما في قوله تعالى : "الرحمن على العرش استوى" طه : ٥ ثم اختلف أئمتنا أنؤول المشكل أم نفوض معناه المراد إليه تعالى منزهين له عن ظاهره ... والتفويض مذهب السلف وهو أســـلم والتـــأويل مذهب الخلف" [٥] .

إن التاج السبكي يرى أن العقل له مجاله الذى لا يتعداه فلا يخوض في أشياء يعجـــز عن إدراكها لأن الوحي يغنى عن النقل في معرفة مثل هذه الأمور "ومجال العقل رحب فـــهو يتعامل مع الكون المادى ملاحظة وتجربة وتطبيقاً بيد أنه ليس معصوماً من الزلل ، ولـــذا لا

---

[١] تاج الدين السبكي : جمع الجوامع ، جـ ٢ ،مرجع سابق ، ص ٢٤ .

[٢] ———————— : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ٢ ، مرجع سابق ص ، ٢٨١ .

[٣] ————————: الأشباه والنظائر ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

[٤] ———————— : طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٦ ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢ .

[٥] ———————— : جمع الجوامع ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

يعتبر في التصور الإسلامي أعلى سبل اكتساب المعرفة ، لأن وراءه سبيلاً آخر هو الوحي الذي يزود الإنسان بما لا يستطيع العقل إدراكه ، ومن ثم يحدد الإسلام للعقل المجالات التي يعمل فيها كما يضع له الضوابط التي تحفظه من الشطط والانحراف ، ويحدد له سبل تنميته وتوجيهه الوجهة الصحيحة" [1] .

ويرى التاج السبكي أنه ليست هناك فضائل في ذاتها ولا رذائل في ذاتها لأن الحسن والقبح* في الأشياء من الله تعالى وأنه خالق الحسن والقبح ولا تكليف بالعقل إنما التكليف بأوامر الشارع ونواهيه ولا ثواب ولا عقاب إلا بمخالفة أوامر الشارع ولا عبرة بأوامر العقل إنما العبرة دائماً بأوامر الشرع "لا حكم إلا لله" فلا حكم للعقل بشيء مما سيأتى عن المعتزلة المعبر عنه بعضه بالحسن والقبح للشيء بمعنى ملايمة الطبع ومنافرته كحسن الحلو وقبح المر وبمعني صفة الكمال والنقص كحسن العلم وقبح الجهل عقلى أي يحكم به العقل اتفاقاً وبمعني ترتب المدح والذم عاجلاً والثواب والعقاب أجلاً كحسن الطاعة ــ وقبح المعصية شرعي أي لا يحكم به إلا الشرع المبعوث به الرسل أي لا يؤخذ إلا من ذلك ولا يدرك إلا به خلافاً للمعتزلة في قولهم أنه عقلى أي يحكم به العقل لما فى الفعل من مصلحة أو مفسدة يتبعها حسنه أو قبحه عند الله أى يدرك العقل ذلك بالضرورة كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار وقيل العكس ويجيء الشرع مؤكداً ذلك أو باستعانة الشرع فيما خفى على العقل كحسن صوم آخر رمضان وقبح صوم أول يوم من شوال" [2] .

ويلاحظ أن السبكي في قوله أن الحسن والقبح شرعيان لا عقليان يتفق رأيه مع رأي الأشاعرة الذين ينتمي إليهم وجمهور الأصوليين الذين يرون أن "الأشياء ليس لها حسن ذاتي ، ولا قبح ذاتي ، وأن الأمور كلها إضافية ، وإن إرادة الله في الشرع مطلقة لا يقيدها شيء فهو خالق الأشياء ، وهو خالق الحسن والقبح ، فأوامره هي التي تحسن وتقبح ، ولا تكليف إلا بالعقل ، إنما التكليف بأوامر الشرع ونواهيه ولا ثواب ولا عقاب إلا بمخالفة أوامر الشارع ، ولا عبرة بأوامر العقل ، إنما العبرة دائماً بأوامر الشارع الحكيم . وبذلك خالفوا الماتريدية والمعتزلة ، فقرروا أنه لا وجود لحسن ذاتي أو قبح ذاتي ، ولا تكليف إلا من الشارع وجمهور الفقهاء ويرون أن الحاكم هو الله تعالى ، وأن العقل لا يكلف ، وإن كان يدرك الحسن الذاتي والقبح الذاتي على رأي الفقهاء وهم الحنفية ... وليس للعقل عند جمهور

---

[1] عبد البديع الخوالي : العلم في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

* هذه المسألة أدرجها علماء أصول الفقه وعلماء أصول الدين (الكلام) في مصنفاتهم الأصولية وأيضاً الكلامية وقد اختلف فيها العلماء وهي أحد أصول مذهب المعتزلة .

[2] تاج الدين السبكي : جمع الجوامع ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤ – ٥٩ .

الفقهاء أن يشرع الاحكام ، ولا يضع التكليفات ، وليس معنى ذلك أنه لا مجال لعمله ، بل إن له عملاً، ولكنه ينطلق في عمله حيث يطلقه الله سبحانه وتعالى" [١] .

ومن وسائل تربية العقل لدى التاج السبكي الاجتهاد وهو يعني "بذل الجهد لحل المشكلات التي لا حلول صريحة لها في الكتاب والسنة ، لأن النصوص محدودة والحوادث والمشكلات بلا حدود ، والإثبات والدلالة لبعض النصوص قد يكون ظنياً ، من هنا كان الاجتهاد فريضة على المؤهلين له بالضوابط الأصولية المعروفة ، لأن الإسلام دين كل عصر وكل زمان إلى يوم القيامة ، ومن ثم كان الاجتهاد ضرورياً لتطبيق الشريعة والنشاط في المجتمع بكل تطوراته ومستجداته" [٢] .

ويرى التاج السبكي أن الاجتهاد هو "استفراغ الفقيه الوسع ، بأن يبذل تمام طاقته في النظر في الأدلة التحصيل ظن بحكم من حيث أنه فقيه وقال الشيخ الإمام : المجتهد من لديه ملكة بالعلوم وإحاطة بمعظم قواعد الشرع ومارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشرع" [٣] .

ويعني الاجتهاد في الشريعة إعمال العقل في النصوص لاستخراج الأحكام وهو "كعملية عقلية تنمي العقل يرتبط بحرية التفكير والتفكير الموضوعي الملتزم بالأصول ومقاصد الشريعة مع الدقة والتثبت والتحليل وغير ذلك من العمليات العقلية . لذا يعتبر من أفضل الوسائل لتنمية العقل وتيسير الحياة أمام المسلمين ، وقد كشف الرسول صلى الله عليه وسلم عن أهميته حينما بين أن للمصيب أجرين وللمخطئ في اجتهاده أجراً وليس معنى أهمية الاجتهاد أن بابه مفتوح لكل من حفظ النصوص الإسلامية وأراد أن يتخذ من ذلك سلماً إلى الشهرة أو تحقيق مآرب ذاتية ، وإنما هو مرتبط بميادين محدودة وأحكام قابلة للاجتهاد لأنها ظنية الثبوت أو الدلالة ، كما أنه لا يستخدم تبريراً لأوضاع سيئة ترددت فيها الأمانة بتأثير عوامل داخلية ، وخارجية ، أو لمهاجمة كل جديد لمجرد أن السلف لم يعرفوه ، ومن ثم لابد أن تتوافر في المجتهد شروط بينتها كتب أصول الفقه مثل أن يملك أدوات الاجتهاد معرفية

---

[١] محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، مرجع سابق ، ص ص ٦٧ ، ٦٨ .

[٢] عبد البديع الخولي : التربية العقلية في الإسلام مجلة دراسات تربوية ، جـ٣٥ ، ١٩٩١ ، ص ٥٤ .

[٣] تاج الدين السبكي : جمع الجوامع ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ص ٣٧٩ - ٣٨٣ ، وأيضاً : الأشباه والنظائر ، جـ٢ ، ص ٥٠ . وأيضاً : الإبهاج في شرح المناهج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي ، جـ١، تحقيق شعبان محمد إسماعيل ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨١ ، جـ ١ ، ص ص ٨ ، ٩ .

وعقلية وأن يكون عدلاً مرضي السيرة لا يخاف في الله لومة لائم مبرأ من شــهوات النفــس وأوجه ضعفها" [١].

ومن أساليب تربية العقل لدي السبكي العبرة من خلال التجارب الشخصية وتجــارب السابقين "وإذا كانت العبرة والعظة هي نتيجة لمقدمات معينة فإن الوصول إلى هــذه النتيجــة يستلزم إعمالاً عميقاً للعقل وتدريباً له على أن تكون المعلومات لديه موجهة توجيــهاً مفيــداً، ونجد ذلك واضحاً في قوله تعالي في ختام سورة يوسف "لقد كان فى قصصهم عبرة لأولــي الألباب. ما كان حديثاً يفتري ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شيء وهدي ورحمــة لقوم يؤمنون " يوسف: ١١١ فالذي يعتبر من قصة يوسف هم أصحاب العقول الراجحة كمــا نصت الآية وهؤلاء يرون أن الله الذي أمتحن يوسف بالشدائد التي قابلته ثم نجاه منها وجعلــه مكيناً في مصر بعد أن دخلها عبداً من العبيد، قادراً علي أن يمكن لنبيه الخاتم محمد صلي الله عليه وسلم في الأرض فتحنوا للإسلام رؤوس الجبابرة، ثم يمكن الله لنبيه من أعدائه فيعفــوا عنهم ويصبحوا طلقاء محمد ﷺ إلي يوم القيامة، وفي القرآن الكريم كثير من مواطن الاعتبار في قصص الأنبياء مع قومهم... وأسلوب الاعتبار كما هو واضح يرتبط بمستويات عقليــة عالية كالتحليل والمقارنة والنقد لذا خص الله به (أولي الألباب)، و"أولي الأبصار "[٢]

وتعد التجربة من مصادر العلم لدي التاج السبكي ويري أنه جَّرب فلم يجد فقيهاً يعيب علي المتصوفة إلا وعاقبه الله وأيضاً لم يجد سلطاناً من سلاطين المماليك الذي عاصرهم يهزأ بالعلماء إلا وأهلكه الله "... وقد جربنا فلم نجد فقيهاً ينكر علــي الصوفيــة، إلا ويهكلــه الله تعالي، وتكون عاقبته وخيمة، ولا وجدنا تركياً (مملوكاً من المماليك) يهزأ بالفقراء إلا ويهلكــه الله تعالي، وتكون عاقبته شديدة"[٣].

ويذكر في موضع آخر أنه اعتبر فوجد قاعدة مستمرة في الأمة الإسلامية وهي أنــه كل من كان إيمانه زائد وكثير انزوت عنه الدنيا ويبتلي أكثر من غيره "وأنا قــد اعتــبرت، فوجدت القاعدة المستمرة في هذه الأمة أن كل من كان أكثر إيماناً، كانت الدنيا عنــه أكــثر انزوار، والأكدار عنده أكثر ممن دونه، ولذلك كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل، ومــا أوذي نبي أكثر مما أوذي سيد الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام. وأنت فانظر تري الكفــار أكثر دنيا من المسلمين، ثم انظر المسلمين ترى الجهال منهم والفسقة أكثر دنيا من أهل العلــم وأهل التقوى، فما أجهل من يقول: ما بال فلان المستحق خاملاً، وفلان غير المستحق غــير

---

[١] عبد البديع الخولي : التربية العقلية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤ ، ٥٥ .

[٢] ----------- : المرجع السابق، ص ص، ٥١،٥٢.

[٣] تاج الدين السبكي: معيد العم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٧١.

خامل. أما علم أن هذه عادة الزمان، وأن ذلك عدل من الله تعالي: إذ كونه مستحقاً فضل من الله عليه، يربو ويزيد علي ذلك الحطام الذي هو حظ من لا يستحق... فإذا استقرت هذه القاعدة عندك ازددت انشراحاً بالمصيبة وتسلياً عنها، ثم ابحث تجده أيضاً بقضاء الله وقدره وإرادته واختياره، وقضاؤه لك خير من قضائك لنفسك. وكم من محنة في طيها نعمة لا يدريها إلا من يعلم العواقب"(١).

ويري التاج السبكي أن "أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وعظم الآخرة وصفاءها ودوامها، وأن يعلم أنهما متضادتان... فمن لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بالهموم فاسد العقل، فإن المشاهدة والتجربة ترشد العقلاء إلي ذلك، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له، ومن لا يعلم أنهما ضرتان والجمع بينهما بعيد فهو جاهل... "(٢).

واضح أن خبرة الأيام وتجاربها من مصادر العلم عند السبكي والعلم هنا يأتي عن طريق الواقع والتجارب تكسب الإنسان عقلاً وخبرة وعلماً سواء كانت تجارب شخصية أو تجارب السابقين

ومن أساليب تربية العقل عند السبكي ضرب الأمثال "وتهدف الأمثال إلي تربية العقل علي التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم. وتنطوي معظم الأمثال علي "قياس" تذكر مقدماته ويطلب من العقل التوصل إلي النتيجة التي لا تذكر كثيراً بل يشار إليها ويترك للعقل أن يستجمع قواه لمعرفتها ونري ذلك واضحاً في قوله تعالي "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" الرعد: ١٧ فعندما ضرب الله مثلاً للحق والباطل وصف المشبه به الماء والسيل والزبد وما ينفع الناس فيمكث في الأرض وما يذهب جفاء ثم أشار بسرعة إلي النتيجة، كذلك يضرب الله الأمثال، وترك العقل يكشف أن الحق يبقي والباطل يطرح كما يذهب الزبد ويتلاشي بعد انتهاء السيل، وهنا يشعر المسلم بلذة الظفر بالوصول إلي الكشف عن "المغزي" الذي أشارت إليه الآية واحتفي القرآن الكريم والسنة بالأمثال وتأثيرها في النفس وتربيتها "العقل"(٣)

واستخدم التاج السبكي أسلوب ضرب المثل كوسيلة لتنمية العقل ويشيع هذا في بعض من كتاباته "... إذا زالت (يعني النعمة) فليعلم (أي العبد) أن سبب زوالها تفريطه في القيام

(١) تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ١١٧ – ١١٩.

(٢) ----------- : المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣) عبد البديع الخولي: التربية العقلية في الإسلام، مرجع سابق، ص ص ٦٠،٦١.

بحقها، وأنا أضرب لك مثلاً، فأقول: إذا كنت أميراً، قد حولك الله نعماً هائلة، لو استحضرت نفسك لوجدتها لا تستحق منها ذرة، وبت في بيتك تتقلب في أنعم الله، بين يديك الدراهم والذهب، والجواري، وأنواع الملابس الفاخرة... ثم أصبحت ركبت الخيول المسومة، ولبست الثياب الحسنة... وأخذت تحكم فيهم بخلاف ما أمرك الله به، الذي بت تتقلب في أنعمه، معتقداً أن ما تحكم به هو الاصلح، وأن حكم الله لا ينفع، فما جزاؤك؟ ولم لا تزول عنك هذه النعمة؟ فإن ضممت إلي هذا أنواعاً أخرى من المعاصي، فأنت بنفسك أخير، والله عليك أقدر. فاحفظ الله يحفظك"[1].

ويعتبر القلب من مصادر العلم فهو من أدوات المعرفة"وللقلب مكانة خاصة في المعرفة الإلهية، إذ به يمكن الوصول إلي بعض المعارف والعلوم التي تشتق من المصدر الإلهي. فقد نزل الوحي علي قلب محمد ﷺ "علي قلبك لتكون من المنذرين" الشعراء: ١٩٤. ومنه ما طلبه إبراهيم عليه السلام ليطمئن به قلبه "وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي" ومنه ما علمه يعقوب عليه السلام عن ابنه يوسف عليه السلام. والله أعلم" [2].

ويري التاج السبكي أن القلب مصدر يمكن الحصول علي العلم من خلاله وذلك يحصل بتقوى العبد لله ومراقبته وخشيته إياه وصفاء قلبه وفي هذه الحالة يهبه الله علماً من لدنه فيري بنور الله ويسوق واقعة عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ثم يعقب عليها "دخل علي عثمان رضي الله عنه رجل كان قد لقي امرأة في الطريق فتأملها فقال له عثمان: يدخل أحدكم وفي عينيه أثر الزنا، فقال الرجل: أوحي بعد رسول الله عليه وسلم، قال لا، ولكنها فراسة. أعلم أن المرء إذا صفا قلبه صار ينظر بنور الله، فلا يقع بصره علي كدر أوصاف إلا عرفه، ثم تختلف المقامات، فمنهم من يعرفون أن هناك كدراً ولا يدري ما أصله، ومنهم من يكون أعلي من هذا المقام فيدري أصله كما اتفق لعثمان رضي الله عنه، فإن تأمل الرجل للمرأة أورثه كدراً، فأبصره عثمان، وفهم سببه. وهنا دقيقة (حكمة): وهو أن كل معصية لها كدر وتورث نكتة سوداء في القلب يقدرها، فتكون ريناً علي نحو ما قال الله "كلا بل ران علي قلوبهم ما كانوا يكسبون" المطففين ١٤٠ إلي أن يستحكم والعياذ بالله فيظلم القلب، ويغلق أبواب النور، فيطبع عليه، فلايبقي سبيل إلي توبته، علي نحو ما قاله تعالي، "وطبع علي قلوبهم فهم لا يفقهون" التوبة: ٨٧."[3].

---

[1] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ١١٤.

[2] عبد الفتاح جلال: من الأصول التربوية في الإسلام، القاهرة، المركز الدولي لتعليم الوظيفي للكبار بسوس الليان المنوفية، ١٩٧٧، ص ١٠٢.

[3] تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

ويري التاج السبكي أن ثمة سبيل آخر أمام الإنسان للحصول علي العلم وهو الإلـــهام وحديثه عن الإلهام كمصدر من مصادر العلم يقترب تماماً من حديث الصوفية عن الإلـــهام أو (العلم اللدني) والذي يعتبر أحد طرق التعليم لدي الصوفية والذي يهبه الله لبعض الصـــالحين "الإلهام إيقاع شيئ في القلب " (يطمئن له الصدر يخص به الله بعض أصفيائه وليـــس بحجـــة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره) لأنه لا يأمن دسيسة الشـــيطان فيـــها (خلاقـــاً لبعـــض الصوفية) في قوله أنه حجة في حقه أما المعصوم كالنبي ﷺ فهو حجة في حقه وحق غيره إذا تعلق بهم كالوحي وروي أن النبي ﷺ: "قد يكون في الأمم محدثون وملهمون فإن يـــك فـــي أمتي أحد فعمر"[١]. وقال تعالي: "فألهمها فجورها وتقواها" الشمس: ٨. أي أن النفوس ملهمـــة فالنفس الملهمة علوماً لدنية هي التي تبدلت صنعتها واطمأنت بعد أن كانت أمارة "[٢]

ويعبر التاج السبكي عن الإلهام بالخاطر في موضع أخر وإذا خطر لك أمر أي ألقـــي في قلبك فزنه بالشرع ولا يخلو حاله بالنسبة إليك من حيث الطلب من أن يكون مأموراً بـــه أو منهياً عنه أو مشكوكاً فيه فإن كان مأموراً به فبادر إلي فعله فإنه من الرحمن رحمـــك حيـــث أخطره ببالك أي أراد لك الخير فإن خشيت وقوعه لا إيقاعه علي صفة منهيـــة كـــالعجب أو الرياء فلا بأس عليك في وقوعه عليها من غير قصد لها بخلاف ما إذا أوقعته عليها قاصداً لها فعليك أثم ذلك فتستغفر منه ومن ثم قال السهروردي صاحب (عوارف المعارف) لمن ســـأله أنعمل مع خوف العجب أو لا نعمل حذراً منه أعمل وأن خفت العجب مســـتغفراً منـــه أي إذا وقع قصداً كما تقدم فإن ترك العمل للخوف منه من مكايد الشيطان وإن كان الخاطر منهياً عنه فإياك أن تفعله فإنه من الشيطان فإن ملت إلي فعله فأستغفر الله تعالي من هذا الميل"[٣]

واضح أن تاج الدين السبكي يري أن ثمة نوعاً من العلم يكاد يكون إلـــهاماً مـــن الله تعالي يخص به من يشاء من عباده الصالحين وهو ما يعبر عنه الصوفية بالعلم اللدنـــي وأن الإلهام أو الخاطر من مصادر العلم وهو إلقاء مباشر من الله تعالي في روع الإنسان ووعيـــه يدعوه إلي النظر في عواقب هذا الخاطر وما قد يترتب عليه من نظر أو عمل وهو أما خاطر يدعوه إلي الخير وهو من الله وأما خاطر شر يقع في قلب العبد بواسطة الشيطان ويقـــال لـــه (الوسواس) ويري أن صاحب الإلهام أو الخاطر لابد أن يعرض علي الشرع ويلجأ إلـــي الله ويطلب المعونة منه بالاستغفار والذكر حتى تتضح له السبل ويصل إلـــي اليقيـــن بـــالله وأن الخاطر طريق للعلم اليقيني ويؤدي إلي استقرار النفس وطمأنينتها عـــن طريـــق معرفـــة الله

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي، ج٥، كتاب المناقب، ص ٥٨١.

(٢) تاج الدين السبكي: جمع الجوامع، ج٢، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

(٣) ---------- : المرجع السابق، ج٢، ص ص ٤٣١،٤٣٢.

وتتوقف درجة استفادة الإنسان من هذا النوع علي صفاء النفس وحديث السبكي عن الخـــاطر يبدو فيه أثر الصوفية وهو أهم مصادر العلم وأفضلها لديهم ولهم في ذلك باع كبير وحديـــث طويل.

ويري الباحث أن الإلهام إذا كان أحد السبل المفضية إلي العلم فلابد أن يكون مقيـــداً بالقرآن والسنة ولا يخفي دور الخاطر في تربية الإنسان "باعتباره منبها داخلياً يجيـــش فـــي داخل الإنسان فيذكره دائما بحاجته إلي ربه وافتقاره إليه، ويعرفه أن كمالــــه الحقيقـــي فـــي عبوديته له عز وجل وبذلك تتحقق للإنسان راحته النفسية ويقينه واستقراره العقلي والقلبـــي، فهو نوع من أنواع التعلم الذاتي، وهذا أمر له أهميته لدي القدماء والمحدثين"[١]

ولابد أن نعي أن الإلهام غير الوحي الخاص بالأنبياء والرسل وأنه "ليس وسيلة عامـة للمعارف كالحواس والعقل والقلب، ولكنه وسيلة الخاصة من الناس، وإذا كان ترويض النفـس علي الطاعة وذكر الله قد يؤدي إلي الكشف والإلهام لمن يصطفيهم الله من عباده... فإن تأدية الطاعات والإخلاص في طلب العلم يؤديان إلي الدرجة التي يرضاها الله إلي أن يمنح البعـض معارف فريدة عن طريق الكشف والإلهام والحدس، وهذا يندرج تحت قوله تعالي:"واتقــوا الله ويعلمكم الله" البقرة ٢٨٢".[٢]

اتضح لنا مما سبق أن مصادر العلم عند التاج السبكي متنوعة وهي إما مصادر إلهيـة وتشمل الوحي المتمثل في الكتاب والسنة وهذا المصدر أس المصادر عنده وأهمـــها وهنـــاك مصادر بشرية تتمثل في الحس والعقل والقلب و الإجماع والقياس وهذه مصادر تشمل جميـــع الناس والإلهام الخاص بالصالحين وهذه المصادر من الأهمية بمكـــان وإذا أحســـن الإنســـان استخدامها فبإمكانه الحصول علي ما يحتاجه من العلم.

ويري السبكي أن هناك بعض المبادئ التي توجه التربية ويعرض لها الباحث

مبادئ التعلم:

يضع التاج السبكي مبادئ وشروطاً للتعلم حتى تنجح العملية التعليمية وتتمثـــل فيمـــا يلي: مراعاة الاستعدادات والقدرات والفروق الفردية والتدرج فـــي التعلـــم والعلـــم والعمـــل والموضوعية والإنصاف وعدم التعصب والأمانة العلمية والحياد وتحري الصدق فـــي نقـــل

---

[١] أحمد عرفات القاضي: الفكر التربوي عند المتكلمين المسلمين ودوره في بناء الفرد والمجتمع، القـــاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٦،ص ٣٢١.

[٢] عبد البديع الخولي: العلم في الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٧٠.

الأخبار والوقائع وضرورة صحبة المتعلم للمربي والفهم والاستماع الجيد ومتابعة المتعلمين والعناية بالوقت:

(أ) مراعاة الاستعدادات والقدرات والفروق الفردية :

يدعو تاج الدين السبكي إلي مراعاة الاستعداد والقدرات في التعليم "ونحن لا ننكر أن الفصاحة فن مطلوب واستعمال غريب اللغة عزيز حسن ولكن مع أهله ومن يفهمه، كما حكي أن أبا عمرو بن العلاء قصده طالب ليقرأ عليه فصادفه بالبصرة، وهو مع العامة يتكلم بكلامهم، لا يفرق بينه وبينهم. فنقص من عينه. ثم لم نجز (شغل) أبا عمرو مما هو فيه تبعه الرجل إلي أن دخل الجامع، فأخذ يخاطب الفقهاء بغير ذلك اللسان فعظم في عينه، وعلم أنه كلم كل طائفة بما يناسبها من الألفاظ. وهذا هو الصواب، فإن كل أحد يكلم علي قدر فهمه، ومن أجتنب اللحن، وأرتكب العالي من اللغة والغريب منها، وتكلم بذلك مع كل أحد عن قصد فهو ناقص العقل"[١]

ويدعو تاج الدين السبكي في موضع آخر إلي مراعاة هذا المبدأ حيث لفت نظر شيخ الخانقاه إلي أن يتبسط في لغته وينزل بها إلي مستوي مريديه ويكلم كل منهم علي قدر فهمه واستعداده "حق علي شيخ الخانقاه تربية المريد... والكلام مع كل منهم بحسب ما يقبله عقله، وتحمله قواه، ويصل إليه ذهنه والكف عن ذكر ألفاظ ليس سامعها من أهلها، كالتجلي والمشاهدة ورفع الحجاب، إذا كان السامع بعيداً عنها فإن في ذكرها له من المفاسد ما لا خفاء به... والله الله في ألفاظ جرت من بعد سادات القوم (الصوفية) لم يعنوا بها ظواهرها، وإنما عنوا بها أموراً صحيحة، فلا ينبغي للشيخ ذكرها لمريد لا يفهمها، فإنه يضله، مثل ما يقال عن بعضهم: العلم حجاب، فإنه لا يريد به ظاهر ما فهمه المبتدئ منه، ولكن له معني لا يناسب حال المبتدئ الكشف عنه"[٢]

يتبين أن تاج الدين السبكي يطالب بمراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين وأن يكلم كل شخص حسب قدراته ويوجه إلى تبسيط لغة العالم أو المربى والنزول بها إلى مستوى المخاطب وتكليم كل واحد على قدر فهمه وهذا فيه جماع لكل ما يدرس اليوم من أساليب تربوية لتحقيق مبدأ مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين.

---

[١]تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٧٢.

[٢]تاج الدين السبكي: مرجع سابق، ص ص ٩٦، ٩٧.

(ب) التدرج في التعلم:

ولحرص تاج الدين السبكي علي نجاح العملية التعليمية ونفع المسلمين يطالب بضرورة مراعاة التدرج في التعلم حيث ينصح شيخ الخانقاه بتربية مريديه علي التدرج"حق علي شيخ الخانقاه أن يأخذ المريد بالصلاة والتلاوة والذكر، ويربيه علي التدريج"[١]

(ج) العلم والعمل:

يحرص تاج الدين السبكي علي أن يتطابق العلم والعمل وأن يعمل الإنسان بما تعلمه من علوم وأن يظهر أثر العلم في عمل الإنسان وتفكيره وأخلاقه وهذان الأمران (العلم والعمل) مترابطان مع بعضهما وأحدهما يؤثر في الآخر والثاني هو في الصميم الأسبق فإذا وجد الفهم وجد التطبيق وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ ولذا نجد تاج الدين السبكي يعيب علي بعض العلماء في عصره الفصل بين الأساس النظري والتطبيق العملي ويري أن الله تعالي إذا عاقب هؤلاء العلماء وسلب منهم النعمة فلا يتضايقوا من هذا لأنهم هم السبب في ذلك لأنهم اكتفوا بالعلم فقط ولم يكن سلوكهم تطبيقاً لما يعلمونه "ومنهم – أي من العلماء – طائفة صحيحة العقائد – حسنة المعرفة للفروع ألا أنها لم تراع حق الله، فكان علمها وبالاً عليها في الحقيقة."[٢] قال ﷺ : "أشد الناس يوم القيامة عذاباً عالم لم ينفعه علمه"[٣] وعنه ﷺ : "أول ما يسعر يوم القيامة عالم فاتندلق أقتابه في النار فيدور فيها كما يدور الحمار برحاها فيطيف* به أهل النار فيقولون: يا هذا، ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت أمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه" [٤]... وهذه الطائفة إذا واخذها (عاقبها) الله تعالي فلا ينبغي أن تعتب وتقول: نحن أهل العلم، فإن صنيعها ليس بصنيع أهل العلم بل هؤلاء كما قال الله تعالي: " ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا" الروم: ٧ فما قوبلوا إلا بعدل من الله"[٥].

إن العلم إذا لم يصحبه عمل والتزام كان وبالاً علي صاحبه ولابد من العلاقة بين العلم النظري والتطبيق العملي وهذا ما نبه عليه السبكي ورأي أن العمل بالعلم من حق الله عى كل

---

[١] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٩٧.

[٢] --------- : المرجع السابق، ص ص ٦٧،٦٨.

[٣] الطبراني: المعجم الصغير، باب الطاء من اسمه طاهر، ج١، تحقيق كمال يوسف الحوت، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م،ص ٢٠١.

(*) يطيف : أي يطوف ويجتمع به أهل النار ويطوفون حوله.

[٤] البخاري: صحيح البخاري، ج٤، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، ص ٣٤٣.

[٥] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٦٨.

عالم وطالب علم ومن ثم عاب على طائفة من العلماء عدم العمل بمقتضى العلـــم واعتبرهـــا مذنبة تستحق المؤاخذة من الله وسلب النعم وجلب النقم ورأى أن ترك العمل بالعلم يجعل العالم ليس من أهل العلم.

ويجب التأكيد علي أن العقل الإسلامي "ليس عقلاً نظرياً أو تجريدياً، أنه فـــي المقـــام الأول عقل عملي يوظف الحقائق والمعارف لما يرضي الله ويفيد المسلمين لذا حرص القـــوآن الكريم علي الاتصال بين النظر والعمل، أو بين الصياغات النظرية للأفكار وتطبيقاتها العملي، ومن ثم عد الفصل بينهما مقتاً كبيراً عند الله "يا أيها الذين أمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كـــبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" الصف: ٢-٣. وارتبط الإيمان بالعمل الصالح فى آيـــات الكتاب الكريم، ومن ثم نجد أن العقل المؤمن عقل يلتزم بما أقتنع به وآمـــن بـــه، عقـــل واع للمفاهيم والمبادئ التي أتي بها الإنسان، عقل يحب الخير ويتمتع بالفضيلة وينفر من الرذيلـــة تحفزه إلي ذلك الفطرة النقية التي رباها الإسلام بتعاليمه التي يعقلها كل من آتـــاه الله الـــهدي والحكمة. وقد هدي الله سلف هذه الأمة فنمى القرآن الكريم عقولـــهم وقلوبـــهم وروي عـــن الصحابة "كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد فينا "أي عظم قدره وشأنه، لأنه لم يكـــن مجرد حفظ بل حفظ ووعي وعمل والتزام، يؤيد ذلك ما روي عنه أيضاً رضي الله عنه "أنـــهم إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزهن إلي العشر الأواخر حتى يعلموا ما فيهن فكنا نتعلم القـــرآن والعمل به" " [1]

(د) التزام الموضوعية والإنصاف في البحث:

توجد في القرآن الكريم العديد من المبادئ التربوية التي توجه البحث العلمي الوجهـــة السليمة وقد تمثلها أسلافنا فصنعوا بها حضارة عظمي، وطوروا مواريث الحضارات الســـابقة علي الإسلام من هذه المبادئ الموضوعية والتجرد من الميول والأهواء عند البحث العلمـــي لأن العواطف والميول الذاتية تنأي بالإنسان عن المنهج العلمي الدقيق "بل اتبع الذين ظلمـــوا أهوائهم بغير علم" الروم: ٢٩. ويوصي الله تعالي أنبيائه ورسله بالابتعاد عن الأهواء فيخاطب داود عليه السلام "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوي فيضلك عن سبيل الله" ص: ٢٦. كما يوصي الله رسوله الخاتم ﷺ بأن يبتعد عـــن أصحـــاب الأهواء "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هوانا وكان أمره فرطا" الكهف: ٢٨. وليـــس هناك أخطر علي البحث العلمي وتنمية العقل من الانقيـــاد للأهـــواء والاســـتجابة للعواطـــف الهوجاء، "ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله" القصص: ٥٠. وفى الآيات الســـابقة

[1] عبد البديع الخولي: التربية العقلية في الإسلام، مرجع سابق، ص ص٦٢،٦٣.

نفور واضح من الأحكام الذاتية التي يوصف أصحابها بالظلم والإسراف والضلال والضيـاع، وفيها البحث علي الأحكام الموضوعية التي يصل بها الإنسان إلى الحقيقة أو الحق بـالتعبير الإسلامي"[١].

ويدعو تاج الدين السبكي إلي تحري الحقيقة الموضوعية والإنصاف في البحث "قـال أبو حاتم: كان أبو ثور رجل يتكلم بالرأي فيخطئ ويصيب، وليس محله محل المستمعين فـي الحديث. قلت: هذا غلو من أبي حاتم، وليس الكلام في الرأي موجباً للقدح، فلا التفـات إلـي قوله أبي حاتم هذا"[٢]

ويذكر في ترجمة الحاكم صاحب المستدرك أنه "صاحب التصانيف في علوم الحديث، منها "تاريخ نيسابور"وله "المستدرك علي الصحيحين"... اتفق علي إمامته، وجلالته، وعظيم قدره... وقد رمي هذا الأمام الجليل بالتشيع وقيل: أنه يذهب إلي تقديم علي بن أبي طـالب، من غير أن يطعن في واحد من الصحابة، فنظرنا فإذا هذا الرجل محـدث، لا يختلـف فـي ذلك... ثم نظرنا تراجم أهل السنة في تاريخه فوجدناه يعطيهم حقهم في الإعطاء والثنـاء... هذا ما يذكره الطاعنون، وقد استخرت الله كثيراً واستهديته التوفيق وقطعت القول بأن كـلام أبي إسماعيل وابن طاهر (ممن طعنوا في الحاكم) لا يجوز قبوله في حق هذا الإمام...""[٣]

وتتبدي موضوعية تاج الدين السبكي وإنصافه وتحريه الحقيقـة فيمـا يجـب علـي المنصف حيال من يطعن فيه "أول ما ينبغي لك أيها المنصف إذا سمعت الطعن في رجـل أن تبحث عن خلطائه، والذين عنهم أخذ ما ينتحل وعن مرباه وسبيله، ثم تنظر كلام أهـل بلـده وعشيرته من معاصريه العارفين به، بعد البحث عن الصديق منهم لهم، والعدو، الخالي عـن الميل إلي أحدي الجهتين وذلك قليل في المتعاصرين المجتمعين في بلد"[٤].

ويضع قاعدة هامة للإنصاف والاعتدال "الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالتـه، وكثر مادحوه ومزكوه، وندر جارحوه، وكانت هناك قرينة دالة علي سبب جرحه، من تعصب مذهبه أو غيره فإنا لا نلتفت إلي الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة. وإلا فلو فتحنا هذا البـاب، وأخذنا تقديم الجرح علي إطلاقه، لما سلم لنا أحد من الأئمة، إذا ما من إمام إلا وقد طعن فيـه طاعنون، وهلك فيه هالكون... فنقول مثلاً: لا يلتفت إلي كلام أبن معيـن فـي الشـافعي، والنسائي في أحمد بن صالح، لأن هؤلاء أئمة مشهورون... وقد أشار شيخ الإسـلام سـيد

---

[١] عبد البديع الخولي: التربية العقلية في الإسلام،مرجع سابق، ص ٤٥.

[٢]تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبري، ج٢،مرجع سابق، ص ٧٥.

[٣] ---------- : المرجع السابق، ج٤، مرجع سابق، ص ص١٥٥ - ١٦٣.

[٤] ---------- : نفس المرجع السابق، ج٤، مرجع سابق، ص ١٦١.

المتأخرين تقي الدين بن دقيق العبد في كتابه "الاقتراح"إلي هذا، وقال: أعـــراض المســلمين: حفرة من حفر النار، وقف علي شفيرها طائفتان من الناس: المحدثون والحكام... "[1].

(هـ) عدم التعصب للمذهب والانشغال بما هو أجدى:

يدعو تاج الدين السبكي إلي عدم التعصب للمذهب وينـــدد بـــالمتعصبين "وأمـــا نعصبكم في فروع الدين، وحملكم الناس علي مذهب واحد فهو الذي لا يقبله الله منكـــم، ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد، ولو أن أبا حنيفة والشافعي ومالكاً أحياء يرزقون لشددوا النكير عليكم، وتبرءوا منكم فيما تفعلون. فلعمر الله لا أحصي من رأيته يشمر عن ساعد الاجتهاد في الأفكار علي شافعي يذبح ولا يســـمي، أو حنفـــي يلمـــس ذكره، ولا يتوضأ، أو مالكي يصلي ولا يبسمل، وهو يري من العوام مالا يحصي عدده إلا الله تعالي، يتركون الصلاة التي جزاء من تركها عند الشافعي ومالك وأحمد ضـــرب العنق، ولا ينكرون عليه"[2].

واضح أن الابتعاد عن التعصب المذهبي من مبادئ التعليم عند الســـبكي فـــهو يحرص علي أن يدع العلماء هذا التعصب الذي أساسه التحاسد وينشغلوا بتربية عامـــة المسلمين علي أداء الفرائض فهذا أجدى لهم وكان التعصب المهذهبى شائعاً فى البيئـــات العلمية وقتذاك.

(و) الأمانة العلمية والحياد وتحري الصدق في نقل الأخبار والوقائع:

وقد خص تاج السبكي بهذا المبدأ التربوي بعض المؤرخين حيـــن ذكـــر مـــن معايبهم الخروج علي هذا المبدأ ودعاهم إلي الأمانة العلمية والدقة والتحري فـــي نقـــل الأخبار والوقائع التاريخية "ومنهم – من العلماء – المؤرخون، وهم علي شفا جـــرف هار، لأنهم يتسلطون علي أغراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من صـــادق أو كاذب، فلابد أن يكون المؤرخ عالماً عادلاً، عارفاً بحال من يترجمه، ليس بينـــه مـــن الصداقة ما قد يحمله علي التعصب له، ولا من العدواة ما قد يحمله علي الغرض منـــه (التنقيص من قدره)"[3].

---

[1] تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج٢، مرجع سابق، ص ٩ – ١٤.

[2] ---------- : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٦٣.

[3] ---------- : المرجع السابق، ص ٦١.

(ز) ضرورة صحبة المتعلم للمربي:

من تاج السبكي أن من مبادئ المتعلم وشروطه اشتراط صحبة المتعلم للمربي ليجـد فيه القدوة التي ينقل عنها السلوك المرغوب فيه والصحبة تعني صحبة الطالب للمعلم وعـدم الاقتصار علي دراسة الكتب وأن يتلقى العلم من أفواه العلماء وقد وردت إشارة عند السـبكي ينصح فيها المتعلم بصحبة العلم المربي ليأخذ عنه العلم "العلم يحتاج إلي شيخ يسلكه ويربيـه، والحاجة إلي شيخ في الدين في كثير من الناس، وقد يستغني عنه في بعضهم ممن يتولـى الله هدايته، وأما العلم فالذي دلت عليه التجربة أن الشيخ ضروري فيه، لابد منه، وانتفاع الطالب، به بحسب استعداده وقبوله، فمن لا استعداد له لا ينتفع به، ومن له استعداد وأقبل بقلبه عليـه انتفع به، بقدر استعداده وقبوله، فإن قلب الطالب كالمرآة، وكلام الشـيخ كـالصورة، فبقـدر صقال المرأة ومقابلتها للصورة ينطبع ويظهر مثالها فيها، وإذا وجد الاستعداد والقبـول مـن الطالب، بقي الانطباع علي قدر إلقاء الشيخ وهو متقارب أيضاً تقارباً ظـاهراً فـي أمريـن: أحدهما بحسب زيادة علمه ونقصه. والثاني بحسب نصح الشيخ ومحبته للطالب، وحنوه عليـه حتي يأخذه بكلتا يديه، وكلما أحب الشيخ الطالب أقبل عليه مجامع قلبه، وألقي إليه أفلاذ علمه، ورباه بصغاره قبل كباره والشيخ كالأب"[1].

إن السبكى ينبه علي أهمية صحبة المتعلم للمعلم ويشدد علي ذلك ليساعده علي الفـهم ولأن المتعلم يتعلم من أخلاق المعلم قبل أن يأخذ عنه علمه والأمر يتوقـف علـي اسـتعداد الطالب وقبوله ويلفت النظر إلي أهمية العلاقة الطبية بين المربي والمتعلم لأن الشيخ كـالأب الذي يحنو علي أبنائه.

ويبدو في منهج التربية الإسلامية أن من أهم ما يجب توافره في العالم "أن يـأخذ العلم علي الحذاق من مشايخ عصره وأن يكون ذلك مباشرة بحيث يكتسـب منـهم مـهارات البحث والتعليم، ويعرف وسائلهم المختلفة وطرقهم المتعددة في التعليم ولذا حمد لبعض العلماء أخذهم العلم عن كثير من الشيوخ، وهذه السمة (أعني الأخذ عن الشـيوخ والتعـرف علـي طرائقهم) كانت تعرف عند المربين "بالصحبة"وقد اهتموا بها كل الاهتمام، نري ذلك مثلاً عند البغدادي، وابن جماعة، والشاطبى وابن خلدون، وقد حذروا من تشييخ الصحيفة أي الأخذ عن الكتب والتعلم من الصحف دون الشيوخ، وفي الأخذ عن الشيوخ تنمو الملكات ويكتب المتعلـم الاتجاهات السليمة، فينفر من البدع، ولا يتبع الهوي، ولذا كان من أهم شروط المعلـم لـدي الشاطبي أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عليهم وملازمتـه لـهم... ومـن

[1]تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج١، مرجع سابق، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

مؤهلات العالم أيضاً أن تكون له قدوة أي يقتدي بشيوخه ويتأدب بأدبهم فيأخذ عنهم العلم والأدب، علي طريقة الصحابة في إقتدائهم بمعلمهم صلوات الله وسلامة عليه، وطريقة التابعين الذين اقتدوا بالصحابة. وهكذا في كل قرن ، يأخذ الخلف عن السلف العلم والأدب وترك الامتداد فتح لباب البدع واتباع الهوي"[١].

(ح) الفهم والاستماع الجيد ومتابعة المتعلمين:

يري التاج السبكي أن من مبادئ التعليم الفهم والاستماع الجيد حيث يوجه المعيد إلي تفهم المتعلمين ويري أن المعيد إذا قصر في إفادتهم وتفهيمهم فقد قصر في شكر الله علي نعمة كونه معيداً وينبه فقهاء المدرسة إلى إفهام الطلاب والمواظبة علي حضور مجالس الدروس "المعيد[*] عليه قدر زائد علي سماع الدرس: من تفهيم بعض الطلاب ونفعهم، وعمل ما يقتضي لفظ الإعادة وإلا فهو والفقيه سواء ما يكون قد شكر الله علي وظيفة الإعادة... وفقهاء المدرسة[**] عليهم التفهم علي قدر "إفهامهم، والمواظبة إلا بعذر شرعي، ومن أقبح ما يرتكبونه، تحدث بعضهم مع بعض في أثناء قراءة القرآن، فلا هم يقرعونه، ولاهم يسلمون من اللغو في الكلام، وربما فتح أحدهم كتاباً ينظر فيه، ولا ينظر لما يقوله المدرس، بل يجلس بعيداً عنه بحيث لا يسمعه. وهذا لا يستحق شيئاً من المعلوم (الأجر) ولا يفيده أن يطالع في كتاب وهو في الدرس"[٢].

يحرص تاج السبكي علي توجيه القائمين على أمر التدريس كالمعيد وغيره أن يحرصوا علي تفهيم المتعلمين ويدعوهم إلي الإنصات والفهم وعدم التشاغل عن سماع الدروس والمواظبة علي حضورها.

ويوضح السبكي أهمية الاستماع الجيد ومتابعة المتعلمين في موضع أخر حين يلفت نظر شيخ الزاوية إلي الحرص علي أن يسمع المحدثين ويستمع للمتعلمين جيداً "شيخ الزاوية عليه أن يسمع المحدثين، ويستمع لما يقرءونه عليه لفظة لفظة، بحيث يصح سماعهم، وليصبر عليهم، فإنهم وفد الله تعالي، ومتي وجد جزء حديث أو كتاب تفرد شيخ بروايته، كان فرض

---

[١] عبد البديع الخولي: بحوث تربية إسلامية، القاهرة، دار نهضة الشرق، ١٩٨٥، ص ٦٠.

[*] المعيد: صاحب وظيفة بالمدرسة وهو من يأتي بعد رتبة المدرس وعمله أن يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم، المدرس ليفهموه ويحسنوه. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، مرجع سابق، ص ٤٦٤.

[**] فقهاء المدرسة: هم الطلاب المبتدئون في التخصص في هذا العلم وهؤلاء يطلب منهم المواظبة علي الدروس والانتباه والفهم ولذلك انتقدهم التاج السبكي بأمور يخرجون بها علي ما رسم لهم واقف المدرسة كما هو واضح من النص.

[٢] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٨٥،٨٦.

عين عليه أن يسمعه ويجب علي كاتب غيبـــة الســـامعين* أن يضبـــط أســـماء الحـــاضرين والسامعين، وتأمل من يسمع ومن لا يسمع، وألا يكون كاذباً علي النبي ﷺ بقوله: أن فلانـــــاً يسمع ولم يسمع، فإن تساهل في ذلك فليتبوأ مقعدة من النار"[1].

ويحتاج المتعلم إلي إتقان عدد من المهارات الأساسية منها مهارة الاستماع الجيد لأنها معينة علي صيغة السؤال وسبيل إلي الفهم وإتقان هذه المهارة يقتضي من السامع ألا يحـــدث نفسه بشيء غير ما يسمع ويكون حاجز القلب والعقل وينصت جيداً لما يقال وهذا مـــا لفـــت النظر إليه السبكي وفيه عليه فيما سبق.

(ط) العناية بالوقت:

يري التاج السبكي أن العاقل يعرف قدر وقته وأهميته وينبه إلي ذلـــك فـــي بعـــض إرشاداته ويلفت النظر إلي ألا يضيع المسلم وقته سدي إنما يشغل أوقاته بما يعود عليه بـــالنفع وخاصة إذا كان الإنسان طالب علم "... من كان له ذهن وضيع وقته بلا اشتغال بعلم، فقـــد خسر خسرانا مبيناً، ويندم من حيث لا ينفع الندم"

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت علي التفريط في زمن البذر

فمن له ذهن وهو شاب يغتنم ذهنه وشبابه وصحته وفراغه، في علم يحيا به في الدنيا والآخرة، فعن قريب يكل (يتعب ويضعف) ذهنه، ويشـــيخ ويمـــرض، ويشـــتغل بعـــوارض (عوائق) تصده، ويقول: يا ليتني"[2].

وينقل تاج السبكي عن أبيه ما يفيد العناية بالوقت ودلالته التربوية "نقلت مـــن خطـــه وصيه يقول فيها:" ينبغي للعبد في كل حالة أقامه الله فيها أن يتخذها عبادة، فإن العمر قصير، فإما أن ينتهز فرصته في طاعة يصل بها إلي الرحمن وسكنى الجنان، وإما أن يضيع عليـــه، وذلك غاية الخسران، وإما أن يصرفها، والعياذ بالله، في الإثم والعدوان، فيكون من أحـــزاب الشيطان، وأي وظيفة أقامه فيها، يجتهد أن يصرفها في طاعة الله ليكون دائماً عاملاً بطاعـــة الله، ممتثلاً أوامره، مراقباً له"[3].

وذكر التاج السبكي بعد أن أورد بعضا من أخبار الطاغية جنكـــيز خـــان أن أوقـــات طالب العلم أشرف من ضياعها في التعرف علي شخصية مثل هذا الرجل" هذا مختصر مـــن

* كاتب غيبة السامعين أحد موظفي المدرسة وقد وضح تاج الدين السبكي وظيفة في النص الذي أورده.

[1] تاج الدين السبكي: المرجع السابق، ص ٨٨.

[2] ----------: طبقات الشافعية الكبرى، جـ١٠، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

[3] ----------: المرجع السابق جـ١٠، ص٢٩٧.

أخبار جنكيز خان، ولنذكر في أثناء هذا الكتاب فصلاً أخر إن شاء الله مختصراً مــن أخبــار حفيده هولاكو... ومن الناس من أفرد التصانيف لأخبارهم، ويكفي الفقيه ما أوردناه، فأوقـات طالب العلم أشرف من أن تضيع في أخبارهم، إلا للاعتبار بها، وما أوردناه عبرة للمعتـبرين، وكاف للمتعظين"[١].

يتضح حرص التاج السبكي هلي أهمية الانتفاع بالوقت وحسن استغلاله "والوقت لـــه قيمة عظيمة في الإسلام، ولهذا أقسم الله به في كتابه، أقسم بأجزائه، أقســم بــالفجر، وأقســم بالضحي، وأقسم بالعصر، وأقسم بالليل، بالنهار... والوقت هو العمر، الوقت – كمــا قــال رجل من أئمة هذا العصر (الشيخ حسن البنا) – هو الحياة... أعظم الجرائم التي ترتكـــب، هي الجرائم التي نرتكبها في حق الوقت، أعظم الإسراف والتبديد، هو تبديد الأوقـــات، أنـــه أعظم من تبديد الأموال. نحن نري أمتنا تضيع أوقاتها سدى، تذهب الأوقات والأعمار عبثــاً. قلما تجد في الناس من ينتج، قلما تجد من يحسن عملاً، في الليل سهر وبطالة وكلام فـــارغ، وفي النهار كلام في أعراض الناس، حتي الناس في أعمالهم ووظائفهم الرســمية لا يكــادون يعملون"[٢]

هذه هي مبادئ التعلم عند التاج السبكي وقد تكررت هذه المبادئ عنــــد كثــير مــن المربين المسلمين لأنها منطلقات لابد أن تعتمد عليها عملية التعلم وقد أوردها البـــاحث مــن منظور التاج السبكي.

ومما يعزز التعلم أن يتحلي كل من المعلم والمتعلم بمجموعة من الآداب:

آداب التعليم:

حدد التاج السبكي مجموعة من الآداب التي يجب أن يتحلي بها المعلم والمتعلم ويمكن تقسيم ما أورده عن آداب العالم والمتعلم إلي قسمين: قسم يعكس أوضاع المعلمين والمتعلميــن في عصره، وقسم لم يختلف كثيراً عما يقرره بقية المربين المسلمين. أما تفاصيل هذه الآداب فهى :

(أ) تصحيح النية :

إن أول ما يرجى من طالب العلم وبخاصة العلم الشرعى تصحيـــح النيــة وذلــك أن يجاهد نفسه على الإخلاص والتجرد، ويتحرى بعلمه وجه الله تعالى والدار الآخرة ، ولا يجعل همه ونيته مباهاة العلماء، أو مماراة السفهاء، أو مجاراة الأغنياء، أو مداهنة الأمراء، أو جمع

---

[١] تاج الدين السبكي: نفس المرجع السابق، جـ١، ص ٣٤٢.

[٢] يوسف القرضاوي: خطب الشيخ القرضاوي، جـ٣، القاهرة، مكتبة وهبي، ط١، ١٤١٢هـــــ- ٢٠٠٠م، ص ص ٢٩٢،٢٩٣.

المال، أو الجاه، أو غير ذلك مما يتطلع إليه الناس من متاع الحياة الأدنى... ولو جاز هذا فى طلب علوم الدنيا، لم يجز فى طلب علوم الآخرة، التى تحتاج أول ما تحتاج إلى تصفية السريرة، وتجريد الهمة، والإقبال بكلية على الله تعالى" [1].

ويرى التاج السبكى أن العلماء ينبغى أن يقصدوا بعلمهم وجه الله والنفع العام للناس لا الوصول إلى وظائف الدولة أو جمع المال ولكن ينبغى أن يكون علم العالم عفاً وأن يتخذه سبيلاً إلى النجاة وينبه إلى أن بعض العلماء فى عصره كانوا يتهافتون على المناصب القيادية طمعاً فى الجاه أو زيادة فى الكسب "... وألا يقصدوا (يعنى العلماء) بالعلم الرياء والمباهاة والسمعه، ولا جعله سبيلاً إلى الدنيا، فإن الدنيا أقل من ذلك. قال الفضيل رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة : عزيز قوم ذل ، وغنياً افتقر ، وعالم تلعب به الدنيا. وأنشد بعضهم:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشترى دنياه بالدنيا أعجب

فينبغى أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى، والترقى إلى جوار الملأ الأعلى. والكلام فى العلماء يطول ولكننا ننبه على مهمات، فمن هؤلاء من يطلب العلو فى الدنيا والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء، وحب المناصب والجاه، فيؤدى ذلك إلى أن قلبه يظلم لهذه الأكدار، ويزول صفاؤه بهذه الأمور التى تظلم القلوب، وتبعد عن علام الغيوب وإلى أنه يشتغل بهم وبها عن الازدياد فى العلم" [2].

يحرص التاج السبكى على أن يكون طلب العلم خالصاً لوجه الله تعالى ويحذر أن يكون هدفه الأصلى طلب الرياسة والمال والجاه وتحقيق المنافع والمكاسب.

ويجب أن نتنبه إلى أن "معظم طلاب العلم فى عصرنا، لا يتجهون إلى العلم بنية سابقة، ورغبة مبيتة، بل يوجههم إليه – فى صغرهم – أباؤهم واولياء أمورهم، أو يوجههم إليه – رغماً عنهم – مجموع درجاتهم فى بعض المواد أو كلها، أو توجههم ظروف خاصة بهم... وينبغى لمن وضعته الأقدار فى هذا الموضع من تعلم الدين ودراسة علوم الشريعة أن يحاول من جديد إنشاء نية صالحة، ورغبة صادقة، وسيجد من العلم الذى يعيش فى ظلاله – علم القرآن والسنة – وصحبة أهل الخير فى سيرهم، ما يعينه على تصحيح النية، وتجريد الإرادة لله عز وجل" [3].

---

[1] يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، مرجع سابق، ص ص ٩٤،٩٥.

[2] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ص ٥٧،٥٨.

[3] يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، مرجع سابق، ص ٩٧.

(ب) أن يكون العالم قدوة للمتعلمين :

يحصل التعلم ويصل قمة الفهم حين يطبق الفرد ما يتعلمه . قال تعالى : "ولـــو أنـــهم فعلوا ما يوعظون به لكان خير لهم واشد تثبيتا" النساء:٦٨. وحرى بالعالم أن يكـــون عـــاملاً بعلمه " من أخلاقيات العلم الأصيلة فى الإسلام : العمل بمقتضى العلم ، على معنى أن يكـــون هناك صلة بين العلم والإرادة ، فإن آفة كثير من الناس أن يعلم ولا يعمل، أو يعمل بضد مـــا يعلم ... وعالم الأخلاق الذى يرى سلوكاً معيناً رذيلة وهو مقيم عليه، متماد فيه، وعالم الدين الذى يرى عملاً ما منكراً، وقد ينهى الناس عنه، وهو يقترفه. إن هذا النوع من العلم النظـــرى البحت لا يرضى عنه الإسلام، وربما كان الجهل فى تلك الحال خير منه... العلم النافع حقـــاً هو الذى يرى الناس أثره على صاحبه، نوراً فى الوجه، وخشية فى القلـــب، واســـتقامة فـــى السلوك، وصدقاً مع الله، ومع الناس، ومع النفس، أما مجرد التشدق بالكلام المزوق، والـــثرثرة بالقول المعسول من طرف اللسان، دون أن يصدق القول العمل، فهذا هو شأن المنافقين الذيـــن يقولون ما لا يفعلون، ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتـــــاب ويقـــرءون الأحاديث" [1].

ويرى التاج السبكى أن العمل بالعلم من حق الله على كل عالم وطالب علم وأن العـــالم هو مربى قدوة فيجب أن يظهر للمتعلمين على أشرف أحواله، ويحذر طلاب العلم من التسامح فى أمور يرونها سهلة لكنها تنال من شخصية المشتغلين بالعلم وتحط من قدرهم "... ومنـــهم (من العلماء) فرقة استهانت ببعض صغائر الذنوب، كالغيبة والاستهزاء بخلق الله تعالى، ونحو ذلك، أو كان لها معصية ابتلاها الله بها، فلم تستتر، وقالت: علمنا يغطى معصيتنا. وهذا جهل لا علم، فالصغيرة تكبر من العالم، فإن هو تجاهر بها أزداد أمرها. والمعصية مع العلم فـــوق المعصية مع الجهل من وجوه. وإذا كان النبى ﷺ يقول : "من ابتلى بشئ من هذه القـــاذورات فليستتر بستر الله" الحديث. فالعالم أولى أن يستتر إن لم يرجع (يعنى عن المعصيـــــة)، فإنـــه قدوة. ولذلك كان بعض العارفين لا يظهر لتلميذه إلا على أشرف أحواله، خوفا أن يقتدى بـــه فى سيئها ، أو يسوء ظنه به فلا ينتفع به. فينبغى للعالم الكـــف عـــن صغـــار المعـــاصى ، وكبارها. فإن هو لم يكف فلا أقل من التستر صيانة لمنصب العلم. وإلى هذا المعنـــى أشـــار الشيخ الجليل فتح الدين أبو منصور الدمياطى فأنشد لنفسه:

---

[1] يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، مرجع سابق، ص ص ٧١-٧٣.

أيها العالم إياك الزلل وأحـــذر	الـــهفوة والخطـــب الجلـــل
هفـــوة العـــالم مســـتعظمة	إذ بها أصبح فـــى الخلـــق مثـــل
وعلـــى زلتـــه عمدتـــهم	فبـــها يحتـــج مـــن أخطـــأ وزل
لا تقل: يســـتر علـــىَّ زلتـــى	بل بها يحصل فى العلم الخلـل"[١].

(ج) التواضع :

من أهم الآداب التى يجدر بالعالم المتعلم التحلى بها التواضع " فالعلم الحق لا يركبـــه الغرور، ولا يستبد به العُجب، لأنه يدرك بيقين أن العلم بحر لا شطآن له، ولا يصل أحد إلـــى قراره، وصدق الله العظيم إذ يقول: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" الإسراء: ٨٥ ... وأكـــثر الناس إدعاء للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين، وأشباهم الذين لا يعرفون مـــن العلـــم إلا القشور دون اللباب، والسطوح دون الأعماق... وإذا رزق العالم التواضع، وقف عند حـــده، وانصف غيره، وعرف له حقه، ولم يتطاول عن الناس بالإدعاء الباطل"[٢].

ويرى التاج السبكى أن التواضع وعدم الكبر من أخلاق العلماء وينقل ذلك عن أبيـــه "نقلت من خط الشيخ الإمام: فكرت ووجدت أن منشأ الفساد كله من الكبر وهو أول المعاصى، لما استكبر إبليس، وذلك أن القلب إذا كبر استعلى واحتقر غيره، فيمنعـــه ذلـــك مـــن قبـــول الموعظة، ومن الانقياد، وإذا صغر وحقر انقاد واستسلم وانصاع لمن هو أكبر منه، فيؤثر فيه كلامه ووعظه، ويعرف به الحق، فيحصل له كل خير" [٣].

ويثنى التاج السبكى على أبيه فيحدثنا عن تواضعه "وكانت تعجبه الفائدة (المعلومـــة) ممن كان، ولا يستنكف أن يسمعها من صغير، بل يستحسنها منه"[٤].

(د) حسن السؤال:

من آداب طالب العلم حسن السؤال وحرى بطالب العلم أن يزيل الجهل عـــن نفســـه ويسأل أهل العلم لأن من يترك سؤال المعلم فيما لا يعرفه فلن يتعلم "وليس من توقير العالم أو المعلم ترك سؤاله فيما يشكل عليه حياء منه، فإن هذا ليس من الحياء الشرعى المحمود، الذى هو من الإيمان، ولا يأتى إلا بخير، وإنما هو ضعف ومهانة. ولهذا قال مجاهد: لا يتعلم العلـــم مستحيى ولا مستكبر... وقد سأل كثير من الصحابة عن أمور لهم لم يســـتبن لـــهم المـــراد

---

[١] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٦٩،٧٠ .

[٢] يوسف القرضاوى: الرسول والعلم، مرجع سابق، ص ص ٦٥-٦٧.

[٣] ------------: طبقات الشافعية الكبرى، جـ ١٠، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

[٤] ------------: المرجع السابق، جـ ١٠، ص ٢١٩.

منها... ومن لم يسأل أضاع على نفسه علما كثيرا... قال عمر: من علم فليعلم ، ومن لم يعلم فليسأل العلماء" [١].

ويرى التاج السبكى أن من آداب العلم أن يستفتى أهل العلم عن ما لا يعرفه ولا يستحيى من ذلك "إذا كنت لا تعرف فاسأل أهل الذكر فإن هذا شأن من لا يعلم"[٢].

(هـ) الشجاعة والصرامة فى الحق:

يرى التاج السبكى أن من الآداب التى يجب أن يتحلى بها العلماء أن يكونوا شجعانا ولا يهابوا أحدا إلا الله وأن يكونوا أعزة فى مواجهة الطغاة والمستكبرين وألا يحابوا أحدا فى الحق وينقل التاج عن أبيه أنه كان يتحلى بهذه الصفة " وكان لا يحابى أحدا فى الحق، وأخباره فى هذا الباب عجيبة، حكم مرة فى واقعة وصمم فيها، وعانده أرغون الكاملى نائب الشام، وكاد الأمر أن يطلخم، شاما ومصرا، فذكر القاضى صلاح الدين الصفدى، أنه قال له: يا مولانا إن هؤلاء ما يطيقون الحق، فلم تلقى بنفسك إلى التهلكة وتعاديهم، قال: فتأمل في مليا ثم قال:

وليت الذى بينى وبينك عامرا وبينى وبين العالمين خراب

والله لا أرضى أحدا غير الله " [٣].

إن من أخلاق العلماء أن يصدعوا من بكلمة الحق وقد تجسد هذا فى بعض مواقف والد تاج الدين السبكى مع بعض أمراء المماليك ويبدو تأثر التاج بهذا فى شجاعته وصرامته حيث رباه والده على قول الحق ومن ذلك ما يرويه التاج عن نفسه مع بعض أمراء المماليك " قال لى مرة بعض الأمراء وقد حكيت لهم كثرة ما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقطعه للأجناد وكذلك من بعده من خلفاء الصحابة رضى الله عنهم، وخلفاء بنى أمية، وما كان عدد عساكرهم التى تضيق الأرض دونها. فقال: إذا كان عسكرهم هذا القدر العظيم، واقطاعاتهم هذه الإقطاعات ، فمن أين كانوا يجدون المال الذى يكفيهم؟ والبلاد ما تغيرت. فقلت: من هذه الأطرزة والحلى المحرم والخيول المسومة. قال: كيف؟ قلت: ما كانوا يعملون هذا الحلى ولا يشترون الفرس بمائة ألف درهم والملوك بخمسين ألفا، ولا ينتهون فى الخيلاء إلى معشار ما انتهيتم إليه. فقال: صدقت." [٤].

---

[١] يوسف القرضاوى: الرسول والعلم ، مرجع سابق، ص ص ١٠٦،١٠٧.

[٢] ----------: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٣٩.

[٣] ---------- : طبقات الشافعية الكبرى، جـ ١٠، مرجع سابق، ص ص ٢٠٨،٢٠٩.

[٤] ---------- : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٤٦.

(و) الابتعاد عن الحكام وعدم تملقهم :

يرى التاج السبكى أن العالم يجب عليه ألا يتابع السلطان فيما يخالف الدين أو الحـــق ويوصيه بألا يتجنب الحق من أجل رأى السلطان ويرى أن تردد العلماء على الحكام يفضـــى إلى فساد عقيدة الأمراء فى العالم ويحتقرونه "فكم رأينا فقيها* تردد إلى أبواب الملوك فذهـــب فقهه، ونسى ما كان يعلمه، وإلى فساد عقيدة الأمراء فى العلماء فإنهم يســـتحقرون المـــتردد إليهم، ولا يزالون يعظمون الفقية حتى يسألهم فى حوائجه. ويؤول ذلك إلى أنهم يظنون فـــى أهل العلم السوء ولا يطيعونهم فيما يفتون به، وينقصون العلم وأهله، وذلك فساد عظيم، وفيـــه هلاك العالم. وإذا قال لك فقيه: إن التردد إلى أبواب السلاطين لإعزاز الحق ولنصرة الديـــن، ولغرض من الأغراض الصحيحة، فقل له: إن صح ما تقول — وأنت أخبر بنفسك — فـــأنت على خطر عظيم، لأنك قد انغمست فى الدنيا، وأنت تدعى أنك تقصد بها الآخرة. وإن ثبـــت هذا فما نأمن عليك أن تتجر مع الدنيا. ولذلك كان سفيان الثورى رحمه الله يقول: إن دعـــوك لتقرأ عليهم "قل هو الله أحد" الإخلاص:١. فلا تمض ، ولا تقرأها. وبالجملة أنت أخبر بنفسك، فابحث عنها... ومن هذه الطائفة من يقول : أكرهت على القضاء وأنا لم أر إلـــى الآن مـــن أكره عليه الإكراه الحقيقى ... فإذا بلا (ابتلى) الله تعالى هـــؤلاء بولايـــة الجـــهال عليـــهم، ووصول وظائف القضاء ومناصب الدين لغير أهلها ، أليس ذلك عدلا من الله تعالى؟"[١].

ويرى التاج السبكى أن الذى يهلك الحكام الفقهاء المداهنين المتملقين والفقـــهاء علـــى نوعين : فقهاء صالحين لا يتملقون الحكام ، وفقهاء منافقون يرتمون فى أحضانهم ويزينـــون لهم السوء "إنما يتلف السلاطين فسقة الفقهاء، فإن الفقهاء ما بين صالح وطالح، فالصالح غالبا لا يتردد على أبواب الملوك ، والطالح غالبا ما يترامى عليهم، ثم لا يسعوه إلا أن يجرى معهم على أهوائهم ، ويهون عليهم من العظائم، وإلا فهو على الناس شر من ألف شيطان، كمـــا أن صالح الفقهاء خير من ألف عابد[٢].

ويبدو أنه كان هناك بعض الفقهاء المداهنين للحكام فى عصر السبكى ولقد حكى عمـــا حدث لوالده من جراء هؤلاء المداهنين فقهاء السوء "ولقد كان الشيخ الإمـــام شـــيخ الإســـلام والمسلمين يقوم فى الحق ويفوه به بين يدى الأمراء بما لا يقوم به غيره، فيذعنون لطاعته، ثم إذا خرج من عندهم دخل إليهم من فقهاء السوء من يعكس ذلك الأمر ، وينسب إلـــى الشـــيخ

---

* كلمة فقيها ترادف عالم .

[١] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ص ٥٨-٦١.

[٢] ------------ : طبقات الشافعية الكبرى، جـ٢، مرجع سابق، ص ٥٩.

الإمام خلاف ما هو عليه... ولقد قال مرة لبعض الأمراء وقد رأى عليه طرازا من ذهب عريضة على قباء حرير: يا أمير أليس فى الثياب الصوف ما هو أحسن من هذا الحرير؟ وظل يقول له فى ذلك ، حتى قال له ذلك الأمير: اشهد علي أنى لا ألبس بعدها حريرا ولا طرزا ، وقد تركت ذلك لله على يديك. فلما فارقه جاءه من أعرفه من الفقهاء، وقال له : أما الطرز فقد جوزه أبو حنيفة ما دون أربعة أصابع، وأما الحرير فقد أباحه فلان، وأما وأما، ورخص له ، ثم قال له : لم لا نهى عن المكوس*؟ لم لا نهى عن كذا وكذا ؟ وذكر ما لو نهى الشيخ الإمام أو غيره عنه لما أفاد وقال له: إنما قصد بهذا إهانتك وأن يبين للناس إنك تعمل حراما، فلم يخرج من عنده حتى عاد إلى حاله الأول، وحنق على الشيخ الإمام، وظنه قصد تنقيصه عند الخلق، ولو لم يكن قصد هذا الفقيه إلا إيقاع الفتنة بين الشيخ الإمام والأمير، ولا عليه أن يفتى بمحرم فى قضاء غرضه... ولكن حمله هواه على الوقوع فى هذه العظائم، والأمير مسكين ليس له من العلم والعقل ما يميز به. وهذا المسكين لم يكن يخفى عليه أن ترك النهى عما لا يفيد النهى عنه من المفاسد لا يوجب الإمساك عن غيره والحكايات فى هذا الباب كثيرة، ومسك اللسان أولى" [(١)].

ويتساءل الباحث: أليس ما يحدث الآن من بعض فقهاء السلطة هو نفس ما حدث لشيخ الإسلام تقى الدين السبكى؟ وعلى كل فإن الفقهاء المداهنين والممالئين للسطلة لا يخلو منهم أى عصر ومصر.

وإذا كان التاج السبكى قد نصح العلماء أرشدهم إلى الابتعاد عن الحكام ومجانبة السلطة فإنه يوجب على السلاطين توقيرهم لأهل العلم ولذلك ندد بما كان يفعله بعض سلاطين المماليك فى عصره بالعلماء وهو من عاصرهم وعايشهم "ومن قبائح (منكرات أو أخطاء) كثير من الأمراء أنهم لا يوقرون أهل العلم، ولا يعرفون لهم حقوقهم ، وينكرون عليهم ما هم يرتكبون أضعافه. وما أحمق الأمير إذا كان يرتكب معصية ووجد فقيها يقال عنه مثلها أن ينتقصه ويعيبه. وما له لا ينظر إلى نفسه مع ما خوله الله تعالى من نعم . أما علم أن القبيح عند الله تعالى حرام بالنسبة إلى كل أحد؟ وربما كان عند الفقيه ما يستر قبيحه وليس عند الأمير وراء ذلك القبيح إلا أمثاله من القبائح. فما يتعين على الأمير إذا انهى إليه عن أحد من أهل العلم سوء ألا يصدقه، ويحسن الظن بهذه الطائفة، فإن لحومهم مسمومة. وما رأيت أميرا يغض من جانب الفقهاء إلا وكانت عاقبته عاقبة سوء ... بلغنا أن فقيها رفع إلى بعض الأمراء وهو سكران فأخذ الأمير يجلده والأمير سكران، فلما قال الفقيه قال: ربى أغفر لى،

---

* المكوس هى الضرائب غير الشرعية وهى حرام.

(١) تاج الدين السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ ٢ ، مرجع سابق، ص ص ٥٩،٦٠.

وجاء إلى القاضي وقال: أقم علي الحد، فإن الأمير فاسق لا تصح إقامته الحق. فأهلك الله ذلك الأمير بعد أيام يسيرة "[1].

يتبين أن التاج السبكى يحذر العلماء من الابتعاد عن الحكام ويشدد فى منع سائر من يتصل بالعلم من الاقتراب من السلطة وربما الذى دفعه إلى هذا أنه وجد بعض الفقهاء فى عصره يهينون أنفسهم وقد أكرمها الله بالعلم ولذا يهيب بهم أن يحترموا أنفسهم ويوجه الحكام إلى توقير العلماء وعدم إيذائهم.

(ز) التأدب مع العلماء :

يحث التاج السبكى على التأدب مع العلماء ويوجه إلى ذلك وينقل عن أبيه أنه كان "كثير الأدب مع العلماء، المتقدمين منهم والمتأخرين"[2].

والتأدب مع العلماء من الآداب التى أن يتحلى بها أهل العلم وذلك أنه "بالأدب ينال العلم والدين والسعادة، وهذا الأدب يكون مع الله والعلماء والملوك وولاة الأمور، والأكابر والأقران، والصغير والكبير، والحر والعبد، فى القول والفعل والجلوس والقيام، والإنصات والاستماع، وحسن المخاطبة "[3].

(ح) الرفق بالمتعلم والحنو عليه :

من آداب التعليم أن يرفق العالم المعلم بالمتعلم ويحنو عليه ويعامله معاملة طيبة كما يعامل الأب ابنه ويرى التاج السبكى أن من آداب التعليم أن يترفق العلماء بالمتعلمين " الشيخ كالأب، يربى الطالب كما يربى الأب ابنه، فإن اتفق أن يكون الشيخ أبا فيجتمع فيه أبوة الروح والجسم ، فتكمل المحبة والنصيحة والاجتهاد"[4].

إن المعلم بمثابة الأب فيجب عليه أن يعامل المتعلمين كمعاملته لأبنائه ويحنو عليهم وأهم ما يميز علاقة الأب بأبنائه هو "الرحمة والرفق والحنو. وهذا ما ينبغى أن يحس به التلميذ من أستاذه ، ويشعر بحبه له وحرصه على نجاته وسعادته فى الأولى والآخرة، ويغرس الحب والأخوة بين طلابه، كما يغرس الأب المحبة بين أبنائه، حتى يحب بعضهم بعضا، ويعاون بعضهم بعضا، ويعطف بعضهم على بعض، ولا يتباغضوا ويتحاسدوا، وكذلك كان علماء السلف فى علاقاتهم بتلاميذهم " [5].

---

[1] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق ، ص ص ٤٣،٤٤.

[2] -----------: طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ١٠، مرجع سابق ، ص ٢٢٠.

[3] ----------- : المرجع السابق ، جـ١٠، ص ٢٩٦.

[4] ----------- : نفس المرجع السابق ، جـ ١٠، ص ٣٠٠.

[5] يوسف القرضاوى : الرسول العلم، مرجع سابق، ص ١١٨.

(ط) تشجيع المحسن والثناء عليه :

إذا كان من آداب التعليم الرفق بالمتعلمين فإن من الأسس النافعة فى التعليم والتربية "تشجيع من أصاب واحسن ، والإشادة بإحسانه ، والثناء عليه، ليزداد نشاطا فى الخير، وإقبالا على العلم والعمل ويضيف إحسانا إلى إحسان وهكذا كان ﷺ ، كان أبو موسى الأشعرى حسن التلاوة للقرآن، فقال له النبى ﷺ : "لقد أوتيت مزمار من مزامير آل داود، يعنى بآل داود: داود نفسه ... وينبغى لكل معلم راشد أن يشيد بالمواقف الحسنة لتلاميذه وينوه بكل من له موهبة أو قدرة، ولينمى فيه الطموح بالحق، والتفوق بالعدل، ولينبه الآخرين على فضلهم ... وإن كلمة تقدير وتكريم من أستاذ له قدر فى شأن أحد تلاميذه، قد تصنع منه — بتوفيق الله تعالى — نابغة من نوابغ العلم"[١].

وينقل التاج السبكى عن أبيه أنه كان يشجع المحسن وينوه به ويثنى عليه "كان الوالد إذا ذكر الطالب ين يديه، اليسير من الفائدة، استعظمها، وأوهمه أنه لم يكن يعرفها، لقد قال له بعض الطلبة بحضورى: حكى ابن الرفعة عن مجلى، وجهين فى الطلاق، فى قول القائل بعد يمينه: إن شاء الله تعالى ، هل هو رافع لليمين، فكأنها لم توجد، أو نقول: أنها انعقدت على شرط. فقلت أنا: هذا فى الرافعى، أى حاجة إلى نقله عن ابن الرفعة، عن مجلى؟ فقال لى الشيخ الإمام : أسكت من أين لك ؟ هات النقل (الدليل)، وانزعج . فقمت وأحضرت الجزء من الرافعى، وكان ذلك الطالب قد قام، فوالله حين أقبلت به هل أكلمه؟ قال: الذى ذكرته فى أوائل كتاب الأيمان من الرافعى وأنا أعرف هذا، ولكن فقيه مسكين طالب علم، يريد أن يظهر لى أنه استحضر مسالة غريبة، تريد أن تخجله ، هذا ما هو مليح. وكان يتفق له مثل هذا كثيرا، ينقل عند ه طالب شيئا على سبيل الاستغراب، فلا يبكته بل يستحسنه ، وهو يستحضره من أماكن كثيرة، بحيث يخرج الطالب وهو يتعجل منه، لأنه يظن أنه لم يكن مستحضرا له، وما يدرى المسكين أنه كان أعرف الناس به، ولكنه أراد جبره"[٢].

(ى) العناية بالمعلم والتنويه بقدره:

يحظى المعلم فى التربية الإسلامية بمكانة سامية لأن المعلم وريث للنبى ﷺ ، وقد حظى المعلم بهذه المنزلة لأن عمله استمرار وتبعية لرسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى الهداية والتنوير وإحكام السلوك وفق منهج الله ولأنه يقتدى فى علمه ووظيفته بسيدنا رسول الله ﷺ قدوة المسلمين جميعا والمعلمين خاصة، وقد ورد عنه ﷺ قوله: "إنما بعثت معلما"[٣].

---

[١] يوسف القرضاوى :المرجع السابق ، ص ص ١٢٩-١٣١.

[٢] تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى، جـ١٠، مرجع سابق، ص ص ٢١٩، ٢٢٠.

[٣] عبد البديع الخولى: بحوث تربية إسلامية، مرجع سابق، ص ص ٥٠،٥١.

وكثيرا ما كان المعلم الصالح عوضا عن ضعف المنهج وضعف الكتاب . وكثيرا ما كان هذا المنهج والكتاب معا. ومن هنا كانت عناية النبى - ﷺ - بالمعلم وتنويهه برسالته، وما لها من شأن عند الله ، وعند المخلوقات كلها. فهو مشغول بمهمته، وهى مشغولة بالاستغفار له[1].

وتشيع فى تراجم السبكى لعديد من العلماء ما يدل على عنايته بالعلماء وينوه بقدر البعض منهم فمن ذلك مثلا ما ذكره فى ترجمة أبى الحسن الأشعرى "شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى. شيخ طريق أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والساعى فى حفظ عقائد المسلمين، سعيا يبقى أثره إلى يوم أن يقوم الناس لرب العالمين"[2].

وأثنى على الإمام البخارى ونوه بقدره وإمامته فى العلم " ... صاحب "الجامع الصحيح" وأعلم أن مناقب أبى عبد الله كثيرة، فلا مطمع فى استيعاب غالبها ، والكتب مشحونة به ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ" [3].

وذكر عن شيخه الذهبى رغم مخالفته إياه فى بعض الأشياء "شيخنا وأستاذنا، الإمام الحافظ، شمس الدين ، أبو عبد الله الذهبى، محدث العصر. اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ بينهم عموم وخصوص: المزى ، والبرزالى ، والذهبى ، والشيخ الإمام الوالد، لا خامس لهؤلاء فى عصرهم ... وأما أستاذنا أبو عبد الله فبحر لا نظير له، وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة ... شيخ الجرح والتعديل وهو الذى خرجنا فى هذه الصناعة، وأدخلنا فى عداد الجماعة، جزاه الله عنا أفضل الجزاء ... وما زال يخدم هذا الفن إلى أن رسخت فيه قدمه وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه، وضربت باسمه الأمثال ... "[4].

(ك) الابتعاد عن التحاسد والتباغض وعدم الطعن فى السابقين :

من صفات العالم الحق أن يجل زملاءه ولا يحسدهم أو يبغضهم ويرى السبكى أن كلام العلماء بغضهم في بعض لا يقبل "عقد الحافظ أبو عمر بن البر في كتابه "جامع بيان العلم وفضله" بابا في حكم قول العلماء بعضهم في بعض، بدأ فيه بحديث الزبير رضي الله عنه "دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء" الحديث. وروي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي

---

(١) يوسف القرضاوى : الرسول العلم ، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ٢، مرجع سابق، ص ٣٤٧.

(٣) ---------- : المرجع السابق، جـ ٢، ص ص ٢١٢-٢٢٧.

(٤) ---------- : ، نفس المرجع السابق، جـ ٩، ص ص ١٠٠-١٠٣.

نفسي بيده لهم أشد تغايرا (تحاسدا) من التيوس في زروبها(*). وعن مالك بن دينـــار: يؤخـذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بغضهم في بعض لأنـــهم أشـد النـاس تحاسـدا وتباغضا. وقاله أيضا سفيان الثوري... وهذا شيخنا الذهبي رحمه الله تعالي، من هذا القبيل، له علم وديانة، وعنده علي أهل السنة تحامل مفرط**، فلا يجوز أن يعتمد عليه"[١]

ويدعو التاج السبكي إلي الكف عن ذكر مساوئ العلماء السابقين وعدم الطعن فيـــهم ويعيب علي فرقة من العلماء "غلب عليها الطعن في أمة قد سلفت، والاشـتغال بعلمـاء قـد مضوا، وغالب ما يؤتي هؤلاء من المخالفة في العقائد، فقل (أن تري من الحنابلة)إلا ويضـع من الأشاعرة. وهذا شيخنا الذهبي كان سيد زمانه في الحفظ مع الورع والتقوي، ومـع ذلـك يعمد إلي أئمة الإسلام من الأشاعرة، فيظهر عليه من التعصب ما ينفر القلوب، وإلي طائفـة من المجسمة فيظهر عليه من نصرتهم ما يوجب سوء الظن به، وما كان والله إلا تقيا نقيـا، ولكن حمله التعصب، واعتقاد أن مخالفيه علي خطأ. وقل أن تري أشـعريا مـن الشـافعية والحنفية والمالكية إلا ويبالغ في الطعن علي هؤلاء، ويصرح بتفيكرهـم وإذا كـان الأئمـة الأربعة والأشعري علي أن لا نكفر أحدا من أهل القبلة فلم هذا التعصب؟ ومالنا لا نسكت عن أقوام مضوا إلي ربهم، ولم ندر علي ماذا ماتوا؟ وأن يبد لنا أحد بدعة قابلناه، وأما الأمـوات فلم تنبش عظامهم ؟ هذا والله ما لا ينبغي"[٢]

ويوجه تاج الدين السبكي العالم المعلم إلي أن يتأدب مع الأئمة السابقين ولا ينظـر أو يستمع إلي كلام بعضهم في بعض إلا بوجود دليل قوي ويري أن من الأولي إحسـان الظـن بالعلماء والاشتغال بما هو أجدى "ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمـة الماضيين، وإلا تنظر إلي كلام بعضهم في بعض، إلا إذا أتي ببرهان واضح، ثم إن قـدرت علي التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فاضرب صفحا عما جري بينهم، فأنك لم تخلق لـهذا، فاشتغل بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك، ولا يزال طالب العلم عندي نبيلا حتى يخـوض فيمـا

* زروبها: جمع زرب وهو موضع الغنم الذي تأوي إليه والزربية خطيرة الغنم.

** هذا إدعاء غير صحيح وعدول عن الصواب والدافع وراءه التعصب البغيض لأن الذهبي امتدح الأشـاعرة وأثني علي طريقة أبي الحسن الأشعري وأصحابه وترجم لأصحاب أبي الحسن الأشعري وأثني عليـهم فـي سير أعلام النبلاء جـ١٦، ص ص٣٠٤،٣٠٥، جـ ١٨، ص ص ١١٧،٢٧٠ بل إنه انتقد شيخه ابن تيميـة وقد تحدث الباحث عن ذلك في فصل الذهبي فأين التعصب إذن؟

(١) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبري، جـ٢، ص ص٩،١٠، ومعيد النعم ومبيد النقم، مرجع سـابق، ص ٦٢.

(٢) ----------- : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٧٠.

جري بين السلف الماضين، ويقضي لبعضهم علي بعض. فإياك ثم إياك أن تصغي إلـــي مــا أتفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، وبين أحمد والنسائي وبين احمد والحارث المحاســبي، و هلم جرا، إلي زمان الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فالقوم أئمة أعلام، ولأقوالـــهم محـــامل، ربما لم يفهم بعضها فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوت عما جرى بينهم، كما يفعـــل فيمـــا جرى بين الصحابة رضي الله عنهم... والذي أفتي به أنه لا يجوز الاعتماد علي كلام شيخنا الذهبي في ذم أشعرى، ولا شكر حنبلي"[١]

كانت هذه هي الآداب التي يجب علي المعلمين والمتعلمين التحلي بها من منظور تـاج الدين السبكي ويبدو اهتمامه بتوضيح العلاقة بين المعلم والمتعلم وأخلاقياتهما وواجباتهما وهذه الآداب والأخلاقيات تناسب المتعلمين الكبار لا الصغار ولم يتحدث تاج الدين الســـبكي عـن المتعلم الصغير ولا تختلف آداب المعلم والمتعلم عنده عما قـــرره وتناولـــه علمـــاء التربيـــة المسلمين السابقين وهي آداب مقبولة من العلماء المسلمين وربما تكون مفتقـــدة فـــي بعــض مؤسساتنا التعليمية في الوقت الراهن ومن ثم فالحاجة إليها ماسة وحري بالمعلمين والمتعلميـن أن يتصفوا بها ويلتزموها ويراعوها في بيئات التعليم. وكان لتاج الدين السبكي وجهة نظــــر خاصة في العلم المعلم ويعرض لها الباحث:

رابعا: بعض المواصفات الخاصة للمعلم الجيد:

يعتبر المعلم حجر الزاوية والعنصر الفعال في عملية التعليم ونجاح العملية التربويـــة يتوقف إلي حد كبير علي وجود المعلم الجيد الكفء الصالح غزير المعرفة واسع الثقافة الفاهم لطبيعة المتعلمين الملتزم بآداب التعليم المتصل بالواقع الاجتماعي المعاش ولا يمكن أن يكـون ثمة تعليم جيد وفعال إلا بوجود المعلم الجيد الذي له مواصفات خاصة لأنه يعتبر أخطر ركـن في العملية التربوية وأي مؤسسة تعليمية تهتم بتحقيق أهداف تعليمية وتربوية معينة عليـــها أن تنتقي معلميها بدقة أو تعدهم وتكونهم التكوين المناسب لتحقق تلك الأهداف.

وبما أن المعلم هو المسئول عن إدارة العملية التربوية "علي أسس فنية وعلمية أصيلـة ... فلعل ذلك كفيل بان يجعل إعداد المعلم للقيام بعمله علي جانب كبير من الأهمية، إذ ينبغي أن يعد أعدادا مهنيا، وفنيا، ووظيفيا، وثقافيا، ونفسيا، واجتماعيا، إعدادا يمكنه من القيام بدوره في الحياة بنجاح، فإجادته لمادة تخصصه واسعة أفقه وعمق إدراكه للأمور، وذكـــاء عقلـــه، ونضج فكره، وحسن تصرفه، ورحابة صدره، بالإضافة إلي اتزانه النفسي، وقدوته الحســـنة للآخرين وبخاصة تلاميذه، ثم زيادة معلوماته وجدتها، وفهمه لطبيعة عمله، والتعرف علـــي

[١]تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبري، ج٢، مرجع سابق، ص ٢٧٨ - ٢٨٠.

كيفية التغلب علي ما قد يعترضه من صعوبات... هذا كله يبرز بوضوح أهمية إعداد المعلـم إعدادا متكاملا، بل هذا يبين مدي أهمية مهنة التدريس، وأهمية اختيار من يقومون بها، ومدى فاعلية دور المعلم في حياة الأمم والشعوب"[1].

وتعتبر مهنة التدريس علي قدر كبير من الأهمية بالنسبة للمجتمع ولا يمكن لأية مهنـة أخري أن تضاهيها في ذلك "لأنها من المهن الفنية الدقيقة التي تحتاج إلي أعداد جيد يتوفر في من يقومون بها... وهي مهنة لها أصولها، وعلم له مقوماته... ولابـــد أن تتطلــب فيمــن يمارسها الكثير من الإمكانيات والصلاحيات لاسيما وأن من يقوم بها، لا يؤديها لفترة معينة أو محدودة أو مع مجموعة بعينها من البشر، ولكنه يمارس ذلك العمل طوال سنوات عديدة قـــد تتراوح بين الثلاثين والأربعين عاما، وهى الفترة التي تعقب تخرج المعلـــم مـــن معـــهده أو كليته"[2].

ويبدو أن واقع التعليم في عصر التاج السبكي كان يفتقر لكثير من مقوماته الأساســية خاصة في تلك المتعلقة بالمعلمين ومن ثم أكد علي أهمية دور المعلم في العملية التعليميــة وأن صالحها مرتبط بصلاحه ولذا أشترط مواصفات معينة يجب أن يتصف بها المعلم وقــد عقــد (مثالا) يختص بالمدرس ذكر فيه بعض صفات المعلم أو المدرس منها:

١- ضرورة وضوح المادة المتعلمة أمام المتعلمين وعرضها بأسلوب جيد وبلغة صحيحــــة وأن يحرص المدرس علي تعليم طلابه باذلا وسعه في تفهميهم وتقريب المادة العلمية إلي أذهانهم وأن يراعي مبدأ الفروق الفردية بين المتعلمين "المدرس: حق عليه أن يحسن إلقاء الدروس وتفهيمه للحاضرين... ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناســبهم مـــن المشكلات... وأن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في مشـــكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر..."[3].

ويكشف النص السابق عن الاهتمام باستعدادات المتعلم وقدراته وأن ثمة فروق فرديــة بين المتعلمين قي القدرة علي التحصيل والفهم يجب علي المعلم مراعاتها ومن ثم يهتم المعلـم بالتعرف علي مستوي المتعلمين واستعداداتهم وميولهم ويتعامل دراسيا معهم علي أساس أنـــهم

---

[1] عرفات عبد العزيز سليمان: المعلم في المجتمع الإسلامي المعاصر (دراسة تحليلية) من أبحاث، المؤتمـــر العالمي الخامس للتربية الإسلامية بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بالقاهرة، ٨ - ١٣ رجـــب ١٤٠٧هـــ - ٨ - ١٣ مارس ١٩٨٧م، جـــ٣، ص ٧٧٥.

[2] --------------: المرجع السابق، ص ص٧٧٢، ٧٧٣.

[3] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٨٣.

يختلفون فيما بينهم في عديد من القدرات والصفات وما يناسب هذا ولا يناسب ذاك ومن ثـــم وجب علي المعلم مراعاة تلك الفروق بين المتعلمين أثناء تعليمهم إذا أراد أن ينجح في عملـــه لأن "مراعاة مستوى نضجهم عامل مهم فى تحديد قدر المعرفة المناسب لهم وأسلوب تقديمـــه ليحدث الأثر المطلوب في تنمية معارفهم وعقولهم وشحذ نفوسهم لطلب العلم، لهذا يجب علـــي المعلم أن "لا يلقي لهم شيئا لم يتأهلوا له"لأن ذلك يشتت أذهانهم، ويفرق أفهامهم، فـــإن ســـأله الطالب من ذلك شيئا فيعرفه أن ذلك يضره، وأنه لم يمنعه شحا بل شفقة ونصحا ثم يراغبـــه في التحصيل ليتأهل لذلك"[١].

٢- مراعاة التدرج في التعليم من السهل إلي الصعب ومن البسيط إلي المركـــب وألا يلقـــي العلم إلي المتعلم دفعة واحدة وإنما علي التدريج "... بل يدربـــهم، ويـــأخذهم بـــالأهوان فالأهوان إلي أن ينتهوا إلي درجة التحقيق"[٢].

يطالب تاج الدين السبكي المعلم بأن يراعي مستوي التلاميذ وإلا يدفع العلم إليهم دفعة واحدة وأن يتدرج معهم في التعمق في المادة الدراسية بقدر استيعابهم لها،

٣- أن يكون المعلم متمكنا من مادته العلمية ومن العلوم والفنون التـــي يتصـــدر لتدريســـها مستوعبا لتفاصيلها وفروعها وأن يكون ملما بمبادئ فن التعليم حتي يتمكن من التأثير في المتعلمين ومعاملتهم بحسب ما يلائمهم في الجوانب المعرفية والســـلوكية "ومـــن أقبـــح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب، ويجلس يلقيها، ثم ينـــهض، فـــهذا إن كان لا يقدر إلا علي هذا القدر فهو غير صالح للتدريس، ولا يحل لـــه تنـــاول معلومـــة (أجره)، وقد عطل الجهة، لأنه لا معلوم لها... وإن كان يقدر علي أكثر منـــه، ولكنـــه يسهل ويتأول فهو أيضا قبيح، فإن هذا يطرق العوام إلي روم (قصـــد أو التطلـــع) هـــذه المناصب، فقل أن يوجد عامي لا يقدر علي حفظ سطرين"[٣].

واضح من عبارته أنه يشترط في المعلم أن يكون دائم الإطلاع علي العلم والثقافة وأن يكون معدا إعدادا جيدا (مهنيا وعلميا وثقافيا) لمزاولة مهنه التدريس ويفتي بتحريم المرتـــب الذي يأخذه المدرس الذي لا يتقن فنه وعمله علي سبيل التحقيق والتوسع ويري أنه قد تجنـــي علي المدرسة فعطل هذه الوظيفة حيث أنه لم يفد الطلاب

---

[١] عبد البديع الخولي: بحوث في التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ص٦٢، ٦٣.

[٢]تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٨٣.

[٣] --------- : المرجع السابق، ص ص٨٣،٨٤.

٤- التحقيق العلمي المبني علي معرفة صحيحة وأن يعطي مقدارا كافيا من العلم وأن تكون لديه القدرة علي النقاش والحوار مع المتعلمين سواء كانوا من المبتدئين أو المتوسطين أو العوام "ولو أن أهل العلم صانوه، وأعطي المدرس منهم التدريس حقه: فجلس، وألقي جملة صالحة من العلم، وتكلم عليها كلام محقق عارف، وسأل وسئل، وأعترض وأجاب، وأطال وأطاب، بحيث إذا حضره أحد العوام أو المبتدئين أو المتوسطين فهم من نفسه القصور عن الإتيان بمثل ما أتي به، وعرف أن العادة أنه لا يكون مدرس إلا هكذا والشرع كذلك لم تطمح نفسه في هذه المرتبة، ولم تطمع العوام بأخذ وظائف العلماء"[١] .

يري التاج السبكي أنه يجب علي المعلم أن يشجع المتعلمين علي الأسئلة والمناقشة حتى يحيطوا بجوانب الموضوع وأن يتقبل أسئلتهم بروح ودية ورحابة صدر وهذا ما يعزز موقفه في عملية التدريس ويبين أن هذا من حق التدريس علي المدرس وهذا "يكشف عن أهمية الأسئلة وحيوية التفاعل بين المعلم والمتعلم ونعي السبكي علي بعض المعلمين المقصرين الذين لا يتأهلون للتعليم بما يناسب مهنة التعليم فيتوسعون في الدروس ولا يتقنونها، وبعضهم يحفظ بعض المسائل دون أن يقدر علي الحوار والنقاش مع المتعلمين"[٢].

وطريقة الحوار لها أثر كبير حيث تقف بالمدرس علي التعرف علي موقف المتعلمين من الدرس واستيعابهم له.

وهذا الذي توحي به عبارة السبكي السابقة "يكشف عن بعض السلبيات في مجال التعليم ومنها اندفاع البعض وخصوصا بعد ظهور المدارس إلي ممارسة التعليم ابتغاء الرواتب والمنح التي يحصل عليها معلموا المدارس ولذا أكد المربون علي أهمية التأهل للتعليم ثم استمرار البحث والقراءة والإطلاع في المجال الذي تخصص فيه المعلم ووضعوا لذلك ضوابط في البحث والتصنيف العلمي فمن كملت أهليته للتدريس عليه أن يهتم بالتصنيف والتأليف في أمانة علمية وتحقق من المصادر، بلا إطناب يضعف العبارة ويجلب الملاله، وتجنب الأدلة الضعيفة، ويوضح المعضلات ويستخدم أساليب متنوعة للإيضاح مثل النوادر، ولا يمل من المراجعة ليثبت "عنده العلم، ويرسخ أن أكثر التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة"، ويتعرف علي الآراء المختلفة وأدلتها، والراجح منها والمرجوح فبذلك يتصف

---

[١] تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٨٤.

[٢] عبد البديع الخولي: بحوث تربية إسلامية، مرجع سابق، ص ٦٥.

المدرس "المحقق بصفة المجتهدين ويرتفع عن درجة الجمود والتقليد وينخرط في سلك الأئمة المحققين"[1].

٥- أن يكون المدرس مخلصا في عمله التربوي ويراقب الله في عمله ويبذل قصارى جهده في مهنته ويواظب على التدريس فى كل الأوقات والأيام دون تعطيل ويعيب عليهم الإهمال فى عملهم ويلقى باللائمة على المدرسين المؤهلين المقصرين تسلط من لا يصلحون لمهنة التدريس على المدارس "فإذا رأينا العلماء يتوسعون في الدروس ولا يعطونها حقها، ويعطلون كثيرا من أيام العمالة (العمل). وإذا حضروا اقتصروا على مسألة أو مسألتين من غير تحقيق ولا تفهيم، ثم رأيناهم يقلقون من تسلط من لا يصلح على المدارس، ويعيبون الزمان وأولياء الأمور، فالرأى أن يقال لهم: أنتم السبب فى ذلك بما صنعتم، فالجناية منكم عليكم"[2].

يتضح أن السبكى يطالب المدرس بالجودة والإتقان فى أداء وظيفته وينتقد تقصر بعض المعلمين ويرى أن المدربين الأكفاء الذين لا يخلصون فى عملهم كما ينبغى هم السبب فى تسلط غير الذين لا يصلحون مهنة التدريس فهم السبب فى ذلك لأنهم قصروا فى عملهم ويبين أن الله تعالى لا يحفظ على هؤلاء المدرسين المقصرين نعمة احترام العلماء وتقديرهم حق قدرهم إلا إذا احترموا أنفسهم وتفانوا فى عملهم وأخلصوا الله وراقبوه وأعطوا التدريس حقه وبذلوا أقصى ما فى وسعهم لتعليم المتعلمين وتفهيمهم بكل الوسائل والسبل المتاحة.

٦- الأمانة العلمية وتعنى ألا يدرس المدرس إلا المادة العلمية التى أوقف الواقف من أجلها المدرسة ولا يتجاوز ما نص عليه وثيقة الوقف حيث كان الواقفون يحددون العلوم التى ينبغى أن تدرس فى المدرسة التى ينشئونها ويرصدون لها أوقافا من أموالهم "ومن المهمات مدارس وقفها واقفوها على الفقهاء المتفقهة، والمدرس من الشافعية أن الحنفية أو المالكية أو الحنابلة، فيلقى المدرس فى هذه المدرسة تفسيرا أو حديثا أو نحوا أو أصولا أو غير ذلك، إما لقصوره عن الفقه أو لغرض آخر. وعندى أن الذمة لا تبرأ فى المدرسة الموقوفة على الفقهاء إلا بإلقاء الفقه. فإن كان هذا المدرس لا يلقى الفقه رأسا فهو آكل حرام. ولذلك نقول فى مدرسة التفسير إذا ألقى مدرسيها غير تفسير، ومدرسة النحو إذا ألقى مدرسها غير نحو. والأحوط فى هذا كله الإلقاء من الفن الذى بنيت له المدرسة، فإن الواقف لو أراد غير ذلك لسمى ذلك الفن. وإن كان يلقى الفقه مثلا فى مدرسة الفقهاء غالبا ولكنة ينوع فى بعض الأيام: فيذكر تفسيرا أو حديثا أو غيره من العلوم الشرعية

---

[1] عبد البديع الخولي: المرجع السابق، ص ص ٦٥، ٦٦.

[2] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٨٤.

لقصد التنوع على الطلبة وبعث عزائمهم، فلا بأس•، غير أن الأحوط خلافه. وهذا كله بشرط أن يكون المسمى بالمدرسة أهل نوع خاص، كما مثلنا فى مدرسة وقفت على مدرس شافعى أو حنفى مثلا، وفقهاء متفقهة من أهل ذلك المذهب، وألا يكون شرط فى المدرس معرفة غير ذلك الفن. فإن شرط فيه فنونا كما فى مدارس(••) كثيرة فى ديار مصر، وفى بلاد الشام وغيرها يقفها الواقف على طائفة مذهب معين، ويشترط فى المدرس أن يعرف مثلا من العلوم كذا وكذا، كالتفسير والحديث وغيرهما، وما هذا شأنه رأيى فيه أن ينوع المدرس فيذكر من تلك العلوم التى اشترط فيه معرفتها، فإنه لولا إرادة ذكرها لما اشترطت فيه ... ولكن الأحوط ما ذكرناه"(١).

واضح أن التاج السبكى يرى أن من المواصفات الهامة التى ينبغى ان يتصف بها المدرس الجيد أن يكون أمينا فى عمله وذلك بألا يقوم بتدريس مادة غير المادة المنصوص عليها فى وثيقة الوقف وكان الواقفون وقتذاك يحرصون على تحديد أنواع المواد الدراسية أو المذاهب التى تدرس فى المدارس ولذا نجد السبكى يحذر من التصرف فى وثيقة الوقف أكثر مما نصت عليه ويرى أن المدرس الذى يلقى مادة غير المادة المنصوص عليها فهو "آكل حرام" فما دام الواقف للمدرسة هو الذى قرر واشترط فى وثيقة وقفه أن هذه المدرسة موقوفة على النحو أو التفسير أو الفقه أو الفقها على مذهب فقهى معين فلا يجوز شرعا للمدرس أن يتجاوز ذلك وأن يدرس المادة التى أوقفت من أجلها المدرسة أو المذهب الفقهى أما إذا أراد هذا المدرس أن ينوع فى دروسه بقصد "التنويع على الطلبة وبعث عزائمهم" فلا بأس فى ذلك لكن الأفضل والأحسن أن يلتزم بما نصت عليه وثيقة الواقف.

ولابد من التأكيد على أن الأوقاف كان لها أهمية خاصة فيما يختص بالتعليم فى العصر المملوكى حيث أن "الأوقاف هى التى ثبتت أركان المدرسة ودعمت نظامها، ومكنتها من القيام برسالتها فى العصر المملوكى. وكان الريع الذى تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهريا أو سنويا نقدا أو عينا، هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف وإعانات الطلبة حسب شروط الواقف، وبدون الأوقاف كان لا يمكن أن تقدم قائمة للمدرسة فى ذلك العصر"(٢).

• يقصد بذلك أن التدريس فى الأصل لابد أن يقوم على مادة التخصص فقط أما إذا كان التغيير نادرا يقصد تعليمى تربوى كما وضح السبكى "كبعث العزائم فلا بأس" يعنى لحاجة تربوية.

•• يقصد مدارس غير متخصصة يدرس فيها عدة علوم.

(١) تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٨٤، ٨٥.

(٢) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ – ١٩٢٣هـ – ١٢٥٠ – ١٥١٧م، دراسة تاريخية ووثائقية، القاهرة، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٠، ص ٢٤٠.

وكان وثائق الأوقاف (بمثابة القوانين واللوائح الملزمة) تحدد كل نشاط فى المدرسة، بما فى ذلك تحديد المواد الدراسية التى لا تخرج فى الغالب عن الفقه (على المذاهب الأربعة السنية فقط) والحديث والتفسير، ثم النحو وفى عصور متأخرة التصوف، وأسلوب التدريس وطريقة معاملة المتعلمين والحضور والغياب، وعدد الطلاب واستبدال طالب بآخر، وما يتصل بذلك كله من إجراءات مالية، وتكاد تكون طبيعة النشاط التعليمى متحدة فى كل المدارس عدا بعض المدارس القليلة التى تخصصت فى دراسة الحديث الشريف"(١).

٧-أن يسعى فى نشر العلم ولا يكتمه وقد سبق الحديث عن ذلك فى أهداف التربية.

٨-يجب على العالم المعلم أن يعمل بعلمه فلا بركة ولا نفع فى علم لا يعمل به "... كان الشيخ أبو اسحق الشيرازى يستعيذ بالله من مثل هذا العلم (الذى لا يعمل به صاحبه) حيث يقول: نعوذ بالله من علم يكون حجة علينا وينشد:

علمت ما حلل المولى وحرمه فاعمل بعلمك إن العلم للعمل

وفى مثل هؤلاء يقول الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام ومن الضنى – مذ كنت أنت سقيم
ما زلت تلقح بالرشاد وعقولنا صفة وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تقبل إن وعظت، ويقتدى بالقول منك، وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم(٢)

وفى الحديث: "إن أشد الناس حسره يوم القيامة رجلان: رجل علم علما فيرى غيره يدخل به الجنة لعمله به، وهو يدخل به النار لتضيعه الهمل به، ورجل جمع المال من غير وجهه، وتركه لوارثة، فعمل به الخير ن فيرى غيره يدخل به الجنة وهو يدخل به النار".

٩-يرى التاج السبكى أن من المؤهلات الأساسية للعالم أن يكون دائم الإطلاع على العلم والثقافة الواسعة فى مجال تخصصه ولا سيما مادة الفقه التى لها أهميتها عند العلماء والعامة ويدعوه إلى تنمية عقليته العلمية "إذا لم يعرف الفقيه علم الخلاف والمآخذ لا يكون فقيها إلى أن يلج الجمل فى سم الخياط، وإنما يكون رجلا ناقلا مخبطا، حامل فقه إلى

(١) عبد البديع الخولى: بحوث تربية إسلامية، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٦٧، ٦٨.

غيره، لا قدرة له على تخريج حادث بموجود، ولا قياس مستقبل بحاضر، ولا إلحاق شاهد بغائب، وما أسرع الخطأ إليه، وأكثر تزاحم الغلط عليه، وأبعد الفقه لديه"[١].

ويرى التاج السبكى أن مادة الفقه (محور اهتمامه) تتطلب مهارات علمية دقيقة وأن الفقيه ليس هو الذى يطلع على كتاب ما فيه ويعتقد أنه بذلك صار فقيها ولذلك يعيب على فرقة من الفقهاء "ترفعت، وقالت: نضم إلى الحديث الفقه، وكان غايتها البحث فى الحاوى الصغير لعبد الغفار القزوينى، والكتاب المذكور أعجوبة فى بابه، بالغ فى الحسن أقصى الغايات، إلا أن المرء لا يصير به فقيها ولو بلغ عنان السماء. وهذه الطائفة (من الفقهاء) تضيع فى تفكيك ألفاظه، وفهم معانيه زمانا لو صرفته إلى حفظ نصوص الشافعى وكلام الأصحاب لحصلت على جانب عظيم من الفقه، ولكن التوفيق بيد الله تعالى"[٢].

١٠- يرى التاج السبكى أن من صفات المعلم الجيد أن يبتعد عن التعصب للمذهب وينشغل بالدفاع عن الدين الإسلامى ومناهضة أهل البدع والأهواء والرد عليهم وأيضا دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ويوجه إليهم نقدا مريرا "... فقل لهؤلاء المتعصبين فى الفروع ويحكم ذروا التعصب، ودعوا عنكم هذه الأهواء، ودافعوا عن دين الإسلام، وشمروا عن ساق الاجتهاد فى حسم مادة من يسب الشيخين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، ويقذف أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، التى نزل القرآن ببراءتها، وغضب الرب تعالى لها، حتى كادت السماء أن تقع على الأرض، ومن يطعن فى القرآن وصفات الرحمن، فالجهاد فى هؤلاء واجب، فهلا شغلتم أنفسكم به، ويا أيها الناس بينكم اليهود والنصارى قد ملأوا بقاع البلاد، فمن الذى انتصب منكم للبحث معهم، والاعتناء بإرشادهم. بل هؤلاء أهل الذمة فى البلاد الإسلامية، تتركونهم هملا تستخدمونهم، وتستطبونهم (يعنى تستخدموهم فى مهنة الطب) ولا نرى منكم فقيها يجلس مع ذى ساعة واحدة، يبحث معه فى أصول الدين، لعل الله تعالى يهديه على يديه. وكان من فروض الكفايات ومهمات الدين ان تصرفوا بعض همكم إلى هذا النوع. فمن القبائح أن بلادنا ملآى من علماء الإسلام، ولا نرى فيها ذميا دعاه إلى الإسلام مناظرة عالم من علمائنا، بل إنما يسلم من يسلم إما لمر من الله تعالى، ولا مدخل لأحد فيه (أى يهديه الله للإسلام)، أو لغرض دنيوى ثم ليت من يسلم من هؤلاء يرى فقيها يمسكه، ويحدثه ويعرفه دين الإسلام، لينشرح صدره لما دخل فيه، بل والله يتركونه هملا لا ندرى ما باطنه. هل هو كما يظهر من الإسلام، أو كما كان

---

[١] تاج الدين السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ١، مرجع سابق، ص ٣١٩.

[٢]----------: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٦٧.

عليه من الكفر؟ لأنهم لم يروه من الآيات، والبراهين ما يشرح صدره، فيا أيها العلمـــاء، فى مثل هذا فاجتهدوا، وتعصبوا"[1].

واضح أن السبكى يحث الفقهاء المعلمين على البعد عن التعصب المذهبى وينفر منــه ويدعوهم إلى القيام بدورهم فى مهاجمة أهل البدع من الشيعة الذين وجد بعضهم فى عصــره حيث، كانوا — كما يبدو من سياق كلامه — يطعنون فى بعض الصحابة رضوان الله عليـــهم وسب أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وأيضا محاربة أصحـــاب الآراء المبتدعــة والضالة من المتكلمين ويرى أن الوقوف ضد هؤلاء هو الجهاد والواجب فمن الأولى الانشغال بذلك وترك التعصب ثم يستنهض هممهم ويستنفرهم للقيام والنهوض بدعوة غير المسلمين إلــى الإسلام وينتقد تقصرهم فى هذا ويرى أن ذلك من فروض الكفايات إذ أن بلاد الإسلام تعـــج بأهل الذمة ولم يفكر عالم أو فقيه بمحاورة ذمى أو عرض الإسلام عليه ومن يدخـــل منـــهم الإسلام يدخل إما لأن الله تعالى شرح صدره للإسلام وإما لغرض دنيوى ولم يجد أحدا مـــن الفقهاء يفقه فى الدين ويدعم إسلامه ويبدو أن محاربة الفكر الشيعى والاهتمام بالفكر الســـنى كانت موضع اهتمام لبعض المفكرين ومنهم التاج السبكى فى هذا العصر وكانت أيضا أحـــد أهداف[*] التعليم وقيمة وهذا أمر طبيعى يساير روح العصر.

كانت هذه هى أهم المواصفات التى ينبغى أن تتوافر فى المعلم الجيد من وجهة نظــر تاج الدين السبكى ويتبين أنه أدرك أهمية المعلم فى إنجاح العمليـــة التربويـــة وأن صلاحـــها مرتبط بصلاحه وإن إصلاح المناهج يفتقد أهميته إذا لم يتوفر المدرس الجيد والكفء ومن ثـم فإن من أهم صفات المربى المسلم فى نظرة أن يكون متمكنا من العلوم والفنون التى يدرســها ملما بمبادئ فن التعليم قادرا على تفهم طبيعة المتعلمين وأن ينزه العلم عن المطامع الدنيويـــة عاملا بعلمه صادقا فى عمله مراقبا لربه فيه ولهذه النظرة الواقعية أدرك التاج السبكى الــدور المتميز الذى يلعبه المعلم فى إنجاح العملية التربوية تطويرها فـــى حــدود عصــره وهـــى مواصفات على قدر كبير من الأهمية وقد استمدها من ثقافته الدينية وممارساته التعليمية.

ولابد من التنويه إلى أن هذه المواصفات السابقة تنطبـــق علـــى معلمـــى المســـاجد والمدارس وهم الذين تفرغوا للعلم وابتغوا بتعلمه وتعليمه وجه الله ونفـــع المســلمين وهــذه المواصفات التى تحدث عنها السبكى هى بمثابة أساسيات إعداده ليكون معلما وهـــى ســمات

---

[1] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٦٢، ٦٣.

[*] ذكر الباحث ذلك عند تناوله لأهداف التربية عند السبكى وأشار الباحث فى الفصل الثالث إلى انـــهم كـــانوا يتمكسون فى العقائد بمذهب أبى الحسن الأشعرى وكان سائدا فى مصر والشام ويطلق عليه مذهب أهل السـنة والجماعة.

خلقية وعلمية ومهنية وتظهر لنا حرصه الشديد على اختيار افضل المعلمين للعمل بالمؤسسات التعليمية.

وكان للتاج السبكى رأيه الخاص فى معلم الكتاب ويعرض الباحث لذلك:

خامسا: مواصفات معلم الكتاب فى نظر التاج السبكى:

يعتبر الكتاب المؤسسة الرئيسية لتعليم الأطفال فى الدولة الإسلامية منذ نشأتها، وكان كمؤسسة ذا وجود سابق على ظهور الإسلام، فعرفت مكة وغيرها الكتاب كمكان لتعليم الكتابة والقراءة، وبعد ظهور الإسلام وربما فى فترة متأخرة نسبيا أصبح القرآن الكريم ومبادئ الإسلام هو محور التعليم فى الكتاب، فضلا عن القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب. وكانت الكتاتيب التى تعلم القرآن الكريم تتخذ من المسجد مقرا لها فى بداية الأمر، لكن تطورت الظروف فغدت غالبيتها مستقلة عن المسجد ملتحقة به أو مجاورة له[1].

وكان يطلق على معلم الكتاب فى العصر المملوكى غالبا اسم "المؤدب"* وأحيانا "الفقيه" وربما المقرئ وكاتب الوثائق تشترط فيه شروطا عامة أساسها الورع وحسن الخلق والعفة والأمانة والحزم والزواج، فضلا عن إجادته المواد التى يقوم بتعليمها للأطفال، فيكون حافظا للقرآن الكريم، عارفا بالمبادئ الإسلامية والخط العربى وغير ذلك وقد يكون من الصوفية المنزلين بالمؤسسة وقد لا يكون ... ويتضح من هذه الوثائق اهتمام الواقفين باشتراط سمات دينية وخلقية وعقلية معينة فى معلم الكتاتيب، وهذا إدراك منهم لأهمية هذا المعلم وتأثيره فى نفوس الأطفال فى هذه السن الغضة. وكانوا يحددون "معلومة" سواء أكان نقدا دراهم وفلوسا أم كان طعاما يصرف له يوميا[2].

ويمكن القول بأن معلم الكتاب وقتذاك كان يشابه معلم المرحلة الابتدائية فى عصرنا وكانت "مناهج التعليم فى الكتاتيب ترمى إلى هدفين: علمى وخلقى، وهذا واضح فى اهتمامهم بتحديد المواد التى تدرس بهذه المرحلة وباختيار مدرس ذى سمات محددة وكانت هذه المناهج

---

(1) نقلا عن عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ١٤٦.

* المؤدب هو: معلم المكتب الذى يقوم بتعليم أيتام المسلمين ويشرف عليهم علميا وخلقيا، انظر سعيد عبد ال فتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، مرجع سابق، ص ٤٧٩.

(2) عبد البديع الخولى: الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية بمصر فى دولة المماليك البرجية، مرجع سابق، ص ٢٣١.

تقوم على: تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم المبادئ الأساسية للدين الإسلامى، وتعليم الكتابة والقراءة (الخط) وأحيانا يكون الحساب من مواد الكتاتيب العامة التى لا تتقيد بالأوقاف"[١].

واهتم السبكى بمعلم الكتاب ومحتوى التعليم فى الكتاتيب وقد عقد لـ "معلم الكتاب" مثالا بين فيه المواصفات التى يجب أن تتوافر فيه وهى مواصفات علمية وأخلاقية وهذه المواصفات هى:

١-أن يكون صحيح العقيدة حتى لا يفسد عقائد الصبيان "المثال الثامن والسبعون معلم الكتاب: وينبغى أن يكون صحيح العقيدة،ة فلقد نشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة، لأن فقيههم (معلمهم) كان كذلك. فأول ما يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم قبل البحث عن دينه فى الفروع"[٢].

يحرص التاج السبكى على أن معلم الكتاب الذى يقوم بتعليم أطفال المسلم يجب أن تكون عقيدته سليمة وراسخة وصحيحة وهى عقيدة أهل السنة والجماعة ويعلل ذلك بأن ثمة أطفال كثيرين قد فسدت عقيدتهم بسبب فساد عقيدة معلمهم ومربيهم ويوجه أولياء الأمور إلى البحث عن معلم عقيدته صحيحة يلتزم بالكتاب والسنة لكى يعلم الأطفال ويرى أن ذلك أهم من البحث عن التزامه بفروع الدين وما أحرانا فى وقتنا الراهن بالتزام هذا التوجيه والتنبه لما ذكره التاج السبكى وأن يهتم الأباء والأمهات من المسلمين بالبحث عن معلم صالح يتقى الله ويراقبه وصاحب عقيدة صحيحة خالية من الشركيات والخرافات والبدع حتى ينشأ هؤلاء الأبناء نشأة صحيحة ويشبوا ويترعرعوا على توحيد الله كما كان الحال على عهد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين من بعدهم وكم من صبيان فسدت عقائدهم وأخلاقياتهم بسبب عدم وجود معلم الكتاب الذى حدثنا عن مواصفاته التاج السبكى فى القرن الثامن الهجرى وفاقد الشىء لا يعطيه.

٢-أن يلتزم أدب الإسلام وتوجيهاته فى الفروع "ثم البحث عن دينه فى الفروع"[٣].

يرى التاج السبكى أن من المواصفات التى يجب أن تتوافر فى معلم الكتاب أن يكون ملتزما بتعاليم الإسلام ومبادئه وتوجيهاته ويعنى هذا حرصه على أداء الشعائر الدينية وأداء النوافل وصلاحه وسلوكه وتوافق ذلك كله مع شرع الله عز وجل وهذه سمات خلقية لابد من توافرها فى معلم الكتاب.

---

[١] المرجع السابق، ص ٣٦١.

[٢] تاج الدين السبكى: معيد النعيم مبيد النقم، مرجع سابق، ص ١٠١.

[٣] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع السابق، ص ١٠١.

٣-أن يراعى معلم الكتاب قدرات المتعلمين واستعداداتهم وتوجيه النشاط التعليمى وفق هذه القدرات والاستعدادات (الفروق الفردية) "ومن حق معلم الصغار ألا يعلمهم شيئا قبل القرآن، ثم بعده حديث النبى ﷺ ، ولا يتكلم معهم فى العقائد، بل يدعهم إلى أن يتأهلوا حق التأهيل، ثم يأخذهم بعقيدة أهل السنة والجماعة، وإن هو أمسك عن هذا الباب فهو الأحواط (أى كف لسانه عن الخوض العقائد)"[١].

واضح من عبارته أنه يرى أن من مواصفات معلم الكتاتيب أن يراعى مبدأ الفروق الفردية بين الأطفال حيث نبه إلى عدم تحدث المعلم مع الأطفال فى العقائد لأنهم فى سن صغيرة وهذا لا يتلائم مع قدراتهم واستعداداتهم ومن ثم فلا يحدثهم فى شيء من هذا القبيل قبل أن يتأهلوا لذلك حق التأهيل فيكونوا مستعدين لتقبل الحديث فى مجال العقيدة وعليه أن يربهم ويوجههم إلى الالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة السائدة فى عصره وهذا يتناسب مع البيئة الاجتماعية والواقع الاجتماعى فى عصره ومراعاة مبدأ الفروق الفردية تحدث عنه كثير من المربين المسلمين قبل التاج السبكى لكن هذا إدراك جيد للسبكى فى حدود عصره واجتهاده التربوى.

٤-أن يلتزم معلم الكتاب بالمنهج التعليمى السائد وهو فى زمنه يتألف من المواد الدراسية التالية:

أ- القرآن الكريم: (ألا يعلمهم شيئا قبل القرآن).

ب- الحديث: (ثم بعده حديث النبى ﷺ).

ج- العقيدة: (ثم يأخذهم بعقيدة أهل السنة والجماعة).

د- تعليم الكتابة: (.. وله تمكين الصبى المميز من كتابة القرآن فى اللوح)[٢].

ويبدو أن بيئته الاجتماعية كانت تحرص على الدين حرصا خالصا ومن ثم كانت المقرارات الدراسية التى يدرسها الصبيان تدور حول محور الدين وأساسيات الثقافة الإسلامية المتمثلة فى القرآن الكريم (محور اهتمام الكتاتيب وبؤرة اهتمام معلمى الكتاتيب).

ويتبين مما سبق أن التاج السبكى كان له اهتمام واضح بمعلم الكتاب ومحتوى التعليم فيه وأوضح المواصفات التى يجب أن يتصف بها معلم الكتاب فى عصره ومن الواضح أن هذه المواصفات على قدر كبير من الأهمية الخلقية والدينية والتربوية ويرى الباحث أنها تتفق

---

[١] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ١٠١.

[٢] -----------: المرجع السابق، ص ١٠١.

وتعاليم الإسلام وتستهدف الصالح العام وتتفق مع التربية الحديثة من حيث مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين وهذا اجتهاد تربوى للسبكى طيب فى حدود عصره ويدل على مدى إدراكه وتفهمه لمهنة معلم الكتاب تلك المهنة التى أصبحت متواضعة فى عصرنا الراهن وربما لا يلقى معلم الكتاب الاهتمام الذى يلقاه غيره من معلمى العلوم.

وكان للتاج السبكى بعض النظرات النقدية لبعض العلوم وطلابها:

سادسا: بعض النظرات النقدية لبعض العلوم وطلابها وعلمائها:

كان للفقيه المربى تاج الدين السبكى بعض النظرات النقدية التى وجهها إلى بعض المعاصرين له وأخذ على أهل كل علم وذويه مبالغتهم فى الاقتصار على علمهم وانطباع حياتهم بمظاهر هذا العلم حتى ينسيهم ذلك الهدف المرجو من طلب العلم وضرورة العمل به والإخلاص فى طلبه وحتى يصير هذا العلم كأنه صنعة زخرفية يباهى بها العالم أقرانه ويرائى العامة والحكام وقد أشار هو بنفسه إلى هذه النظرات والمآخذ التى أخذها على بعض العلماء "... فهذه تنبيهات على ما يستقبح ويستهجن من علماء هذا الزمان. والغرض بها أن ينبغى لكل ذى فن أن يتخذه سبيلا إلى النجاة، ومرقاة إلى الزلفى عند الله تعالى لا صنعه يتهوس بها بل مرقاه يتوصل بها إلى الملأ الأعلى"[1].

وفصل القول فى بعض المآخذ التى أخذها على العلماء وعدد بعض مثالبهم وذكرهم بما ينبغى أن يفعلوه وأرشدهم إلى السبل التى تحفظ عليهم دينهم وكرامتهم.

(أ) توجيه القراء:

عاب السبكى على بعض القراء اللحن فى القراءة وعدم التلاوة الصحيحة لكتاب الله وأخذ عليهم القراءة بين يدى الأمراء وعدم إصغاء الأمراء لهم ودعاهم إلى قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة كما أنزل بعيدا عن النغم والتمطيط "قراء القرآن الكريم: عليهم إعمال جهدهم فى قراءة كتاب الله كما أنزل، من غير مطمطة (أبى إسراف فى مد الحروف) ولا عجرفة (يعنى السرعة فى التلاوة) وعدم إعطاء الحروف حقها فى مخارجها وحركاتها بل بلفظ واضح ... ومما يؤخذ عليهم أنهم يأتون إلى دور الأمراء فى مؤخره الناس ولا يلتفت إليهم أحد الأمراء ... رأيت أحدهم قد حضر إلى بعض الأمراء وهو يقرأ القرآن والأمراء لا ينصتون لتلاوته وليس فيهم من يدرى ما يقول، فحل بذلك من الألم ما يكاد يصهر (يقطع) قلبى"[2].

---

[1] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٨٠.

[2] تاج الدين السبكى : المرجع السابق، ص ٨٧.

يأخذ السبكى على بعض قراء القرآن الكريم خروجهم عن قواعد القراءة السليمة وعدم الإتقان الجيد للتلاوة وترددهم على أبواب الأمراء للتكسب بالقراءة وعدم مبالاة الأمراء لهم أثناء التلاوة، ويبدو أن بعض القراء فى عصرنا يصنع صنيع هؤلاء الذين عاصرهم السبكى فى القرن الثامن.

(ب) توجيه الفقهاء والمفتين:

عاب السبكى على بعض فقهاء عصره التقليد والتعصب لأقوال السابقين الوقوف عندهم وعدم العمل بالفقه "ومن الفقهاء من تأخذه الحمية (التعصب) لبعض المذاهب ... ولو دخل الواحد منهم (من الفقهاء) بيته لرأى كثيرا من نسائه يتركن الصلاة، وهو ساكت عنهم، فياالله وللمسلين. أهذا فقيه على الحقيقة. قبح الله مثل هذا الفقيه"[1].

ويبدو أن عصر السبكى وكان التعصب المذهبى سائدا بين العلماء والاختلافات بين أتباع المذاهب الفقهية المختلفة كثيرا ما أفسدت البيئات التعليمية فيه بلا سبب يحترمه الفقهاء المعتدلون يبدو أن ذلك كان الدافع له على التنفير من التعصب المذهبى ووجه الفقهاء إلى العمل بالنصوص.

وعاب السبكى على بعض الفقهاء أيضا التكسب بالعلم والتطلع إلى المناصب وتهافتهم عليها "ومن الفقهاء من يطلب العلو فى الدنيا وحب المناصب والجاه ... ومنهم من يضيع كثيرا من وقته فى طلب القضاء وغيره من المناصب ... وما فعلت هذه الطائفة ولا كان ثمرة عملها إلا أن جعلت العلم حطام الدنيا ثم أخذت تأكل الدنيا بالدين فقبحها الله من طائفة"[2]. وعقد السبكى مثالا "للمفتى" بين فيه خروج بعض المفتين عن الفتوى وأخلاقياتها فأخذ على هذا البعض التسرع فى الفتوى فيضر بذلك نفسه والمستفتين معه ويتساهل فى هذا البعض فى أمر الشرع لبعض الأمراء فيرخص لهم ما لم يرخص لسواد الشعب ويأخذ عليهم عدم اتباع طريقة معينة فى الإفتاء ويعبر عن عدم رضاه عن بعض المفتين الذين يفتون فى الدين حسب أهوائهم ويعتبر هذا من قبيل التهاون بدين الله كما يعيب على بعضهم التشدد فى الدين وتصعيب الفتوى على الناس ويوجه إلى التلطف مع هؤلاء المفتين "المفتى: وقد خص جماعة كتاب أدب الفتيا بالتصنيف، وذكر الفقهاء ما لا طائل فى إعادته، لكننا ننبه على ما كثر فى بعض المفتين فنقول: منهم من يسهل أمر الشرع، ويتناهى إلى أن يفتى ببعض ما لا يعتقده من المذاهب، ويرخص لبعض الأمراء ما لم يرخص فيه عموم الخلق بعض العلماء،

---

[1] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٦٢، ٦٣.

[2] المرجع السابق، ص ٦٠.

فيول مثلا عن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر: لا ينتقض عند أبى حنيفة، وعن لعـــب الشطرنج، وأكل لحوم الخيل: حلال عند الشافعى ... وهكذا. فليت شعرى بأبى مذهب أفتـــى هذا المفتى؟ وبابى إمام يتعلق؟ وعلى أى طريقة جرى؟ فإن قلت: أليس ذهب إلى جواز تتبـــع الرخص؟ قلت: ذلك على ضعفه لا يوجب إغراء السفلة بدين الله، وتخصيص الأمـــــراء دون غيرهم. وقائل هذه المقالة يخصص بها من يشاء، ولا يعتقدها أيضا، فإنه لو اعتقدها لم يخص بها، وهذا من علامات الاستهانة بدين الله تعالى ... وما هذا المفتى إلا ضال، مسقط لأبهـــة (عظمة) الشرع، مفسد لنظام الدين ... ومنهم طائفة تصلبت فى أمر دينها، فجزاها الله خيرا: تنكر المنكر وتشدد فيه، وتأخذنا بالأغلظ، غير أنها تبالغ، فلا تذكر لضعفه الإيمان من الأمراء والعوام إلا اغلظ المذاهب ... فمن حق هذه الطائفة الملاطفة ... ومنهم من يتسرع إلى الفتيا معتمدا على ظواهر الألفاظ، غير متأمل فيها، فيوقع الخلق فى جهل عظيم، ويقع هو فى ألـــم كبير، ربما أداه ذلك (التسرع فى الفتوى) إلى إراقة الدماء بغير حق ..."[(١)].

(ج) توجيه علماء الحديث:

كان للتاج السبكى اهتمام واضح بالحديث ويرى أنه ليس كل أحد يشتغل بعلم الحديـــث فلابد أن يكون المحدث مؤهلا لمعرفته بإسناد الحديث ورجالـــــة مســـتوعبا كتـــب الحديـــث المشهورة وأن يكون قد سمع الحديث من المتبحرين فيه وكانت له خبرة الجـــــرح والتعديـــل* ويقرر أن "المحدث من عرف الأسانيد، والعلل وأسماء الرجال والعالى والنازل، وحفظ مـــــع ذلك جملة مستكثرة وسمع الكتب الستة** ومسند أحمد بن حنبـــــل وســـنن البيـــهقى، معجـــم الطبرانى، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثة. وهذا أقل درجاته. فإذا سمع ما ذكرناه، ودار على الشيوخ، وتكلم فى العلل والوفيات والأسانيد كان فى أول درجات المحدثين، ثم يزيد الله من شاء ما شاء"[(٢)].

واضح انه يتحدث عن مواصفات ومؤهلات المحدث الذى يعتنـــــى براويـــة حديـــث الرسول صلى الله عليه وسلم وأن بعض محدثى عصره كان يفتقدها ويرى أن المحدثين هـــــم الذين تتوافر فيهم هذه المواصفات.

---

(١) تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٨٠، ٨٤.

* علم الجرح والتعديل: أحد علوم الحديث والجرح يعنى: أن يذكر الراوى بما يوجب رد روايته مـــن إثبـــات صفة ردأو نفى صفة قبول أو نفى صفة رد مثل أن يقال: هو ثقة أو ثبت: محمد بن صالح العثيمين: مصطلح الحديث، القاهرة، مكتبة العلم، ط٢، ١٩٩٩، ص ١٩ - ٢١.

** هى صحيح البخارى، وصحيح مسلم، وسنن أبى داود، وسنن الترمذى، وسنن ابن ماجة، وسنن النسائى.

(٢) تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٨٠ - ٨٤.

وعاب التاج السبكى على بعض المحدثين الأمور التالية:

١-الإكثار من الحفظ وعدم فهم فقه الأحاديث "إلا أن كثيرا منهم يجهد نفسه فى تهجى الأسماء والمتون، وكثرة السماع من غير فهم لما يقرءون"[١].

٢-مبالغتهم فى التظاهر بكثرة ما يحفظون والمباهاة بذلك "ولا تتعلق فكرته بأكثر من أنى حصلت جزء ابن عرفه عن سبعين شيخا، وجزء الأنصارى عن كذا كذا شيخا.."[٢].

٣-عدم التأهل بالعلوم المساعدة فى فهم الأحاديث وتجاهلهم للمقاصد والأهداف التى كان عليها السلف فى طلب الحديث "إنما كان السلف يسمعون فيعون فيرحلون فيقرءون فيحفظون فيعملون"[٣] .

ويطالب التاج السبكى هؤلاء الذين عاب عليهم ما ذكر آنفا بالاتعاظ والاعتبار قبل أن يسلبهم الله هذه النعمة فينقل لنا قول شيخه الذهبى مهددا بنزول العقوبة من الله على مثل هؤلاء "... ورأيت من كلام شيخنا الذهبى فى وصيته لبعض المحدثين فى هذه الطائفة: ما حظ (نصيب) واحد من هؤلاء إلا أن يسمع ليروى فقط . فليعاقبن بنقيض (عكس) قصده ، وليشهرنه (يفضحه) الله تعالى بعد أن ستره مرات، وليبقين مضغة فى الألسن، وعبرة بين المحدثين، ثم ليطبعن الله على قلبه"[٤].

يبدو لنا ما أخذه السبكى على بعض المحدثين فى عصره حيث عاب عليهم الإكثار من جمع الأحاديث وحفظها دون فهم وتدبر والتظاهر بكثرة حفظ الأحاديث عن شيوخهم ومن الكتب والأجزاء المروية دون إتقان لما يرون وهذا تعبير عن عدم رضاه عن المستوى المعرفى لهؤلاء ويعيب عليهم عدم العمل بالأحاديث التى يحفظونها ولذا يوجههم إلى أن يقرنوا علمهم بعملهم ويذكرهم بأن يعتبروا ويتعظوا ويحذروا من مغبة عدم العمل بالأحاديث إذ أن الله تعالى سيعاقبهم ويؤاخذهم على مسلكهم السيئ ويستشهد على ذلك بكلام شيخه الذهبى

(د) توجيه المفسرين :

---

[١] تاج الدين السبكى : المرجع السابق، ص ٧١.

[٢] ------------: نفس المرجع السابق، ص ٧١.

[٣] ------------ : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٧١.

[٤] ------------ : المرجع السابق، ص ٧١.

سبق للباحث أن بين أن بعض كتب التفسير* كان لها رواج فى هذا العصر مثل تفسير "الكشاف" للزمخشرى المعتزلى وقد انتقده التاج السبكى وبعض فقهاء السنة ولذلك عاب على نفر من العلماء اطلاعهم على هذا التفسير الذى اعتنى به الأعاجم وذكر إعراض والده عن قراءته "ومنهم (ومن العلماء) فرقة نظرت فى كتاب الكشاف للزمخشرى فى التفسير، وقالت : نحن متشرعون وعارفون بتفسير كتاب الله تعالى . واعلم أن الكشاف كتاب عظيم فى بابه، ومصنفه إمام فى فنه إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرا ويسئ أدبه على أهل السنة والجماعة ، والواجب كشط ما فى كتابه الكشاف من ذلك كله. ولقد كان الشيخ الإمام يقرئه ، فلما انتهى إلى الكلام على قوله تعالى فى صورة التكوير :"أنه لقول رسول كريم " التكوير : ١٩. أعرض عنه صفحا ، وكتب ورقة سماها "سبب الانكفاف، عن إقراء الكشاف" وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى : "عفا الله عنك" التوبة:٤٣. وكلامه فى صورة التحريم وغير ذلك من الأماكن التى أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى سيدنا رسول ﷺ ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبى ﷺ ، مع ما فى كتابه من الفوائد والنكت البديعة . فانظر كلام الشيخ الإمام الذى برز فى جميع العلوم ، وأجمع الموافق والمخالف على أنه بحر البحار : معقولا ومنقولا، فى حق هذا الكتاب الذى اتخذت الأعاجم قراءته ديدنها . والقول عندنا فيه إنه لا ينبغى أن يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج السنة لا تزحزحه شبهات القدرية"[1].

يأخذ التاج السبكى على بعض العلماء اهتمامهم بالإطلاع على تفسير الزمخشرى ويرى أنه كتاب مفيد فى علم التفسير ولذلك اهتم به علماء العجم غير أنه يرى أن مصنفه مبتدع لأنه يحط من شأن النبوة ويخالف أهل السنة والجماعة (حسب رأيه) وينبه إلى أنه لا مانع من الاطلاع عليه لمن صار على منهج أهل السنة .

(هـ) توجيه علماء اللغة والنحو :

كان للتاج السبكى اهتمام باللغة وفنونها وآية ذلك ما حواه كتابه "طبقات الشافعية الكبرى" من كلام عن النحو والصرف والعروض والشعر وغير ذلك وانتقد واقع اللغة وفنونها وعاب على اللغويين والنحويين ما يلى :

---

* التفسير على صنفين : نقلى مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف، وتفسير يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب ... ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن تفسير الكشاف ومؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد ويحتج لهم وحذر أهل السنة منه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيه وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية، محسنا للدفاع عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله.
انظر: ابن خلدون : بتصرف من المقدمة ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٩، ٤١٠.

(١) تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٧٢-٧٦.

١-أن يستغرق حب النحو واللغة قلب هذه الطائفة فيصبح التقعر والحوشى عادة تجرى على لسانها وأن يتعمد اللغوى التقعر لمجرد التقعر وأن ينشغل بالألفاظ دون الانتباه إلى معانيها "ومن العلماء طائفة استغرق حب النحو واللغة قلبها، وملأ فكرها، فأداها إلى التقعر في الألفاظ، وملازمة حوشى اللغة، بحيث خاطبت به من لا يفهمه ... وأما ما كان الحامل عليه مجرد التقعر فى اللفظ فهو رعونة (حمق) وقد كتب الإمام أبو عمرو بن دحية إلى السلطان الملك الكامل بن أيوب صاحب مصر يهنئه بعافيته من مرض أصابه كتابا كله من هذا النمط... ومنهم من شغل نفسه بالألفاظ وأعرض عن معانيها، بحيث انتهى به الحال إلى ضرب غريب من الخطأ ... أعرب بعضهم قوله تعالى : "قيما" من قوله تعالى: "ولم يجعل له عوجا قيما" الكهف:١. صفة لعوجا، وهذه غفلة، كيف يكون المعوج قيما وإنما (قيما) حال من محذوف، أى أنزله قيما أو من الكتاب"[١].

٢- الاهتمام بالمعانى حتى يرتكب الخطأ فى الإعراب بما يخالف قواعد النحو الثابتة "كما راعت طائفة المعانى ، فأتيت من قبل الألفاظ ألا ترى إلى قول بعضهم فى قوله تعالى: "وثمود فما أبقى" النجم:٥١. إن (ثمود) مفعول مقدم؟ وهذا خطأ ، فإن لـ (ما النافية) الصدر ، ولا يعمل ما بعدها فيما قبلها"[٢].

٣-أن يغلب السجع والاهتمام بالأوزان الشعرية عقل العالم وقلبه إلى درجة الهوس فيتحدث به بمناسبة وبغير مناسبة "ومنهم من تعمق فى الأدب، فصار أكثر كلامه مسجوعا، ثم انتهى به الحال إلى أن وقع فى الكنيف فجاءوه بكنافين . فكلمه أحدهما لينظر : أهو حى؟ فقال: اطلبا لى حبلا دقيقا وشدانى شدا وثيقا. واجذبانى جذبا رقيقا . فقال أحدهما : أنا والله لا أنقذه فإنه فى الخرا إلى الحلق ولا يدع الفضول . حكاها صاحب البصائر ، ومنهم من غلب عليه معرفة الأوزان الشعرية ..."[٣].

(و) توجيه المؤرخين :

وكان للتاج السبكى اهتمام بالتاريخ* وأخذ على بعض المؤرخين وخصوصا شيخه الذهبى المؤرخ الناقد بعض المآخذ فعاب عليهم عدم الصدق والتعصب وعرض بشيخه الذهبى

---

[١] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ٧٦.

[٢] ---------- : المرجع السابق، ص ٧٩.

[٣] ---------- : المرجع السابق، ص ص ٧٩،٨٠.

* لم يشتهر السبكى فى مجال التاريخ كشيخيه الذهبى وليس ثمة مصنفات له فى هذا المجال سوى كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) وهو إلى التراجم أقرب منه إلى التاريخ.

فى أكثر من موضع من كتاباته ولاسيما كتابيه "طبقات الشافعية الكبرى"، و"معيد النعم ومبيد النقم" ويرى أن "المؤرخون على شفا جرف هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ... وربما كان الباعث له (للمؤرخ) على الضعة (الحط) من أقوام مخالفة العقيدة ، واعتقد أنهم على ضلال ، فيقع فيهم ، أو يقصر فى الثناء عليهم لذلك ، وكثيرا ما يتفق هذا لشيخنا الذهبى رحمه الله فى حق الأشاعرة . والذهبى أستاذنا – والحق أحق أن يتبع – ولا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يعتمد عليه فى الضعة من الأشاعرة. وقد أطلنا فى تقرير هذا الفصل فى الطبقات الكبرى... "[1].

ويضع التاج السبكى قاعدة للمؤرخين يبين فيها شروط المؤرخ* ويرى أنها نافعة جدا ومفيدة ويتهم شيخه بالتعصب وينقل ما ذكره أبيه عن الشروط التى يجب توافرها فى المؤرخ "قاعدة فى المؤرخين: نافعة جدا. فإن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس، ورفعوا أناسا إما لتعصب أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به، أو غير ذلك من الأسباب، والجهل فى المؤرخين أكثر منه فى أهل الجرح والتعديل، وكذلك التعصب قل أن رأيت تاريخا خاليا من ذلك. وأما تاريخ شيخنا الذهبى غفر الله له. فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب المفرط، لا واخذه الله، فلقد أكثر الوقيعة فى أهل الدين ، أعنى الفقراء(الصوفية) الذين هم صفوة الخلق، واستطال بلسان على كثير من أئمة الشافعية والحنفية، ومال فافرط على الأشاعرة، ومدح فزاد فى المجسمة (الحنابلة) ، هذا وهو الحافظ والإمام المبجل، فما ظنك بعوام المؤرخين، فالرأى عندنا أن لا يقبل مدح ولا ذم من المؤرخين إلا بما اشترطه إمام الأئمة وحبر الأمة وهو الشيخ الإمام الوالد رحمه الله حيث قال: ونقلته من خطه فى مجاميعه: يشترط فى المؤرخ الصدق، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وألا يكون ذلك الذى نقله أخذه فى المذاكرة ، وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمى المنقول عنه ، فهذه شروط أربعة فيما نقله ويشترط فيه أيضا لما يترجمه من عند نفسه ولما عساه أن يطول فى التراجم من المنقول ويقصر ، أن يكون عارفا بحال صاحب الترجمة علما ودينا وغيرهما من الصفات، وهذا عزيز جدا، وأن يكون حسن العبارة، عارفا بمدلولات الألفاظ،وأن يكون حسن التصور، حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه، وألا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب فى مدح من يحبه والتقصير فى غيره، بل إما أن يكون مجردا عن الهوى وهو عزيز، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه، ويسلك

---

[1] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ص ٦٢،٦١.

* نقل السخاوى هذه الشروط للتاج السبكى وذكرها فى كتابه : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق محمد عثمان الخشت، القاهرة، مكتبة ابن سينا، د.ت ، ص ص ٩٠-٩٣.

طريق الإنصاف، فهذه أربعة شروط أخرى، ولك أن تجعلها خمسة، لأن حسن تصوره وعلمه قد لا يحصل معهما الاستحضار حين التصنيف... فهى تسعة شروط فى المؤرخ وأصعبها الاطلاع على حال الشخص فى العلم، فإنه يحتاج إلى المشاركة فى علمه والقرب منه، حتى يعرف مرتبته"[1].

ووجه السبكى انتقاده لشيخه الذهبى فى موضع أخر حيث عاب عليه تعصبه للحنابلة ضد الأشاعرة "ولقد وقفت فى تاريخ الذهبى – رحمه الله – على ترجمة الشيخ الموفق ابن قدامة الحنبلى والشيخ فخر الدين بن عساكر، وقد أطال تلك وقصر هذه ، وأتى بما لا يشك لبيب أنه لم يحمله على ذلك إلا أن هذا أشعرى وذاك حنبلى وسيقفون بين يدى رب العالمين"[2].

وذكر كذلك "وكان شيخنا – والحق أحق ما قيل ، والصدق أولى ما آثره ذو السبيل – شديد الميل إلى آراء الحنابلة ، كثير الازدراء بأهل السنة، الذين إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعرى فيهم مقدم القافلة ، فلذلك لا ينصفهم فى التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم أنف الراغم "[3].

وبعد أن أسرف الذهبى فى نقد شيخه انتهى إلى القول "والذى أفتى به أنه لا يجوز الاعتماد على كلام شيخنا الذهبى فى ذم أشعرى ولا شكر حنبلى"[4].

ويتبين من النصوص السابقة أن التاج السبكى تحامل كثيرا على شيخه الذى تلقى العلم على يديه وانتقده بعدة أمور تتبلور فيما يأتى:

١- أخذ عليه غلبة الهوى والتعصب فى تطويل التراجم وتقصيرها.

٢- ميله إلى آراء الحنابلة ومبالغته فى الثناء عليهم، وازدراءه أهل السنة – الأشاعرة – وقلة إنصافه لهم .

٣- أنه استطال بلسانه على الحنفية والشافعية، بخلاف فعله مع الحنابلة.

٤- أنه أكثر الوقيعة فى المتصوفة وقد سماهم السبكى "بالفقراء".

ولنتناول هذه الأمور بشئ من الإيضاح والتفصيل :

---

[1] تاج الدين السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ٢، مرجع سابق، ص ٢٣.

[2] تاج الدين السبكى: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤.

[3] تاج الدين السبكى: المرجع السابق، جـ ٩، ص ١٠٣.

[4] تاج الدين السبكى: نفس المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٥.

(أ) أما دعوى السبكى بأن التعصب هو الذى دفع شيخه الذهبـــــى إلـــى تطويـــل الـــتراجم وتقصيرها فإن الذهبى قد راعى فى تراجمه قيمة الإنسان وشهرته بين أهل علمه أو مكانتـــه بين الذين هم على شاكلته سواء كان متفقا مع الذهبى فى العقيدة أو مخالفا له وســـواء كـــان محدثا أو من أى فئة أخرى فقد طول ترجمة أبى حامد الغزالى مع أنه من كبـــار المتصوفـــة والمتكلمين وذكر أنه دخل "فى مضايق الكلام ومزال الأقدام"[١]. فى حين ترجم الإمام مسلم بن الحجاج فى ثلاث وعشرين صفحة[٢]. والنسائى فى إحدى عشر صفحة[٣]. والترجمتان معـــا أكثر من ترجمة الحلاج الزنديق [٤] .

ورغم أن الذهبى كان شديد الاهتمام بالمحدثين لكنه فى كثير من الأحيان قد ترجم لهم تراجم مختصرة إذا استثنينا بعض أفاضلهم كالبخارى وأحمد وغيرهما فمثلا ترجـــم لمحـــدث خراسان عبد الرحمن بن عمر بن بركات فى نصف صفحة[٥]. وغير ذلك كثير.

(ب) وأما القول بأن الذهبى متعصب على الاشاعرة كثير الازدراء لهم ميال إلى الحنابلة كثير الثناء عليهم فالحق أن السبكى نفسه أشعرى جلد شديد التعصب للأشاعرة وقد قدح فـــى حـــق شيخه وهو الذى حفظه وعلمه وبالغ فى حقه وافرط وعدل عن الصواب ووقع فـــى الشـــطط والغلط وما كان ينبغى له أن يتعدى حدود الأدب مع شيخه المؤرخ الثقة.

وقد رد عليه الحافظ السخاوى ونقل كلام العز الكنانى فى السبكى حيث وصفه بقولـــه: "هو رجل قليل الأدب ، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السنة ورتبهم، يدل على ذلك كلامه[٦].

ويتتبع الباحث لتراجم الأشاعرة والحنابلة فى كتابات الذهبى وجد أن الأمر بخلاف ما زعم السبكى غفر الله لنا وله فقد أثنى على الأشاعرة وعلى طريقة أبـــى الحســـن الأشـــعرى وأصحابه فى التسليم بالنصوص . فمن ذلك ما ذكره فى ترجمة أبى ذر الهروى "قلت : هـــذا المنهج هو طريقة السلف، وهو الذى أوضحة أبو الحسن وأصحابه، وهو التســـليم لنصـــوص الكتاب والسنة، وبه قال ابن الباقلانى..."[٧].

---

[١] الذهبى : سير أعلام النبلاء ، جـــ ١٩، مرجع سابق، ص ص ٣٢٢ - ٣٤٦.

[٢] -----: المرجع السابق جـــ ١٢، ص ص ٥٥٧-٥٨٠.

[٣] -----: نفس المرجع السابق ، جـــ ١٤، ص ص ١٢٥، ١٣٥.

[٤] -----: نفس المرجع السابق ، جـــ ١٤، ص ص ٣١٣، ٣٥٤.

[٥] -----: نفس المرجع السابق، جـــ ٢٣، ص٢١٤.

[٦] السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، مرجع سابق، ص ٧٤.

[٧] الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـــ ١٧، مرجع سابق، ص ٥٥٩.

وتبدو ترجمته لأبى الحسن فى غاية الروعة رغم وجازتها "مات ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاث مائة ، حط عليه جماعة من الحنابلة والعلماء، وله ذكاء مفرط وتبحر فى العلم ..."[1].

واثنى عليه جدا فى كتابه "مختصر العلو" ونقل كثيرا من أقواله فى العلو والصفات وذكر أنه وافق أئمة الحديث فى كل ما يقولونه وذكر "فلو انتهى أصحابنا المتكلمين إلى مقالة أبى الحسن هذه ولزموها لأحسنوا ، ولكنهم خاضوا كخوض حكماء الأوائل (الفلاسفة) فى الأشياء ومشوا خلف المنطق"[2].

وإذا كان الذهبي يمدح الحنابلة كما يدعى السبكى فليس معنى ذلك أنه يقلدهم بل إنه يخالفهم وينتقدهم ولاسيما كبار الحنابلة مثل ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الذى انتقده الذهبى بأنه (ابن القيم) "معجب برأيه، جريء على الأمور، غفر الله له"[3].

(ج) وأما قول السبكي بأن الذهبي تطاول بلسانه على الشافعية والأحناف فهذا غير صحيح وخلاف الواقع فقد ترجم لأبى حنيفة ترجمة طيبة وأفرد مناقبه فى جزء مستقل[4] وترجم تراجم رائعة لكبار أئمتهم فقد ذكر فى ترجمة أبى يوسف "بلغ من رئاسة العلم ما لا مزيد عنه"[5].

(د) أما ذم الذهبي وانتقاده للصوفية فصحيح ما قاله السبكي لكن في فئة منهم دون أخرى يمدح الملتزمين بالكتاب والسنة وينتقد المنحرفين عنهما وقد ذكر الباحث موقف الذهبي من التصوف والمتصوفة فى الفصل الذى بحث فيه آراء الذهبي التربوية .

ويرى الباحث أن كثيرا من الانتقادات التى وجهت إلى الذهبى كان يغلب عليها طابع التحامل والتعصب وإلا فإن مآخذ السبكى على الذهبى يمكن تطبيقها على السبكى نفسه المتعصب جدا للأشاعرة والمتصوفة ويكفى أن نعرف تراجمه في طبقات الشافعية لنعلم ذلك.

ولقد بالغ السبكي فى نقد شيخه ولم يكن كل ذلك صحيحا فلقد "أبانت دراستنا لتاريخ الإسلام أن الذهبى لم يكن متعصبا ضد أحد وما كان يرضى الكلام بغير حق ولا حتى نقله فى بعض الأحيان وقد وفق إلى أن يكون منصفا إلى درجة غير قليلة فى نقده لكثير من الناس،

---

[1] الذهبى : المرجع السابق، جـ ١٥، ص ص ٨٥-٩٠.

[2] ---- : مختصر العلو، مرجع سابق، ٢٤٣.

[3] ----: المعجم المختص بالمحدثين، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

[4] ----: مناقب أبى حنيفة، تحقيق محمد زاهد الكوثرى، القاهرة، المطبعة العربية الكبرى، د.ت.

[5] ---- : تذكرة الحفاظ، جـ١، مرجع سابق، ص ٢٩٢، سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٥٣٥.

ولو قال السبكى أنه كان يتعصب للحنابلة فحسب لوجد بعض الآذان الصاغيــة ولبحــث لــه المؤيدون عن بضعة نصوص قد تؤيد رأيه، علما أنى بحثت فى "تاريخ الإسلام" ولم اســتطع الحصول على مثل يصلح أن يسمى انتقادا لأشعرى ... والواقع ن الذهبى ما بخس فضل أحد من الأشاعرة وخصوصا شيخهم أبو الحسن الذى اعتبره مجددا فى أصول الدين علــى رأس المائة الرابعة ... ولست هنا فى حال دفاع عن الذهبى فكتابه خير مدافع عنه وهو الحكم فــى تقويمه، ولكننى أقول إن تحقيق كثير من الإنصاف وإن لم يكن كله، أمر له قيمته العظمى فــى كل عصر "[١].

ومجمل القول فى ذلك ما ذكره السخاوى المؤرخ الموضوعى الناقد "مع أنى لا أنــزه الذهبى عن بعض ما نسبه (السبكى) إليه ... والكمال لله . ويكفينا فى جلالته (يعنى الذهبــى) شرب شيخنا ماء زمزم لنيل مرتبته كما سبق، وهل انتفق الناس فى هذا الفن بعده وإلــى الآن بغير تصانيفه (يقصد الذهبى). والسعيد من عدت غلطاته. وعلى كل حال فطالما نــال غــير الموفقين من الذهبى قياما، مع حظوظ أنفسهم، أما لكونه ترجمهم بما هو دون مرتبتــهم عنــد أنفسهم ، أو لغير ذلك، مما يقاربه"[٢].

وكان للتاج السبكى موقف من متصوفة عصره الذين كثروا فى هذا القــرن يختلــف تماما عن موقف شيخه الذهبى وباستقراء كتاباته فى هذا الشأن نجد كثرة الثناء عليهم والإشادة بهم وذمه لمن ينتقدهم وأول ما يلفت النظر عن الصوفية لديه "رفعه من شأنهم. ولم أر لمــن كتبوا عن مؤلفات التاج السبكى شيئا عن مبلغ اشتغاله بالتصوف ولكننا نعلم منــه هــو فــى ترجمته لأبيه أن أباه عنى بالتصوف، كما عنى به كثير من العلماء لأنهم يرونــه الرياضــة الروحية التى لابد منها للمسلم. ثم إن كلامه عن الصوفية وإشاراته إلى كبارهم وعباراته فيهم لا تترك شيئا من الشك فى أنهم كان راسخا فى التصوف كبير العقيدة فيه. وهو مع هذا بــل لهذا لا يغفل التنبيه إلى بعض نواحى الضعف فى نظام الصوفية لعهده وإلى ما يجب لتقويــة هذا الضعف. لكن النغمة الغالبة فى كلامه عنهم الرفع من شأنهم وتحذير الناس من الخــوض فيهم والاعتراض على ما يبدو من شذوذ فى أحوال بعضهم وأقوالهم"[٣].

ويرى السبكى أن الصوفية هم أهل الله وخاصته ولا تتنزل الرحمة علــى العبــاد إلا بذكرهم ويشيد بهم أيما إشادة "الصوفية : حياهم الله وبياهم ، وجمعنا فى الجنة نحن وإيــاهم،

---

[١] بشار عواد معروف : الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ص ص ٤٦٢-٤٦٥.

[٢] السخاوى : الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، مرجع سابق، ص ٩٣.

[٣] محمد الصادق حسين: البيت السبكى بيت علم فى دولتى المماليك، مرجع سابق، ص ص٣٦،٣٧.

هم المعرضون عن الدنيا ، المشتغلون فى أغلب الأوقات بالعبادة... والخلاصة أنهم أهـل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، فرضى الله عنهم وعنا بهم"[1].

ويبدو أن حبه للصوفية وحفاوته الشديدة بهم قد أخذه عن والده الذى ذكر فى ترجمتـه له : "... وكان كثير التعظيم بالصوفية والمحبة لهم ، ويقول : طريق الصوفى إذا صحـت هى طريقة الرشاد والتى كان السلف عليها، ويقول مع ذلك: هو (التصـوف) مسـلك وعـر جدا"[2].

ونقل التاج السبكى عن أبيه كلاما كثيرا فى التصوف[3] وكذلك عن أئمـة التصـوف الذين ترجم لهم .

يدل على تعصب السبكى للصوفية أنه يأخذ على بعض فقهاء عصـره ذم الصوفيـة والطعن فيهم ويتحدثون عن عيوبهم وينتقدهم بحدة بل ويتوعدهم ويدعوهم إلى إحسان الظـن بالصوفية"ومن الفقهاء والمحدثين* فرقة تمتثل لأوامر الله، وتجتنب نواهيـه إلا أنـها تـهزأ بالفقراء (الصوفية) ولا تعتقد فيهم شيئا ، ويعيبون عليم أمورا كثيرا. وتلك الأمور قل أن يفهما من يعيبها... وقد جربنا فلم نجد فقيها أو محدثا ينكر على الصوفية إلا ويهلكه الله، وتكـون عاقبته وخيمة، فسبيل هذه الطائفة التوبة إلى الله تعالى، وحسن الظن بخلق الله تعالى، لاسـيما من انقطع إلى الله واعتكف على عبادته، ورفض الدنيا وراء ظهره. هذا علاج هذه الطائفـة. وما أظنهم يبرعون، فإنى جربت فوجدت القلوب منقسمة إلى قابل للصلاح وطريق الفقر وذلك تراه منقادا لطريق الفقراء معتقدا من غير تعليم. وغير قابله، ولا تراها تنقاد، وإن انقادت فـى الظاهر لم يفدها الانقياد ، لأن هؤلاء القوم لا يعاملون بالظواهر ولا يفيد معـهم إلا البـاطن ومحض الصفاء، وهم أهل الله تعالى ، وخاصته نفعنا الله بهم . واكثر من يقع فيهم لا يفلح"[4].

وتحدث التاج عن كرامات الصوفية فى أكثر من موضع فى كتاباته** وخلـص إلـى القول عنها "وإنى لأعجب أشد العجب من منكرها ، وأخشى عليه مقت الله ويزداد تعجبى عن

---

[1] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق ، ص ٩٣.

[2] -----------: طبقات الشافعية الكبرى، جـ١٠، مرجع سابق، ص ٢١٩.

[3] ----------- : المرجع السابق ، جـ ١٠، ص ٢٩٥.

* لعله يقصد بذلك – والله أعلم – بعض الفقهاء والمحدثين الذين انتقدوا الصوفية فى هذا القرن كـابن تيميـة وغيره.

[4] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٧٠،٧١.

** مثلا فى طبقات الشافية الكبرى، جـ٢، ص ٣١٤،٣١٥، ٣٢٤،٣٢٥، وفى معيـد النعـم ، ص ٩٥،٩٦، وفى جمع الجوامع ، جـ٢، ص ٤٢٠.

وتحدث التاج عن كرامات الصوفية فى أكثر من موضع فى كتاباته** وخلــص إلــى القول عنها "وإنى لأعجب أشد العجب من منكرها ، وأخشى عليه مقت الله ويزداد تعجبى عن نسبة إنكارها إلى الأستاذ أبى إسحاق الأسفراييني ، وهو من أساطين أهل السنة والجماعـــة، على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذب عليه، والذى ذكره الرجـــل فـــى مصنفاتـــه أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة (يعنى المعجزة) "[١].

وواضح مما سبق أن التاج السبكى يتعصب للصوفية وهذا التعصب لا يناسبه وهـــو الفقيه المجتهد الذى ينبغى أن يضبط كلامه بضوابط الشرع لأن جميع الصوفية ليسوا ملتزمين بالكتاب والسنة.

سابعاً: وسائل التعليم غير النظامى (تعليم العامة) عند السبكى:

لا تقتصر التربية للعامة عند السبكى على مكان محدد وإنما هى فى المسجد وغـــيره من خلال وسائل التعليم غير النظامى وتكون التربية الإسلامية من خلال الخطيب ، والواعظ، والقاص، وقارئ الكرسى، وقد عقد التاج السبكى مثالاً لكل واحد من هؤلاء : فالخطيب "عليـه أن يرفع صوته... وأما الالتفات فى الخطبة، والدق على درج المنبر فى صعوده، والمجازفة (المبالغة) فى وصف السلاطين عند الدعاء لهم ، والمبالغة فى الإسراع فى الخطبـــة الثانيـــة، فكل ذلك مكروه. ولا بأس بالدعاء بالسلطان بالصلاح ونحوه، فإن صلاحه صلاح للمســلمين، ولا يطيل الخطبة على الناس، فإن وراءه الشيخ والضعيف والصغير وذا الحاجة. ولا يـــأتى بألفاظ صعبة يصعب فهمها على غير الخاصة، بل يذكر الواضح من الألفـــاظ، ولا يتكلــف السجع إلى غير ذلك مما ذكره الفقهاء"[٢].

يرى السبكى أن الخطيب الذى يقوم بإلقاء خطبة الجمعة لعامة الناس ويربيهم لابـد أن يتصف بصفات معينة منها أن يكون صوته واضحاً وألا يلتفت أثناء إلقائه الخطبـــة ولا يـــدق على درجات المنبر عند صعوده، ويرى أن مبالغة الخطيب فى وصف السلاطين عند الدعـــاء لهم والإسراف فى مدحهم أمر مذموم وكذا الإسراع فى الخطبة الثانية ولا يمنع مـــن الدعـــاء لإمام المسلمين بالصلاح لأن فى صلاحه صلاح لهم، ويوجهه بأن يترفق بالمستمعين ويراعى ظروفهم فالناس فى رحاب المسجد فيهم الضعيف والمريض وذو الحاجة وكان هذا هو هـــدى

** مثلاً فى طبقات الشافية الكبرى، جـ٢، ص ٣١٤،٣١٥، ٣٢٤،٣٢٥، وفى معيـــد النعـــم ، ص ٩٥،٩٦، وفى جمع الجوامع ، جـ٢، ص ٤٢٠.

[١] تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى، جـ٢، مرجع سابق، ص ٣١٥.

[٢] ــــــــــــ: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ٨٨.

الخطيب على دراية لمستوى السامعين فالوسط العمالى غير الوسط المدرسى والناس فى الريف يختلفون عن المدينة والحديث إلى المتعلمين والمثقفين يختلف عن العاديين الأميين والجمعة تضم كل فئات الناس وفيما يبدو فإن السبكى كان يعيب على بعض خطباء عصره الذين لم يدركوا أهمية الوعظ والتذكير .

وخطيب الجمعة له دوره الخطير فى التربية لأنه فضلا عن كونه خطيب فهو مرب للعامة من المسلمين وللخطبة أهميتها لأنها سلاح من أسلحة الدعوة وتربية المسلمين "ومن أعظم نعم الله على المسلمين أن فرض عليهم الاجتماع فى كل أسبوع مرة ليتدارسوا شئون حياتهم ، ومشكلات مجتمعاتهم ، فى خطبة الجمعة، وقد كان منبر الجمعة، وما زال مدرسة للدعاة من طلاب الحق والمجاهدين فى سبيله... ولقد توقفت خطبة الجمعة – وهى مادة المنبر – فى فترة معينة – عند بعض القوالب، أو لنقل : توقف نموها فلم تعد صالحة للحياة الجارية والمتغيرة ، والتزم الخطباء زمنا بمجموعة من الخطب "المسكوكة" التى حفظها المصلون وصارت مادة للتندر على الدعاء (للسلطان وعساكره) منذ عهد الخلافة العثمانية والمملوكية ... والمنبر الذى نريده هو أعظم إسهام فى هداية البشر، وتعليم الأميين، وتحقيق الأمن والاستقرار وتنمية المجتمع، ورفع كفاءة الأداء الوظيفى، وتنقية سلوك الناس... وهو كذلك توجيه للحاكم والمحكوم، ونصح للكبير والصغير، وتربية للمسلمين بالكلمة الطيبة، والعلم النافع، والقلب المشروح، والعقل المفتوح، والثقافة الواعية... ورائد هذا المنبر قوله تعالى: "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلوهم بالتى هى أحسن" النحل:١٢٥." [1].

ويسهم الواعظ أيضا فى تربية العامة عند السبكى وعليه أن يؤثر فى نفوس السلمعين وأن يربيهم بالعبرة ليعتبروا ويقتدوا بالصالحين وعليه أن يكون قدرة طيبة يأمر نفسه وينهاها قبل أن يعظ المسلمين وأن يكون حاضر القلب مع الله حين يعظ الناس "الواعظ: عليه نحو ما على الخطيب . فليذكر بأيام الله ، وليخف القوم فى الله تعالى ، وينبئهم بأخبار السلف الصالحين ، وما كانوا عليه، وأهم ما ينبغى له وللخطيب أن يتلو على نفسه قوله تعالى:"أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" البقرة: ٤٤. ويتذكر قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

---

[1] عبد الصبور شاهين : الداعية والمنبر من تقدمته لكتاب خطب الشيخ المحلاوى حول كل ما يهم المسلم فى دينه ودنياه، القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٩٩١، ص ص ٢١-٢٣.

واعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب، فكل خطيب وواعظ لا يكون عليه سيما الصلاح قل أن ينفع الله به"[1].

ويسهم القاص بدوره أيضا فى تربية العامة ويرى السبكى أن القاص هو "من يجلس فى الطرقات يذكر شيئا من آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وأخبار السلف، وينبغى له ألا يذكر إلا ما يفهمه العامة، ويشتركون فيه : من الترغيب فى الصلاة ، والصوم، وإخراج الزكاة والصدقة، ونحو ذلك، ولا يذكر عليهم شيئا من أصول الدين(يعنى على الكلام) ، وفنون العقائد وأحاديث الصفات ، فإن ذلك يجرهم إلى ما لا ينبغى "[2].

يرى التاج السبكى أن القاص الذى يجلس فى الطرقات يقص على الناس القصص يشترك مع الواعظ والخطيب فى تربية عامة المسلمين ويوضح أنه يذكر شيئا من القرآن وبعض الأحاديث ويقص عليهم أخبار السلف ويوجهه إلى مراعاة قدراتهم واستعداداتهم ويخاطبهم حسب ما تحتمله عقولهم كالحديث عن الصلاة والصيام وغير ذلك من الأمور التى يعرفها العامة وعليه أن يتجنب الحديث معهم فى المسائل الخاصة بالعقائد لأن ذلك لا تطيقه أذهانهم ويجرهم إلى ما يضرهم .

ومما يقوم بتربية العامة كذلك قارئ الكرسى وهو من يجلس على الكرسى ويقرأ على العامة شيئا من الرقائق أى ما يرقق قلوبهم من الترغيب والترهيب والحديث والتفسير وحب الصالحين وبعض أمور الفقه التى يحتاجها العامة وقارئ الكرسى يختلف دوره فى التربية للعامة عن القاص لأنه لا يقرأ واقفا ولا فى الطرقات بل فى مسجد أو مدرسة أو خانقاه من الخوانق "قارئ الكرسى: وهو من يجلس على كرسى يقرأ على العامة شيئا من الرقائق ، والحديث، والتفسير ، فيشترك هو والقاص فى ذلك ، ويفترقان فى أن القاص يقرأ من صدره وحفظه ، ويقف ، وربما جلس ولكن جلوسه ووقوفه فى الطرقات وأما قارئ الكرسى فيجلس على كرسى فى جامع أو مسجد أو مدرسة أو خانقاه ولا يقرأ إلا من كتاب. وينبغى له أيضا مثل ما ينبغى للقاص: من قراءة ما تفهمه العامة ، ولا يخشى عليها منه. ولا بأس بقراءة "إحياء علوم الدين" للغزالى، وكتاب "رياض الصالحين"، و"الأذكار" للنبوى، وكتاب "سلاح المؤمن فى الأدعية" لابن الإمام، وكتاب "شفاء السقام فى زيارة خير الأنام " للشيخ الإمام

---

[1] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ٨٩.

[2] ---------- : المرجع السابق، ص ٨٩.

الوالد، وكتب ابن الجوزى فى الوعظ لا بأس بها. ولا يخفى ما يحذر منه هؤلاء مـــن كتـــب أصول الديانات وغيرها"[١].

إن قارئ الكرسى له دوره فى تربية العامة ويوجهه السبكى إلى أن يخـــاطب عامـــة الناس على قدر عقولهم ويبين أنه يشترك مع القاص بيد أن له مجالات أخرى غير الطرقـــات التى يستغلها القاص فى تربية العامة ويرى أن التعليم بالنسبة لقارئ الكرســـى يـــدور حـــول الرقائق والحديث والتفسير وينصح قارئ الكرسى بقراءة كتب معينة لها قيمتها وتلعـــب دورا مهما فى ترقيق القلوب وتزكية النفوس ويحذره من الكتب العقيدية التى لا تتلاءم ومســـتويات من يربيهم من العامة .

ويعتبر المنشد أو المادح ممن له دور فى تربية العامة أيضا ويبين التاج وظيفته فيرى أنه "ينبغى أن يذكر من الأشعار ما هو واضح اللفظ ، صحيح المعنى مشتملا على مدائح سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ ، وعلى ذكر الله وآلائه وعظمته، وخشية مقته وغضبه وذكر الموت ومـــا بعده ، وكل ذلك حسن . وأهمه مدح النبى ﷺ ، فإنه الذى يفهم من إطلاق لفظ المنشـــد. وإن اقتصر المنشد على ذكر أبيات غزلية أو حماسية فقد أساء، لا ســـيما إذا كـــان فـــى مجـــامع العلم"[٢].

يرى السبكى أن المنشد أو المادح له دوره فى تربية العامة وعليه أن تكون مدائحـــــه واضحة لها معنى وأن يشتمل المديح على مدح سيدنا محمد ﷺ كذكر الله وتخويف الناس مـــن عقاب الله وتفكيرهم بالموت والحياة الآخرة ولا بأس من أن ينشد المادح أبياتـــا فيـــها غـــزل عفيف أو أبياتا شعرية تثير الحماسة فى نفوس العامة وخصوصا إذا كان فى مجالس العلم وقد يكون هذا الإنشاد مصدر جذب لعامة الناس.

ويبدو مما سبق حرص التاج السبكى على تربية عامة المسلمين بكل السبل ونشر العلم على أوسع نطاق وإذا كان التعليم يتم فى المؤسسات النظامية كالمدارس والمساجد والكتـــاتيب من نصيب الصبيان والشباب فإن للعامة نصيبا وافرا من التعليم من خلال الدور التربوى الذى يقوم به كل من الخطيب والواعظ والقاص وغيرهم فى تعليم وتثقيف العامة وهذا يدل على أن التربية عند السبكى لا تقتصر على مكان دون آخر فهى فى الجامع والمسجد والكتاب وحتـــى فى الشارع والطرقات.

---

[١] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق، ص ص ٨٩،٩٠.

[٢] ----------: نفس المرجع السابق ، ص ٨٦.

ثامنا: التربية الخلقية:

تعتبر التربية الخلقية من أهم أهداف التربية الإسلامية عند التربويين المسلمين ويعرض الباحث للتربية الخلقية من منظور التاج السبكى :

وكان للتاج السبكى اهتمام واضح بالأخلاق وقد تبدى هذا فى عنايته بتربية الشخصية المسلمة على القيم والفضائل وحسن الخلق ورأى فى كثير من كتاباته ضرورة تتطابق النية مع السلوك والقول مع الفعل وحرص على عدم الفصل بين شخصية المتعلم وبين أخلاقه وكانت العناية بالتربية الأخلاقية هدفا واضحا لديه وكانت أقواله وأفعاله صورة صادقة لواقع حياته.

وقد تأثر السبكى كثيرا بأخلاق شيوخه الذين تلقى عنهم العلم خاصة والده تقى الدين السبكى الذى طبع حياته بطابع روحى وأخلاقه لم يفارقه أبدا فكان لذلك تأثير كبير على شخصيته وأخلاقه.

ويعرض الباحث لمجموعة من الصفات الخلقية التى حث التاج السبكى المسلم على التحلى بها وهذه الصفات استوحاها السبكى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتتمثل هذه الصفات الخلقية فيما يأتى:

١- تحرى الإخلاص لله وتجنب الرياء :

حرص التاج السبكى على أن يتحلى المسلم بهذه الصفة الأخلاقية الكريمة وان يتحرى الإخلاص لله عز وجل فى كل عمل يؤديه وأن يبتغى به وجه الله والدار الأخرة وحثه على ذلك وحذره من الرياء الذى يناقض الإخلاص ويحبط عمل وثواب العبد " نقلت من خط أبى قدس الله روحه:كل عمل العبد الصالح ينبغى له أن يخفيه عن كل أحد حتى يلاقى الله به يوم القيامة فهو أعلم به ويجازيه به، وإذا تكلم مع أحد بقدر الضرورة فى علم أو نحوه فينوى به، إما إفادته أو الاستفادة ، فهذان الأمران ينبغى للعامل أن يلزمهما، ولا يغفل عنهما ، والتجربة تفيدهما، وتفيد أن الناس عدم بالكلية ، لا ينفعون شيئا، وإذا تحقق العبد من ذلك انتفى عنه الرياء، وخرج من قلبه محبته ، ولزم الأمرين المذكورين والله أعلم"[1].

ويتحدث التاج السبكى عن إسراف بعض سلاطين وأمراء المماليك فى تشييدهم المساجد فى عصره ظنا منهم أن ذلك من أعظم القرب ويدعوهم إلى تحرى الإخلاص

[1] تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى، جـ١٠، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

أن يفهم مثل هذا الملك أن إقامة جمعتين فى بلد لا تجوز عند الشافعى وأكثر العلماء... وأما إنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به ، ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا ليقال: هذا جامع فلان، فلا ، والله لن يتقبله الله تعالى أبدا، وإن الله سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبا "[1].

ويدعو التاج السبكى القاضى فى عصره إلى أن يقصد بعمله وجه الله "...ينبغى لك أن تقصد به (بحكمك) وجه الله تعالى ، فلا يكون حكمك به لمخلوق، ولا غرض من أغـواض الدنيا، فبذلك تكمل العبادة فيه وتنال الأجر من خالقك. وإن حكمت به لغرض من أغراض الدنيا صح الحكم ، ولكن لا يكون لك فيه أجر"[2].

يتضح مما سقناه من نصوص أن السبكى يدعو المسلم إلى أن يتحلى بالإخلاص ويبتعد عن الرياء.

٢- **الشكر :**

يعتبر الشكر على نعم الله التى لا تعد ولا تحصى من الصفات الخلقية التى يجدر بالمسلم أن يتخلق بها . قال سبحانه: "ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم" البقرة : ١٥٨. وحث السبكى المسلم على التحلى بهذا الخلق ويرى أنه يجب عليه أن يشكر ربه على النعم التى أسبغها عليه وهذا الشكر يكون بالقلب واللسان والأفعال "إن كل نعمة لا تشكر جديرة بالزوال . ومن كلامهم النعمة إذا شكرت قرت ، وإذا كفرت فرت ... والحاصل أن كتاب الله وسنة رسول ﷺ دالان على أن كفران النعمة يؤذن بزوالها، وشكرها يقتضى بمزيدها. قال تعالى:"لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد" إبراهيم : ٧. والشكر يكون بالقلب واللسان والأفعال. أما القلب فالمراد منه أن تعلم وتعتقد أن الله هو الذى منحك النعم لا أحد سواه شاركه ... وأما اللسان فالمراد منه حمد الله عليها والتحدث بها ... واعلم أن هذين الأمرين أعنى الشكر بالجنان (القلب) واللسان يشملان كل نعمة... وأما الأفعال فالمراد منها امتثال أوامر المنعم واجتناب نواهيه ... ولكل نعمة شكر يخصها "[3].

٣- **العفو والتسامح :**

يعد العفو والتسامح قيمتان خلقيتان تدفعان صاحبها إلى العفو عن المخطئ وهو قادر على رد العدوان بمثله . قال تعالى: "فمن عفا وأصلح فأجره على الله" الشورى:٤٠. أى أنه

---

[1] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٢٣.

[2] ---------- : المرجع السابق ، ص ٥٠.

[3] ---------- : نفس المرجع السابق ، ص ص ١٢-١٨.

عفو من منطق القوة والرضا عن هذا الفعل وليس عن ضعف أو جبن والمسلم عند السبكى مطالب بالتحلى بهاتين الصفتين الخلقيتين فيعفو ويتسامح عمن أساء إليه وقد تجسدت فى شخص التاج السبكى العالم العامل هاتان الصفتان فى بعض مواقفه التى امتحن فيها فعفا عمن أساء إليه ومما يؤكد ذلك أنه "حصل له بسبب القضاء محنة شديدة مرة بعد مرة وهو مع ذلك فى غاية الثبات، ولما عاد إلى منصبه صفح عن كل من أساء إليه ، وكان جوادا مهيبا"[1].

إن العفو والتسامح من ابرز صفات الأنبياء والرسل ولقد أوذى رسولنا ﷺ فكان يقول: اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون. وكذلك سار علماء السلف والخلف علي هذا الهدي في العفو والتسامح فكانوا خير من حمل إلينا هذه الخلاق العالية الصفات السامية وتوافرت فى شخص السبكى فضيلتا العفو والتسامح وهو فى منصب القضاء .

٤- الأمر المعروف والنهى عن المنكر والصدوع بالحق:

يعتبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مبدأ تربويا إسلاميا يستهدف قطع دابر الفساد والمعاصى من المجتمع وما استحقت أمة الإسلام الخيرية على غيرها من الأمم إلا بتطبيقها لهذا المبدأ الأخلاقى وآيه ذلك قوله تعالى:"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر"آل عمران: ١١٠. ولقد لعن الله الذين تركوا النهى عن المنكر أحد طرفى هذا لمبدأ فى قوله:"لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"المائدة:٧٨-٧٩.

وكان التاج السبكى أحد العلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصدع بكلمة الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم ولا يحابى أحدا على حساب الدين والحق الذى يعتقده وقد تأثر بأبيه فى هذا المضمار وكان يؤلمه ويزعجه تهاون بعض العلماء فى السكوت عن المنكر والفساد ولذلك نجده يدعو علماء عصره إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدوع بالحق ويحثهم على ذلك بدلا من تعصبهم البغيض ويأخذ عليهم تفريطهم فى القيام بهذا المبدأ "ثم ما بالكم تنكرون مثل هذه الفروع ولا تنكرون المكوس (الضرائب غير الشرعية) والمحرمات المجمع عليها ولا تأخذكم الغيرة لله تعالى فيها. وإنما تأخذكم الغيرة للشافعى، وأبى جنيفة والمدارس المزخرفة فيؤدى ذلك إلى افتراق كلمتكم وتسلط الجهال عليكم وسقوط هيبتكم عند العامة، وقول السفهاء فى أعراضكم ما لا ينبغى، فتهلكون السفهاء بكلامهم

[1] ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، جـ٣، مرجع سابق، ص٤١.

فيكم، لأن لحومكم مسمومة على كل حال، لأنكم علماء، وتهلكون أنفسكم بما ترتكبونـــه مـــن العظائم"[1].

واضح أنه يحث المسلم خصوصا علماء الدين على التحلى بالأمر بالمعروف والنـــهى عن المنكر .

٥- العدل:

يعتبر العدل من أبرز الفضائل الخلقية الأصيلة فى الإسلام وقد أمرنا الله بـــه وحثنـــا على التحلى بخلق العدل واجتناب الظلم . قال سبحانه: "وأقسطوا إن الله يحـــب المقســطين" الحجرات:٩. وأمرنا تبارك وتعالى أن نحكم بين الناس بالعدل . قال تعالى "وإذا حكمتم بيـــن الناس أن تحكموا بالعدل" النساء:٥٨. ويجب على من ولاه الله أمرا من أمـــور المســلمين أن يسوسهم بالعدل الذى أمر الله به.

ويرى التاج السبكى أن الحكام المسلمين عليهم أن يتحلوا بهذه الصفـــة الخلقيـــة وان يعدلوا بين من يقومون على رعايتهم ويعرض بسلاطين المماليك الذين حادوا عن شـــرع الله، "المثال الثالث: وهو يشمل الخليفة فمن دونه من السلطان ونوابه والقضاة وسائر أرباب الأمور ... إذا ولاك الله تعالى أمرا على الخلق فعليك البحث عن الرعية، والعدل بينهم فى القضيـــة، والحكم فيهم بالسوية، ومجانبة الهوى والميل، وعدم سماع بعضهم فى بعـــض، إلا أن يـــأتى بحجة مبينة وعدم الركون إلى الأسبق. فإن وجدت نفسك تصغى إلى الأســـبق وتميـــل إلـــى صدقه، فاعلم أنك ظالم للخلق، وأن قلبك إلى الآن متقلب مع الأغراض يميله الـــهوى كيـــف شاء. وإن وجدت الأسبق والآخر سواء إلا من جاء بحق فأنت أنت... وقد اعتبرت كثيرا من الأتراك (المماليك) فوجدتهم يميلون إلى أول شاك. وما ذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبـــهم، التى صيرت قلوبهم كالأرض الترابية التى لم ترو بالماء فإذا أتاها ماء رويت... فهذه هـــى القلوب الغافلة عن الحق نسأل الله السلامة، فعليك شكر نعمة الولاية بما ذكرناه وإن تعـــرف أنك أنت والرعية سواء لم تتميز عنهم بنفسك، بل بفعل الله الذى لو شاء لأعطاهم ومنعك فـــإذا كان قد أعطاك الولاية عليهم ومنعهم فما ينبغى أن تتمرد وتستعين بنعمته علـــى معصيتـــهم وأذاهم. بل لا أقل من أن تتجنب أذاهم وتكف عنهم شرك وتجانب الهوى والميـــل والغـــرض بنعمة الولاية لا تطلب منك غير ذلك. ولو إنك تركت الناس هملا يأكل بعضهم بعضا وجلست

[1] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ٦٣،٦٤.

فى دارك تصلى وتبكى على ذنوبك لكنت مسيئا على ربك . فملكك لم يطلب منك أن تتـــهجد بالليل ولا أن تصوم الدهر وإنما يطلب منك ما ذكرناه" [1].

٦- التواضع وتعظيم نعم الله تعالى:

يحث الإسلام المسلم على التحلى بهذا الخلق الرفيع ويحـــذره مـــن التعـــالى والكـــبر وازدراء الناس والآيات فى هذا الصدد كثيرة ومعلومة . قال تعالى :" ولا تمش فـــى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا" الإسراء:٣٧. ومن مظاهر التواضـــع لله تعظيم نعمة الله تعالى لأنه المتفضل والمنعم ويوجه السبكى المسلم إلى التحلى بـــالتواضع وأن يعظم نعم الله عليه حتى ولو كانت فى نظره قليلة لأنها من عند الله المنعم "... يتعين علـــى ذى النعمة أن ينظر إليها – وإن قلت – بعين التعظيم لكونها من قبل الله تعالى، فإن قليلـــه لا يقال له قليل، وإلى نفسه بالتحقير بالإضافة إليها معترفا بأنه ليس أهلا له وأن أصله نطفة مـــن منى تمنى وقد وصله الله إليها لا باستحقاق عليه بل بفضل منك ولا يخفـــى عليـــك أن مـــن وصلت إليه هدية من ملك فاستقلها ولم يعبأ بها فإن الملك ينقم عليه ويشدد عقوبته ، ويأخذ فى نفسه منه ، ويمنع عنه العطاء، وإن استعظمها واستحقر نفسه بالنسبة إليها فإن الملك يحب ذلك منه ، ويحمله هذا الأمر على إسداء نعمة أخرى. والرب تعالى لا تخفى عليه خافية، فمـــهما وقع فى نفسك فهو مطلع عليه. فإن وقع فى قلبك استقلالها (النعمة) فإنه يخشى عليك زوالـــها وافتقارك إليها. وإن وقع فى نفسك استعظامها فأبشر بدوامها والازدياد. سمعت الشيخ الإمـــام رحمه الله يقول: أعطيت بعض الناس عطاء فاستقله فعلمت أن الله يسلبه إياه ويحوجـــه إليـــه ... وعلى العبد أن ينظر إلى نفسه ويرى هل يستحق على الله شيئا. وما أصله؟ وكيف وصل إلى ما وصل؟ ... وإنما يجيئك الاستقلال من نظـــرك إلـــى النعمـــة دون المنعـــم ســـبحانه وتعالى" [2].

٧- النصيحة :

النصيحة للحكام من الفضائل الخلقية التى يجدر بالمسلم أن يتحلى بها ويرى الســـبكى أن المسلم إذا كان مقبول الكلمة لدى ولى الأمر فعليه أن يسدى إليه النصـــح لكـــى ينصـــف المظلومين ويقف بجوار الحق "إذا كنت مقبول الكلمة عند ولى الأمـــر فـــالمطلوب منـــك أن تنصحه، وتنهى إليه ما يصح ويثبت عندك من حال الرعايا، وتساعد عنده على الحـــق بمـــا تصل إليه قدرتك، ولا يكن حظك منه الاقتصار على حطام تجمعه لنفسك أو دنيا تضمها إليك،

---

(١) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ص ١٩،١٨.

(٢) ---------- : المرجع السابق، ص ص ١٦،١٥.

فإن ذلك سبب زواله عنك، بل المقتضى لدوام ما عندك منه ما ذكرناه من النصيحة والمساعدة فى الحق، لتدوم لك نعمته التى هى سبب نعمتك... وما أحمق من كانت له كلمة نافذة عند ولى الأمر وترك المظلوم يتخبطه الظلم ولا يجد منجدا وهو قادر على إنجاده، فذاك الذى صلاته وبال عليه. كما قال الفقهاء فيمن كان يصلى فمر به غريق تلاطمه أمواج البحر، وهو قادر على إنقاذه، فإنه يجب عليه قطع الصلاة وإنقاذه ، وهذا وذاك سيان"[١].

ويسوق السبكى حديثا للرسول ﷺ عن النصيحة ويشرحه "سئل ﷺ عن الدين فقال: النصيحة. قيل لمن يا رسول الله ، فقال ﷺ : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم"[٢]. فالنصح لله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولكتابه بالعمل به ولرسوله باتباع سنته ولأئمة المسلمين بإرشادهم إلى أحكامه والوقوف عند أوامره ونواهيه، ولعامة المسلمين بدلالتهم على ما يقربهم إليه "[٣].

٨- حسن السمعة :

حث السبكى المسلم على التحلى بهذه الفضيلة الخلقية الرائعة ويرى أنها من أسباب سعادة الإنسان فى دنياه ويبين الطريق إلى ذلك وكيف يصون الإنسان سمعته وينقل عن والده ذلك "نقلت من خطه رحمه الله ورضى عنه هذه الكلمات لنفسى ولغيرى مما أرجو النفع بها إن شاء الله تعالى: أسباب السعادة فى الدنيا والأخرة فى سبعة أشياء: الدين والعلم والعقل والأدب وحسن السمعة، والتودد إلى الناس، ورفع الكلفة عنهم ... وأما حسن السمعة : فإن بها حفظ دنياه، وأخرته ، ومتى ساءت سمعته فسدت عليه دنياه وقد تكون ذلك سببا فى فساد أخرته والطريق إلى حسن السمعة أنه مع جودته فى نفسه يتجنب مظان التهم ومجال الريب، ومعاشرة الأسقاط (الأراذل) والأدنياء وأهل الريبة، وأن يصون نفسه ما أمكنه ، ولا يرى بارزا إلا بقدر الحاجة ، فمن عاشر قوما عد منهم وإن كان بريئا. وقد قيل: لا ينبغى للعالم أن يكون خراجا ولاجا، فإن من أكثر من الاجتماع بالناس هان قدره عندهم ، ومن خرج من بيته عرض نفسه لكل بلاء والسلامة فى العزلة وليتأدب بقوله ﷺ : "وليسعك بيتك" . ورأينا كثيراص من الناس اعتزلوا الناس فسلموا من أذاهم ، وإن كانوا على ما لا يحب ، ورأيت كثيرا منهم خالطوهم فنسبوا إلى ما ينبغى وإن كانوا برآء"[٤].

---

[١] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق ، ص ٢٠.

[٢] مسلم : صحيح مسلم بشرح النووى ، جـ٢، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ص٣٧.

[٣] تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ٨، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

[٤] ---------- : المرجع السابق ، جـ ١٠، ص ٣٠٢.

كانت هذه بعض الفضائل الخلقية التى دعا السبكى المسلم إلى التحلـــى بـــها ويـــرى السبكى أن هناك رذائل سيئة يجب على المسلم تجنبها وهى:

(أ) الحسد :

يعتبر الحسد من الأخلاق المذمومة شرعا والمسلم لا يحسد ولا يكون الحسد خلقا لـــه ولا وصفا فيه ما دام يحب الخير لجميع الناس وهو يبغض الحسد لأنه اعتراض على قســـمة الله فضله بين خلقه . قال تعالى : "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله" النساء:٥٤. ويعنى الحسد تمنى زوال نعمة الغير وهو غير الغبطة. ويعتبر السبكى الحسد مـــن الرذائـــل الأخلاقية التى يجب على المسلم تجنبها "الحسد تمنى زوال نعمة من يســـتحق تلـــك النعمـــة، فالحاسد يعاند المقادير الإلهية ويطلب وضع الحق فى غير موضعه أو زواله عن موضعه فهو عاص بهذا الاعتبار، وذلك (الحسد) إما كبيرة أو يسير كبيرة وهو مذموم مطلقا . قال تعـــالى: "أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا" الزخرف:٣٢. "[١].

(ب) النميمة :

يرى السبكى أن النميمة من الأخلاق الذميمة التى يجب على المسلم اجتنابها وســـوق من الأدلة ما يدعم كلامهم "النميمة : وهى نقل كلام بعض الناس إلى بعض على وجه الإفســـاد بينهم [٢]. قال ﷺ : "لا يدخل الجنة نمام" [٣]. أما نقل الكلام نصيحة للمنقول إليه فواجب كمـــا قال تعالى حكاية عن موسى "إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك" القصص:٢٠." [٤].

(ج) كتمان الشهادة :

يرى السبكى أن كتمان الشهادة من الرذائل التى يجب على المسلم أن يتجنبها ويســـتدل على ذلك من القرآن الكريم "كتمان الشهادة كبيرة من الكبائر . قال تعالى : "ومن يكتمها فإنـــه أثم قلبه" البقرة : ٢٨٣. أى ممسوخ "[٥].

---

[١] تاج الدين السبكى : الأشباه والنظائر ، جـ ٢، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

[٢] ----------- : جمع الجوامع ، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ١٥٤،١٥٥.

[٣] البخارى : الأدب المفرد، باب النمام ، بيروت ، مؤسسة الكتـــب الثقافيـــة، ط١، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦م، ص٧٦.

[٤] تاج الدين السبكى: جمع الجوامع ، جـ٢، مرجع سابق، ص ١٥٥.

[٥] ---------- : المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٥.

(د) الرشوة :

ينبه السبكى إلى أن الرشوة من الرذائل السيئة ويحذر المسلم منها "الرشوة: وهـى أن يبذل مالا ليحق باطلا أو ليبطل حقا [1]. قال ﷺ : "لعن الله الراشى والمرتشى والرائـش"[2]. الرائش الذى يسعى بينهما "[3].

(هـ) الكبر والفخر والتجبر:

يرى التاج السبكى أن الكبر والفخر والتجبر رذائل سيئة ويحث المسلم على الابتعـاد عنها ويرى أن المحن تمنع المسلم من أن يتكبر أو يتجبر"إن المصائب والشدائد تمنـع مـن البطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر ، فإن نمرود لو كان فقيرا سقيما فاقد السمع والبصـر لما حاج إبراهيم فى ربه، لكن حمله بطر الملك على ذلك، وقد علـل الله سـبحانه وتعـالى محاجته بإتيانه الملك، فقال: "ألم تر إلى الذى حاج إبراهيـم فـى ربـه أن أتـاه الله الملـك" البقرة:٢٥٨. ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال: " أنا ربكم الأعلى" النازعات:٢٤."[4].

(و) التجسس على الناس:

يرى التاج السبكى أن التجسس على الناس رذيلة من الرذائل ودعا المسلم إلى اجتنابها وساق من شواهد القرآن الكريم والسنة النبوية ما يدعم به كلامه ونفر المسلم من هذه الرذيلـة وأوضح ما كان يفعله بعض الولاة من المماليك فى عصره ودعاهم إلى الكف عن هذه الرذيلة وبين عاقبة من يتجسس على الناس بغير حق "الوالى هو الآن اسم لمن آل إليـه أمـر أهـل الجرائم من اللصوص والخمارين وغيرهم . ومن حقه الفحص عن المنكـرات مـن الخمـر والحشيش ونحو ذلك، وسد الذريعة فيه ، والستر على من سـتره الله تعـالى مـن أربـاب المعاصى، وليس له أن يتجسس على الناس ويبحث عما هم فيه من منكر ، ولا كبس بيوتـهم (الهجوم عليها) بمجرد القيل والقال ، قال الله تعالى :"ولا تجسسوا" الحجرات: ١٢. [5] وثبـت أنه ﷺ قال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا"[6]. قال العلماء: أراد بالظن سوء الظن. وقيل لابن مسعود: هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال: إنا نهينا عـن

---

[1] تاج الدين السبكى : جمع الجوامع ، جـ ٢، مرجع سابق ، ص ١٥٨

[2] الحاكم : المستدرك على الصحيحين، جـ ٤، كتاب الأحكام، باب الأحكام، مرجع سابق، ص١٠٣.

[3] تاج الدين السبكى : جمع الجوامع ، جـ ٢، مرجع سابق، ص ١٥٨.

[4] ---------- : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق ، ص ١٢٢.

[5] ---------- : معيد النعم ومبيد النقم ، مرجع سابق ، ص ٤٠.

[6] البخارى : صحيح البخارى ، جـ٤، كتاب الأدب، باب ما ينهى من التحاسد والتدابـر، مرجـع سـابق، ص٩٦.

التجسس، ولكن إن يظهر لنا شئ نأخذ به[١] . وعن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم"[٢]. فقل لجاهل يخطر له أنه يصلح الناس بتتبع عوراتهم: رسول الله ﷺ أصدق البشر قال : إن اتبعتها أفسدتهم أو كدت. بل حق على الوالى – إذا تيقن– أن يبعث سرا رجلا مأمونا ينهى عن المنكر بقدر ما نهى الله ولا يزيد على ذلك. وما تفعله الولاة من إخراج الناس من بيوتهم وإرعابهم وإزعاجهم ، كل ذلك من تعدى حدود الله تعالى، والظلم القبيح* ... فإن سمعت بوال بلغه عن جماعة أنهم على منكر فأتى بخيله ورجله، وهتك ستر أناس سترهم الله تعالى، ثم ضم إلى ذلك أخذ مال منهم تسميه الولاة التأديب والجنايات، فاعلم أن صفقته خاسرة، ليت شعرى الله أمره بهذا حتى يعتمده مع خلقه..."[٣].

يتضح أن ثمة رذائل أخلاقية سيئة حث السبكى المسلم على اجتنابها والابتعاد عنها.

ويتبين مما سبق اهتمام السبكى بتربية الشخصية المسلمة على ممارسة الفضائل الأخلاقية التى دعا إليها الإسلام والبعد عن الرذائل الأخلاقية ودعا لإيجاد مجتمع إسلامى صالح تسوده قيم وفضائل الإسلام وكانت وجهته فى ذلك الكتاب والسنة.

---

[١] تاج الدين السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٤٠.

[٢] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ١٦، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم، مرجع سابق، ص١٢٠.

* كانت مهمة الوالى فى ذلك العهد حماية البلاد من عبث المفسدين بيد أن بعض الولاة تجاوزوا ذلك كما عبر عن ذلك السبكى.

[٣] تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، مرجع سابق، ص ٤١.

الفصل السادس

الآراء التربوية عند سعد الدين التفتازاني

الفصل السادس

الآراء التربوية عند سعد الدين التفتازاني

٧٢٢ — ٧٩٢هـ

١- مقدمة:

شهد القرن الثامن الهجري بروز بعض العلماء الذين برعـــوا فـــي العلـــوم العقليـــة وخصوصاً علم الكلام وكان من أشهرهم سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـــ) وقـــد احتـــوت بعض كتاباته علي بعض الآراء التربوية ويري الباحث أنه في حدود علمه لم يسبق لأحد مـــن الدارسين في مجال التربية أن تناول الآراء التربوية لدي هذا العالم ومن ثم كان اهتمام الباحث بالكشف عن أهم الآراء التربوية لسعد الدين التفتازاني.

وسوف يبدأ الباحث بالتعرف علي شخصية هذا العالم فيتحدث عن مولده ونشأته وأهم المؤثرات في فكره والفكر العام له ثم يعرض بعد ذلك لآرائه التربوية فيتناول الهدف التربوي والطبيعة الإنسانية بمكوناتها وقواها المختلفة ثم يعرض الباحث للعلم ومفهومه وأدوات اكتسابه وبعض ذلك يعرض للأخلاق.

سعد الدين التفتازاني (٧٢٢ — ٧٩٢هـــ = ١٣٢٢ — ١٣٨٩م) أجمعت أكثر المصادر التي ترجمت علي أنه مسعود بن عمر بن عبد الله[(١)] (سعد الديـــن التفتـــازاني)، نســـبه إلـــي (تفتازان) وهي قرية كبيرة من أعمال خراسان قريبة من (نسا). وزاد بعضـــهم علـــي لقـــب (التفتازاني) لقبي: الهاروي الخراساني، نسبه إلي هراة، و(خراسان) ولا يتعارض هـــذا مـــع نسبته المشهورة بـــ (التفتازاني) لأن (تفتازان) تقع ضمن ولاية (خراســـان*)، فـــإن اشـــتهر بالتفتازاني، فلأنه ولد فيها، وإن نسب إلي خراسان فلأنه عاش فيها، وتنقل بين قراهـــا، وإن نسب إلي (هراة) فلأنه أقام فيها مدة من الزمن، وأكمل فيها بعض مؤلفاته الشهيرة[(٢)].

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـــ٥، مرجع سابق، ص١٢٠، وأيضاً: الشواكاني: البـــدر الطـــالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـــ٢، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ص ص ٣٠٣- ٣٠٦، والسيوطي: بغيـــة الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٤٧هـــ، وابن تغري بردي: المنهل الصـــافي، جـــ٢، مخطوط لدار الكتب رقم ٢٥٣٣، ص ٣٥٥.

* ذكر التاج السبكي في طبقات الشافعية الكبري، جـــ١، ص ٣٢٥، أن خراسان "عمدتها أربعة وهي: مـــرو، ونيسابور، وبلخ، وهوراة، هذه مدنها العظام، ولا ملام عليك لو قلت: بل هي مدن الإسلام إذ هي كانت ديـــار العلم علي اختلاف فنونه".

(٢) عبد الكريم الزبيدي: تحقيق كتاب إرشاد الهادي في النحو لسعد الدين التفتازاني، جدة، دار البيان العربـــي للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـــ - ١٩٨٥م، ص ٩.

ونشأ في عصر سيادة المغول علي بلاد المشرق، وتمزقهم دولـــة المســلمين بعــض سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ — ١٢٥٨م. ونشأ في بيت علم، فقد كان أبوه قاضياً، وشبي يشــاهد تسابق العلماء علي البحث، وإنكبابهم علي العلم، ووجد التفتازاني حلقات الدرس قائمـــة هنــا وهناك تحت رعاية علمية من أعلام اللغة والأدب والمنطق هما: قطب الديـــن الـــرازي (ت ٧١٠هـ)، وعضد الدين الأيجي (ت ٧٥٦هـ) فتتلمذ عليهما، ونهم من علمـــهما الجـم... ويبدو أن صاحبنا كان ميسور الحال، وكان قد أتصل بسلاطين عصره، وجعل بعض مؤلفاتهم باسمهم وأهداها لهم، فقد أتم شرحه المعروف بـ (المطول) الذي أتمه في (غجـــدوان) عــام ٧٥٦هـ. وكان قد أهداه إلس السلطان جلال الدين أبي المظفر محمود*، الملقب بجـــالي بــك خان[1].

وكان التفتازاني شافعي المذهب حيث كان أبوه عمر قاضيا شافعيا والشـــيوخ الذيـــن تتلمذ عليهم كانوا شافعية، فالأيجي أشعري وكان التفتازاني شديد الإعجاب به وكذا كان أستاذه قطب الدين الرازي شافعيا[2].

وقد ضاق عالمنا ذرعا بزمانه ولذا عاش قلقا متنقلا كثير الأسفار لا يستقر علي قرار فترة يشكو متبرما بأيام زمانه في عدة مواضع من شروحه ومؤلفاته حيث يذكر فـــي مقدمـــة شرحه للمطول عام ٧٤٨هـ "وحين فرغت من تسويد هذه الصحائف بتلك اللطائف"

رماني الدهر بالإزراء حتي فؤادي في غشاء من نبـــال
فصرت إذا أصابتني الهام تكسرت النصال علي النصال

وذلك من توارد الأخبار بتفاقم المصائب في العشائر والإخوان عند تلاطم أمواج الفتن في بلاد خراسان.

لاسيما ديار حل بها الشباب تميمتي وأول أرض مس جلدي ترابها

فلقد جرد الدهر علي أهاليها سيف العدوان وأباد من كان فيها من السكان ... وإلـــي الله المشتكي من دهر إذا أساء أصر علي إساءته وإن أحسن قدم عليه من ساعته ثم ألجـــأني

* غالي التفتازاني في مدح هذا السلطان والثناء عليه وأهداه كتابه "شرح المختصر علـــي التلخيـص" عـــام ٧٥٦هـ ويذكر في معرض الثناء علي هذا السلطان "... السلطان الأعظم مالك رقاب الأمم ... حافظ البـــلاد ناصر العباد ماحي الظلم والعناد" التفتازاني: الشرح المطول علي التلخيص، القاهرة، ط١، ١٣٣٠، ص ٥.

(١) عبد الكريم الزبيدي: تحقيق كتاب إرشاد الهادي في النحو للتفتازاني، مرجع سابق، ص ص ١٣،١٤.

(٢) سركيس يوسف اليان: معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، ١٣٤٦هـ – ١٩٢٨م، ص ٦٣٥، وأيضا عبد الكريم الزبيدي: تحقيق كتاب إرشاد الهادي في النحو للتفتازاني، مرجع سابق، ص ص ٢٢،٢٣.

فرط الملال وضيق البال إلي أن تلفظني أرض إلي أرض وتجرني من رفع إلي خفض حتى أنخت بمحروسة هراة حماها الله تعالي من الآفات"[١].

وقد بث التفتازاني شكواه المريرة من زمانه هذا أيضاً في مقدمة الكتاب "شرح المقاصد" حين بين كيف أن العلوم انقرضت فيه مما تكاد له الأنفاس تتقطع والجبال تتصدع "والعجب من تقاصر همم الرجال وفسادها، وتراجع سوق الفضائل وكسادها، وتضعضع بنيان الحق، وتداعي أركانه، وتزعزع شأن الباطل وتمادي طغيانه، ... إلي أن رماني زماني وبلاني من الحوادث بما بلاني وحالة الأحوال دون الأمان بل الأماني ... وترامت بي الأقطار والأسفار أقاس أحوالاً تشيب النواصي، وأهوالاً تذيب الرواسي أشاهد من أسباب انقراض العلوم وانتقاص مددها ما تكاد له الأنفاس تتقطع والجبال تتصدع"[٢].

ويبدو أن الذي حمله علي كثرة الأسفار هذه وشكواه من الدهر أنه عاش في فترة مضطربة لما ساد فيها من فتن وحروب أدت إلي الدمار والخراب في كثير من الأحيان، وقد اتضح لي ذلك علي الرغم من كل المصادر التاريخية التي تحدثت عن هذه الفترة حيث أنها لدرجة أن الباحث يجد صعوبة في البحث عن بيئة فارس وخراسان خلال تلك الحقبة الزمنية ومن ثم كان السعد كثير التنقل والأسفار علي أن العصر الذي عاش فيه عالمنا كان عصر ازدهار للعلوم الشرعية وفروعها في كثير من الأحيان كما تمتع فيه الشيوخ بكثير من الحماية في بعض الأحيان أيضاً رغم أنه ساد في الجمود في المجالات العلمية كافة وعدم الابتكار. وبخاصة بيئة فارس وخراسان التي لمع فيها السعد حيث كان هم العلماء وشغلهم الشاغل شرح المؤلفات ووضع الحواشي عليها وعلي شروحها. ولذا فإن التفتازاني قد واكب عصره وساير بيئته في هذه الظاهرة إذا نراه يضع كثيراً من الشروح في علوم النحو والصرف واللغة والبلاغة والمنطق وعلم الكلام والأصول والفقه وغير ذلك[٣].

ويعتبر سعد الدين التفتازاني من كبار علماء الشافعية ومن أعلام الأشاعرة المتأخرين في القرن الثامن الهجري ممن لهم باع واسع في علم الكلام وقد تأثر بعلماء الأشاعرة السابقين وغيرهم من الماتريدية والمعتزلة أو الفلاسفة وكان يستخدم أدلتهم في مسائل علم الكلام وأتبع في كتاباته المنهج التحليلي حيث أنه لا يترك القضية التي يبحثها إلا بعد أن يوفيها حقها من البحث وكان يبين الآراء المخالفة في القضية التي كان يبحثها ويرد عليها وكثيراً ما يستشهد بالأدلة النقلية من القرآن والسنة بعد العقلية ويعود عليها وكثيراً ما يقوي أدلة الأشاعرة الذين

---

[١] سعد الدين التفتازاني: الشرح المطول علي التلخيص، مرجع سابق، ص٤.

[٢] ------------: شرح المقاصد، جـ١، مرجع سابق، ص ١٥٦.

[٣] محمد عمر محمد حسن : جهود سعد الدين التفتازاني في الإلهيات من علم الكلام، مرجع سابق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص ٧.

ينتمي إليهم حين يرد علي المعتزلة ويفند آرائهم وكان أميناً في النقل عن السابقين حتي تكـاد أن تكون نقوله حرفية إلا أنه أحياناً لا يشير إلي قائليها[1].

(أ) أهم المؤثرات في فكره:

تتلمذ سعد الدين التفتازاني علي نخبة من علماء عصره كان له أثر كبي في إعـداده وتكوينه الفكري وكان من أبرزهم شيخه عضد الدين الأيجي الذي كان عالمـاً مـن أعـلام الأشاعرة المتأخرين في القرن الثامن الهجري والذي "ولد في "إيج• من نواحي شـيراز بعـد السبعمائة أخذ العلم عن مشايخ عصره ولازم الشيخ زين الديـن الـهنكي تلميـذ البيضـاوى وغيره... وكان إماماً في المعقول وله (المواقف) في علم الكلام وغير ذلك وأنجـب تلامـذة عظاماً اشتهروا في الآفاق مثل سعد الدين التفتازاني وشمس الدين الكريماني وغيرهم. مـات سنة ٧٥٦هـ"[2].

ويعد عضد الدين الأيجي الشافعي المذهب الأشعرية العقيدة الذي بـرع فـي العلـوم العقلية – كما سبق القول – من اشهر الشيوخ الذين تأثر بهم السعد وأثروا في تكوينه الفكـوي وسار علي منهجه ويبدو هذا التأثر واضحاً وجلياً في تأليف السعد لكتابه (شرح المقاصد) فقـد جاء كتابه علي وتيرة كتاب (المواقف)•• في علم الكلام للأيجي من ناحية تنظيم الكتاب ومـن ناحية المواضيع التي تناولها الكتاب فقد قسم التفتازاني كتابه إلي ستة مقاصد والأيجي جعـل كتابه علي ستة مواقف والتفتازاني قسم المقاصد إلي فصول ومباحث والأيجي قسم المواقـف إلي مراصد ومقاصد فالخلاف في التسمية ليس إلا. وجعل التفتازاني المقصد الخـامس فـي الإلهيات وتحدث الأيجي في الموقف الأول والثاني والثالث والرابع عن الطبيعيات والمنطقيات وهي الأمور العامة التي تدخل في سائر العلوم ولا تختص بعلم الكلام وحـده وكذلـك فعـل التفتازاني في المقاصد الأربعة السابقة علي الإلهيات وختم كل منهما كتابه بالسمعيات.

---

(1) محمد عمر محمد حسن: جهود سعد الدين التفتازاني في الإلهيات من علم الكلام، مرجع سـابق، ص ص و، ز من مقدمة الرسالة.

• إيج : إحدى البلدان التابعة لمقاطعة شيراز فهو علي هذا فارسي الجنسية وكان شيخ الشافعية فـي بـلاده. انظر: محمد احمد العاليمي: عضد الدين الأيجي وجهوده في الإلهيات من علم الكلام، رسالة دكتوراه، جامعـة الأزهر، كلية أصول الدين بالقاهرة، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ص ٢٢.

(2) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٤٢٩، ٤٣٠، وأيضـاً: تـاج الديـن السبكي: طبقات الشافعية الكبري، جـ ١٠، مرجع سابق، ص ص٤٥، ٤٦.

•• هذا الكتاب من الكتب الكلامية المشهورة وهو مطبوع ومتداول وشرح عدة مرات ومن أبرز شروحه شرح السيد الشريف البرجاني (ت ٨١٦هـ). الأيجي: المواقف في علم الكلام، القاهرة، مكتبة المتنبي، د.ت، ص٢٣.

ويبدو تأثر السعد الشديد واضحاً وجلياً أيضاً فيما ذكره عن شيخه الأيجي "ولم يبقي لنا اقتفاء آثاره والكشف عن خبيئة أسراره والاستقاء من بحر ثماره والاستضاءة بأنواره"[1].

وهذا الثناء من التفتازاني علي شيخه ثناء جميل وحسن واعتراف بفضل شيخه عليه ويظهر بوضوح تأثره به.

ومن الشيوخ الذين تأثر بهم السعد وأثروا في تكوينه الفكري أيضاً قطب الدين الرازي المعروف بالقطب التحتاني* كان بحراً في جميع العلوم، شرح الحاوي، وشرح المطالع والإشارات، وكان إماماً مبرزاً فى المعقولات والمنطق والحكمة. عارفاً بالتفسير والمعاني، مشاركاً في النحو يتوقد ذكاءاً. أخذ عن العضد وغيره. قال الاسنوي: كان ذا علوم متعددة. وقال ابن كثير : كان أوحد المتكلمين بالمنطق وعلوم الأوائل، ومن تصانيفه: شرح المختصر وشرح المفتاح للسكاكي، وشرح الكليات لابن سينا، وصنف كتاباً في الحكمة وسماه غرة التاج وكان من أذكياء العالم، وشرح الإشراق للسهروردي مات بالقاهرة عام ٧٦٦هـ وقد جاوز السبعين من عمره"[2].

هذان العالمان المتكلمان كانا ممن تأثر بهم السعد وخصوصاً شيخه عضد الدين الأيجي وقد أخذ نصوص كثيرة من كتابة (المواقف).

وتأثر السعد واستفاد من علماء الكلام الأشاعرة المتقدمين كفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) وأخذ من كتبه نصوصاً جمة وبالأخص الكتب الأتية: "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، من العلماء والحكماء والمتكلمين" و "المطالب العالية"، "واعتقادات فرق المسلمين والمشركين"، وتأثر أيضاً واستفاد من مؤلفات المحقق المدقق نصر الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) وعلي وجه الدقة: كتاب المتوسطات بين الهندسة والهيئة، والكرة والأسطوانة، وتربيع الدائرة، والمخروطات. استفاد من هذه المؤلفات كثيراً ونقل منها نصوصاً متفرقة وخصوصاً عند حديثه عن المقصد الرابع من هذا الكتاب، وتناوله ما يتعلق بالأجسام ... واستفاد أيضاً من مؤلفات ابن سينا وخاصة: كتاب "الشفاء قسم الجدل والمنطق"، و"الإشارات"، و"القانون في الطب"، و"النجاة" وأخذ نصوصاً عدة من هذه الكتب ولا سيما عند حديثه عن الحواس، والنفس وأقسامها وغير ذلك وبعض النصوص أخذها بالمعنى والبعض بالنص[3]

---

[1] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، جـ٦، مرجع سابق، ص ١٧٥.

* هذا العالم يختلف عن عالم آخر يسمي بقطب الدين الشيرازي الشافعي (ت ٧١٠هـ) وقد ترجم له ابن حجر في الدرر،جـ٥، مرجع سابق، ص ١٠٩، والشوكاني: البدر الطالع، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

[2] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٥، مرجع سابق، ص١٠٨.

[3] عبد الرحمن عميرة : تحقيق شرح المقاصد لسعد الدين التفتازانى،جـ١،مرجع سابق ص ص ١٤٦-١٤٨

(ب) الفكر العام للتفتازاني:

يعد سعد الدين التفتازاني أشهر علماء الكلام في هذا القرن وينتمي إلى متأخري الأشاعرة وقد غلبت عليه دراسات علم الكلام فهو متكلم بالدرجة الأولي ويغلب على كتاباته الطابع الكلامي فكل من ترجم له يشير إلى براعته في العلوم العقلية فقد ذكر ابن حجر عنه أنه"انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق بل بسائر الأمصار"[٣].

وعرف ابن خلدون فضل السعد وأطلع علي مصنفاته وأشاد بمكانته في العلوم العقلية "ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني، منها في علم الكلام وأصول الفقه، والبيان، تشهد بأن له ملكه راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل علي أن له إطلاعا علي العلوم الحكمية، وقدما عاليا في سائر الفنون العقلية"[١].

وممن أثني علي سعد الدين التفتازاني وأشاد به صاحب "مفتاح السعادة "حيث يعده عالما حكيما ويضعه في صف واحد مع ابن سينا، وأيضا السهروردي ومن جملة أساطين الحكمة ابن سينا، والإمام فخر الدين الرازي، ومن نحا نحوهما كنصير الدين الطوسي، ومن هؤلاء الشيخ شهاب الدين السهروردي، وممن انخراط في سلكهم العلامة قطب الدين الرازي، ومولانا سعد الدين التفتازاني وهو إمام الدنيا الذي أشرقت الأرض بنور علومه وتصانيفه"[٢].

ويري الشوكاني أن السعد "أخذ عن أكابر أهل العلم في البصرة كالعضد وفاق في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والكلام واشتهر ذكره ورحل إليه الطلبة. فصاحب الترجمة متفرد بعلومه العقلية في القرن الثامن لم يكن في أهله نظير فيها وله من الحظ والشهرة والصيت في أهل عصره فمن بعدهم ما لا يلحق به غيره ومصنفاته قد طارت في حياته إلي البلدان ..."[٣].

وفي العصر الحديث تذكر دائرة المعارف الإسلامية عن السعد أنه "حجة مشهورة في المنطق والبلاغة، وما وراء الطبيعة، والكلام، والفقه، وغيرهما من العلوم، وله كتب كثيرة مازالت تعلم في مدارس المشرق"[٤].

يتبين من النصوص السابقة أن السعد كان مشاركا في كثير من العلوم إلا أنه كان متكلما بالدرجة الأولي لأن شيوخه كانوا ممن برعوا في العلوم العقلية ومن ثم فإن فكره العلم

---

[٣]ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، جـ٥، مرجع سابق، ص ١٢٠.

[١] ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ص ٤٦٥،٤٦٦.

[٢] طاش كبري زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، جـ١، مرجع سابق، ص ص٣١٠٨،٣٢٠.

[٣] الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج٢ـ، مرجع سابق، ص ص ٣٠٣،٣٠٤.

[٤] نقلا عن عبد الرحمن عميرة: تحقيق كتاب وشرح المقاصد، جـ١، مرجع سابق، ص ١٢٩.

يأتي في هذا السياق ستجيء آرائه التربوية في هذا المجال الذي اهتم به وهو علم الكلام الـذي يراه كما سيوضح الباحث – من أهم العلوم التي ينبغي علي طالب العلم أن يدرسها.

وعاش السعد قرابة ثمانين عاماً يتعلم ويعلم ويؤلف في شتي أنواع العلوم[١] المختلفـة فقد استوعب معظم علوم عصره وبرز فيها وفاق فهو مشارك في النحو والصرف والمعـاني والفقه والأصلين والمنطق والكلام ومن ثم نجد له مؤلفات كثيرة وقد تحدث عـن مصنفاتـه بعض العلماء الذين ترجموا له حيث ذكروا أنها في علوم شتي وتسابق طـلاب العلـم علـي دراستها والعناية بها وشرحوها من بعده وعلقوا عليها حواشي كثيرة فـهو "العلامـة الكبـير صاحب شرحي التلخيص* وشرح المقاصد** في أصول الديـن، وشـرح الشمسـية*** فـي المنطق، وشرح التصريف العربي، ويقال: أنه أول تصانيفه، والإرشاد في النحو**** واختصر فيه الحاجبية، والتلويح***** في أصول فقه الحنفية عمله حاشية علي توضيح صدر الشـريعة وحاشية شرح المختصر للقاضي عضد الدين الأيجي... وله غير ذلك من أنواع التصـانيف في أنواع العلوم التي تنافس الأئمة في تحصيلها والاعتناء بها..."[٢].

ويري ابن العماد الحنبلي أن السعد له مصنفات مختلفة ويسردها ويذكر سنوات تأليفـه لها ونقل ذلك عن ابن حجر "... انتهت إليه معرفة العلم بالمشرق، أخذ عن القطب (قطـب الدين الرازي) والعضد وتقدم في الفنون وانتفع الناس بتصانيفه ومنها: شرح تلخيص المفتـاح في البلاغة وفرغ من تأليفه في صفر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بهراة ومن اختصاره سـنة ست وخمسين من شرح الشمسية (في المنطق)سنة سبع وخمسين بمزارخـان، ومـن شـرح

---

[١] ذكر ابن تغري بردي عن السعد أنه برع في التصنيف "وكان فريد عصره، وإنه برع في المعقول، وسـاد علي أقرانه، وشارك في المنقول، وتصدي للإقراء والتدريس، وبرع في التأليف والتصنيف، وانتفع بمؤلفاتـه الخاص والعام" ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ٢ مخطوط مرجع سابق.

* الشرح المطول علي كتاب تلخيص المفتاح في المعاني والبيان للشيخ جلال الدين القزويني (ت ٧٣٩هـــ) ويعرف بالشرح المطول علي التلخيص، مرجع سابق.

** سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، تحقيق عبد الرحمن عميرة وهو في خمسة أجزاء، مرجع سابق.

*** شرح الرسالة الشمسية في المنطق والرسالة لنجم الدين القزويني المعروف بالمكاتبي تلميذ نصر الديـن الطوسي (ت٦٩٣هـ).

**** سعد الدين التفتازاني: إرشاد الهادي في النحو، تحقيق عبد الكريم الزبيدي، مرجع سابق.

***** -----------: شرح التلويح علي التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، جزءان، بـيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٥، مرجع سابق، ١١٩.

التلويح في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين بكلستان من تركستان، ومن شرح العقائد* في شعبان سنة ثمان وستين ومن الإرشاد سنة أربعة وسبعين وكلها بخوارزم ومن المقاصد في ذي القعدة سنة أربع وثمانين بسمرقند وفتاوي الحنفية شرع في تأليفها يوم التاسع من ذي القعدة سنة تسع وخمسين ومن تأليف مفتاح الفقه سنة اثنين وسبعين وسبعمائة..."[1].

يتبين أن للسعد مصنفات متعددة في علوم مختلفة في المعقول والمنقول.

ويمتلك التفتازاني القدرة علي النظم فله أشعار منتشرة في بعض الكتب، وهي وإن لم تدل علي شاعرية مرهفة وأصيلة، إلا أنها تدل علي قدرته في التصرف بالألفاظ وصياغتها، وعلي ثروة لفظية كبيرة يمتلكها، وروي أنه كان إذا ذهب إلي ساحة رأي حلقات الدرس، وتجمع الطلاب هتف بشعره قائلا:

فرق فرق الدرس وحصل مالا	فالعمر مضي ولم نذل آمالا
لا ينفعك القياس والعكس ولا	افعنلل ينفعلل انفعنلالا"[2].

وكان لسعد الدين التفتازاني مناظراته مع معاصريه "ومن أبرزهم السيد الشريف الجرحاني** فقد ناظره في أكثر من مجلس، وتصدي لآرائه وأقواله بالنقد تارة، والتزييف تارة أخري ولم تشر المصادر إلي شخصية أخري معاصرة للتفتازاني ناظرته وكان لها شأن سوي الجرحاني، كما أن أكثرها أشار إشارة ضعيفة إلي ما وقع بينهما من الاختلاف والمناظرة[3]. فقد ذكر الشوكاني أن ثمة مناظرة جرت بين السعد والجرحاني في مجلس تيمورلنك وحكم للجرحاني فحزن لذلك السعد واغتم ومات كمدا "... وجرت بينه وبين السيد الشريف الجرحاني مناظرة في مجلس السلطان الكبير الطاغية تيمورلنك في مسألة كون إرادة الانتقام سببا للغضب أو الغضب سببا لإرادة الانتقام فصاحب الترجمة يقول بالأول والشريف بالثاني. قال الشيخ منصور الكازروني: والحق في جانب الشريف، وجرت بينهما أيضا

---

* العقائد النسفية للشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد (ت ٥٣٧هـ) وقد شرحها السعد وسماها شرح العقائد النسفية وقد حققه احمد حجازي السقا، تحقيق شرح العقائد النسفية للتفتازاني، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

[1] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٦، مرجع سابق، ص ٣٢١.

[2] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٦، مرجع سابق، ص ص ٣١٩،٣٢٠.

** من العلماء الذين تأثروا بعضد الدين الأيجي ويعرف بالسيد الشريف ولد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري ومن أشهر كتبه "التعريفات" وشرح كتاب المواقف للأيجي، انظر ترجمته في: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ٥، القاهرة، مكتبة حسام الدين القدسي، ١٣٤٥هـ، ص ٣٢٨، والشوكاني: البدر الطالع، جـ١،مرجع سابق، ٤٨٨.

[3] عبد الكريم الزبيدي:تحقيق شرح كتاب إرشاد الهادي في النحو لسعد الدين التفتازاني،مرجع سابق،ص٢٤.

المناظرة المشهورة في قوله تعالي: "ختم الله علي قلوبهم وسمعهم وأبصارهم غشاوة" البقرة:٧. ويقال بأنه حكم بأن الحق في ذلك مع الشريف فاغتم صاحب الترجمـــــة ومـــات كمـــدا والله أعلم"[١].

ويروي أنه بعد هذه المناظرة التي جرت بينه وبين الجرجاني أخذ يعـــــرض بملـــوك الأرض وخصوصا تيمورلنك في شعره:

إذا خاض في بحر التفكر خـــــاطري علي درة من معضلات المطالب

حقرت ملوك الأرض في نيل ما حووا ونلت المني بالكتب لا بالكتائب"[٢].

ثم تمتلئ نفسه باليأس وتكتنفه الأحزان ويسخر من العلم والعلماء وخصوصا بعـــد أن أخذ السيد الشريف الجرجانى. وهو يعتبر من تلامذته يتهمه بقصور العقل وقلة البضاعة فكان يقول:

طويت بإحراز العلوم وكسبها رداء شيابى والجنون فنون

فلما تحصلت العلوم ونلتهـــا تبين لي أن الفنون جنون"[٣].

ولم تذكر أكثر المصادر التي ترجمت للسعد تلامذته واكتفي بعضــــها بذكـــر بعـــض الشخصيات، ولعل السبب في ذلك يعود إلي أنه لم يكن من طلبة السعد من نال شـــــهرة فـــي عصره، الأمر الذي يدعو أهل التراجم إلي الكتابة عنه وعن شيوخه. والحقيقة أن مصنفاته قد انتشرت في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، وانكب عليها طلاب العلم يدرسونها، وينــــهلون منها، ويغوصون في بحارها، مستخرجين كنوزها، فاتحين مغاليقــــها، فكـــل هـــؤلاء يمكـــن اعتبارهم تلاميذه، وإن لم يأخذوا عنه مباشرة. ومن تلاميذه الذين ذكرتهم المصادر: فتـــح الله الشرواني الرومي الحنفي أخذ عن التفتازاني والسيد الشريف الجرحاني واستفاد منــــهما فـــي العلوم العقلية والشرعية شرح كتاب إرشاد الهادي في النحو (ت ٨٥٧هـــ.) وعـــــلاء الديـــن الرومي (ت ٨٤٠هــ)[٤].

٢- الآراء التربوية:

قبل أن يعرض الباحث لآراء السعد التربوية ينوه إلي أن آرائه التربوية تتســـق مـــع اتجاهه الفكري كأحد المتكلمين ولذا فإنه يعد من التربويين "أصحاب الاتجاه العقلي الديني الذي يرجع إلي العقل والدين في قضايا التربية، ويفئ إلي عقلـــه وتجاربـــه وثقافتـــه وخصوصـــا

---

[١] الشوكاني: البدر الطالع، جـــ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٠٦،٣٠٥، وابن العماد الحنبلي: شذررات الذهب، جـــ٦، مرجع سابق، ص ٣٢١.

[٢] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـــ٦، مرجع سابق، ص ٣٢١،٣٢٠.

[٣]ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـــ٦، مرجع سابق، ص ص ٣٢٢.

[٤] طاش كبري زادة: مفتاح السعادة، جـــ١، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

العناصر الوافدة من اليونان، في كثير من الأحيان كابن سينا الفيلسوف الطبيب، ومسكويه الذي يسرف في الأخذ عن اليونان"[1].

أولا : الهدف التربوي عند التفتازاني:

باستقراء فكر السعد نجد أن الهدف التربوي عنده يتمثل في معرفة الله وتوحيده وهذا الهدف يعتبر أهم أهداف التربية عنده وكافة الأهداف الأخرى وسيلة إليه ولذا نجده يقرر أن الإنسان خلقه الله سبحانه وتعالي لغاية واحدة وهي معرفته والعلم بصفاته ووحدانيته "الإنسان بشهادة العقل والنقل خلق لغاية هي معرفة الله والإيمان به وباليوم الأخر ومعرفة الصانع وصفاته التي تليق به"[2].

إن معرفة الله وتنزيهه من الأهمية بمكان عند السعد ومن ثم اهتم بالخالق ووجوده وأفاض في الحديث عن كماله وقدرته "تحمدك يا من بيده ملكوت كل شيء وبه اعتضاده، ومن عنده ابتداء كل حي وإليه معاده، تتلي من أوراق الأطباق آيات توحيده وتحميده، وتجلى في الآفاق والأنفس شواهد تقديسه وتمجيده، ما تسقط في الأكوان من ورقة إلا تعلمها حكمته الباهرة، ولا توجد في الأماكن من طبقة إلا تشملها قدرته القاهرة، تقدس عن الأمثال، والأكفاء ذاته الأحدية، وتنزه عن الزوال والفناء صفاته الأزلية والأبدية، سجدت لعزة جلاله جباه الأجرام العلويه... ونشكرك علي ما علمتنا من قواعد العقائد الدينية، وخولتنا من عوارف المعارف اليقينية"[3].

والله تعالي عند السعد موجود واحد لا شريك له بجسم ولا عرض ولا يوصف بالقيام ولا بالقعود، ولا الدخول ولا الخروج فهو سبحانه منزه عن كل ذلك "إن الواجب سبحانه وتعالي يخالف الممكنات في الذات والحقيقة، إذ لو تماثلا، وامتاز كل عن الآخر بخصوصية، فمثل الوجود والإمكان إما أن يكون من لوازم الذات، فيلزم اشتراك الكل فيه، أو الذات مع الخصوصية، فيلزم التركيب المنافي للوجوب الذاتي... وحقيقة التوحيد عدم الشريك في الألوهية وخواصها ولا نزاع لأهل الإسلام في أن تدبير العالم وخلق الأجسام، واستحقاق العبادة وقدم ما يقوم بنفسه كلها من الخواص ونعني بالقدم عدم المسبوقية بالعدم ... وأنه تعالي ليس بجسم لآن كل جسم مركب من أجزاء عقلية هي الجنس والفصل، ووجودية وهي الهيولي والصورة ... وليس بعرض لآن كل عرض يحتاج إلي محل يقومه ولا جوهر ...

---

[1] عبد البديع الخولي: بحوث تربية إسلامية، مرجع سابق، ص ٨٠.

[2] سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـ١، مرجع سابق، ص ص ١٥٧، ١٥٨.

[3] -------------: المرجع سابق، ص ١٥٣.

وليس في مكان ولا وجهة ... ولا يتحد بغيره، ولا يحل فيه ... والحلول والاتحاد محكي عن النصارى ..."[1].

ويري السعد أن معرفة الله تعالي هي أول الواجبات عن المكلف "أول الواجبات علي المكلف هو معرفة الله تعالي وهي أساس الواجبات"[2].

يتضح أن معرفة الله وتنزيهه وعبادته وتوحيده هي أول وأهم أهداف التربية عند السعد.

وتهدف التربية عند السعد إلي أعداد الإنسان لقبول التكليف وقد تناول التفتازاني الإنسان باعتباره كائن مكلف وهذا يوضح لنا الصلة بين التكليف والتربية فضلا عن صلة التكليف بطبيعة الإنسان من حيث قدرتها علي تحمل تبعات التكليف أو عدم احتماله كما أن مسئولية الإنسان عن أفعاله وسلوكه لا قيمة لها إلا بكونه مكلفا من قبل الله تعالي.

وعلي هذا فالحديث عن التكليف يتصل اتصالا مباشرا بالحديث عن التربية لأن الإنسان المكلف المسئول عن رسالة ما في حياته والداعي لها في إطار مجتمعه، والمنوط به القيام بدور الخلافة في الأرض وعمارة الكون، بحاجة إلي تمرين وتدريب وتعليم وتربية ليؤدي دوره بنجاح واقتدار.[3].

واهتم علماء الأصول والفقهاء بهذا الموضوع وكذلك علماء الكلام وأفردوا له مبحث في كتاباتهم وهو موضوع واسع وكبير والباحث سيتناول التكليف عند التفتازاني في إطار الفكر الأشعري الذي ينتمي إليه.

أما تعريف التكليف عند الأشاعرة فقد ربط البغدادي بين معني التكليف في اللغة وهو من الكلفة بمعني التعب والمشقة – ومعناه في الشرع – حيث يطلق علي الأمر والنهي لأن المأمور بالفعل يفعل ما أمر به علي كلفه من غير أن يدعوه إليه طبعه وعلي هذا يكون معني التكليف هو "توجه الخطاب بالأمر والنهي علي المخاطب، فإن وجد مثل صفة الأمر من النائم والمجنون والصبي الذي لا يعقل، لم يكن أمرا ونهيا وتكليفا، وإن وجد مثله من صبي يعقل معناه كان أمرا ونهيا ولكن لم يجب به علي المخاطب شيء. وقد قال أصحابنا:إن التكليف الذي يجب به شيء أو يحرم به شيء إنما هو أمر الله تعالي ونهيه"[4].

---

[1] سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـ٤، مرجع سابق، ص ٢٥، ٣٩، ٤٣، ٥٤.

[2] ------------: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٧١.

[3] علي خليل أبوالعنين: قراءة تربوية في فكر أبي الحسن البصري الموردي من خلال كتاب أدب الدنيا والدين، القاهرة، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٨٩، ص ٦٣.

[4] عبد القاهر البغدادي: أصول الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٩٨١، ص٢٠٧.

ونظر الأشاعرة للتكليف في ضوء عموم القدرة الإلهية وشمولها – فالله عز وجل – يقدر علي كل شيء، ولا يجب عليه شيء وكل أفعاله حكمة، حتى وإن كانت ظاهرة التعارض مع مصالح العباد، ولهذا لا يجوز أن يكلف الله الناس أصلا، كما يجوز أن يكلفهم مالا يطيقون.

ويرى السعد أنه "لا يمتنع تكليف مالا يطاق، ولا تعلل أفعاله بالأغراض خلافا للمعتزلة، وعمدتهم أن تكليف مالا يطاق سفه، والفعل الخالي عن الغرض عبث فلا يليق بالحكيم، وقد عرفت ضعفها وجعل أصحابنا* جواز تكليف مالا يطاق وعدم تعليل أفعال الله بالأغراض من فروع مسألة الحسن والقبح، وبطلان القول، بأن القبيح منه شيء، ويجب عليه فعل أو ترك، لأن المخالفين إنما عولوا في ذلك علي أن تكليف مالا يطاق سفه، والفعل الخالي عن الغرض فيما شأنه ذلك عبث، وكلاهما قبيح، لا يليق بالحكمة، فيجب عليه تركه. والمعتزلة منهم من أدعي العلم الضروري بقبح تكليف مالا يطاق، حتى زعم بعض جهلتهم أن غير العقلاء كالصبيان، يستقبح ذلك، وكذلك تكليف علام الغيوب إما لتنزه أفعاله من الغرض وإما لقصده حكما ومصالح لا تهتدي إليها العقول"[١].

ويعتبر العقل هو أساس التكليف عند السعد ويري أن العقل المدرك الفاهم هو مناط التكليف "لا خلاف في أن مناط التكاليف الشرعية هو العقل حتى لا يتوجه علي فاقديه من الصبيان والمجانين والبهائم"[٢].

ويذكر في موضع أخر أن الفهم شرط التكليف "إن شرط التكليف الفهم، ولا فهم للجماد حين هو جماد"[٣].

يستفاد مما سبق أن العقل هو عماد التكليف عند التفتازاني ولا يصح عنده أن يكون المكلف فاقد لعقله لأن العقل أساس وشرط التكليف وهذا يتصل بالطبيعة الإنسانية وقدرتها علي حمل التكليف.

ولا يكلف العبد عند السعد – كما هو عند الأشاعرة – بما ليس في وسعه "ولا يكلف العبد بما ليس في وسعه، سواء كان ممتنعا في نفسه كجمع الضدين أو ممكنا في نفسه لكن لا يمكن للعبد كخلق الجسم.وأما ما يمتنع بناء علي أن الله تعالي علم خلافه، أو أراد خلافه كإيمان الفاجر وطاعة العاصي، فلا نزاع في وقوع التكليف به لكونه مقدورا للمكلف بالنظر

---

* يقصد السعد بهذه الكلمة الأشاعرة الذين ينتمي إليهم.

[١] سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـ٤، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

[٢] ------------ : شرح المقاصد، جـ٢، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

[٣] -------------: نفس المرجع السابق، جـ٤، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

إلي نفسه، ثم عدم التكليف بما ليس في الوسع متفق عليه، لقوله تعالي: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"البقرة: ٢٨٦[1].

واضح أن السعد يري أن من أساس التكليف القدرة والوسع ليستطيع الإنسان القيام بأعمال التكليف وهو أساس وشرط وهما مرتبطان بالتربية ويترتب عليهما استحقاق الثواب والعقاب والقدرة عنده مصاحبة للفعل.

وتهدف التربية عند السعد إلي الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة ضد أهل البدع والأهواء وذلك يتفق والأجواء المعاصرة حيث الخلافات العقائدية ومحاولات كل فرقة نشر أراءها ودحض آراء مخالفيها وكذلك تفشي البدع والضلالات من قبل بعض الشيعة والصوفية ومن ثم أعمل السعد عقله للرد عليهم حماية للعقيدة الأشعرية من خصومها ويشيع في كتاباته الردود علي المبتدعة الخارجين علي الفكر السني الأشعري وكان التشيع أحد الأهداف الرئيسية التي جاهد ضدها أئمة الفكر السني في تلك الحقبة وبرز ذلك في كتاباتهم والسعد من هؤلاء فمن ذلك مثلا رد السعد علي بعض المبتدعة من الشيعة الذين يزعمون أن الولي قد يصل إلي درجة الأنبياء وأن الولي أفضل من النبي ويسقط عنه التكليف "ولا يبلغ الولي درجة الأنبياء لآن الأنبياء معصومون مأمونون عن خوف الخاتمة مكرمون بالوحي ومشاهدة الملك، مأمورون بتبليغ الأحكام وإرشاد الأنام، فما نقل عن بعض الكرامية* من جواز كون الولي أفضل من النبي، كفر وضلال... ولا يصل العبد مادام عاقلا بالغا إلي حيث يسقط عنه الأمر والنهي لعموم الخطابات الواردة في التكاليف، وإجماع المجتهدين علي ذلك. وذهب بعض المباحين إلي أن العبد إذا بلغ غاية المحبة، وصفا قلبه، وأختار الإيمان علي الكفر من غير نفاق، سقط عنه الأمر والنهي، ولا يدخله الله النار، بارتكاب الكبائر، وبعضهم إلي أنه يسقط عنه العبادات الظاهرة من الصلاة والصوم، وغير ذلك وتكون عباداته التفكر وهذا كفر وضلال. فإن أكمل الناس في المحبة والإيمان هم الأنبياء، وخصوصا حبيب الله تعالي سيدنا محمد ﷺ، مع أن التكاليف في حقهم أتم وأكمل. وأما قوله عليه السلام: "إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب" فمعناه: أنه عصمه من الذنوب فلم يلحقه ضررها"[2].

ويرد السعد علي الشيعة الذين يشترطون أن يكون الإمام معصوما ويسوق أدلتهم ويفندها ويدحضها "من معظم الخلافات مع الشيعة اشتراطهم أن يكون الإمام معصوما**، وقد

---

[1] سعد الدين التفتازاني: شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ص ٦٢، ٦٣.

* اتباع محمد بن كرام (ت ٢٥٥هـ)غالي وأصحابه في أثبات الصفات حتى انتهي فيها إلي التشبيه والتجسيم.

[2] سعد الدين التفتازاني: شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ١٠٥.

** تعتقد بعض فرق الشيعة أن لكل زمن إماما معصوما مطاعا في كل شيء. وأن من الأصول الدينية أن يعرف الإنسان إمام زمنه. عبد البديع الخولي : الفكر التربوي في الأندلس، مرجع سابق، ص ١٣٤.

عرفت معني العصمة وإنها لا تنافي القدرة علي المعصية،بل ربما يستلزمها، واحتج أصحابنا علي عدم وجوب العصمة بالإجماع علي إمامة أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهما) ومع الإجماع علي إنهما لم تجب عصمتهم... وقد احتجوا بوجوه: أن الإمام واجب الطاعة بالنص والإجماع قال الله تعالي: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"النساء:٥٩.وكل واجب الطاعة واجب العصمة وألا لجاز أن يكذب في تقرير الأوامر والنواهي، وينهي عن الطاعات ويأمر بالمعاصي. فيلزم وجوب اجتناب الطاعة وارتكاب العصيان، واللازم ظاهر البطلان. والجواب أن الوجوب طاعته إنما هو فيما لا يخالف الشرع بشهادة قوله تعالي: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلي الله والرسول"النساء: ٥٩. ويكفي في عدم كذبه في بيان الأحكام العلم والعدالة والإسلام، وهذا يقال إنما يجب عصمته لو كان وجوب طاعته بمجرد قوله، وأما إذا كان بكونه حكم الله ورسوله فيكفي العلم والعدالة فالقاضي والوالي بالنسبة إلي الخلق... علي أن الإجماع عند الشيعة، إنما يكون حجة لاشتماله علي قول المعصوم... وقد اشترط الغلاة من الروافض أن يكون الإمام صاحب معجزة عالما بالغيوب، وبجميع اللغات، وبجميع الحرف والصناعات... وهذه خرافات مفضية إلي نفي الإمام ورفض الشريعة"[1].

يتضح مما سبق أن الدفاع عن عقيدة التوحيد والرد على أهل البدع من أهداف التربية عند السعد وهذا يتفق مع الاتجاه العام الذي كان يتجه إلي المحافظة والتمسك بطريق أهل السنة ومحاربة الشيعة وأهل البدع.

وتهدف التربية عند السعد أيضا إلي التركيز علي العقل والنقل معا وتدريب الإنسان علي المناظرة والاعتماد علي العقل والتأويل وتفسير النصوص الدينية تفسيرا عقليا والرد علي الخصوم وتفنيد حججهم والاستعانة في ذلك بأساليب المنطق فضلا عن التفاعل مع ثقافات العصر ولعل هذا يبدو واضحا في كتابات السعد ولاسيما في معرض رده علي خصوم الأشاعرة وهم المعتزلة فمن ذلك رده علي المعتزلة " لا خلاف في أن من آمن بعد الكفر والمعاصي فهو من أهل الجنة، بمنزلة من لا معصية له. ومن كفر – نعوذ بالله – بعد الإيمان والعمل الصالح فهو من أهل النار، بمنزلة من لا جنة له. وإنما الكلام فيمن أمن وعمل صالحا وآخر سيئا، واستمر علي الطاعات والكبائر كما يشاهد من الناس، عندنا مآله إلي الجنة، ولو بعد النار، واستحقاقه للثواب والعقاب بمقتضى الوعد والوعيد ثابت من غير حبوط. والمشهور من مذهب المعتزلة أنه من أهل الخلود في النار إذا مات قبل التوبة، فأشكل عليهم الأمر في إيمانه وطاعاته... ومالوا إلي أن السيئات يذهبن، الحسنات، حتى ذهب

---

[1]سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـ٥، مرجع سابق، ص ص ٢٤٩ – ٢٥٢.

الجمهور منهم إلي أن الكبيرة الواحدة تحبط ثواب جميع العبادات، وفساده ظاهر، إما سـمعا فالنصوص الدالة علي أن الله تعالي لا يضيع أجر من أحسن عملا، وإما عقلا فللقطع بأنـه لا يحسن من الحكيم الكريم إبطال ثواب إيمان العبد ومواظبته علي الطاعات طول العمر بتنـاول لقمة من الربا، أو جرعة من الخمر، بمنزلة من خدم كريما مائة سنة حق الخدمة، ثم بدت منه مخالفة أمر من الأوامر، فهل يحسن رفض حقوق تلك الخدمات، ونقض ما عهد ووعـد مـن الحسنات، وتعذيبه عذاب من واظب مدة الحياة علي المخالفة والمعـاداة. وأيضـا اسـتحقاق الثواب علي الطاعة عندهم إنما هو لكونها حسنة وامتثالا لأمر الباري. وهـذا متحقـق مـع الكبيرة فيتحقق أثره وأيضا لو كانت الكبيرة محبطة لثواب الطاعة، لكانت منافيـة لصحتـها بمنزلة الردة"[1].

وكثيرا ما يأتي السعد بأدلة الفلاسفة وينقضها ويستخدم في ذلك الدليل النقلي وأيضـا العقلي لأن النقل عنده دائما مقدم علي العقل فمن ذلك مثلا ما ذكره عن صفات الله تعـالي "الله تعالي واحد حي قادر عليم سميع بصير مريد لأن بديهية العقل جازمة بأن محدث العالم علـي هذا النمط البديع والنظام المحكم مع ما يشتمل عليه من الأفعال المتقنة، لا يكون بـدون هـذه الصفات. علي أن أضدادها نقائص، يجب تنزيه الله تعالي عنها. وأيضا قد ورد الشـرع بـها وبعضها مما لا يتوقف ثبوت الشرع عليها فيصح التمسك بالشرع فيها كـالتوحيد، بخـلاف وجود الصانع وكلامه ونحو ذلك مما يتوقف ثبوت الشرع عليه..."[2].

ويذكر ذلك في موضع أخر "ولا يخرج عن علمه وقدرته شيء لأن الجهل بالبعض،أو العجز عن البعض، نقص، مع أن النصوص القطعية ناطقة بعموم العلم وشمول القدرة. فـهو بكل شيء عليم، وعلي كل شيء قدير، لا كما يزعم الفلاسفة أنه لا يعلم الجزئيات، ولا يقـدر علي أكثر من واحد والدهرية علي أنه تعالي لا يعلم ذاته و"النظام*" علي أنه لا يقدر علي خلق الجهل والقبيح. وعامة المعتزلة أنه لا يقدر علي نفس مقدور العبد ... وقد نطقت النصـوص بثبوت علمه وقدرته وغيرهما، ودل صدور الأفعال المتقنة علي وجود علمه وقدرته"[3].

---

[1] سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد ، جـ ٥، مرجع سابق، ص ١٤٢.

[2] ------------: شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص٣١.

* أبرز علماء المعتزلة.

[3] سعد الدين التفتازاني: شرح العقائد النسفية ، مرجع سابق، ص٣٦.

يتضح أن السعد يعتني بالأدلة النقلية ثم العقلية* في الرد علي الخصوم من علماء الكلام وغيرهم وقدرته علي النقد والتحليل وسد منافذ الخصم وهذا شائع في عديد من كتاباته وهو يستهدف بذلك تربية المسلم علي أعمال العقل وتنمية التفكير لديه.

هذه هي أهداف التربية التي أمكن للباحث استخراجها من كتابات السعد وحتى تتحقق أهداف التربية فلابد من التعرف علي طبيعة الإنسان الذي نربيه ونعده.

ثانيا : الطبيعة الإنسانية عند التفتازانى:

يعد موضوع الطبيعة الإنسانية من الموضوعات الهامة في مجال التربية لأنه بدون التعرف علي طبيعة الإنسان فمن الصعوبة بمكان أن نقوم علي تربيته وإعداده ومن ثم يجب فهم هذه الطبيعة حتى يمكن توجيهها وتنشئتها علي أساس تربوي صحيح وسليم.

وتناول السعد في بحثه للإنسان موضوعات كثيرة تتصل بطبيعته فتحدث عن مكوناته وقواه وأفعاله وهو لا يعالج هذا الموضوع الهام كما يعالجه المربون المحدثون وقد جمع فيما قدمه عن الإنسان بين معطيات الأصول الإسلامية ومعطيات الفلاسفة ولا ينتظر منه اكثر مما يعرضه الباحث من خلال فكر السعد نفسه.

وكان العلماء المسلمون في أغلبهم يجمعون في نظرتهم إلي طبيعة الإنسان بين الأصول الإسلامية وبعض الثقافات المترجمة من القرن الثاني الهجري والتي تأثر بها البعض في نظرتهم إلي الطبيعة الإنسانية[1].

والسعد عندما تناول الإنسان اهتم بالإنسان المكلف الإنسان المسئول العاقل والعقل عنده – كما سبق القول – هو عماد التكليف بل المؤهل لإنسانية الإنسان وقد عالج هذه القضية من منظور أصولي (فقهي) وكلامي ووصل به اعتداده بالإنسان إلي أن يوازن بين البشر والملائكة ثم تحدث عن الجسم وحاجاته والقلب والروح والعقل ودوره في حياة الإنسان ودائرته ومجال عمله وأسهب في حديثه عن النفس وطبيعتها وقواها وأفعالها.

يري السعد أن الإنسان لا يكتمل إلا بالتكليف وأن التكليف مطابق للعقل "الذمة في اللغة العهد فإذا خلق الله الإنسان محل أمانته أكرمه بالعقل والذمة حتى صار أهلا لوجوب

---

* السعد من العلماء الذين يجمعون بين المعقول والمنقول ويسوق الأدلة العقلية ثم يتبعها بالنقلية في كتاباته ويبدو أنه تأثر بالرازي في ذلك الذي كان يستدل بالعقل ثم النقل"اعلم أنه كان يجب علينا أن نبتدي في الاستدلال بكلمات الله ثم بسنة رسوله صلي الله عليه وسلم ثم بالدلائل العقلية تقديما للنص. إلا أنا لما تأملنا، وجدنا الاستدلال بالنصوص لا يظهر كل الظهور، إلا بعد الإحاطة بتلك العقليات فلهذا السبب قدمنا الدلائل العقلية" فخر الدين الرازي. المطالب العالية من العلم الإلهي، تحقيق احمد حجازي السقا، جـ٦, بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٧، ص١٧.

[1] عبد البديع الخولي: التربية والتعليم عند ابن الجوزي، مرجع سابق، ص٦١.

الحقوق له وعليه، وثبت له حقوق العصمة والحرية والملكية كما إذا عاهدنا الكفار وأعطيناهم الذمة تثبت منهم وعليهم حقوق المسلمين في الدنيا.. وقد خص الإنسان من بين سائر الحيوانات بوجوب أشياء له وعليه، وتكاليف يؤاخذ بها، فلابد فيه من خصوصية بها يصير أهلاً* لذلك وهو المراد بالذمة فهي وصف يصير به الإنسان أهلا لماله وما عليه وهذا صادق علي العقل... وأما قوله تعالي"وحملها الإنسان " الأحزاب: ٧٢. فالمراد بالأمانة الطاعة الواجبة الأداء. وهذه الآية تدل علي خصوصية الإنسان بحمل أعباء التكليف. والمعني أنها لعظمها بحيث لو عرضت علي هذه الأجرام العظام وكانت ذات شعور وإدراك لأبين أن يحملنها وحملها الإنسان مع ضعف بنيته ورخاوة قوته لأنه الراعي لها والقائم بحقوقها مع أنه كان ظلوما حيث لم يف بها ولم يراع حقوقها، جهولا بكنة عاقبتها،... وقبل الأمانة العقل والتكليف، وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلي هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه، فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمنا علي القوتين حافظا لهما عن التعدي ومجاوزة الحد"(١).

واضح أن السعد يبين أن الإنسان هو المخلوق المكلف المسئول عن رسالة وتكليفه يرتبط بالعقل الذي يؤهله لتحمل تبعات التكليف ويقترن هذا التكليف بالأمانة التي عرضها الله علي السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان الذي وهبه الله القدرة علي تحمل تبعات التكليف.

وفي معرض حديثه عن التفاضل بين البشر والملائكة يري السعد أن ثمة شواغل تعوق البشر عن الطاعات ولذا فإن مواظبتهم علي الطاعات بالقهر والغلبة يكون مدعاة لأفضليتهم علي الملائكة عباد مكرمون، يواظبون على الطاعة، ويتمكنون من أفعال شاقة، واختلفت الأمة فى عصمتهم، وفى فضلهم على الأنبياء ... تمسك القائلون بفضل الأنبياء وهم جمهور أصحابنا (أى الأشاعرة) والشيعة بوجوه: الأول: أمر الملائكة بالسجود لآدم سجدة الأدنى للأعلى تعظيما وتكرمه، لا زيادة وتحية، بدليل استكبار إبليس وتعليله بأنه خير منه وكونه من نار، وآدم من طين. الثانى — أمر آدم بتعليمهم الأسماء قصدا إلى إظهار فضله، الثالث: أن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، الذين من جملتهم الملائكة. الرابع: أن للبشر شواغل عن الطاعات العلمية والعملية كالشهوة، والغضب، وسائر الحاجات الشاغلة، والموانع الخارجة والداخلة، فالمواظبة على الطاعات والعبادات، وتحصيل

---

* موضوع الأهلية من الموضوعات التي طرقها علماء أصول الفقه وهو يتعلق بالتكليف وقد أثبته الباحث هنا لعلاقته بالعقل مناط التكليف والتكليف له علاقة بالتربية والتفتازاني متكلم أصولى كذلك.

(١) سعد الدين التفتازاني: شرح التلويح علي التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، جـ٢، مرجع سابق، ص ص٣٣٧،٣٣٨.

الكمالات بالقهر والغلبة على ما يضاد القوة العاقلة يكون أشق وأفضل وأبلغ فـــى اســتحقاق الثواب. ولا معنى للأفضلية سوى زيادة استحقاق الثواب والكرامة ... وتمســك المخــالفون وهم المعتزلة، بوجوه (أدلة) منها: قوله تعالى: "علمه شديد القوى" النجم: ٥. يعنـــى جــبريل عليه السلام والمعلم أفضل من المتعلم. والجواب أن ذلك بطريق التبليغ، وإنما التعلم مـن الله تعالى ... وأما العقليات (الأدلة العقلية للمخالفين) فمنها أن الملائكة مجردة من ذواتها، متعلقة بالهياكل العلوية، مبراة عن ظلمة المادة، وعن الشرور والقبـــائح ... ســابقة إلـــى أنـــواع الخيرات. والجواب أن مبنى ذلك على قواعد الفلسفة دون الملة (الدين)[١]".

وقد تطرق العلماء إلى التحدث عن موضوع التفاضل بين الملائكة والبشر ولعل ابـــن تيمية (ت ٧٢٨هـ) من أفضل من تناول منهجيا هذا الموضوع إذ يرى أن من فضلوا الملائكة على الأنبياء والصالحين غلطوا لأنهم نظروا إلى كمال الملائكة وبداية الصالحين ونقصـــــهم، لكنهم لو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنة ورضى الرحمن وزوال كل ما فيه من نقص عنهم وحصول الرحمة والسلام لهم حتى استقر بهم القرار والملائكة يدخلون عليــهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. فإذا اعتبرت تلك الحال ظــهر فضلـــها على حال غيرهم من المخلوقين وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمـــال فـــى مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب [٢].

وتعرض السعد فى تناوله للإنسان عن موضوع الفطرة وقد وردت إشارات ســــريعة لديه عن الفطرة الإنسانية سواء أكان ذلك فى طى حديثه عن النظر ووجوب معرفة الله أو عند الحديث عن الاستدلال على وحدانية الله أو تعليقه على بعض الآيات القرآنية وسيوضح الباحث ذلك مبينا مفهوم الفطرة الإنسانية ثم يدلف إلى رأى التفتازانى فيها.

الفطرة فى اللغة هى:"الخلقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه والطبيعة الســليمة لم تشب بعيب . قال الله تعالى :"فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله"الروم:٣٠. والفطرة السليمة فى اصطلاح الفلاسفة استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والبــاطل[٣]. والفطرة هى : "الجبلة المتهيئة لقبول الدين" [٤].والجبلة الخلقة الأصلية التى جبـــل الله عليـــها البشر.

---

[١] سعد الدين التفتازانى : شرح المقاصد، جـ ٥ ، مرجع سابق ، ص ص ٦٢-٧٢.

[٢] نقلا عن عبد البديع الخولى : التربية والتعليم عند ابن الجوزى ، مرجع سابق، ص ٦٥.

[٣] إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط، جـ٢، مجمع اللغة العربيـــة، ط٣، ١٣٨٠هـــ - ١٩٦٠م، ص٢٧٠.

[٤] الجرجانى : التعريفات، القاهرة، مكتبة الحلبى، ط١، ١٩٣٨ م، ص١٤٧.

ويرى السعد أن من فطرة الإنسان الحاجة إلى معرفة الخـــالق ووحدانيتـــه"قـــال الله تعالى"وإذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قـــالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين"الأعـــراف:١٧٢. ذهـــب كثـــير مـــن المفسرين إلى أنه تمثيل،والمراد نصب الأدلة على الربوبية والوحدانية المميزة بين الضـــلال والهدى.وهذه الآية إخبار عن عهد جرى بين الله وبين بنى آدم وعن إقرارهـــم بوحدانيـــة الله تعالى وبربوبيته والإشهاد عليهم دليل على أنهم يؤاخذون بموجب إقرارهم مـــن أداء حقـــوق تجب للرب تعالى على عباده، فلا بد لهم من وصف يكونون به أهلا للوجوب عليهم فيثبت لهم الذمة بالمعنى اللغوى والشرعى"[١].

وتحدث السعد أيضا عن الفطرة عند الحديث عن الاستدلال على وحدانية الله وذلـــك عن طريق الاستدلال بعالم الأجسام على وجود الصانع وأن الأجسام وذواتها وصفاتها وغيرها مفتقرة فى وجودها إلى محدث وهذا المحدث هو الله عز وجل "لا يشك أحد فى وجود عـــالم الأجسام من الأفلاك والكواكب، والعناصر والمركبات المعدنية والنباتيـــة والحيوانيـــة وفـــي اختلاف صفات، لها أحوال، وقد صح الاستدلال بذواتها وصفاتها لا بإمكانها وحدوثها علـــى وجود صانع قديم قادر حكيم فتأتى فى أربعة طرق هى الشائعة فيما بين الجمهور وأشير إليها فى أكثر من ثمانين موضعا من كتاب الله تعالى. كقوله تعـــالى: "إن فـــى خلـــق الســـماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنـــزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ..." البقرة: ١٦٤. وكقوله تعالى: "ســـنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم" فصلت: ٥٣. وكقوله تعالى: "ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم" الروم: ٢٢. إلى غير ذلك من مواضع الإرشاد إلـــى الاســـتدلال بالعالم الأعلى من الأفلاك والكواكب وحركاتها وأوضاعها، والأحوال المتعلقة بها، وبالعـــالم الأسفل مـــن طبقـــات العنـــاصر، ومراتـــب امتزاجاتـــها ...وأحـــوال المعـــادن والنبـــات والحيوانات،سيما الإنسان، وما أودع بدنه مما يشهد به علم التشريح وروحه بما ذكر فى علـــم النفس ومبنى الكل على أن افتقار الممكن إلى الموجد،والحادث إلى المحدث ضرورى،تشهد به الفطرة،وأن فاعل العجائب والغرائب على الأوجه الأوفق الأصلح لا يكون إلا قادرا حكيما.فإن قيل:سلمنا ذلك لكن لم لا يجوز أن يكون ذلك الصانع جوهرا روحانيا من جملـــة الممكنـــات دون الواجب تعالى وتقدس. فالجواب من وجوه :الأول:أنه يعلم بالحدس والتخمين أن الصـــانع لمثل هذا لا يكون إلا غنيا مطلقا يفتقر إليه فى كل شئ،ولا يفتقر هو إلى شئ بل يكون وجوده

[١] سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح على التوضيح، جـــ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٣٧ ، ٣٣٨.

لذاته،فيكون الدليل من الإقناعيات،والاستكثار منها كثيرا مما يقوى الظن بحيث يفضـــى إلـــى اليقين"[1].

وتفسير السعد للفطرة بأنها هى الخلقة على التوحيد هو اتجــــاه جمـــهور المفســـرين والفقهاء وقد اختاره ابن كثير من السلف"أن فطـــرة الله هـــى ديـــن الله وهـــى الإســـلام"[2]. والقرطبى "الفطرة هى الإسلام وهو اتجاه عامة السلف"[3].

ويرى السعد أن من فطرة الإنسان التوصل إلى معرفة الله تعالى عن طريـــق النظـــر فلولا أن الله فطر الإنسان على معرفته لما توصل بالنظر إلى معرفته والعلم به النظر قد يكون فى الآفاق وما تشتمل عليه من آيات وبراهين وقد يكون فى النفس وصدق الله العظيم إذ يقول: "وفى أنفسكم أفلا تبصرون" الذاريات:٢١. وهكذا فإن الإنسان يستطيع أن يســـتدل علـــى الله تعالى بفطرته التى أوجده الله فيه عن طريق النظر فى الأنفس والآفاق.

ويعتبر العقل عند السعد مظهرا من مظاهر الفطرة "إن ذهن العاقل ينساق إلى أن هـذا الصانع إن كان هو الواجب الخالق فذاك، وإن كان هو مخلوقا، فخالقه أولى بأن يكون قـــادرا حكيما ، ولا يذهب ذلك إلى غير النهاية لظهور بعض أدلة بطلان التسلسل، فيكون المنتـــــهى إلى الواجب تعالى وتقدس ولهذا صرح فى كثير من المواضع بأن تلك الآيات إنما هى لقـــوم يعقلون مثل : قوله تعالى: "إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون" الرعد:٤. إن المقصود بالإرشـــاد إلى هذه الاستدلالات تنبيه من لم يعترف بوجود صانع يكون منه المبدأ وإليه المنتـــهى، ولـــه الأمر والنهى، وكونه ملجأ الكل عند انقطاع الرجاء من المخلوقات مذكور فى بعض المواضع من التنزيل كقوله سبحانه :"فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين" العنكبـــوت:٦٥. وكقوله تعالى : "أمن يجيب المضطر إذا دعاه"النمل:٦٢. إلى غير ذلك تنبيها على أنـــه مـــع ثبوت الأدلة القطعية والوجوه الاقناعية مشهور يعترف به الجمهور، ومن المعترفين بـــالنبوة وغيرهم، إما بحسب الفطرة، أو بحسب الاهتداء إليه ، واجب بالاستدلالات الخفية على ما نقل عن الأعرابى أنه قال: "البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ، ألا تدل على اللطيف الخبير"؟. وخالفت الملاحدة فى وجـــود الصـــانع لا بمعنى أنه لا صانع للعالم، ولا بمعنى أنه ليس بموجود ولا معدوم، بلا واسطة ، بل بمعنى أنه مبدع لجميع المتقابلات من الوجود والعدم،والوحدة والكثرة فهو متعلل عن أن يتصف بشـــئ

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد،جـ٤، مرجع سابق، ص ص٢١-٢٣.

[2] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ ٣، مرجع سابق ، ص ٤٣٢.

[3] القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١٤، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٢٤.

منها،فلا يقال له موجود ولا واجد،ولا واجب مبالغة في التنزيه،ولا خفاء في أن هذا بين البطلان" [1].

يرى السعد أن من فطرة الإنسان معرفته واللجوء إليه لا سيما عند الشدائد والكرب فإنه لا يجد أحدا يلجأ إليه سوى الخالق عز وجل فهو ملجأ الكل عند انقطاع الرجاء من المخلوقات كما يرى السعد .

وإمكانات الفطرة قابلة للتغيير وتلعب التربية دورها فى تشكيل الإنسان وتنمية قواه واستعداداته الخيرة.ويدل على ذلك قوله تعالى:"ونفس وما سواها.فألهمها فجورها وتقواها.قد أفلح من زكاها.وقد خاب من دساها"الشمس:١٠.ويرى السعد"أن الواو للقسم ومعنى تنكير نفس التكثير.وقيل:المراد نفس آدم عليه السلام.ومعنى إلهام الفجور أو التقوى إفهامها وتعريف حالهما والتمكين من الإتيان بهما،ومعنى تزكيتها إنماؤها بالعلم والعمل،ومعنى تدسيتها نقضها وإخفاؤها بالجهالة والفسوق.وليس معنى إلهام الفجور والتقوى أن يعلم كل خير وشر ولا اختصاص لذلك بالنفس المزكاة"[2].

وتتسق دواعى الفطرة الإنسانية مع دور الإنسان واستخلافه فى الأرض كما أكد ذلك القرآن الكريم.

ويرى السعد أن الإنسان خليفة الله في أرضه وأنه من التكريم عند الله بمكان وقد ميزه عن سواه بخاصية العلم ومن ثم أسجد له الملائكة "إن الله – تعالي – أمر الملائكة للسجود لآدم – عليه السلام – علي وجه التعظيم والتكريم بدليل قوله تعالي: "أرأيتك هذا الذي كرمت علي" الإسراء: ٦٢ و "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"الأعراف: ١٢. ومقتضى الحكمة: الأمر للأدنى بالسجود للأعلى، دون العكس. وأن كل واحد من أهل اللسان (اللغة) يفهم من قوله تعالي: "وعلم آدم الأسماء كلها" البقرة:٣١. أن القصد منه إلي تفضيل آدم علي الملائكة، وبيان زيادة علمه واستحقاقه التعظيم والتكريم"[3].

ويستدل السعد علي خلافة الإنسان بقوله تعالي: "إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" البقرة: ٣٠. المعني إني أستخلف من يتصف بذلك من غير حكم ومصالح، وصفات تلائم الاستخلاف، إذ التعجب إنما يكون عند ذلك. ولذا قال في الرد عليهم "أني أعلم مالا تعلمون" البقرة: ٣٠. إشارة إلي تلك الحكم والمصالح... "[4].

---

[1] سعد الدين التفتازانى: بشرح المقاصد، مرجع السابق ، جـ٤، ص ص٢٣، ٢٤.

[2] ------------: شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح، جـ٢، مرجع سابق، ص١٠٨.

[3] ------------: شرح المقاصد، جـ٥، مرجع سابق، ص ٦٥.

[4] ------------: المرجع السابق، جـ٥، مرجع سابق، ص ص ٦٥،٦٤.

واستخلاف الله للإنسان في الأرض كما أكد علي ذلك القرآن يعني "إقامة منهج الله في الأرض وتعميرها وفق ما تدل عليه آيات القرآن الكريم، ويستطيع الإنسان أن يقـــوم بأمانـــة الخلافة لأن الله منحه استعدادات عقلية وإمكانات علمية واسعة، وسخر له مخلوقـــات كثـــيرة وأبلغه المنهج القويم. وفي الخلافة سما بعض الناس وفي مقدمتهم أنبياء الله ورسله، كما أنحدر بعض الناس فكانوا كالحيوان الأعجم أو أضل سبيلا. وخلافة الإنسان في الأرض مشـــروطة ومقيدة بعهد الله وميثاقه أن يستقيم الإنسان علي هدي الله ومنهجه وأن يخلص العبوديـــة لـــه سبحانه وأن يجعل سعيه كله لله وأن يحكم منهج الله في ذاته وحياته وإلا تعرضـــت للفســـاد وتعرض للعذاب في الدنيا والأخرة. يقول تعالي: "ومن أعرض عن ذكري فإن لـــه معيشـــة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمي"طه: ١٢٤. والإنسان في هذه الخلافة يتعامل مع الوجود كلـه ومع خالق الوجود ابتداء وليتعامل مع الله ومع الملائكة والشياطين ومع الأحياء فـــي الأرض من أناس ونبات وحيوان ومع الكون المادي ومع عالم الغيب يحتاج إلي تكوين خاص للتعـامل في كل اتجاه"[١].

ومن الطبيعي أن تكون مكونات الإنسان متسقة مع اســـتخلافه فـــي الأرض وقيامـــه بوظائفه.

وتناول السعد مكونات الإنسان وتأثر بالاتجاهات الفكرية السائدة وتتمثل هذه المكونات عنده في العقل، والقلب، والجسم، والروح، والنفس،ويبدأ الباحث بالعقل.

يري السعد أن العقل من مكونات الإنسان وتحدث عنه في أكثر من موضع من كتاباته ولم يقدم مفهوما واحدا له وإنما ذكر عدة مفاهيم سردها إجمالا وتأثر في حديثه عـــن العقـــل بكلام الفلاسفة والمتكلمين.

يعرض السعد للتعريفات المختلفة التي وردت للعقل وقد عقد له مبحثـــا فـــي كتابـــه المقاصد وذكر فيه "المبحث السابع: العقل الذي هو مناط التكليف. لفظ العقـــل مشـــترك بيـــن معاني كثيرة، فذهب الشيخ (أبو الحسن الأشعري) إلي أن المراد بـــه هاهنـــا العلـــم ببعـــض الضروريات أي الكليات البديهية بحيث يتمكن من اكتساب النظريات إذ لو كان غـــير العلـــم لصح انفكاكهما بأن يوجد عالم لا يعقل وعاقل لا يعلم وهو باطل... والأقرب أن العقل قـــوة حاصلة عند العلم بالضروريات بحيث يتمكن بها من اكتساب النظريات، وهذا معني ما قـــال الإمام الرازي إنها غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات، وقيل: أنها قوة بـــها يميز بين الأمور الحسنة والقبيحة قال بعض علماء الأصول إنها نور يضيء به طريق تبتدأ به

---

[١] عبد البديع الخولي: الطبيعة الإنسانية في الإسلام، مرجع سابق، ص٧٥.

من حيث ينتهي إليه إدراك الحواس، أي قوة حاصلة للنفس عند إدراك الجزئيات بها يتمكن من سلوك طريق اكتساب النظريات وهو الذي يسميه الحكماء العقل بالملكة"[١].

يري السعد أن ثمة وجهات نظر عديدة في ماهية العقل ولم يقدم مفهوما واحدا للعقل.

ويري السعد أن العقول متفاوتة بين الناس "إن العقول متفاوتة بحسب الفطرة باتفاق من العقلاء، واستدلال من الآثار وشهادة من الأخبار... "[٢].

ويري التفتازاني أن العقل ينقسم إلي أربعة أقسام "العقل الهيولاني وهو قوة خالية عن الفعل، وهي نفس الطفل الخالية من جميع المعارف إلا أنها قابلة للعلوم، والعقل بالملكة وهو العلم بالضروريات لتحصيل النظريات لما حصل لها من ملكة الانتقال إلي النظريات بمنزلة الأمي المستعد لتعلم الكتابة، وتختلف مراتب الناس في ذلك اختلافا عظيما، بحسب اختلاف درجات الاستعدادات والقوي، والعقل بالفعل وهو القدرة علي استحضار النظريات بلا كسب، لكونها مكتسبة مخزونة، والعقل المستفاد وهو أن تحصل النظريات مشاهدة بمنزلة الكاتب حين يكتب وسمي مستفادا لأنه إنما خرج من القوة إلي الفعل نتيجة اتصاله بالعقل الفعال ونسبته إلينا نسبة الشمس إلي أبصارنا وهذه الأقسام موافقة لما قاله ابن سينا في كتبه"[٣].

ويلاحظ أن السعد ذكر مراتب العقل النظري علي نحو ما قال الفارابي وابن سينا من قبل وهو ينقل حرفيا ما ذكره ابن سينا عن مراتب العقل في "النجاة"[٤] وهو متأثر كثيرا به وكثيرا ما يذكره في كتبه.

ومن أجل الحفاظ علي عقل المسلم وأدائه لوظائفه كان السعد يأمر بالابتعاد عن كل ما يخرج العقل عن طبيعته المميزة المدركة كشرب الخمر "من العوارض المكتسبة للأهلية السكر وهي حالة تعرض للإنسان من امتلاء دماغه من الأبخرة المتصاعدة إليه فيتعطل معه عقله المميز بين الأمور الحسنة والقبيحة. والسكر حرام إجماعا لا يبطل أهلية الخطاب أصلا لتحقق العقل والبلوغ إلا أنه يمنع استعمال العقل بواسطة غلبة السرور فيلزمه جميع التكاليف من الصلاة والصوم وغيرهما. روي عن ابن كيسان أنه لما نزل تحريم الخمر والميسر قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ما توا وقد شربوا الخمر؟ وكيف

---

[١] سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٣٢، ٣٣٣، وشرح التلويح، جـ٢، ص ٣٣٠.

[٢] ------------ : شرح عقائد النسفية، مرجع سابق، ص ٢١.

[٣] ------------ : شرح المقاصد، جـ٣، ص ٣٤، شرح التلويح علي التوضيح، جـ٢، مرجع سابق، ص ٣٣٠.

[٤] ابن سينا: النجاة، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٣١هـ، ص ص ٢٦٩- ٢٤٧.

بالغائبين عنا في البلدان لا يشعرون بتحريمها وهم يطعمونها؟ فنزلت الآية "ليس علي الذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا" المائدة: ٩٣"[١].

ويركز السعد في حديثه عن العقل علي تبيان الحدود التي يقف عندها العقل ويـري أن بعض الفلاسفة وغيرهم أعملوا عقولهم فيما يجب التسليم فيه من أمور تتصل بالحق ســبحانه وتعالي ويبن أن حكمته فوق العقل ذاته وأنه ليس في قدرة البشر إدراك حكم الله تعالي كلـــها" المنكرون للنبوة منهم من قال باستحالتها، ولا اعتداد برأيهم، ومنهم من قال بعدم الاحتياج إليها كالبراهمة (جمع من الهند أصحاب برهام) ومنهم من لزم ذلك من عقائدهم كالفلاسفة النـــافين لاختيار الباري وعلمه بالجزئيات، وظهور الملك علي البشر، ونزوله من السماوات، ومنـــهم من لاح ذلك من علي أفعاله وأقواله كالمصرين علي الخلاعة وعدم المبالاة، وفي التكـــاليف، ودلالة المعجزات ... وبالجملة للمنكرين شبه: منها أن البعثة تتوقف علي علم المبعوث بـــأن الباعث هو الله تعالي، ولا سبيل إلي ذلك، والجواب المنع لجواز أن ينصب دليلا له أو يخلـــق علما ضروريا فيه ... ومنها: وهي لأهل الخلاعة المنهمكين في اتباع الهوى وترك الطاعـــة إنا نجد الشرائع مشتملة علي أفعال وهيئات لا يشك في أن الصانع الحكيم لا يعتبرها ولا يأمر بها كما نشاهد في الحج، والصلاة، إلي غير ذلك من الأمور الخارجة عـــن قـــانون العقـــل، والجواب: إنها أمور تعبدية اعتبرها الشارع ابتلاء للمكلفين، وتطويعا لنفوسهم وتأكيدا لملكـــة امتثالهم الأوامر والنواهي، ولعل فيها حكما ومصالح لا يعلمها "إلا الله والراسخون في العلـــم وقد أشار إليها بعض الخائضين في بحار أسرار الشريعة"[٢].

ويري السعد أن هناك أمورا يعجز العقل عن إدراكها ومن الأفضل في ذلك تفويـــض الأمر فيها إلي الله وهذا اتجاه عامة السلف "المخالفون في تنزيه الله تعالي: منهم مـــن أطلـــق الجسم بمعني الجوهر والموجود بمعني القائم بنفسه، والحق المنع شـــرعا واحتياطـــا ومنـــهم المجسمة: القائلون بأنه جسم علي صورة شاب أمرد أو شيخ أشمط. والمشبهة: القائلون بأنـــه في جهة العلو وفوق العرش ... وفي كلام ابن كرام إن الله إحدى الذات، إحدى الجوهر ... والجسيمة بنوا مذهبهم علي قضايا وهمية كاذبة تستلزمها، وعلي ظواهر آيات وأحـــاديث لـــم يفهمونها. أما الأول: فكقولهم كل موجود فهو إما جسم أوحال في جسم ... أما الثاني: فلقولـــه تعالي: "وجاء ربك" الفجر:٢٢. و "الرحمن علي العرش اســـتوي"طـــه:٥. و "يـــد الله فـــوق ايديهم"الفتح:١٠. إلي غير ذلك من الآيات. وكقوله عليه الصلاة والســـلام: "إن الله خلـــق آدم علي صورته" إلي غير ذلك. والجواب أنها ظنيات سمعية في معارضة قطعيات عقلية، فيقطع

---

[١]سعد الدين التفتازاني: شرح التلويح علي التوضيح، جـــ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٨٩ – ٣٩٢.

[٢]سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـــ٥، مرجع سابق، ص ص ٩، ١٠.

بأنها ليست علي ظواهرها، ويفوض العلم، بمعانيها إلي الله تعالي مع اعتقاد حقيقتها، جريـــا علي الطريق الأسلم الموافق للوقف علي (إلا الله) في قوله تعالي: "وما يعلم تأويلــه إلا الله"آل عمران: ٧. أو تأول تأويلات مناسبة موافقة لما دلت عليه الأدلة العقلية علي ما ذكر في كتـب التفسير، وشروح الحديث، سلوكا للطريق ألاحكم الموافق للعطف في (إلا الله والراسخون فــي العلم)"[١].

واضح أنه علي الرغم من اعتداد السعد بالعقل إلا أنه لا يطلق له العنان وإنما يضع له الضوابط التي لا يتخطاها ويري أن العقل عليه أنه يلتزم الحدود ويسلم الأمـــر كلــه لله لأن حكمة الله فوق العقل وعلي العاقل أن يكف عن التطلع إلا ما لا يفهمه ويدركه ويخوض فيمـا لا يعنيه.

وإذا كان السعد وضع للعقل هذه الحدود في تفهم الحكمة الإلهية فإنه وضع له تحفظات في التعامل مع المخلوقين وهو أن يتدبر ويتأمل ولا يقلد "إذا قرع سمعك مالم تسمع بــه مــن الأولين، فلا تسرع وقف وقفة المتأملين، لعلك تطلع بوميض برق إلهي، وتألق نور رباني من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة علي برهان له جلي، أو بيان من آخريــن واضــح خفي"[٢].

واضح مما سبق مدي اهتمام السعد بالعقل ويظهر ذلك في بيان مكانة العقل ومفهومــه ودوره في حياة الإنسان وضوابطه وحدوده ويلاحظ أنه انطلق في حديثه عــن العقــل مــن الأصول الإسلامية إلا أنه تأثر ببعض الفلاسفة المسلمين وبصفة خاصة ابن سينا وتأثر أيضـا بالمتكلمين وساق نصوصا من القرآن والسنة تؤكد ذلك.

ويري السعد أن القلب مكون من مكونات الإنسان وأنه مستقر الإيمان "الإيمان فعــل القلب" لقوله تعالي: "أولئك كتب في قلوبهم الإيمان" المجادلة:٢٢. و"قلبه مطمئــن بالإيمــان" النحل:١٠٦. و"ولم تؤمن قلوبهم"المائدة:٤١. و"ولما يدخل الإيمان في قلوبكم"الحجــرات:١٤. فالإيمان فعل القلب دون مجرد فعل اللسان[٣].وفي الحديث: "قال النبي صلي الله عليه وسـلم": "اللهم ثبت قلبي علي دينك"[٤] وقال: "لا يدخل النار أحد في قلبه مثقــال حبــة خــردل مــن إيمان"[٥].

---

[١]سعد الدين التفتازاني: المرجع السابق، جـ٤، مرجع سابق، ص ص٤٧ - ٥٠.

[٢] ------------: شرح المقاصد، جـ١، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٣] ------------: المرجع السابق، جـ٥، مرجع سابق، ص ص١٨١،١٨٢.

[٤] الترمذي: سنن الترمذي، جـ٤، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن، ص ٣٩٠.

[٥] البخاري: صحيح البخاري، جـ١، كتاب الإيمان،باب تفاضل أهل الإيمان، ص٢٥.

يري السعد أن القلب أحد المكونات الأساسية للإنسان وهو مستقر الإيمان واعتمد علي الآثار الإسلامية المتصلة بالقلب كما اعتد علي غيرها بدون تحليل غالبا وبين خطـــورة دور اللقب في العقيدة حيث ساق بعض الأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك.

ويري السعد أن محل العلم هو القلب ويستشهد علي ذلك بالأدلة النقلية "محل العلم هـو القلب بدليل السمع (النقل) وقد دلت الأدلة السمعية من الكتاب والسنة علي أن محل العلم هـــو القلب، وإن لم يتعين هو لذلك عقلا، بل يجوز أن يخلقه الله تعالي في أي جوهر شـــاء، لكـــن الظاهر من كلام كثير من المحققين أن ليس المراد بالقلب ذلك العضو المخصوص الموجـــود لجميع الحيوانات، بل الروح الذي به امتياز الإنسان. وظاهر كلام الفلاسفة أن محـــل العلـــم بالكليات هو النفس الناطقة، وبالجزئيات هو المشاعر الظاهرة والباطنة"[1].

ويتحدث السعد عن القلب كأداة إدراك وبين علاقته بالحواس وصلته بالعقل "قـــالوا إن العقل هو نور يضيء به طريق يبتدأ به، من حيث ينتهي إليه إدراك الحواس فيبتدى المطلوب للقلب أي نور يحصل بإشراق العقل الذي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنـــه مـــن أوائـــل المخلوقات فكما أن العين مدركة بالقوة فإذا وجد النور الحسي يخرج إدراكها إلي العقل فكـــذا القلب عن طريق يبتدأ به فابتداء إدراك الحواس ارتسام الحاسة الظاهرة، ونهايته ارتسام فـــي الحواس الباطنة، وحينئذ بداية تصرف القلب بواسطة العقل، أن يدرك الغائب من الشـــاهد أي يستدل من الآثار واللوازم علي المؤثرات والملزومات مثل استدلاله من العالم وتغيراته علـــي أن له صانعا قديما غنيا عما سواه، بريئا عن النقائص أو ينتزع الكليات من تلـــك الجزئيـــات المحسوسة أي ينتزع من الإحساس بحرارة هذه النار أن كل نار حارة."[2].

ويري السعد ان الجسم من مكونات الإنسان ويوضح أنه قد اختلف في تعريفه "لا خفاء ولا نزاع في أن لفظ الجسم في لغة العرب، وكذا ما يرادفه في سائر اللغات موضوع بـــإزاء معني واضح عند العقل من حيث الإمتياز عما عداه، لكن لخفاء حقيقته، وتكثر لوازمه كـــثر النزاع في تحقيق ماهيته، واختلفت العبارات في تعريف وأدي ذلك إلي اختلاف فـــي بعـــض الأشياء إنه هل يكون جسما أم لا؟ فعند المحققين من المتكلمين هو الجوهر القابل للانقسام من غير تقييد بالأقطار الثلاثة ... والمشهور في تعريف الجسم عند المعتزلة أنه الطويل العريض العميق، وصرح أرسطو وشيعته بأن الجسم هو الجوهر القابل للأبعاد الثلاثة أي الذي يمكن أن يفرط فيه أبعاد ثلاثة"[3].

---

[1] سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٣٠، ٣٣١.

[2] ----------- : شرح التلويح علي التوضيح، جـ٢، مرجع سابق، ص ص٣٢٧ - ٣٢٩.

[3] ----------- : شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ١٠ - ١٤.

واهتم السعد بالجسم وإشباع حاجاته فتحدث عن رعاية البدن بالنظافة عند أداء العبد الفرائض الدينية كالصلاة فقد جعل من نظافة الجسم شرطا لأداء الصلاة "الوضوء ليس عبادة مقصودة بل هو شرط للصلاة فلا تجوز الصلاة إلا به"[١]. قال عليه الصلاة والسلام "لا يقبل الله تعالي صلاة امرئ حتى يضع الطهور مواضعه فيغسل وجهه ثم يغسل يديه ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه"[٢] وقال: ﷺ "هذا الوضوء لا يقبل الله تعالي الصلاة إلا به"[٣].

ويري السعد أنه لابد من تنظيف البدن "قال سبحانه وتعالي: "وإن كنتم جنبا فاطهروا" المائدة:٦ فإن غسل ظاهر البدن واجب"[٤].

ويهتم السعد بأن يحصل جسم المسلم على حقه من الطعام والنظافة والملبس والشهوة وضرورة إشباع هذه الحاجات المتعلقة بالجسم "إن إرادة الله تعالى بقاء العالم إلى حين علمه وزمان قدره سبب لشرعية البيع والنكاح ونحو ذلك. وتقريره أن الله تعالى قدر لهذا النظام المنوط بنوع الإنسان بقاء إلى قيام الساعة وهو مبنى على حفظ الأشخاص إذ بها بقاء النوع والإنسان لفرط اعتدال مزاجه يفتقر فى البقاء إلى أمور هامة فى الغذاء واللباس والمسكن ونحو ذلك، وذلك يفتقر إلي معاونة ومشاركة بين أفراد النوع، ثم يحتاج للتوالد والتناسل إلى ازدواج بين الذكور والإناث وقيام بالمصالح، وكل ذلك يفتقر إلى أصول كلية مقدرة من عند الشارع بها يحفظ العدل فى النظام بينهم فى باب المناكحات المتعلقة ببقاء النوع، والمبايعات المتعلقة ببقاء الشخص، إذ كل أحد يشتهى ما يلائمه ويغضب على من يزاحمه، فيقع الجور ويختل أمر النظام فلهذا السبب شرعت المعاملات"[٥].

وواضح مما سبق أن السعد لم يحقر من الجسم بل اهتم به كمكون من مكونات الإنسان وبين أن للجسم حاجات أساسية لابد من إشباعها مثل المأكل والمشرب والملبس والجنس وغير ذلك مما يحتاج إليه جسم الإنسان وحث المسلم على تلبيه احتياجات الجسم لكى يتنسى له أداء وظائفه كأداة الفرائض الدينية والعمل الدنيوى.

ويرى الباحث أن حديث السعد عن الاهتمام بالجسم ورعايته وإشباع حاجاته يتفق مع علماء الإسلام فى هذا المضمار لأنه "يعبر بصدق عن المنهج الإسلامى المتوازن الذى خطه لنا القرآن الكريم وطبقة الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة كل مؤمن، ولأنه أراد به تصحيح مفاهيم خاطئة عن الزهد شاعت قديما وحديثا ونشرها بعض المنتسبين إلى الإسلام وارتبط بها

---

[١] سعد الدين التفتازاني: شرح التلويح، جـ٢، مرجع سابق، ص٨٤.

[٢] ---------- : المرجع السابق، جـ٢، ص ٨٤.

[٣] أبي يعلي: مسند أبي يعلي، ج٩، كتاب مسند عبد الله بن مسعود، مرجع سابق، ص ٤٤٨.

[٤] سعد الدين التفتازاني: المرجع سابق،جـ١، ص٢٣٥، ٢٣٦.

[٥] ---------- : شرح التلويح علي التوضيح، جـ٢،مرجع سابق، ص ٣٠٠.

الكسل والانصراف عن مجالدة الصعاب وترك المترفين فى ترفهم بعيون من شـــهواتهم بـــلا سؤال عن حق الله وإنصاف المسلمين، مع تبرير الظلم وتحذير المستضعفين بأن لهم الآخـــرة وللمترفين الظالمين الدنيا وهذه آفات بدأها مجبرة الشام فى العهد الأموى كما قال عنهم ابـــن عباس رضى الله عنه ثم حملها بعدهم بعض المنتسبين إلى العلم والصوفية الذين اســـتخدمتهم السلطات المترفة"[١].

ولم يحقر السعد من شأن الجسم كقوة من قوى الإنسان كما فعل الفلاسفة القدماء الذين "نظروا إلى الجسم فى شيء من المهانة والتحقير ومنهم المغالى فى ذلك والمعتدل لكنـــهم لـــم يهتموا كثيرا بتربيته ورأوا أن التربية المرتبطة بالجسم ومهاراته في تربية العبيد والشـــعوب البربرية ولم تعتدل النظرة الفلسفية إلى الجسم عند غير المسلمين إلا فى العصر الحديث عندما استخدم المنهج العلمى فتلاشت كثير من الخرافات والغيبيات المرتبطة بالإنسان والكون"[٢].

ويرى السعد أن الروح من مكونات الإنسان وتناول هذا المكون عند حديثه عن المعاد* (إعادة الأجسام يوم القيامة) ويرى أن "الفلاسفة الطبيعون الذين لا يعتد بهم فى هذه المســـألة، ولا فى الفلسفة، يقولون أنه لا معاد للبشر أصلا،... وفى هذا تكذيب للعقل على مـــا يـــراه المحققون من أهل الفلسفة، وللشرع على ما يراه المحققون من أهل الملة ... واتفق المحققون من الفلاسفة والمليين، على حقيقة المعاد واختلفوا فى كيفيته، فذهب جمهور المسلمين إلى أنـــه جسمانى فقط، وذهب الفلاسفة إلى أنه روحانى فقط... قال الإمام الرازى: إلا أن الفـــرق أن المسلمين يقولون بحدوث الأرواح، وردها إلى الأبدان أن لا فى هذا العالم، بل فـــى الآخـــرة، والتناسخية يقدمها وردها إليها فى هذا العالم، وينكرون الآخرة والجنة والنار. وإنما نبهنا على هذا الفرق لأنه غلب على الطباع العامية أن هذا المذهب يجب أن يكون كفرا وضـــلالا ... والأولى التمسك بدليل السمع، وتقريره أن الحشر والإعادة أمر ممكن أخـــبر بـــه الصـــادق، والفاعل هو الله القادر على كل الممكنات، العالم بجميع الكليات والجزئيات ... ولما ورد فـــي القرآن من نصوص لا يحتمل أكثرها التأويل مثل قوله تعالى: "قال من يحيى العظـــام وهـــى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" يسن: ٧٨. إلى غـــير ذلـــك مـــن الآيات، وفى الأحاديث أيضا وهي كثيرة. وإثبات الحشر من ضروريات الدين وإنكاره كفـــر بيقين"[٣].

---

[١] عبد البديع الخولى: التربية والتعليم عند ابن الجوزى، مرجع سابق، ص ٧٢.

[٢] -----------: المرجع السابق، ص ٦٥.

* المعاد يعنى إعادة الأرواح إلى الأجساد يوم القيامة بقدرة الله وهو ثابت بالقرآن والسنة.

[٣] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٥، مرجع سابق، ص ص ٨٩ – ٩٣.

يرى السعد أن العلماء فى هذه القضية المهمة قضية المعاد يقول بالمعـــاد الجســمانى والروحانى معا وأن هذا المعاد بالأرواح والأبدان سواء كانت عن عدم أو تفريق وأن هذا حق وإنكار كفر لأن النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة أكدت عليـــه ومعلــوم مــن الديــن بالضرورة ويقرر أن الروح باقية بعد فناء الجسد ثم تتصل بع بعد الإعادة وهـــذا لا يختلــف عليه أحد من أهل السنة.

ويأتى رأيه هذا فى إطار فكر الأشاعرة الذين يرون أن المعاد هو إحياء الله الموتـــى وإخراجهم من قبورهم بأبدانهم الأصلية ورد الأرواح إلى هذه الأجسام ممكن عقـــلا وشــرعا ويستدلون على إمكانه عقلا بقولهم: المعدوم قابل للوجود والعدم وكل ما كان قابلا لذلك كـــان ممكنا لذاته بمعنى أن ذاته قابلة للوجود والعدم. وحيث أن ذاته قابله للوجود والعـــدم إذا فـــلا يترجح أحدهما عن الآخر إلا بمرجح وهذا الإنسان القابل أى الممكن لذاته، لو امتنع وجـــوده لذاته لكان مستحيل الوجود لكنه وجد. إذن فهو ممكن، والممكن قابل للأمرين كما هو معلــوم. والفاعل هو الله سبحانه وتعالى قادر قدرة شاملة والقابل يقبل كل شيء من صفات الممكنـــات أى العدم والوجود، والحق سبحانه وتعالى الذى بدأنا وخلقنا أول مرة وأوجدنا من العدم قـــادر على الإعادة والبعث بعد الموت. وحيث ان الجسم قابل للوجود والعدم، والفاعل هو الله تعــالى متصف بالقدرة والعلم الشاملين، فالبعث إذن ممكن عقلا بجوهره وعرضه بعد تقرير الأشاعرة واستدلالهم على مذهبهم بجواز البعث عقلا استدلوا بعد ذلك بأدلة كثيرة ومتعددة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نقتصر على ذكر أهمها: قال تعالى: "قال من يحيى العظـــام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" يس: ٢٧"[١].

ويرى السعد أن جميع المتكلمين قد اتفقوا على أن الروح لا تفني بفناء الجسد بل هـــي باقية "النفوس الناطقة مجردة باقية لا تفنى بخراب البدن لما سبق من الدلائل، ويشـــهد بذلــك نصوص من الكتاب والسنة"[٢].

ويقصد بالنفوس فى النص السابق الروح وحيث أن هذه الروح نفحة إلهية من عند الله كما قال تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ســاجدين" ص: ٧١. فـــلا تفنـــى الروح بفناء الجسد بل هى باقية خالدة "المعاد عبارة عن عود النفوس إلى ما كانت عليه مـــن التجرد أو التبرؤ من ظلمات التعلق وبقائها ملتذه بالكمال، أو متألمة بالنقصان"[٣].

---

[١] محيى الدبن الصافى وعبد الكريم:العقيدة الإسلامية والأخلاق، الأزهر الشريف، الإدارة المركزية للمعـــاهد الأزهرية بالاشتراك مع كلية التربية جامعة الأزهر برنامج تأهيل معلمى المرحلة الابتدائية للمستوى الجامعى، ط١، ١٩٩٢، ص ص ٢٨١ – ٢٨٢.

[٢] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٥، مرجع سابق، ص ٩٧.

[٣] ------------: المرجع السابق، جـ٥، ص ٩٧.

إن الأشاعرة قد أثبتوا حشر الأجساد مستدلين عليه بالنصوص الصريحة الواضحة فى دلالتها وهى كثيرة فى القرآن الكريم أكثر من أن تحصى مثل قوله تعالى: "وهو الـــذى يبـــدأ الخلق ثم يعيده" الروم: ٢٧. وقوله سبحانه: "فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مـــرة". الإسراء: ٥١.

ويري السعد أن الروح تعود إلي الجسد "لأن القول بإحياء البدن مع تعلق نفس أخـــوى به تدبر أمره، وبقاء نفسه معطلة أو متعلقة ببدن آخر غير مقبول عند العقل، ولا يقبل من أحد كيف ونفسها مناسبة لذلك المزاج، آلفه به، لم تفارقه إلا لانتفاء قابليتـــها لتصرفاتـــها. فحيـــن عادت القابلية، عاد التعلق لا محالة"[1].

وعلى ما وفق ما اعتاده السعد من إيراد الاحتمالات والافتراضات العقلية التى ربمـــا يتمسك بها الخصم فهو يذكرها مبينا وجهة نظرة فيها ونجده يورد احتمالا قـــد يتمســـك بـــه المنكرون للمعاد الجسمانى ذلك بما ورد فى القرآن الكريم من آيات تدل بظاهرها على المعـــاد الروحانى دون الجسمانى مثل قوله تعالى: "فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين" الســـجدة: ١٦. وقوله تعالى: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" يونس: ٢٥. فلو تمسك الخصم بهذه الآيـــات فى قوله بالمعاد الروحانى فإن السعد له وجهة نظر أخرى لأن هذه الآيات القرآنية على حـــد تعبيره "إن كانت ظواهرها مشعره بأن الأرواح من قبيل الأجسام فإن الأرواح أجسام لطيفـــة مشابكة للأجسام المحسوسة وما دام الأمر كذلك فإن الأجساد تحيا مادامت مشابكتها لـــلأرواح، فإذا فارقت الروح الجسد بالموت فإن الروح تعرج به حيث أراد الله كما وردت فيـــه الآثـــار والحياة عرض يحيا به الجوهر. والروح يحيا بالحياة أيضا إن قامت به الحياة. فهذا قولنا فـــى الروح"[2].

ويرى الباحث أن ما ذكره السعد عن الروح يتفق مع رأى ابن القيم أحد أئمة الســـلف الذى يرى أن الروح باقية بعد فناء الجسم وتفرقه لأن الأرواح إنما خلقت للبقاء لا للفناء ويرى أن هذا القول هو الذى اتفقت عليه الرسل وأتباعهم وأنه هو القول الصواب ولم يخالف فيه إلا شرذمة قليلة أنكرت كون الروح قائمة بنفسها زاعمة أنها عرض من أعراض الجسم فتفنـــى بفنائه فإذا كان يوم المعاد ردت كل روح إلى جسمها الذى كانت فيه فى الدنيا فتنعم معـــه أو تعذب "وأما الحق الذى اتفقت عليه الرسل وأتباعهم فهو أن هذه الأرواح، باقية بعد مفارقتـــها

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٥، مرجع سابق، ص ٩٧.

[2] ------------ : المرجع السابق، جـ٥، ص ٩٨.

أبدانها لا تفنى ولا تعدم، وأنها معذبة أو منعمة فى البرزخ، فإذا كان يوم المعـــاد ردت إلـــى أبدانها فتنعم معها أو تعذب ولا تعدم ولا تفنى"(١).

والخلاصة أن القرآن الكريم يدل دلالة قاطعة على أن الله سبحانه وتعالى يعيد الجسـم كما هو فقال تعالى: "وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه" الروم: ٢٧.

كان هذا هو رأى السعد في الروح ويعرض الباحث لرأيه في النفس الإنسانية ويـــرى أن الإنسان هو النفس "شهدت النصوص بأن للإنسان روحا (نفسا) وراء هذا الهيكل المحسوس (البدن) الدائم التبدل والتحلل، وكادت الضرورة تقتض بذلك، وهو المراد بالنفس الإنسانية ... وأن المشار إليه بأنا وإن كان هو النفس على الحقيقة، لكن كثيرا ما يشار به أيضا إلى البـدن، لشدة ما بينهما من التعلق، فحيث توصف بخواص الأجسام كالقيـــام والعقــود، فـــالمراد بـــه البدن"(٢).

واضح أن النفس عند السعد ترادف معنى البدن وهذا التعريف الذى ذهب إليه الســـعد هو المختار عند كثير من المتكلمين وقد أشار إلى ذلك ابن القيم الذى ذكر أن ما قيـــل عـــن الإنسان بأنه عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن "هذا لم يقله أحد، وأما القسم الأول وهـو أن الإنسان عبارة عن هذا البدن والهيكل المخصوص فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عنـــد أكثر المتكلمين"(٣).

وهذا التعريف للإنسان عند السعد هو نفس التعريف الذى قال به فخر الدين الـــرازى الذى يرى أن الإنسان "عبارة عن جسم مخصوص موجود فى داخل البدن"(٤).

ويذكر أن علماء الإسلام قد اختلفت آراؤهم فى حقيقة النفس وقد عرض ابن القيم لهذه الآراء و "المسألة التاسعة عشرة وهى ما حقيقة النفس؟ هل هى جزء مـــن أجـــزاء البـــدن أو عرض من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد؟ وهـــل هـــى الـــروح أو غيرها؟ وهل هى الأمارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة، لها هذه الصفـــات أم هـــى ثـــلاث أنفس؟ فالجواب: أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف" واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم، وهدى الله أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل سنته لما اختلفوا فيـــه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. فنذكر أقوال الناس ومالهم وما عليهم فى تلك الأقوال، ونذكر الصواب بحمد الله وعونه ... والذى عليه جمهور العقلاء أن الإنسان

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد إيـــاك نســتعين، جـــ٣، القـــاهرة، دار الحديـث، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، ص ٢٣٩.

(٢) سعد الدين التفازانى: شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(٣) ابن القيم: الروح، القاهرة، مطبعة المدنى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ص ٢١٤.

(٤) ---- : المرجع السابق، ص ٢١٥.

هو البدن والروح معا، وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة فالناس لهم أربعة أقوال فى مسمى الإنسان: هل هو الروح فقط؟ أو البدن فقط؟ أو مجموعهما أو كل واحد منهما"[١].

وإذا كان السعد قد رأى – كما سبق القول – أن الإنسان هو البدن إلا أنـــه يـــرى أن البدن غير الجسم ثم يذكر المراد بهذا الجسم ويختار له الجسم النورانى العلوى الذى ينفذ إلـــى أعضاء البدن بوجوده وتموت بانفصال هذا الجسم النورانى إلى عـــالم الأرواح "وجمـــهورهم (يعنى) المتكلمين على أنها جسم مخالف بالماهيه للجسم الذى يتولد منه الأعضاء لذاته نوراني علوى خفيف حر، نافذ من جواهر الأعضاء سار فيها سريان ماء الورد فى الورد، والنار فـــى الفحم، لا يتطرق إليه تبدل ولا انحلال، بقاؤه فى الأعضاء حياة، وانتقاله عنـــها إلـــى عـــالم الأرواح موت"[٢].

واضح أن السعد يستخدم الجسم النورانى ويريد به الروح التى تنفذ إلى الأعضاء وهذا يتفق مع الكتاب والسنة كما ذكر ذلك ابن القيم عندما سرد أقوال العلماء فى القول الصواب فى حقيقة الروح وتأثر بالكلاميين ورآى أنه القول الصواب فى المسألة ويرى أن النفس (الـــروح) "جسم نورانى، مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جســـم نورانـــى علـــوى خفيـــف متحرك، وينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء وسريان الدهن فـــى الزيتـــون، والنار فى الفحم، فمادامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هـــذا الجســـم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف متشابكا لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبـــول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح، وهذا القول هو الصواب فى المسألة وهو الذى لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابـــة وأدلة العقل والفطرة"[٣].

وقد أشار السعد من قبل إلى أن هذا الرأى هو رأى جمهور علماء الكلام وقد رجحـــه أيضا الفخر الرازى ورأى أنه مذهب قوى يحب التأمل فيه، فإنه شديد الموافقة لما فى الكتـــب الإلهية من أحوال الحياة والموت[٤].

ويستخدم السعد الروح بمعنى النفس عند حديثه عـــن خلودهـــا "المعتمـــد مـــن آراء المتكلمين أنها جسم لطيف سار فى البدن لا يتبدل ولا يتحلل، أو الأجزاء الأصلية الباقية التـــى لا تقوم الحياة بأقل منها، وكأنه المراد بالهيكل المحسوس والبنية المحسوسة: أى من شأنها أن

---

[١] ابن القيم : الروح ، مرجع سابق، ص ص ٢١٢، ٢١٣.

[٢] سعد الدين التفتازانى : شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

[٣] ابن القيم: الروح، مرجع سابق، ص ص ٢١٥، ٢١٦.

[٤] الفخر الرازى: تفسير مفاتيح الغيب، جـ٥، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٠٧هـ، ص ٤٤٧.

تحس ... والنصوص الظاهرة من الكتاب والسنة تدل على أنها تبقى بعـــد خـــراب البـــدن وتتصف بما هو من خواص الأجسام كالدخول فى النار، وعرضها عليها، وكالترفرف حـــول الجنازة، وككونها فى قناديل من نور ..."[1].

واضح هنا أن السعد يرى أن النفس والروح شيء واحد ويرى أن هذا المعتمد عنـــد المتكلمين بمعنى أنها الشيء الذى به الحس والحركة "ومن ذهب إلى النفس والروح شئ واحد ابن حزم "... أن الروح والنفس شئ واحد...وإنما قال الله تعالي آمرا له بالكون كن فكـــان، فصح أن النفس والروح أسماء مترادفة لمعنى واحد"[2].

ويقسم السعد القوى النفسانية إلى ثلاثة أقسام يتبع كل قسم منها أحد النفوس الثلاثـــة: النفس النباتية، والنفس الحيوانية، والنفس الناطقة (الإنسانية) "قد يطلق لفظ النفس على ما ليس بمجرد، بل مادى كالنفس النباتية التى هى مبدأ أفاعيله من التغذية والتنمية والتوليـــد. اشـــتمل النبات على زيادة اعتدال، شارك الحيوان فيما يجرى مجرى بعض الأعضاء، وفى قوى لحفظ الشخص فمنها الغاذية وهى التى تحيل الغذاء إلى مشاكلة المغتذى، ويخدمها أربع قوى هـــى: الجاذبة للغذاء، والماسكة للمجذوب ريثما ينهضم، والهاضمة ... والدافعة ... ومنها الناميـــة وهى التى تزيد فى أقطار الجسم، أعنى الطول والعرض والعمق، على التناســـب الطبيعـــى، ومنها المولدة وهى قوة شأنها تحصيل البذر وتفصيله إلى أجزاء مختلفة ... وحصر صـــاحب الشفاء القوى الطبيعية فى الغاذية والنامية والمولدة ... لا خفاء فى اشتراك القوى الطبيعيـــة بين النبات والحيوان ... وصرح ابن سينا بأن غاذية كل عضو تخالف بالنوع غاذية عضـــو آخر .. ثم الحيوان يختص بقوى أخرى مدركة ومحركة تسمى نفسانية ... وأمـــا المدركـــة فالحواس الظاهرة والباطنة* ... والحواس الظاهرة هى الحواس الخمس والباطنه هى: الحـــس المشترك، والخيال، والوهم، والحافظة، ومتخيلة ... وأما المحركة فمنها شوقية باعثة وتنقسم إلى: شهوية، غضبية، وفاعلة ..."[3].

وعرف السعد النفس الناطقة الإنسانية "النفس الناطقة الإنسانية، تفسر بأنها كمـــال أول لجسم طبيعى آلى، ذى حياة بالقوة، والمراد بالكمال. ما يكمل به النوع فى ذاته، ويسمى كمالا أولا كهيئة السيف للحديد، أو فى صفاته ويسمى كمالا ثانيا، مثل: القطع للســـيف، والحركـــة للجسم، والعلم للإنسان"[4].

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ٣٠٤ – ٣٠٧.

[2] ابن حزم: الفصل فى الملل والأهواء والنحل، جـ٥، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠، ص ٩٢.

* أسهب السعد فى حديثه عن هذه الحواس ناقلا كل ذلك عن ابن سينا وسيتناول الباحث الحواس فى المعرفة.

[3] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ٢٤١ – ٣٠٤.

[4] ــــــــــــــ : المرجع السابق، جـ٣، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

يبدو الأثر الفلسفى واضحا فى تعريفه للنفس فقد أخذ بالتعريف الأرسطى الشهير للنفس وهو "الكمال الأول لجسم طبيعى ذى حياة بالقوة"[1].

ولم يكن السعد وحده هو الذى اخذ بالتعريف الأرسطى للنفس لكنه حذا فى ذلك حذو فلاسفة المسلمين وخصوصا ابن سينا الذى كان إمام فلاسفة المسلمين فى دراسة النفس وعنى بها عناية بالغة[2]. ونقل السعد عن ابن سينا كل ما يتصل بالنفس وتأثر به أيضا فى تصنيفه للقوى النفسانية فهو يقسم القوى النفسانية إلى ثلاثة أقسام وكل قسم يختص بأحد النفوس الثلاث فالنفس النباتية تشمل القوى التى يشترك فيها الإنسان والحيوان والنبات ولهذه النفس قوى ثلاث هى الغاذية وهى قوة تحيل الغذاء إلى مشاكلة الجسم الذى هى فيه، والنامية وهى التى تزيد فى الجسم زيادة مناسبة على التناسب الطبيعى فى الطول والعرض والعمق والمولدة وهى التى تفصل الغذاء إلى أجزاء مختلفة وثمة قوى للنفس الحيوانية يشترك فيها الإنسان والحيوان ولها قوتان كما يذكر السعد ناقلا عن ابن سينا قوة محركة وأخرى مدركة والمحركة قسمان محركة بأنها باعثة وهى القوة الشوقية والنزوعية وتنقسم إلى قوة شهوية تبعث على الحركة نحو الأشياء النافعة وغضبية تبعث على الحركة نحو الشيء الضار والمفسد.

أما القوة المحركة على أنها فاعلة فهى قوة تنبعث فى الأعصاب والعضلات للقيام بالحركة المناسبة لتحقيق الغرض المطلوب وأما القوة المدركة فهى عبارة عن قوى تدرك من الخارج وهى الحواس الخمس المعروفة الظاهرة وقوى تدرك من باطن وهو الحواس الخمس الباطنة: الحس المشترك، والمصورة، والمتخيلة، والوهم، والحافظة أو الذاكرة وأما النفس الناطقة فهى التى تميز الإنسان عن سائر الحيوان والنقل عن ابن سينا فى النفس أوضح من أن يستدل عليه بل أنه فى موضع آخر اعترف صراحة بإعجابه بآراء ابن سينا* وبوجه عام فإن معظم المسلمين ذكروا ما ذكره السعد وكان هذا الفكر معروفا فى البيئات الإسلامية وتأثر به كثير من المسلمين منهم بالطبع التفتازانى.

ويرى السعد أن النفس ميالة إلى الشهوات وتحتاج إلى المجاهدة بأداء الفرائض فهى تعين على تهذيبها "والنفس وإن كانت بحسب الفطرة محلا للخير والشر إلا أنها للمعاصى أقبل وإلي الشهوات أميل حتى كأنها بمنزلة أمر جبلى لها فكأنها مجبولة على المعاصى بمنزلة النار على الإحراق وأداء العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج تطهير لها من المعاصى

---

(1) أرسطو: أرسطوطاليس فى النفس، ترجمة ونشر عبد الرحمن بدوى، القاهرة، ط١، ١٩٤٨، ص ٢٣٦.

(2) محمود قاسم: فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط٤، ١٩٦٩، ص ص ٦٨، ٦٩، ١٠٨.

* ذكر أن ابن سينا "وهو القدوة فى فن المنطق والثقة فى تفسير ألفاظه ومعانيه"شرح المقاصد،جـ٥،مرجع سابق، ص١٨٧.

ولابد من قهر النفس الأمارة بالسوء التى هى أعدى أعداء الإنسان زجزا لها عـــن ارتكــاب المنهيات واتباع الشهوات"[1].

وغير خاف على أحد التأثير الفعال للعبادات في تربية الشخصية المسلمة "ومن حكمـة الله ورحمته بعباده أن جعل أعمالهم الصالحة مربية لهم في طريق الهدى والرشــاد ،معــززة لسلوكهم الطيب الذى يتفق ومبادئ الإسلام.وحقل الأعمال الصالحة واسع فى الإسلام يشـــمل نشاطات الإنسان التى يبتغى به وجه الله تعالى ويلتزم بما أمر الدين ويكف عما نهى عنه ... والعبادات نظام متكامل لتربية الإنسان وتنمية مختلف قواه ...والعبادة فى الإسلام لا تقتصــر على العبادات المفروضة وإنما تشمل كل عمل يتوجه به المسلم إلى ربه ويخلص له النية فيه، قاصدا طاعة المولى عز وجل"[2].

وفي ضوء العرض السابق يتبين أن هناك مكونات للإنسان عند التفتـــازانى وأولـــها العقل ويحتل أهمية خاصة عنده ،ثم القلب ،والجسم وقد اهتـــم بـــه وبإشـــباع حاجاتـــه،ثـــم الروح،وأخيرا النفس وقد أفاض فى الحديث عنها وتأثر فى الحديث عنـــها بكـــلام الفلاســـفة والمتكلمين .

وهذه الطبيعة التى حددت معالمها الرئيسية الفطرة القويمة التى فطر الله الناس عليـــها وتناول السعد مكوناتها المرتبطة بالإنسان ما مدى تقبلها للخير والشر؟وهل هى طبيعة خيرة أم شريرة ؟أم أنها تقبل الخير والشر مع ميل فيها إلى الخير؟ما رأى السعد فى هذا ؟.

يأتى رأى السعد فى هذه القضية المتعلقة بطبيعة الإنسان فى إطار فكر الأشاعرة الذين يرون أن الله خالق كل شئ وهذا يتمشى فى نظرتهم العامة بأن كل شئ فى هذا العالم بما فيـــه الشر لا يخرج عن مشيئته ولا يكون فى ملكه إلا ما يريد"أجمع أصحابنا على نفوذ مشـيئة الله .. تعالى..فى مراداته على حسب علمه بها فما علم منه حدوثه أراد حدوثه خيرا كان أو شرا، وما علم أنه لا يكون أراد أن لا يكون، وكل ما لم يرد كونه فلا يكون سواء أمر به أو لم يأمر به وهذا قولهم على الجملة"[3].

وقد اشتهر عن الأشاعرة أنهم"لا يذكرون علة ولا حكمة لخلق الشرفى العـــالم،لأنـــهم ينكرون التعليل،ويرون أن أفعاله لا تعلل بالأغراض، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون،وقـــالوا ان أفعال الله ناشئة عن علمه وحكمته،وإلا كان جاهلا،ولابد له من أن يفعل الفعل لغاية وإلا لم يكن مختارا،فأفعال الله تعالى معللة بالحكمة والمصلحة لعباده،وكيف لا يكون الأمر كذلك مـــع

---

(1) سعد الدين التفتازانى: شرح التوضيح على التلويح، جـ١، مرجع سابق، ص ص٣٦١-٣٦٢.

(2) عبد البديع الخولى وآخرون: التربية الإسلامية من الأصول والتطبيقات، مرجع سابق، ص١٤٢.

(3)عبد القاهر البغدادى: أصول الدين، مرجع سابق، ص١٤٥.

أنه لا خلاف فى أن بعثة الأنبياء عليهم السلام لاهتداء الخلق وإقامة الحجة عليهم،وهى غاية مقصودة من الله جل شانه"[1].

ويرى السعد أن الله تعالى مريد وخالق لسائر أفعال الخلق خيرها وشرها وأن إرادته شاملة لجميع مخلوقاته خيرها وشرها وأن مذهب أهل الحق أن كل ما أراد الله تعالى فهو كائن وأن كل كائن فهو مراد له، وإن لم يكن مرضيا ولا مأمورا به،بل منهيا عنه،وهذا ما اشتهر عن السلف أن ما شاء الله كان،وما لم يشأ لم يكن،وخالفت المعتزلة فى ذلك ذهابا إلى أنه يريد من الكفار والعصاة الأيمان والطاعة ولا يقع مراده،ويقع منهم الكفر والمعاصى،ولا يريدها،وكذا جميع ما يقع فى العالم من الشرور والقبائح ...قال تعالى"فعال لما يريد"هود:١٠٧. ...وإن جميع الحسنات والسيئات من الطاعات والمعاصى وغيرها بخلق الله ومشيئته ...ولا تعلل أفعاله سبحانه وتعالى"[2].

ويتفق رأى السعد فى قضية الخير والشر مع مذهب أهل السنة وفحواه "أن الإرادة متعلقة بجميع ما يقع فى الكون فالله تعالى أراد جميع الكائنات من خير وشر وطاعة ومعصية وإيمان وكفر وقد خالفهم فى ذلك المعتزلة حيث قالوا: إن الله تعالى أراد الخير والطاعة والإيمان فقط،فمذهبهم أن الله لا يريد الشر ولا المعاصى ولا الكفر وذلك لأنهم وحدوا بين الإرادة والأمر، وبين الإرادة والرضا"[3].

وموقف الأشاعرة فى قضية الخير والشر أقرب إلى روح الشرع من موقف المعتزلة لأنه موافق لرأى الجمهور لأن الله تعالى خالق كل شئ وإرادته تشمل جميع مخلوقاته خيرها وشرها والإنسان مسئول عن سلوكه خيرا أو شرا إيجابيا أو سلبيا والمغزى التربوى لهذه المسئولية "أنها تردع الإنسان موضوع العملية التربوية وهدفها عن ارتكاب الفواحش والفساد،وكل أنواع الشرور والمعاصى،وتدفعه إلى عمل الخير"[4].

وتعتبر قضية الفعل الإنسانى من القضايا العويصة التى حار فيها الفكر الإنسانى عبر تاريخه الطويل وهى مرتبطة بالطبيعة الإنسانية لأنها متعلقة بالسلوك الإنسانى كما أنها أصل فى معرفة مدى مسئولية الإنسان عن أفعاله وقد عرفت هذه القضية فى تراثنا الإسلامى بأسماء متعددة منها: القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وحرية الإرادة، وأيضا أفعال العباد وقد تعددت آراء العلماء وفيها وتباينت وخصوصا علماء الكلام. وجرت عادة المتكلمين أن

---

[1] عوض الله جاد حجازى: ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامى، القاهرة، دارالطباعة، المحمدية، ط٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ص١٧٨ - ١٧٩.

[2] سعد الدين التقتازانى: شرح المقاصد، جـ٤، مرجع سابق، ص ص١٣٧، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٩٦.

[3] محيى الدين الصافى وعبد الفتاح عبد الكريم: العقيدة الإسلامية والأخلاق، مرجع سابق، ص٨٢.

[4] مقداد يالجن: التربية الأخلاقية الإسلامية، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط١، ١٩٧٧م، ص٣٤٣.

يتكلموا عن أفعال العباد هل هى مخلوقه لله تعالى أم مخلوقة للعباد وأنفسهم؟ وقـــد انقســمت المذاهب فى الإجابة على هذا السؤال إلى ثلاثة مذاهب ولن يسهب الباحث فى عــــرض آراء الفرق الإسلامية في هذه القضية وإنما يعرض الباحث لرأى سعد الدين التفتازانى فيها.

قبل أن يعرض الباحث لموقف السعد الذى تحدث عن أفعال الإنسان يعرض الـــرأى الأشاعرة أهل السنة الذين اتفقوا على أن أفعال العباد الاضطرارية مخلوقة لله تعالى وواقعـــة بقدرة الله وحدها، واختلفوا فى الأفعال الاختيارية حيث ذهبوا إلى القول بـــأن أفعـــال العبـــاد الاختيارية مخلوقة لله تعالى، وواقعة بقدرته وليس للعباد فيها إلا الكسب، والكسب هو الـــذى أخبر عنه الله فى القرآن الكريم بقوله "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليـــها مـــا اكتسبت" البقرة: ٢٨٦. من أجل هذا قال أهل السنة الأشاعرة إن العبد لا يخلق فعله، بل فعلـــه مخلوق بقدرة الله تعالى وإنما للعبد فى فعله الكسب، وهذا هو مناط التكليف ومنـــاط الثـــواب والعقاب. وقد عرف الأشاعرة الكسب بأنه مجرد مقارنة قدرة العبد للفعل من غير تأثير لـــها فيه ... وقد استدل أهل السنة على مذهبهم هذا بأدلة عقلية وأدلة نقلية كثيرة. والدليل العقلـــى نظموه هكذا: لو كان العبد خالقا لأفعاله الاختيارية لكان عالما بتفاصيل حركـــات العضـــلات والأعصاب والأعضاء، لكن العبد لا يعلم تفاصيل الحركات للعضلات والأعصـــاب عندمـــا يحرك عضوا من أعضائه: إذن العبد ليس خالقا لأفعاله الاختيارية ويلزم أن يكـــون الله هـــو الخالق لها ... وأما الأدلة النقلية فمثل قوله تعالى: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله" الإنسان: ٣٠ وقوله تعالى: "قل كل من عند الله" النساء: ٧٨ وقولـــه تعـــالى: "والله خلقكـــم ومـــاتعلمون" الصافات: ٤٩. ودليل أهل السنة العقلى قوى لم يستطيع المعتزلة نقضه"[1].

ويرى السعد أن جميع أفعال العباد واقعة بقضاء الله وقدره وأن الله خـــالق الأفعـــال العباد* وكلها ويذهب إلى إثبات قدرة حقيقية للإنسان على فعله ويرى أن فعـــل العبـــد واقـــع بقدرته سبحانه وتعالى وإنما للعبد الكسب ويستدل على ذلك كله بأدلة عقلية ونقلية كثـــيرة "إن فعل العبد واقع عندنا بقدرة الله وحدها. وعند المعتزلة بقدرة العبد وحدها. وعند الحكماء بقدرة يخلقها الله فى العبد، ولا نزاع للمعتزلة فى أن قدرة العبد مخلوقة لله وشاع فى كلامـــهم أنـــه

---

[1] محيى الدين الصافى وعبد الفتاح عبد الكريم: العقيدة الإسلامية والأخلاق،مرجع سابق،ص ص ٦٩ -٧٢.

* خصص الفخر الرازى الجزر التاسع من "المطالب العالية من العلم الإلهى " لهذه القضية وأسهب فيها وساق عشرة براهين على أن أفعال العباد وبتقدير الله ورد على المعتزلة وفند حججهم وانتصر لمذهـــب الأشـــاعرة ورأى أن "كلام المعتزلة فى هذا الباب قد طال وكثر... والآيات الدالة على مذهبنا أيضا كثيرة جـــدا. ولمـــا تعارض تلك الآيات بهذه الآيات وجب الرجوع فيها إلى الدلائل العقلية التى عولت عليها فإنها باهرة قويـــة لا شك فيها ولا شبهتهم" الرازى: المطالب العالية، ط١، مرجع ســـابق، ص ص٢١، ٧٤، ١١٣، ٢٥٥، ٢٧٤، ٣٥٤.

خالق القوى والقدر، فلا يمتاز مذهبهم عن مذهب الحكماء ... وذكر الإمام الـرازى وتبعه بعض المعتزلة أن العبد عندهم موجد لأفعاله علي سبيل الصحة والاختيار... وأتفـق أئمة السلف قبل ظهور البدع والأهواء على أن الخالق هو الله، ولا خالق سواه، وأن الحوادث كلها حدثت بقدرة الله من غير فرق بين ما يتعلق بقدرة العباد به، وبين ما لا يتعلق ... ومن الأدلة العقلية على أن فعل العبد واقع بقدرة العبد: أن العبد لو كان موجـدا لأفعالـه لكـان عالمـا بتفاصيلها، واللازم باطل، أما الملازمة فلأن الإتيان بالأزيد والأنقص والمخالف ممكن فلابـد لرجحان ذلك النوع وذلك المقدار من مخصص هو القصد إليه ... وأما بطلان اللازم فلوجوه منها: أن النائم تصدر عنه أفعال اختيارية لا شعور له بتفاصيل كمياتها وكيفياتها ... وأمـا السمعيات فكثيرة جدا منها ما ورد فى معرض التمدح بأنه الخالق وحده كقوله تعالى: "خـالق كل شيء" الأنعام: ١٠٢. و "خلق كل شيء" الأنعام: ١٠١. وقوله: "إنا كل شيء خلقناه بقـدر" القمر: ٤٩. ومن الأحاديث الدالة على أن فعل العبد واقع بقدرة الرب الأحاديث الواردة فـى باب القضاء والقدر وكون الكائنات بتقدير الله ومشيئته وإن كانت أحادا إلا أنها متواترة المعنى كشجاعة على رضى الله عنه وجود حاتم وكلها صحاح بنقل الثقات مثـل البخـارى ومسـلم وغيرهما، وإن وقع فى بعضها اختلاف رواية فى بعض الألفاظ منها ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال:قال رسول الله ﷺ : "احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونـا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لـك التـوراة بيـده تلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فحج آدم موسى"[١]... والأحاديث الصحيحة فى هذا الباب كثيرة ... ونحن نقول الحق ما قال بعض أئمة الدين: إنه لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين ... والإنسان مضطر فى صورة مختار، كالقلم فى يد الكاتب، والوتد فى شق الحائط وفى كلام العقلاء، قال الحائط للوتد لم تشقنى فقال سل من يدقنى"[٢].

ويورد السعد حجج المعتزلة* عن الفعل الإنسانى ويقوم بتنفيذها والرد عليها ويرى أن للعباد أفعال اختيارية يثابون عليها ويعاقبون ويرد على الجبرية "أفعال العباد كلـها بإرادته ومشيئته لا كما زعمت المعتزلة أن العبد خالق لأفعاله ... والمعتزلـة اعتقـدوا أن الأمـر يستلزم الإرادة، والنهى عدم الإرادة فجعلوا إيمان الكافر مرادا، وكفره غير مراد. ونحن نعلـم أن الشيء قد لا يكون مرادا، ويأمر به. وقد يكون مرادا، وينهى عنه لحكم ومصالح يحيط بها علم الله تعالى، أو لأنه "لا يسأل عما يفعل" الأنبياء: ٢٣. ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يظـهر

---

[١] البخارى: صحيح البخارى، جـ٤، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

[٢] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٤، مرجع سابق، ص ص ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٨،٢٤٦.

* ذكر السعد كثيرا منها واكتفى الباحث ببعضها لعدم الإطالة وهى أدلة عقلية ونقلية، شرح المقاصد، جـ٤، ص ٢٤٨، ٢٦٢.

على الحاضرين عصيان عبده. يأمره بالشيء، ولا يريده منه ... وللعباد أفعـــال اختياريـــة يثابون بها إن كانت طاعة ويعاقبون عليها إن كانت معصية لا كما زعمت الجبرية من أنـــه لا فعل للعبد أصلا، وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات لا قدرة للعبد عليـــها ولا قصـــد ولا اختيار. وهذا باطل، لأنا نفرق بالضرورة بين حركة البطش وحركة الارتعـــاش، ونعلـــم أن الأول باختياره دون الثانى ولأنه لو لم يكن للعبد فعل أصلا، لما صـــح تكليفـــه، ولا ترتـــب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله ... مثل صلى وصام وكتب، بخلاف مثل طال الغـــلام، وأسود لونه، والنصوص القطعية تنفى ذلك. كقوله تعـــالى: "جـــزاء بمـــا كـــانوا يعملـــون" الواقعة: ٢٤. فإن قيل بعد تعميم علم الله وإرادته: الجبر لازم قطعا. لأنهما إما أن يتعلقا بوجود الفعل، فيجب أو فيتمنع ولا اختيار مع الوجوب والامتناع. قلنا: يعلم ويريد أن العبد يفعلـــه أو يتركه باختياره. فلا أشكال"[1].

يتضح أن الإنسان فى نظر السعد له حرية فى أفعاله وسلوكياته ويترتب علـــى هـــذا الاختيار المسئولية ومن ثم يكون الثواب والعقاب وهو فى موقفه من أفعال الإنسان يتفق مـــع مذهب أهل السنة الذى يرى أن الله يخلق "أفعال العبد والعبد له كسب واختيار فى أفعاله، وهذا هو الذى ارتضاه جمهور المسلمين وهو أن العبد مخير فى أفعاله لأنه هو الذى يرجح ويختار حسب ما أودعه الله فيه من عقل يميز الخير والشر، وأنه هو الذى يعزم ويصمم على الفعـــل، وبعد ذلك يكون خلق الفعل من الله سبحانه وتعالى"[2].

ويتضح كذلك أن السعد يعارض المذهب الجبرى الذى لا يثبت للإنسان فعلا لا قـــدرة على فعل شيء أصلا والقول بالجبر له آثاره الضارة على أفراد المجتمع المسلم لأنه يـــؤدى إلى التخاذل والتواكل والسلبية وعدم اتخاذ الأسباب المشروعة ويطيح بمبادئ الحرية الإنسانية والمسئولية التى أكد عليها الإسلام وبالتالى إضعاف المجتمعات الإسلامية والشخصية المسـلمة "لأن الجبرية تعنى عدم جدوى التربية ولا ضرورة لها، أما الاختيار فيعنى أهمية التربية فـــى تشكيل شخصية الإنسان وإرادتها الفاعلة المؤثرة فى مواقف الحياة"[3].

والفعل الإنسانى سلوك ويختار الإنسان سلوكه بإرادته وحريته ومن ثم يكون مســئولا عنه وإذا فقد الإنسان حريته فإن ذلك سيؤثر بالسلب على تربيته لأن تربية الإنسان مرتبطـــة بحريته ومسئوليته.

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح العقائد النسفية، مرجـــع ســـابق، ص ٥٦ - ٥٧ وأيضـــا شـــرح المقـــاصد، جـــ٤ ،مرجع سابق، ص ٢٤٨.

[2] عبد الحليم محمود: الفتاوى، جـــ١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ص ٩٨، ٩٩.

[3] عبد البديع الخولى: الطبيعة الإنسانية فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٩١.

والإنسان فى حاجة ملحة إلى العلم والمعرفة حتى يستطيع معرفة دوره فى الحياة وبالعلم يتعرف الإنسان طريق الخير والشر ولذا يعرض الباحث العلم عند التفتازانى.

ثالثا : العلم عند سعد الدين التفتازانى:

يحث الإسلام على العلم ويشجعه لأهميته فى حياة الفرد والمجتمع ويوليه العناية القصوى بالحث عليه والأمر به بشكل مباشر متكرر فى القرآن الكريم والسنة النبوية وقد تمثل المسلمون فى عصرهم الزاهر هذا الأمر فأقبلوا على ما ينفعهم من العلوم وأسهموا إسهاما فعالا فى رقى الحضارة الإنسانية.

والعلم الصحيح هو الطريق الوحيد لصنع وعى الإنسان ومعرفة الواقع سواء فى المجالات الطبيعية أو الإنسانية، وهو السبيل إلى النصر فى معركة البقاء. تلك حقيقة لا مراء فيها ولكنها تتأكد على نحو خاص فى واقعنا المعاصر. ذلك أن العلم هو روح العصر الحاضر وطابعه وبه تتقرر مصائر الأمم والشعوب[١].

وقد حفل القرآن الكريم والسنة الشريفة بكثير من الأدلة على المكانة السامية للعلم فى الإسلام من ذلك قوله تعالى: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط" آل عمران: ١٨. فقد استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه. أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر الثانى: اقتران شهادتهم بشهادته. والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته. والرابع: أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول منه ... كما نفى سبحانه التسوية بين أهل العلم وغيرهم فقال سبحانه: "قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون" الزمر: ٩. وهذا يدل على غايته فضل العلم وشرف أهله. وجعل سبحانه وتعالى أهل الجهل بمنزلة العمى الذين لا يبصرون فقال: "أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى" الرعد: ١٩. فما ثم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه"[٢].

ويعد العلم والمعرفة أسماء لمفهوم واحد "إن مصطلحى العلم والمعرفة يوشكان أن يتماثلا، فالمعرفة الإدراك بحاسة من الحواس، والعريف العالم بالشىء وتعلم الشىء أتقنه

---

[١] أحمد سليم سعدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر ١٩٨٨، ص ص ٢٠،٢١.

[٢] ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق محمد بيدوى، القاهرة، مكتبة الإيمان، د. ت، ص ص ٧٤ – ٧٦.

وعرفه، والعلم هو المعرفة، ومع هذا يرى البعض أن العلم الإدراك الكلى والمركب والمعرفة الإدراك الجزئى البسيط"[1].

ورغم عدم التماثل بين المعرفة والعلم إلا أن القدماء واستخدموا العلم وكانوا يقصدون به المعرفة وغلب عليهم هذا الاستخدام، لذا يؤثر الباحث استخدام المعرفة بمعنى العلم إيثـــارا للمصطلح السائد فى الوسط التربوى فضلا عن التماثل شبه التام بين العلم والمعرفة، ومن هنا فالمقصود بالعلم أو المعرفة الإدراك البسيط أو المركب لكل المعارف والعلوم بالوسائل الحسية والعقلية[2].

ويستخدم الباحث العلم والمعرفة بمعنى واحد لأن العلم والمعرفة لدى الســـعد اســـمان لمفهوم واحد "إن مرادنا بالعلم والمعرفة واحد، لا كما اصطلح عليه البعض مـــن تخصيـــص العلم بالمركبات أو الكليات والمعرفة بالبسائط أو الجزئيات"[3].

ومما ينبغى الإشارة إليه أن السعد لم يستخدم كلمة "المعرفة" وإنما استخدم بدلا منـــها كلمة "العلم" للدلالة على ما يقصد به الآن كلمة المعرفة وهما مفهومان بمعنـــى واحـــد ومـــع استخدام الباحث للمعرفة والعلم بمعنى واحد إلا أنه اتساقا مع الاستخدام الشائع فـــى الثقافـــة الإسلامية يؤثر "العلم" فى تناول هذا الموضوع لدى السعد.

واهتم السعد بالعلم وأسهب كثيرا في الحديث عنه وتقسيماته بل وخصص له مبحثا فى كتابه "شرح المقاصد" وتأثر فى معالجته للعلم بمقولات المتكلمين والفلاسفة وأثر اللغة والثقافة اللغوية يظهران فى تحليله وتناوله لهذا الموضوع وجاءت – كما سيتضح – مناقشته للعلـــم أقرب إلى مباحث اللغة منها إلى الفلسفة.

يرى السعد أن العلم يطلق على عدة معان فهو بمعنى صفة العالم وأنه حفظ وتذكـــر ووجدان وتصديق ويرى أنه من الصعوبة تحديد حقيقته مستشهدا بكلام الرازى الذى تأثر بـــه فى كتاباته "يطلق لفظ العلم فى الاصطلاح على معان منها: إدراك العقل، فيفســـر بحصـــول صورة الشيء فى الفعل، ونظر بعضهم إلى أن العلم صفة العالم، والحصول صفة الصـــورة، فعدل إلى وصول النفس إلى المعنى أخذا بما ذكره الرازى وغيره أن أول مراتـــب وصـــول النفس إلى المعنى شعور، فإذا حصل وقف النفس على تمام ذلك المعنى فتصور، فـــإذا بقـــى بحيث لو أراد استرجاعه بعد ذهابه يقال له: حفظ ولذلك الطلب تذكر، ولذلك الوجـــدان ذكـــر ... وقال الفخر الرازى*: تعريفات العلم لا تخلو عن خلل لأن حقيقته قد بلغت فى الظـــهور

---

[1] عبد البديع الخولى: العلم فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٣٧.

[2] -----------:الفكر التربوى عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

[3] سعد الدين التفتازى: شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ٢٢.

* يلاحظ تأثره الشديد بالفخر الرازى فكثيرا ما ينقل عنه ويشير إليه – أحيانا.

إلى حيث لا يمكن تعريفه بشيء أجلى (أوضح) منه وإلى هذا ذهب كثير من المحققين حتـــى قال بعضهم إن ما وقع فيه (فى تعريف العلم) من الاختلاف إنما هو لشدة ضوحه لاخفائه"[١].

يرى السعد أن للعلم معان متعددة ويورد قول الرازى أن هذه التعريفات فيها قصـــور لشدة وضوحه والرازى الذى استشهد به السعد يرى أن العلم تصوره بديهى "لأن ماعدا العلـم لا ينكشف إلا به. فيستحيل أن يكون كاشفا له، ولأنى أعلم بالضرورة كونى عالما بوجـــودى وتصور العلم جزء منه وجزء البديهى بديهى، فتصور العلم بديهى"[٢].

وينقسم العلم عند التفتازانى إلى ضروري واكتسابى ويرى أن العلم الضرورى هـــو الذى لا يحتاج إلى تفكير واستدلال وإما اكتسابى حاصل بالكسب يحتاج إلى استدلال "ينقســم العلم إلى قسمين إما علم ضرورة (العلم الضرورى)** وإما علم نظر واستدلال، فـالضرورى كالمحسوسات والبديهيات والمتواترات، وهذا النوع من العلم لا يحتاج إلى تفكير وذلك مثـــل العلم بأن كل شيء أعظم من جزئة، أما علم النظر (العلم النظرى) والاستدلال فهو ما يثبت به الاستدلال أى بالنظر فى الدليل، سواء كان استدلالا من العلة علـــى المعلـــوم، كمـــا إذا رأى الشخص نارا فعلم أن لها دخانا أو من المعلوم على العلة، كما إذا رأى دخانا فعلم أن هنـــاك نارا ... وهذا العلم يسمى اكتسابى أى حاصل بالكسب. وهو مباشرة الأسباب بالاختيار مثل: الإصغاء، وتقليب الحدقة (حدقة العين). ونحو ذلك فى الحســـيات. والاكتســـابي أعـــم مـــن الاستدلالى، لأنه الذى يحصل بالنظر فى الدليل، فكل استدلالى اكتسابى، ولا عكس. كالإبصار الحاصل بالقصد والاختيار ... ومن هنا جعل بعضهم العلم الحاصل بالحواس اكتســـابيا، أى حاصلا بمباشرة الأسباب بالاختيار، وبعضهم ضروريا أى حاصلا بدون الاستدلال"[٣].

يتضح أن السعد يهتم بتقسيم العلم إلى ضرورى وهو العلم الذى يحصل للإنسان بدون فكر أو كسب وأما العلم الاكتسابى فهو الذى يحصل عليه الشخص بمباشـــرة الأســـباب عـــن طريق النظر والبحث والتأمل وإعمال العقل أي يكتسبه الإنسان باختياره ويقدرته ويعتمد على العلم الضرورى والمقدمات العقلية التى تعتبر بديهيات وهذا النوع من العلـــم (الاســـتدلالى) يحتاج فيه الشخص إلى نوع تفكير كالعلم بوجود النار عند رؤية الشخص للدخان.

---

[١] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ١، مرجع سابق، ص ص ١٩٤ – ١٩٥.

[٢] فخر الدين الرازى:محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، القاهرة، مكتب الكليـــات الأزهريـــة، د.ت، ص ١٠٠.

** العلم الضرورى ما لا يدخله شك ويكون بمقدمات راجعة إلى العقل والحواس والاكتســـابى القـــائم علـــى الاستدلال وإعمال العقل، عبد البديع الخولى: الفكر التربوى فى الأندلس، مرجع سابق، ص ١٠٦.

[٣] سعد الدين التفتازانى: شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ص ٢١، ٢٢.

ويرى السعد أن العلوم الضرورية تنحصر فى ستة أشياء بديهيات* وتسمى أوليات ومشاهدات ووجدانيات ونظريات ومتواترات وحدسيات "العلوم الضرورية تنحصر فى ست بديهيات، يحكم العقل بها بمجرد قصور الطرفين وتسمى الأوليات** كالحكم بأن الواحد نصف الاثنين، ومشاهدات وهى قضايا بحكم العقل بواسطة الحواس (الخمس) الظاهرة وتسمى حسيات كالحكم بأن النار حارة، أو بواسطة الحواس الباطنة وتسمى وجدانيات، كالحكم بأن لنا خوفا وغضبا، ومنها ما نجده بنفوسنا لا بالآلات البدنية كشعورنا بذواتنا وأحوالها ... وفطريات قضايا يحكم العقل بواسطة لا يغيب عنه عند تصور الطرفين كالحكم بأن الأربعة زوج، لانقسامها بمتساويين ومجريات: وهى قضايا يحكم بها العقل بواسطة تكرر المشاهدة كالحكم بأن السقمونيا مهل للصفراء. وأما المتواترات: فهى قضايا يحكم بها العقل بواسطة كثرة شهادة المخبرين بأمر ممكن مستند إلى المشاهدة، كثرة يمتنع تواطؤهم على الكذب، فينضم إلى سماع الأخبار وإلى القضية قياس خفى، هو أنه لو لم يكن هذا الحكم حقا لما أخبر هذا الجمع، وأما الحدسيات: فهى قضايا يحكم بها العقل بحدس قوى من النفس يزول معه الشك ويحصل اليقين بمشاهدة القرائن، كالحكم بأن نور القمر مستفاد من الشمس، لما نرى من اختلاف تشكيلات نوره بحسب اختلاف أوضاعه من الشمس، وذلك أنه يضيء دائما جانبه الذى يلى الشمس وينتقل ضوئه إلى مقابلة الشمس، فيحدس العقل بأنه لو لم يكن نوره من الشمس لما كان كذلك، فهى كالمجريات فى تكرر المشاهدة ومقارنة القياس الخفى إلا أن السبب فى المجريات معلوم السببية غير معلوم الماهية. وفى الحدسيات معلوم بالوجهين، إلا أن الوقوف عليه يكون الحدس دون الفكر، وإلا لكان من العلوم الكسبية"(١).

ويرى السعد أن العلم ينقسم إلى قديم وهو علم الله سبحانه وتعالى الأزلى وحادثة وهو علم المخلوق وهو على ثلاث مراتب "العلم ينقسم إلى قديم لا يسبقه العدم وهو علم الله تعالى وإما حادث سبقه العدم فهو علم المخلوق، ومراتب الحادث ثلاثة: الأولى: ما يكون بالقوة المحضة، وهو الاستعداد للعلم، وحصوله للضروريات يكون بالحواس (الخمس) الظاهرة والباطنة، كما يستفاد من حس اللمس أن هذه النار حاره، فتستعد النفس للعلم بأن كل نار حاره. والثانية: العلم الإجمالى كمن علم مسألة فغفل عنها ثم سئل فإنه يحضر (بعد) الجواب

---

* البديهيات: سماها ابن حزم الفطرة أو أوائل العقول وهى كل ما عرفه الإنسان بفطرته المميزة عن الحيوان بالنطق والتصرف والمقارنة بين المشاهدات مثل: معرفة أن الكل أكبر من الجزء، عبد البديع الخولى: الفكر التربوى فى الأندلس،مرجع سابق، ص ١٤٧.

** سبق للباحث أن تحدث عنها فى معرض حديثه عند قوى النفس عند التفتازانى وسيتناول الباحث الحواس فى مصادر العلم فيما بعد.

(١) سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ١، مرجع سابق، ص ص ٢١٠ - ٢١٣.

فى ذهنه دفعة واحدة من غير تفصيل ... والثالثة: العلم التفصيلى: وهو حضـــور صـــوره المركب بحيث تعرف أجزاؤه متميزا بعضها عن بعض ملاحظا كل منها على انفراد، وذلـــك كما إذا نظرنا إلى الصحيفة دفعه (مرة) فلا شك أنا نجد حالة إجمالية من الإبصـــار، ثـــم إذا حدقنا النظر وأبصرنا كل حرف على الانفراد وحصلت لنا حالة أخرى مع أن الإبصار حاصل فى الحالية. فالأولى بمنزلة العلم الإجمالى، والثانية بمنزلة العلم التفصيلى"(١).

وفى معرض حديث السعد عن العلم أوضح أن العلوم التى يجب على طالب العلـم أن يدرسها علم الكلام لأنه – فى نظره ووفق اتجاهه الفكرى – أفضل العلـــوم لأنـــه "أســـاس الشرائع والأحكام، ومقياس قواعد الإسلام، وهو أعز ما يرغب فيه ويعرج إليه، وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه، لكونه أوثق العلوم بنيانا، وأصدقها تبيانا، وأصحها حجة ودليلا، وأوضحها محجة وسبيلا"(٢).

ويذكر ذلك فى موضع آخر "وبالجملة فهو (يعنى علم الكلام) أشرف العلـــوم لكونـــه أساس الأحكام الشرعية، ورئيس العلوم الدينية، وبراهينه: الحجج القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية (النقلية) ومبنى علم الشرائع والأحكام، وأساس قواعد عقائد الإسلام هو علم التوحيـــد والصفات الموسوم بالكلام، المنحى عن غياهب الشكوك، وظلمات الأوهام، وغايتـــه الفـــوز بالسعادات الدينية والدنيوية، وما نقل عن بعض السلف من الطعن فيه، والمنع عنه، فإنما هـــو للمتعصب فى الدين، والقاصر عن تحصيل اليقين، والقاصد إفساد عقائد المسلمين، والخـــائض فيما لا يفتقر (يحتاج) إليه من غوامض المتفلسفين. وإلا فكيف يتصور المنع عما هو أصـــل الواجبات، وأساس المشروعات، ولأنه أول ما يجب من العلوم التى إنما تعلم وتتعلم بـــالكلام، وهو أشد العلوم تأثيرا فى القلب وتغللا فيه"(٣).

يتضح اعتداد السعد بعلم الكلام فهو رئيس (أساس) العلوم الدينية ومن أشرف العلـــوم التى يجدر بطالب العلم أن يدرسها كما أنه يوضح الفائدة التى تعود على دراسة حيث تجعلـــه يؤمن إيمانا راسخا لا شك فيه حيث يرقى الإنسان فى إيمانه بالله من درجة التقليد إلى درجـــة اليقين والاعتقاد الصحيح وفى هذا الفلاح والنجاح والسعادة والدينية والدنيوية للإنسان ويـــرى أن ما ذكر أن بعض السلف قد منع من الخوض فيه والطعن فيمن يدرسه وذمـــه إنمـــا كـــان الداعى إلى ذلك هو الغلو فى الدين والتعصب والذى يدرسه بهدف زعزعة عقيدة أهل الإسلام وأما من كان قصده من دراسته الدفاع عن العقيدة الإسلامية بسلاح العقل والمنطق والرد على

---

(١) سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٢، مرجع سابق، ص ٣١٨.

(٢) ----------- : المرجع السابق، جـ١، ص ١٥.

(٣) ----------- : شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ص ٩ -١٢.

أهل البدع والأهواء فلا يذم ولا بأس عليه من دراسته متى كان قصده الـــرد علـــى خصـــوم العقيدة الإسلامية ويرى أنه أصل الواجبات وأول ما يجب من العلوم لأنه أقوى العلوم التـــى ترسخ عقيدة المسلم وتدعم إيمانه فى قلبه ولعل هذا يوضح بجـــلاء النـــهج الفكـــرى العـــام للتفتازانى.

ومن العلوم التى اهتم بها السعد أيضا علم أصول الفقه ويرى أن "علم الأصول الجامع بين المعقول والمنقول، النافع فى الوصول إلى مدارك المحصول، أجل ما يتنسم فـــى إحكـــام أحكام الشرع قبول القبول، وأعز ما يتخذ لإعلاء أعلام الحق عقول العقول ..." [1].

ومما يدل على اهتمامه بهذا العلم (علم أصول الفقه) أنه قام بشرح كتاب متن التنقيـــح مع شرحه المسمى بالتوضيح للإمام القاضى صدر الشريعة عبد الله بـــن مســـعود البخـــارى الحنفى (ت ٧٤٧هـــ) وسماه "شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح فى أصول الفقه"• ذكـــر فى مقدمة شرحه لهذا الكتاب "... وإن كتاب التنقيح مع شرحه المسمى بـــالتوضيح للإمـــام المحقق والتحرير المدقق علم الهداية وعالم الدراية معدل ميزان المعقول والمفقـــول، ومنقـــح أغصان الفروع والأصول صدر الشريعة والإسلام ... كتاب شامل لخلاصة كـــل مبســـوط واف، ونصاب كامل من خزانة كل منتخب كاف ... فيه كفاية لتقديم، فيزان الأصول وتهذيب أغصانها"[2].

وبالرغم من تأليفه هذا الكتاب فى علم أصول الفقه إلا أن اهتمامه فى الأصـــل علـــم الكلام (محور دراسته ومحط اهتمامه) ويبدو هذا فى سياق مقدمته لكتابه "شرح المقاصد" حيث بالغ فى الثناء على كتابه وغالى فى ذلك وبين أنه مصنف هام "... وأخـــذت فـــى تصنيـــف مختصر موسوم بالمقاصد، منظوم فيه غرر الفوائد ودرر الفوائد، ... باذلا الجهد فى إيـــراد مباحث قلت عناية المتأخرين بها من المتكلمين، وقد بالغ فى الاعتناء بـــها المحققـــون مـــن المتقدمين، لا سيما السمعيات التى هى المطلب الأعلى ... وحين حررت بعضا من الكتـــاب، ونبذا من الفصول والأبواب تسارع إليه الطلاب، وتداولته أيدى أولى الألباب"[3].

إن علم الكلام من أهم العلوم الإسلامية ويحتل مكانة سامية بين تلك العلوم فهو العلـــم الأساسى الذى تبنى عليه سائر العلوم الإسلامية حيث يدرس فيه العقيدة الإسلامية الصحيحـــة ولذلك يسمى "الفقه الأكبر" وسائر العلوم من تفسير وحديث وفقه تابعة له ولأنه الوسيلة المثلى

---

[1] شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح، جـــ١، مرجع سابق، ص ٥.

• هذا الكتاب مطبوع ومتداول ويقع فى جزئيين.

[2] سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح على التوضيح، جـــ١، مرجع سابق، ص ٥.

[3] ------------ : شرح المقاصد، جـــ١، مرجع سابق، ص ص ١٥٥ - ١٥٧.

فى الحفاظ على العقيدة صحيحة نقية والوسيلة المثلى أيضا فى الرد على أعداء الديـــن مـــن المعاصرين لأن رجال هذا العلم فى وضع ثقافى يمكنهم من غيرهم بالقيام بهذه المهمة الشاقة.

وما ذهب إليه السعد من أهمية دراسة علم الكلام يتسق مع اتجاهه الفكرى كعالم مـــن علماء الكلام البارزين فى هذا القرن ورأيه فيه يغاير رأى الذهبى والسبكى المعـــاصران لـــه ويحصل الإنسان على العلم عبر مصادر معينة من منظور السعد.

مصادر العلم عند التفتازانى:

يوجد عالمان ترتبط بهما المعرفة عالم الغيب وعالم الشهادة "فلدى الإنسان معلومـــات عن عالم الغيب توصل إليها عن طريق النقل المتواتر من الذين أوحى الله إليهم أو ألهمهم هذه المعارف التى نقلها الثقاة عنهم. ولدى الإنسان معلومات عن عالم الشهادة عن الكـــون وعـــن نفسه استفادها الإنسان من خبرته الشخصية وخبرات الأخريين ويكتســـب الإنســـان معارفـــه المتصلة بهذين العالمية بالوسائل المشتركة بين بنى الإنسان وهى الحواس والعقل والقلب ... هذه الوسائل يدركها من القرآن والسنة معظم المسلمين علماء عامة، لكن بعـــض المســـلمين صوفية وفلاسفة يرون بالإضافة إلى هذه وسائل أخرى للمعرفة عنى بها الصوفية والمتفلســـفة ومن أهمها الكشف والإلهام، والحدس"[١].

ويذكر السعد مصادر المعرفة ويراها تتمثل فـــى: الوحـــى (الكتـــاب والســـنة)، والحواس، والعقل، والقلب، والإلهام، والتواتر، والقياس.

ويمثل الوحى أهم مصادر العلم لدى السعد ويرى أن "الوحى وهو ظاهر وباطن أمـــا الظاهر فثلاثة الأول ما ثبت بلسان الملك فوقع فى سمعه عليه الصلاة والســـلام بعـــد علمـــه بالمبلغ بآية قاطعة والقرآن من هذا القبيل والثانى ما وضح له بإشارة الملك من غـــير بيـــان بالكلام كما قال عليه الصلاة والسلام: "إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها"[٢] الحديث. الروع القلب وهذا يسمى خاطر الملك والثالث ما تبدى لقلبه بـــلا شبهه بإلهام الله إياه بأن أراه بنور من عنده كما قال الله تعالى: "لتحكم بين الناس بما أراك الله" النساء: ١٠٥. "[٣].

ويرى السعد أن الله تعالى بعث الرسل والأنبياء وأنزل عليهم الوحى ليبلغوا عنه للناس أوامره ونواهيه وأن الوحى هو الوسيلة الأساسية لمعرفة الأمور التى يقصر العقل عن إدراكها "أرسل الله رسلا من البشر مبشرين لأهل الإيمان والطاعة بالجنة والثواب ومنذريـــن لأهـــل

---

[١] عبد البديع الخولى: العلم فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٦.

[٢] عبد الرزاق: المصنف، جـ١١، كتاب الجامع، باب القدر، المجلس العلمى بالـــهند، ط١، ١٣٩٢هـــ - ١٩٧٢م، ص ١٢٥.

[٣] سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح على التوضيح، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٢ - ٣٥.

الكفر والعصيان بالنار والعقاب. فإن ذلك مما لا طريق للعقل إليه وأرسلهم مبينين للناس مـــا يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين"(١).

يرى التفتازانى أن الوحى الخاص بالأنبياء والرسل من أهم مصادر المعرفـــة وأن الله أرسل الرسل للبشر ليبينوا لهم ما يحتاجونه فى دينهم ودنياهم ويبلغوهم أوامره ونواهيه ومـــن خلال الوحى تعلم الإنسان ما لم يكن يستطيع أن يصل إليه إلا عن طريقـــه وخصوصـــا مـــا يتصل بالعقائد والغيبيات.

ويرى السعد أن الحواس من مصادر العلم "الحواس* جمع حاسة وهى خمس: الســـمع وهو قوة مودعة فى العصب ... يدرك بها الأصوات ... والبصر يـــدرك بـــها الأضـــواء والألوان والأشكال والحسن والقبح وغير ذلك مما يخلق الله أدراكها فى النفس عند اســـتعمال العبد لها. والشم: يدرك بها الروائح ... والذوق يدرك بها الطعوم واللمس يدرك بها الحـــرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والله سبحانه وتعالى – قد خلق كلا من تلك الحـــواس لإدراك أشياء مخصوصة كالسمع للأصوات، والذوق للمطعوم والشم للروائح، لا يدرك بها ما يـــدرك بالحاسة الأخرى ... وأما الحواس الباطنة** التى تثبتها الفلاسفة فلا تتم دلائلها على الأصول الإسلامية"(٢).

يرى السعد أن الحواس يمكن من خلالها تحصيل العلم والحواس تلعب دورا هاما فـــى عملية التعليم غير أنها ليست كافية لإمداد الإنسان بالعلم الكافى فالمعرفة لا تستمد من الحواس وحدها وإنما تستمد من العقل.

ويرى السعد أن العقل من مصادر العلم وهـــو "قـــوة للنفـــس، بـــها تســـتعد للعلـــوم والإدراكات. وهو المعنى بقولهم: غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات. وقيل: جوهر يدرك به الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدات وهو سبب للعلم أيضا"(٣).

ويرى السعد أن الشرع يحتاج إلى العقل وهو ليس كافيا فيما يحتـــاج الإنســـان إلـــى معرفته لأن الخطأ يتطرق إلى العقل "الشرع مبنى على العقل لأنه مبنى على معرفة الله والعلم

---

(١)سعد الدين التفتازانى: شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ٨٥.

* تحدث السعد عن هذه الحواس بإسهاب وكان يشير إلى ابن سينا فمثلا عند حديثه عن حاسة اللمس ذكر "قال ابن سينا: أول الحواس الذى يصير به الحيوان حيوانا هو اللمس" شرح المقاصد، جـــ٣، مرجع ســـابق، ص ٢٦٩.

** هى كما ذكرها السعد الحس المشترك، والخيال، والوهم، والحافظة أو الذاكرة، والمفكرة أو المتخيلة، شرح المقاصد، جـــ٣، مرجع سابق، ص ص ٢٨٦ – ٢٩٦.

(٢)سعد الدين التفتازانى: شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ص ١٥ – ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٢٠، ٢١.

بوحدانيته والعلم بأن المعجزة دالة على النبوة، وهذه الأمور لا تعرف شرعا بل عقـــلا ولـــو توقفت معرفة هذه الأمور على الشرع لزم الدور. لكن قد يتطرق الخطأ فى العقليـــات فـــهو وحده غير كاف فيما يحتاج الإنسان إلى معرفة فالصبى العاقل لا يكلف بالإيمان، ولكن يصـــح منه وأيضا البالغ الشاهق فى الجبل إذا لم تبلغه الدعوة فإنه لا يكلف بالإيمان بمجرد عقله حتى لو لم يصف إيمانا ولا كفرا ولم يعتقده لم يكن من أهل النار، ولو أمن صح إيمانه"[١].

واضح اعتداد السعد بالعقل وهو يعول عليه فى كثير من كتاباته بل إن المستقرئ لـــها يلمس كيف أنه ينزع فى تفكيره نزعة عقلية وهى نزعة غالبة عليه وبالرغم من اعتداده بـــه كمصدر من مصادر العلم إلا أنه يرى أن المعرفة التى يحصل عليها الإنسان عـــن طريـــق الحواس والعقل معرفة محدودة قاصرة لأن هناك أمور غيبية يعجز العقل عن إدراكها لأنـــها تخرج عن نطاقه ومن ثم فإن النقل وحده، يغنى عن العقل فى معرفة هذه الأشياء "إنه تعـــالى خلق الجنة والنار وأعد فيهما الثواب والعقاب، وتفاصيل أحوالهما،مما لا يستقل به العقل. وكذا خلق الأجسام النافعة والضارة، ولم يجعل للعقول والحواس الاستقلال بمعرفتهما. وكذا جعـــل القضايا منها ما هى ممكنات لا طريق إلى الجزم بأحد جانبيه. وفيها مـــا هـــى واجبـــات أو ممتنعات لا يظهر للعقل إلا بعد نظر دائم وبحث كامل، بحيث لو اشتغل الإنسان به، لتعطلـــت أكثر مصالحه، فكان من فضل الله تعالى ورحمته إرسال الرسل لبيان ذلك، كما قال تعـــالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" الأنبياء: ١٠٧"[٢].

وتقدم أن الناس يحتاجون إلى الرسل ليبلغوهم عن الله أمورا لا يستطيع العقل البشرى أن يتوصل إليها ومعرفة شيء عما وراء الطبيعة أمر يغنى فيه النقل عن العقل أو الدين عـــن الفلسفة عند السعد وهذا واضح من كتاباته.

ويرى السعد أن القلب من مصادر العلم وقد ذكر الباحث – من قبل – القلـــب مـــع الجسم والعقل والروح وهو من مصادر المعرفة كذلك حيث يرى أن الإيمان "اسم لفعل القلـــب واللسان وعليه كثير من المحققين، وهو المحكى عن أبى حنيفة (رحمة الله تعالى). وكثيرا مـــا يقع فى عبارات الجهابذة من العلماء مكان التصديق، تارة المعرفـــة، وتـــارة العلـــم، وتـــارة الاعتقاد. فعلى هذا من صدق بقلبه، ولم يتفق له الإقرار باللسان فى عمره مـــرة، لا يكـــون مؤمنا عند الله تعالى، ولا يستحق دخول الجنة"[٣].

---

[١] سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح على التوضيح ، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٣٤ – ٣٣٦.

[٢] ------------ : شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ٨٦.

[٣] ------------ : شرح المقاصد،جـ٥، مرجع سابق، ص ١٧٨.

ويعد الإلهام من مصادر العلم لدى السعد ويرى أنه وسيلة معرفية، يمنحها الله تعـالى للصالحين من عباده "الإلهام المفسر بإلقاء معنى فى القلب، بطريق الفيض ليس سببا يحصل به العلم لعامة الخلق ... ولا شك أنه قد يحصل به العلم. وقد ورد القول به فى الحديث النبـوى مثل وقوله عليه الصلاة والسلام "ألهمنى ربى"، وحكى هذا عن كثير من السلف"[١].

ويرى السعد أن التواتر من مصادر العلم والتواتر هو "خبر جمع عن جمع ويؤمن عند العقل اتفاقهم على الكذب، عن فعل شاهدوه، أو حادث حضروا وقوعه، أو قول سمعوه ممـن قاله بأنفسهم وذلك كالإخبار بوجود مكة والمدينة والعلم المتواترة علم يقيني وهو يقهر النفـس على اليقين بما جاء فيه، وسبب اليقين الذى يحدثه[٢].

وينبه السعد إلى أن التواتر يفيد العلم "الخير الصادق المطابق للواقع علـى نوعيـن: أحدهما: الخبر المتواتر وهو الخبر الثابت على ألسنة قوم، لا يتصور تواطؤهم على الكـذب ومصداقه وقوع العلم من غير شبهة وهو موجب للعلم الضرورى، كالعلم بالملوك الخالية فـى الأزمنة الماضية، والبلدان النائية فإنا نجد من أنفسنا العلم بوجود "مكة" و"بغداد" وأنه ليـس إلا بالإخبار والعلم الحاصل به ضرورى لأنه يحصل للمستدل وغيره، حتى الصبيـان الذيـن لا اهتداء لهم بطريق الإكتساب، وترتيب المقدمات ... والنوع الثانى خـبر الرسـول المؤيـد بالمعجزة فهو يوجب العلم الاستدلالى والعلم الثابت به يضـاهى العلـم الثـابت بـالضرورة كالمحسوسات والبديهيات والمتواترات فى التيقن والثبات فمثلا قوله عليه الصـلاة والسـلام "البينة على المدعى، واليمين على من أنكر علم بالتواتر أنه خبر الرسول عليه الصلاة والسلام وهو ضرورى. ثم علم منه أنه يجب أن يكون البينة على المدعى. وهو استدلالى"[٣].

ويعتبر القياس من مصادر العلم لدى السعد ويرى أن القياس "هو فى اللغـة التقديـر والمساواة. يقال قست النعل بالنعل أى قدرتها بها ... وفى الشرع مساواة الفرع للأصل فـى علة حكمه وأصحاب الظواهر (أتباع ابن حزم) نفوه فبعضهم على أن لا عبرة للعقل أصـلا وبعضهم على أن لا عبرة له فى الشرعيات لهم (دليلهم) قوله تعالى: "ونزلنا عليـك الكتـاب تبيانا لكل شيء ولما كان الكتاب تبيانا لكل شيء يكون كل الأحكام مستفادة منه، والقياس إنمـا يكون حجة فيما لا يوجد فى الكتاب،وقوله تعـالى "ولا رطـب ولا يـابس إلا فـى كتـاب مبين"الأنعام:٥٩. إن كان المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فلا تمسك لهم حينئذ، وإن كان المراد به القرآن فالتمسك به كما ذكرنا فى قوله تعالى "تبيانا لكل شيء" ولأن العمل بالأصل ممكـن

---

[١]سعد الدين التفتازانى: شرح العقائد النفسية ، مرجع سابق، ص ٢٢.

[٢] محيى الدين الصافى وعبد الفتاح عبد الكريم: العقيدة الإسلامية والأخلاقية، مرجع سابق، ص ص ١٦١ – ١٦٢.

[٣]سعد الدين التفتازانى: شرح العقائد النسفية ، مرجع سابق، ص ص ١٧ – ٢٠.

وقد دعينا إليه (القياس) قال الله تعالى: "قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما" الأنعام: ١٤٥. ولأن الحكم حق الشارع وهو قادر على البيان القطعى فلم يجوز إثباته بما فيه شبهه وهو تصرف فى حقه تعالى ولأنه القياس طاعة لله تعالى ولا مدخل للعقل فى إدراكها بخلاف أمر الحرب وقيم المتلفات ونحوها ... وهى من حقوق العباد وهى تدرك بالحس أو العقل وكذا أمر القبلة ولنا دليلنا قوله سبحانه وتعالى: "فاعتبروا يا أولى الأبصار" الحشر: ٣. فيدل على الاتعاظ عبارة وعلى القياس إشارة والمراد بالاعتبار والاتعاظ بالقرون الخالية (السابقة) يدل عليه سياق الآية. وقوله تعالى: "وشاورهم فى الأمر": آل عمران: ١٥٩. محمول على الحرب أى إن تمسك به أحد على صحة العمل بالرأى فى الأحكام الشرعية نقول إنه محمول على الحرب ... والاعتبار والشىء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه ومنه سمى الأصل الذى يرد إليه النظائر عبرة وهذا يشمل الاتعاظ والقياس العقلى والشرعى ولفظ "أولى الأبصار" يعم المجتهدين بلا نزاع ولا عبرة بباقى الاحتمالات وإلا لما صح التمسك بشىء من النصوص"[1].

يرى السعد أن القياس العقلى مصدر من مصادر العلم وهو وسيلة من وسائل المعرفة العقلية والعقل هو الذى يقوم بالاجتهاد والقياس يقدم الرأى ويستنبط فى هذا المجال والقياس من الأدلة الشرعية "ثم نظرنا فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة، فإذا هم يقيسون الأشباه منها بالأشباه. ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم، وتسليم بعضهم لبعض فى ذلك. فإن كثيرا من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه — لم تندرج فى النصوص الثابتة، فقاسوها بما ثبت ... وصار دليلا شرعيا"[2].

وذهب المزنى إلى القول بأن "الفقهاء من عصر الرسول ﷺ إلى يومنا هذا استعملوا المقاييس فى جميع الأحكام فى أمر دينهم، وأجمعوا على أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فلا يجوز لأحد إنكار القياس، لأنه تشبيه الأمور والتمثيل عليها"[3].

هذه هى مصادر العلم لدى السعد استنبطها الباحث من كتاباته ويتضح أن طبيعة العلم لديه عقليه ويقرر أهمية العقل ويعول عليه فى كتاباته ومع إقراره لأهميته إلا أن النقل لديه مقدم على العقل ويزاوج بينهما ويرى أن دوره ينحصر فى معرفة الأصول والقواعد الشرعية والاجتهاد فيما لا نص فيه ومصادر العلم لديه الوحي ويعد أس هذه المصادر لأنه إلهى المصدر ثم الحواس والعقل والقلب وهى وسائل معرفية عامة ثم الإلهام الخاص بالصالحين ثم التواتر وأخيرا القياس.

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح على التوضيح، مرجع سابق، ص ص ١١٢ – ١١٦.

[2] ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٤٢٤.

[3] محمد أبو زهرة: أصول الفقه، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

ولا يسير التعليم فى مساره الصحيح عند السعد إلا إذا روعيت فيه مبادئ منها:

مبادئ التعليم:

(أ) عدم التعصب ورفض التقليد:

دعا السعد فى بعض كتاباته إلى نبذ التعصب وحذر منه ويرى أن التعصب يعنى "عدم قبول الحق عند ظهور الدليل بناء على ميل إلى جانب"(١).

ويدعو السعد إلى الاجتهاد ويرى أن المجتهد يخطئ ويصيب وأن المخطئ فى الاجتهاد لا يعاقب مادام طريق الصواب بيناً "احتج أصحابنا على أن الحق واحد والمجتهد يخطئ ويصيب بالكتاب والسنة والأثر ودلالة الإجماع والمعقول أما الكتاب فقوله تعالى: "ففهمناها سليمان" الأنبياء: ٧٦. والضمير للحكومة أو الفتوى، ولو كان كل مجتهد مصيباً لصح صلاة من خالف الإمام عالماً بحالة لإصابتهما جميعاً فى القبلة ... والمخطئ فى الاجتهاد لا يعاقب ولا ينسب إلى الضلال بل يكون معذوراً ومأجوراً إذ ليس عليه إلا بذل الوسع وقد فعل فلم ينل الحق لخفاء دليله إلا أن يكون الموصل إلى الصواب بيناً فأخطأ المجتهد لتقصير منه وترك مبالغة فى الاجتهاد فإنه يعاقب. وما نقل من طعن السلف بعضهم على بعض فى مسائلهم الاجتهادية كان مبنيا على أن طريق الصواب بين فى زعم الطاعن، وإنما قال المخطئ فى الاجتهاد لأن المخطئ في الأصول والعقائد يعاقب بل يضلل أو يكفر لأن الحق فيها واحد إجماعاً، والمطلوب هو اليقين الحاصل بالأدلة القطعية إذ لا يعقل حدوث العالم وقدمه وجواز رؤية الصانع وعدمه فالمخطئ فيها ابتداء وانتهاء"(٢).

يتضح مما سبق أن السعد يدعو إلي الابتعاد عن التعصب.

(ب) الابتعاد عما يضر المتعلم فى الدين:

يوجه السعد المسلم إلى الابتعاد عما يضره ولا ينفعه فى دينه وذلك مثلاً فى الخوض فيما جرى بين الصحابة رضوان الله عليهم ويرى الكف عن ذلك وينصح بعدم الاستماع إلى ذلك "وللروافض* سيما الغلاة منهم مبالغات فى بغض البعض من الصحابة (رضى الله عنهم) والطعن فيهم بناء على حكايات وافتراءات لم تكن فى القرن الثانى والثالث. فإياك والإصغاء إليها فإنها تضل الأحداث، وإن كانت لا تؤثر فيمن له استقامة على الصراط المستقيم ... وقد استقرت آراء المحققين من علماء الدين على أن البحث عن أحوال الصحابة وما جرى بينهم

---

(١)سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح على التوضيح، جـ٢، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٢) ----------- : شرح التلويح على التوضيح، جـ٢، مرجع سابق، ص ٢٥٣، وأيضاً: التفتازانى: شرح العقائد النسفية ، مرجع سابق، ص ١١٢.

* الروافض هم من الشيعة الذين يرفضون إمامة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

من الموافقة والمخالفة ليس من العقائد الدينية، والقواعد الكلامية، وليس له نفع فى الدين، بـــل ربما يضر باليقين، إلا أنهم ذكروا نبذاً من ذلك للأمرين، أحدهما صون الأذهان السليمة عـــن التدنس بالعقائد الردية (المهلكة) التى توقعها حكايات بعض الروافض ورواياتهم وثانيها ابتنـاء بعض الأحكام الفقهية فى باب البغاة عليها. إذ ليس فى ذلك نصوص يرجع إليها، ولهذا قـــال أبو حنيفة (رحمة الله تعالى) لولا علي بن أبي طالب لم نكن نعرف السيرة فى الخـــوارج ... وبالجملة فلم يقصدو إلا الخير والصلاح فى الدين، وأما اليوم فلا معنى لبسط اللسان فيـــهم إلا التهاون بنقلة الدين، الباذلين أنفسهم وأموالهم فى نصرته، المكرمين بصحبـــــة خـــير البشـــر ومحبته"[1].

(جـ) عدم قبول أية دعوى بدون دليل:

يحرص السعد فى كتاباته على الاستشهاد بالأدلة سواء كانت عقلية أو نقلية وهذا كثير فى كتاباته ويرى أن "الدليل الشرعى إما وحى أو غيره، والوحى إن كان متلوا فالكتـــاب وإلا فالسنة، وغير الوحى إن كان قول كل الأمة فى عصر فالإجماع وإلا فالقياس... ومن هـــهنا يقال: أصول الفقه ثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع، والأصل الرابع القياس المستنبط من هـــذه الأصول الثلاثة"[2].

ويرى السعد أن الدليل يقسم إلى "عقلى ونقلى، وقد يقسم إليهما وإلى المركـــــب مـــن العقلى والنقلى، وهذا يوهم أن المراد بالنقلى مالا يكون شيء من مقدماته عقلياً وهو بـــاطل، إذ لو لم تنته سلسلة صدق المخبرين إلى من يعلم صدقة بالعقل لـــزم الـــدور او التسلســـل ... والمركب ما يكون بعض مقدماته القريبة عقلياً وبعضها نقلياً كقولنا: الوضوء عمل وكل عمـل فصحته الشرعية بالنية ... وإذا تعاضد العقل والنقل كان المثبت ما أفاد العلم أولا. واعلـم أن توقف النقل على ثبوت الصانع، وبعثة الأنبياء، إنما هو فى الأحكام الشرعية ... وإمـــا فـــى مجرد إفادة الظن فيكفى خبر واحد"[3].

يتضح اهتمام السعد بتربية الشخصية العلمية على عدم قبول أية دعوى بدون دليل.

ولا يكفى فى تربية الشخصية المسلمة الاقتصار على الناحية العلمية فقط بـــل يجـــب العناية بتربيتها على الأخلاق والمبادئ والحسنة ويعرض الباحث للأخلاق عند التفتازانى.

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جــ٥، مرجع سابق، ص ص ٣٠٤ – ٣١٠.

[2] ----------- : شرح التلويح على التوضيح، جــ١، مرجع سابق، ص ص ٣٣ – ٣٤.

[3] -----------: شرح المقاصد، جــ١، مرجع سابق، ص ص ٢٨١ – ٢٨٢.

رابعاً : الأخلاق عند التفتازانى:

أكد القرآن الكريم على أهمية الأخلاق وأشاد بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ويتجلى هذا فى قوله تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم": ٤. وأولى الدين الإسلامى الأخلاق عناية فائقة وحث المسام علي التحلى بالأخلاق الحسنة.

واهتم السعد بالأخلاق ويرى أن سلوك الإنسان ينقسم إلى خير وشر أو حسن وقبيح وعلى أساس سلوكه يكون الحكم بالحسن أو القبح ويقرر أن الحكم على أخلاق بأنها حسنة محمودة أو سيئة مذمومة يكون مصدره الشرع لا العقل "اشتهر أن الحسن والقبح عندنا (الأشاعرة) شرعيان وعند المعتزلة عقليان ... والعقل لا يحكم بأن الفعل حسن أو قبيح فى حكم الله تعالى، بل ما ورد الأمر به فهو حسن، وما ورد النهى عنه فقبيح من غير أن يكون للعقل جهة محسنة أو مقبحة فى ذاته والدليل على ذلك من السمع قوله تعالى: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً" الأسراء: ١٥. ومن العقل لو حسن الفعل أو قبح عقلاً لزم تعذيب تارك الواجب، ومرتكب الحرام، سواء ورد الشرع أو لا بناء على أصلهم (المعتزلة) فى وجوب تعذيب من استحقه إذا مات غير تائب واللازم باطل ... وللمعتزلة فى كون الحسن والقبح عقلية وجوه (أدلة) منها: أن من استوى فى تحصيل غرضه الصدق والكذب بحيث لا مرجح أصلاً ولا علم باستقرار الشرائع على تحسين الصدق، وتقبيح الكذب، فإنه يؤثر الصدق قطعاً وما ذاك إلا لأن حسن حسنه ذاتى ضرورى عقلي، وكذلك إنقاذ من أشرف على الهلاك حيث لا يتصور للمنقذ نفع وغرض ولو مدحاً وثناءً. والجواب: إن إيثار الصدق لما تقرر فى النفوس من كونه الملائم لغرض العامة ومصلحه العالم والاستواء المفروض إنما هو فى تحصيل غرض لذلك الشخص واندفاع حاجاته لا على الإطلاق. كيف والصدق ممدوح، والكذب مذموم عند العقلاء. وعلى مذهبكم عند الله أيضاً بحكم العقل ... وأما إنقاذ الهالك فلرقة (ضعف) الجنسية المجبولة فى الطبيعة، وكله يتصور مثل تلك الحالة لنفسه، فيجره استحسان ذلك الفعل من غيره فى حق نفسه إلى استحسانه من نفسه فى حق غيره . وبالجملة لا نسلم أن إيثار الصدق والإنقاذ عند من لم يعلم استقرار الشرائع على حسنها إنما هو حسنهما عند الله على ما هو المتنازع بل لأمر آخر"[1].

إن السعد يرى أنه ليست هناك فضائل فى حد ذاتها ولا رذائل فى ذاتها لأن الله تعالى هو الذى حدد الحسن والقبح فى الأشياء واستدل على ذلك بأدلة عقلية ونقلية واستطاع بتحليله المنطقى أن يرد على المعتزلة.

---

[1]سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٤، مرجع سابق، ص ص ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٢.

وفى حديثه عن الفضائل والرذائل يذكر أن للإنسان ثلاث قوى: القوة الناطقـــة (قـــوة العقل) والقوة الشهوية (قوة الشهوة) والقوة الغضبيه (قوة الغضب) وعـــدد الفضـــائل يكـــون بحسب عدد قوى النفس وكذلك أضدادها التى هى رذائل والفضائل منحصرة فى التوسط بيـــن الإفراط والتفريط والفضائل عنده أربع فضيلة الحكمة وهى كمال القـــوة الناطقـــة وفضيلـــة الشجاعة وهي كمال القوة الغضبية أما فضيلة العفة فهى كمال القوة الشهوية ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها إلى بعض فضيلة هى كمالها وتمامها وهـــى فضيلـــة العدالة فالفضائل إذن أربع هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة "إن الخالق تعالى وتقدس قـــد ركب فى الإنسان ثلاث قوى، إحداها مبدأ إدراك الحقائق والسوق إلى النظر فـــى العواقـــب والتمييز بين المصالح والمفاسد، ويعبر عنها بالقوة النطقية والعقلية والنفس المطمئنة والثانيـــة مبدأ جذب المنافع وطلب الملاذ من المآكل والمشارب وغير ذلك، وتسمى القـــوة الشـــهوانية والبهيمية والنفس الأمارة، والثالثة مبدأ الإقدام على الأحوال والشوق إلى التمســـك والتســـلط والترفع وهى القوة الغضبية والنفس اللوامة، وتحدث من اعتدال الحركـــة للأولـــى الحكمـــة، وللثانية العفة، وللثالثة الشجاعة ثم التوسط فى هذا المجموع أى الحكمة والعفـــة والشـــجاعة والعدالة فأمهات الفضائل أربع: العفة، والشجاعة، والحكمة، والعدالة وكل الفضائل منحصـــرة فى التوسط بين الإفراط والتفريط"[١].

ويلاحظ أن السعد سار على درب أفلاطون فى تفسيره لقوى النفس "وكانت النظريـــة الأفلاطونية معروفة فى البيئات الإسلامية حينذاك"[٢].

ويبدو أيضاً أنه قال بفكرة الوسط وهي فكرة أرسطية أصلا ولقـــد "أعجـــب بعـــض التربويين المسلمين بفكره الوسط الأرسطى وهى الفضيلة وسط بين رذيلتين، ولعـــل وجـــود نصوص دينية تتحدث عن طرفين مذمومين ووسط محمود مثل قوله تعالى: "ولا تجعل يـــدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً" الإسراء: ٢٩ هو الـــذى دفـــع بعض التربويين المسلمين إلى الحماس لفكرة الوسط الأرسطية"[٣].

ويورد السعد قوتين للإنسان وقوة علمية نظرية وقوة عملية إرادية وسعادة الإنســـان متوقفة على استكمال هاتين القوتين ويستكمل الإنسان القوة النظرية بمعرفة الحقائق كما هـــى وأما القوة العملية فكمالهما بالأمور على ما ينبغى وأن الدين، والفلسفة تطابقا علـــى العنايـــة باستكمال هاتين القوتين بيد أن العقل الإنسانى اتبع أوامر الله وفى الفلسفة هـــواه ويـــرى أن

---

[١] سعد الدين التفتازاني: شرح التلويح على التوضيح، جـ٢، مرجع ســـابق، ص ص ١٠٤، ١٠٥ وأيضـــاً وشرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ٣٤٥، ٣٤٦.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

[٣] ---------- : الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزي،مرجع سابق، ص ٧٠.

استكمال القوة العملية فى معرفة الإنسان لنفسه ويتم استكمال القوة النظرية بمعرفة كيف بـــدأ إلى أين سينتهى "اعلم أن للإنسان قوة نظرية كمالها معرفة الحقائق كما هى، وعملية كمالـــها القيام بالأمور على ما ينبغى تحصيلاً لسعادة الدارين، وقد تطابقت الملة (الدين) والفلسفة علـى الاعتناء بتكميل (استكمال) النفوس البشرية فى القوتين وتسهيل طريق الوصول إلى الغـايتين، إلا أن نظر العقل يتبع فى الملة هداه وفى الفلسفة هواه، وكما دونت حكماء الفلاسفة الحكمـــة النظرية والعلمية إعانة للعامة على تحصيل الكمالات المتعلقة بالقوتين دونت عظمـــاء الملـــة وعلماء الأمة علم الكلام، وعلم الشرائع والأحكام (الفقه) فوقع الكلام للملـــة بـــإزاء الحكمـــة النظرية للفلسفة ... وما أحسن ما أشار أمير المؤمنين علي كرم الله وجه إلي أن المعتبر مـن كمال القوة العملية ما به نظام المعاش، ونجاة الميعاد ومن النظرية العلم المبدأ وحياة الإنسان؛ والميعاد (نهايته)وما بينهما من جهة النظر والاعتبار حيث قال: "رحم الله عبداً أخـــذ لنفســـه، واستعد لغده وعلم من أين وفى أين وإلى أين؟"[١].

ويبدو الأثر الفلسفى اليونانى واضحاً فى فكر السعد فحديثه عـــن القوتيـــن العلميـــة والعملية وعن الهدف الذى يبتغيه الإنسان من ذلك وهو الكمال والسعادة هـــو نفـــس حديـــث أرسطو عن الحكمة النظرية والعملية التى تمكن الإنسان من ان يعيش سعيداً مع نفسه ومـــع الناس وأن يصل إلى الكمال[٢].

وينعى السعد على الفلاسفة فى التربية الخلقية أنهم لم يأتوا بالسعادة للنفـــس كالرســـل وأنه إذا كان الفلاسفة قد خلت تعاليمهم من أسباب السعادة فقد لزم التأسي فى ذلـــك بالرســـل الذين هم على هدى من الله وأيدهم بالمعجزات الباهرة ".. إلا أنه لما كثر الخـــلاف، وفشـــي الباطل، والضلال، فى شأن الكمال، وفى كون الأشياء كما هى، والأمور على ما ينبغى، لـــزم الاقتداء فى ذلك بمن ثبت بالمعجزات الباهرة، أنهم على هدى من الله تعالى، وكانت الحكمـــة الحقيقة هى الشريعة لكن لا بمعنى مجرد الأحكام العملية، بل بمعنى معرفة النفس ما لها ومـــا عليها، والعمل بها على ما ذهب إليه أهل التحقيق من أن الحكمة المشار إليها فى قوله تعـــالى: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً" البقرة: ٢٦٩. هو الفقه، وأنه اســـم للعلـــم والعمـــل جميعاً[٣].

ويرى السعد أن من رحمة الله تعالى أن أرسل للناس الرسل بالشرائع ليبلغوهم عن الله الأقوال والأعمال التى تسعدهم وتقربهم من الله تعالى ويبينون للناس ما خفى عـــن العقـــول

---

[١] سعد الدين التقتازانى: شرح المقاصد، جـ١، مرجع سابق، ص ص ١٥٧، ١٥٨ وأيضاً شـــرح التلويـــح على التوضيح، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٣٢٢، ٣٢٣.

[٢] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى عند ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص ٧٠.

[٣] سعد الدين التقتازاني شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق،ص ٣٤٤.

البشرية ولسعادتهم فى الدنيا والآخرة وتهذيب نفوسهم وأخلاقهم وأن بعثه الرسل من متممات كمال الإنسان ومن أهم حاجاته ليحقق الغاية من خلقه وهى عبادة الله وحده "وفى إرسال الرسل وهم سفراء بين الله وخلقه حكمة أى مصلحة وعاقبة حميدة ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم، من مصالح الدنيا والآخرة ... وقد أرسل الله رسلاً من البشر يبينوا لهم ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين وأرسل محمداً ﷺ إلى قوم لا كتاب لهم ولا حكمة معهم، وبين لهم الكتاب والحكمة، وعلمهم الأحكام والشرائع، وأتم مكارم الأخلاق، وأكمل كثيراً من الناس فى الفضائل العلمية والعملية، ونور العالم بالإيمان والعمل الصالح وأظهر الله دينه على الدين كله، كما وعده. ولا معنى للنبوة والرسالة سوى ذلك، وقد دل كلامه وكلام الله تعالى المنزل عليه على أنه خاتم النبيين ..."[1].

يرى السعد أن الرسل وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم قد أرسلوا لسعادة البشر وأن الحكمة تقتضى ذلك لإصلاح أخلاقهم وتهذيب نفوسهم لأن هذا هو الغرض الأساسى من إرسال الرسل "مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل" النساء:١٦٥. ولكى يصلوا إلى الكمال كما عبر عن ذلك فى موضع آخر "ولقد أفصح عن المقصود بعض الإفصاح من قال: إن المدبر (الله) الذى يسوق النوع من النقصان إلى الكمال لابد أن يبعث الأنبياء ويمهد الشرائع كما هو موجود فى العالم ليحصل النظام ويتعيش الأشخاص ويمكن لهم الوصول من النقصان إلى الكمال الذى خلقوا لأجله"[2].

ويذكر السعد مجموعة من الأخلاق المحمودة التى ينبغى أن يتحلى بها الإنسان الفاضل ومجموعة أخرى من الأخلاق المذمومة التى ينبغى أن يتخلى عنها فمن الأخلاق المحمودة التى دعا إليها وحث المسلم على التحلى بها ما يلى:

(أ) تحرى النية والإخلاص لله فى الطاعات:

يحث السعد المسلم على أن يتحرى النية ويخلص عمله لله عز وجل "كل قربة طاعة يتقرب به العبد إلى الله" فهى مفتقرة إلى النية تحقيقاً لمعنى الإخلاص وقصد التقرب إلى الله تعالى وتمييز للعبادة عن العادة[3].

(ب) الشكر:

يرى السعد أن المسلم يجب عليه أن يتحلى بخلق الشكر ويعظم نعم الله عليه قولاً وفعلاً "المحامد" جمع محمدة بمعنى الحمد وهو مقابلة الجميل من نعمة أو غيرها بالثناء

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ٣٤٤.

[2] ------------ : شرح العقائد النسفية، مرجع سابق، ص ٨٨.

[3] ------------ : شرح التلويح على التوضيح، جـ١، مرجع سابق، ص ٣٦٤، وأيضاً شرح أحاديث الأربعين، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ، ص ١٦.

والتعظيم باللسان والشكر مقابلة النعمة بالإظهار وتعظيم المنعم قــولاً أو عمــلاً أو اعتقــاداً ...قال تعالى"ضرب الله مثلاً كلمة طيبــة كشــجرة طيبــة أصلــها ثــابت وفرعــها فــي السماء"إبراهيم:٢٤. فإن المحامد لما كانت هى الكلم الطيب والكلمة الطيبــة كشــجرة طيبــة فالمحمدة شجرة لها أصل هو الإيمان والاعتقادات وفرع هو الأعمال والطاعات.وتحقيق ذلــك أن الحمد وإن كان فى اللغة فعل اللسان خاصة،إلا أن حمد الله على ما صــــرح بــه الإمــام الرازى في تفسيره ليس قول القائل"الحمد لله"بل ما يشعر بتعظيمه وينبئ عن تمجيده من اعتقاد اتصافه بصفات الكمال والترجمــة عــن ذلــك بالمقــال والإتيــان بمــا يــدل عليــه مــن الأعمال...وفروع الشريعة وأحكامها المفصلة فى علم الفقه ومعانيــها وجميــع ذلــك نعــم تستوجب الحمد إذ بالشريعة نظام الدنيا وثواب العقبى،ونعم الله تستوجب الشكر بالقلب واللسان والجوارح"[1].

(ج) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

دعا السعد إلى أن يتحلى بهذا الخلق الطيب بأن يأمر بالمعروف وينهى عــن المنكــر وساق أدلة من الكتاب والسنة تؤكد ذلك ويرى أن ذلك لا يختص بالولاة وبين أن المحتسب قد يقوم بهذه الوظيفة إذا تعين لذلك ولكن عليه أن يترفق بالناس"جرت عــادة المتكلميــن علــى إيرادهما فى علم الكلام،مع أنهما بالفروع أشبه،وكأنهما يشبهان التوبة فى الزجر عن ارتكــاب المعصية،والإخلال بالواجب.والمراد بالمعروف الواجب،وبالمنكر الحرام وهما واجبان والدليل على وجوبهما،من غير توقف على ظهور الإمام كما يزعم الروافض،الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقوله تعالى:"ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عــن المنكر "آل عمران:١٠٤.وأما السنة فلقوله عليه الصلاة والسلام:"من رأى منكم منكراً فليغـيره بيده،فإن لم يستطع فبلسانه،فإن لم يستطع فبقلبه ،وذلك أضعف الإيمان"[2].وأما الإجماع فهو أن المسلمين فى الصدر الأول وبعده كانوا يتواصون بذلك،ويوبخون تاركه مع القدرة عليه.فــإن استدل على نفى الواجب بقوله تعالى:"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضــل إذا اهتديتم"المائدة:١٧٥.أجيب بأن المعنى:أصلحوا أنفسكم بأداء الواجبات وتــرك المعــاصى،ولا يضركم بعد النهى عنادهم وإصرارهم على المعصية أو لا يضر المهتدى إذا نـــهى ضــلال الضال...ولا يختص بالولاة لكن إذا انتهى الأمر إلى نصب القتال،وشــهر الســلاح،أرتبــط بالسلطان،حذراً من الفتنة...ثم هو فرض كفاية إذا قام به فى كل بقعة من فيه غنــــاء،سـقط

---

[1] سعد الدين التفتازانى:شرح التلويح على التوضيح،ج١،مرجع سابق،ص ص٧-١٠.

[2] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووى،ج٢،كتاب الإيمان،باب كون النهى عن المنكر من الإيمان،مرجع سابق، ص٢٢.

الغرض عن الباقيين.وهذا لا ينفى القول بأنه فرض على الكل ...نعم،إذا نصب لذلــك أحـد تعين عليه،فيحتسب فيما يتعلق بحقوق الله من غير بحث ولا تجسس...وينبغى أن يحتســب برفق وسكون،متدرجاً إلى الأغلظ فالأغلظ،بحسب حال المنكر"[١] .

ويستهدف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر –باعتباره مبدأ تربوياً–وقاية المجتمــع الإسلامى من الشرور والمفاسد وتطهيره من الفساد والمفسدين وقطع دابــر المنكــرات مــن المجتمع إذ أنه يمثل أداة إصلاح للتربية والتعليم وإصلاح حال أفراد الأمـــة أســاس عمليــة التغيير والمشاركة وبديل إسلامى عنهما ويشمل كافة المستويات الفرد والجماعة والدولة.

"وحتى لا يمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الجهلاء أو قليلوا الثقافة الدينيـة أو الذين لا يعرفون الطرق والأساليب المناسبة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يحدث من بعض شبابنا حيث تسلل إلى أمور الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعض من لا يعرفون كيف تكون ومن ثم حدثت تجاوزات قوبلت برجال الأمن لا رجال التربية والدعـوة فإن التربية السياسية الإسلامية هى التى تعصم الآمرين والناهين من الوقوع فى مثل أخطـــاء الشباب الذين يتصدون لهذا التوجيه دونما إعداد علمى مناسب وهذه التربية السياسية الإسلامية هامة فى مثل ظروفنا ومجتمعاتنا المعاصرة"[٢].

(د) إظهار الصواب عند المناظرة*:

كثرت الاختلافات فى العقائد بين الفرق فى هذه الفترة وحاولت كل فرقة نشر آرائـــها ودحض حجج مخالفيها وشاع أسلوب المناظرة وتأثر السعد بذلك وقــد وردت عنــده إشــارة بسيطة تدل على أنه ينبغى أن يكون الغرض من المناظرة إظهار الحق والصواب"الانتقال مـن علة إلى علة لإثبات حكم شرعى بمنزلة انتقال من بينة(حجة)إلى بينة أخرى لإثبــات حقــوق الناس وهو مقبول بالإجماع صيانة للحقوق.وقد يقال:إن الغـــرض مـــن المنـــاظرة إظـــهار الصواب،فلو جوزنا الانتقال لطالت المناظرة بانتقال المعلل من دليل إلى دليـــل ولـــم يظـــهر الصواب.ولقائل إن يقول:لما كان الغرض إظهار الصواب لزم جواز الانتقال لأن المقصـــود إظهار الحق بأى دليل كان وليس فى وسع المعلل الانتقال من دليل إلى آخر لا إلى نهاية ،نعم لو انتقل فى معرض الاستدلال إلى ما لا يناسب المطلوب دفعا لظهور إفحامـــه فـــهو يكـــون

---

[١]سعد الدين التفتازانى:شرح المقاصد،،جـ٥،مرجع سابق،ص ص١٧٢-١٧٥.

[٢] عبد البيع الخولى:الفكر التربوى عند ابن تمية،مرجع سابق،ص٢٥١.

* المناظرة طريقة من طرق التعليم ويحفل كتاب طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين الســـبكى بـــالعديد مـــن المناظرات التى كانت بين العلماء والمفكرين ويظهر فيها أعمال العقل واستخدام القياس والاستنباط ومثال ذلك مناظرة جرت بين الأستاذ أبى إسحاق الاسفراييني والقاضى عبـــد الجبـــار فـــى القضـــاء والقـــدر،يراجـــع السبكى:طبقات الشافعية الكبرى،جـ٤ ،مرجع سابق، ص ص٢٦١-٢٦٢.

انقطاعاً ...وأما فى قصة الخليل إبراهيم عليه السلام حيث قال:"فإن الله يأتى بالشـــمس مـــن المشرق فأت بها من المغرب"البقرة:٢٥٨.فإن الحجة الأولى قوله تعالي: "ربي الـــذي يحيـــي ويميت" كانت ملزمة واللعيـــن عارضـــه بـــأمر بـــاطل وهـــو قولـــه تعـــالى :"أنـــا أُحـــي وأميت"البقرة:٢٥٨.فالخليل عليه السلام لما خاف الاشتباه والتلبيس على القوم انتقل إلى العلـــة التى لا يكون فيها اشتباه أصلاً.كأنه قال:المراد بالإحياء إعادة الروح إلى البدن،فالشمس بمنزلة روح العالم لإضاءته بها وإظلامه بغروبها،فإن كنت تقدر على إحياء الموتى فأعد روح العـــالم إليه بأن تأتى بالشمس من جانب المغرب فالغرض من المناظرة إظهار الصواب إذن"[1].

يتضح أن السعد يحث المسلم إذا ما ناظر أحداً أن يحرص فى المناظرة علي إظـــهار الحق لا الغلبة والجدال.

(هـ)الموضوعية وتقبل النقد :

يحث السعد المسلم علي التخلق بخلق الإنصاف ويعنى الموضوعية وتقبل النقد ويـــرى أنه"ليس لمجتهد أن يتعرض بالروع والزجر على مجتهد فى موضع الخلاف.إذ كـــل مجتـــهد مصيب فى الفروع عندنا"[2].

(و) الدفاع عن الحق ومجابهة خصوم الباطل:

يرى السعد أنه لابد من وجود من يذب عن الحق ويدافع عن الدين بإقامة الحجة وتفنيد حجج أهل الباطل ومناظرتهم"لابد في كل صقع (بلد)من يقوم بإقامة الحجج، وإزاحـــة الشـــبه ومجادلة الخصوم"[3].

إن هذه الأمر من الأهمية بمكان ولا سيما فى عصرنا الحديث الذى كثر فيه خصـــوم الإسلام وأثاروا الشبهات والشكوك ولذا فلابد من وجود علماء يقيمون الحجة على هؤلاء دعاة الباطل ويحاوروهم وينقضوا دعاويهم الزائفة والواهية ضد الإسلام والمسلمين وقد كان الســعد نفسه يُحاجج المعتزلة خصوم الأشاعرة .

هذه هى الأخلاق المحمودة والفضائل الطيبة الحسنة التى يجدر بالمسلم أن يتحلى بـــها وتحدث السعد عن بعض الرذائل والأخلاق السيئة وحث إلى اجتنابها ومنها:

(أ) إتلاف مال المسلم:

دعا السعد المسلم إلى اجتناب هذه الرذيلة وبين حرمة مـــال المســـلم مـــن منظـــور أصولى"إتلاف مال المسلم حرام حرمة هى من حقوق العباد لأن عصمة المال ووجوب عـــدم

---

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح على التوضيح،جـ٢،مرجع سابق، ص٢١١.

[2] ------------ : شرح المقاصد،جـ٥، مرجع سابق، ص١٧٤.

[3] ------------: المرجع السابق، جـ٥، ص٢٢٤.

إتلافه حق للعباد،والحرمة متعلقة بترك العصمة كما ذكر فى حرمة إجراء كلمة الكفر أن الإيمان حق الله تعالى ... وحرمة النفس فوق حرمة المال لأنه مهان مبتذل ربما يجعله صاحبه صيانة لنفس الغير أو طرفة، لكن إتلاف مال المسلم في نفسه ظلم وبالإكراه لا تزول عصمة المال في حق صاحبه لبقاء حاجته إليه، فيكون إتلافه وإن رخص فيه باقياً على الحرمة... ويجب علي من أكره غيره علي إتلاف مال المسلم ضمان ما أتلف لأن المال معصوم حقاً لصاحبه فلا يسقط بحال"[١].

(ب) الإسراف والتبذير:

من الرذائل التي دعا السعد المسلم إلي اجتنابها رذيلة الإسراف والتبذير ونبه إلي أن التبذير هو "تفريق المال علي وجه الإسراف أي مجاوزة الحد، والمراد بأصل التبذير نفس تفريق المال، وإذا بلغ الصبي سفيهاً يمنع عنه ماله لقوله تعالي: "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً" النساء: ٥. أي لا تؤتوا المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي"[٢].

ومن الرذائل التي حث التفتازاني المسلم علي اجتنابها كذلك "الشرك بالله، والقتل، والقذف، والزنا، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل مال اليتيم والعقوق، والإلحاد في الحرام (في البيت الحرام) وأكل الربا والسرقة وشرب الخمر، واعتبرها كلها كبائر تشعر بقلة الاكتراث بالدين[٣]".

ويتضح مما سبق أن السعد اهتم بالأخلاق وحث المسلم علي أن يتحلى بالفضائل ويتخلى عن الرذائل مستهدفاً بذلك تربية الشخصية المسلمة علي الأخلاق الحسنة وتطهيره من الرذائل.

وكان للسعد رأي في التصوف السني ورفض التصوف البدعى وذكر في إيجاز صفات الولي وأثبت كرامات بعض الصالحين ورد علي من أنكرها "الولي هو العارف بالله تعالي، الصارف همته عما سواه. وصفاته: المواظب علي الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات، وكرامته ظهور أمر خارق للعادة من قبله، غير مقارن لدعوى النبوة، وبهذا يمتاز عن المعجزة، وبمقارنة الاعتقاد، والعمل الصالح، والتزام متابعة النبي ﷺ عن الاستدراج، وعن... وقد تظهر الخوارق من قبل عوام المسلمين تخليصاً لهم من المحن والمكارة وتسمي معونة. فلذا قالوا: إن الخوارق أنواع أربعة: معجزة،

---

[١] سعد الدين التفتازانى: شرح التلويح علي التوضيح، جـ٢، مرجع سابق، ص ص ٤٢٦، ٤٢٧.

[٢] ----------- : المرجع السابق، جـ٢، مرجع سابق، ص ٤٠٢.

[٣] ----------- : شرح المقاصد، جـ٥، مرجع سابق، ص ١٦٢.

وكرامة*، ومعونة، وإهانة. وذهب جمهور المسلمين إلي جواز كرامة الأولياء، ومنع ذلك أكثر المعتزلة ... وإنما تمتاز عن المعجزات بخلوها عن دعوى النبوة، حتى لو أدعى الولي النبوة صار عدواً لله، لا يستحق الكرامة، بل اللعنة والإهانة... وهي واقعة كقصة مريم، وأصحاب الكهف، وما تواتر جنسه من الصحابة والتابعين ... وإنكارها ليس بعجيب من أهـل البـدع والأهواء، إذ لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم قط، ولم يسمعوا به من رؤسائهم الذين يزعمون أنـهم علي شيء مع اجتهادهم في أمور العبادات، فوقعوا في أولياء الله تعالي أصحاب الكرامـات، يمضغون لحومهم، لا يسمونهم إلا باسم الجهلة المتصوفة، ولا يعدونهم إلا في عـداد آحـاد المبتدعة... ولم يعرفوا أن مبني هذا الأمر (الكرامة)علي صفاء العقيدة، ونقـاء السـريرة، واقتفاء الطريقة، وإنما العجب من بعض فقهاء أهل السنة حيث قال فيما روي عن إبراهيم بـنْ أدهم أنهم رأوه بالبصرة يوم التروية، وفي ذلك اليوم بمكة. أن من اعتقد جواز ذلـك يكفـر. والإنصاف ما ذكره الإمام النسفى أن نقض العادة علي سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عنـد أهل السنة ... ولا يبلغ الولي درجة النبي ولا يسقط عنه التكاليف بالولاية"[1].

ويبدو أنه كانت هناك آراء تقول بالحلول والاتحاد** ومن ثم أنكر السعد ذلك وبين أن الحلول والاتحاد محكي عن النصارى وبعض الشيعة وبعض الصوفية وبين أن ذلك مرفوض في الشريعة الإسلامية "حلول ذات الواجب أو صفته في بدن الإنسان أو روحه وكذا الاتحـاد ويقول بذلك النصارى وبعض المنتمين إلي الإسلام. أما النصارى: فقد ذهبوا إلي أن الله تعالي جوهر واحد، ثلاثة أقانيم، هي الوجود والعلم والحياة، المعبر عنها عندهم، بـالأب، والأبـن، وروح القدس، ويعنون بالجوهر القائم بنفسه، وبالأقنوم الصفة،وجعل الواحد ثلاثة،... وفيـهم من قال ظهر اللاهوت*** بالناسوت ، كما يظهر الملك فى صورة البشر... إلى غير ذلك من

---

* الكرامة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح إكراماً له والمعونة أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد مستور الحال تخليصاً له من شدة الإهانة وهى خارق للعادة علي يد مدعى النبوة كذباً إهانة له كمسـيلمة الكذاب والأشاعرة أهل السنة يقرون بجواز الكرامة ووقوعها والمعتزلة ينكرونها وهذا أمر مخـالف العقـل والنقل وقد جانبهم الصواب فى هذا والحق هو القول بالكرامة للصالحين من عباد الله الأتقياء والكتاب والسـنة فيه ما يدل علي وقوعها.محيي الدين الصافي وعبد الفتاح عبد الكريم: العقيدة الإسلامية والأخـلاق، مرجـع سابق، ص ص١٤١،١٥٠.

(1) سعد الدين التفتازانى : شرح المقاصد، جـ٥، مرجع سابق، ص ص ٧٢-٧٥، وشرح العقائد النسـفية ، مرجع سابق، ص ٩٢-٩٤.

** غلاة الصوفية يقولون أن الله يحل فى الإنسان وهذا من شطحاتهم وهذياناتهم وهو كلام يتصادم مع القـرآن والسنة.

*** اللاهوت كلمة سريانية بمعنى الألوهية والناسوت معناها طبيعة الإنسان.

الهذيانات . وأما المنتمون إلى الإسلام، فمنهم بعض غلاة الشيعة* القائلون ، بأنـــه لا يمتنـــع ظهور الروحانى بالجسمانى كجبريل فى صورة دحية الكلبى، وكبعض الجن أو الشياطين فـــى صورة الإناس فلا يبعد أن يظهر الله تعالى فى صورة بعض الكاملين، وأولى الناس بذلك على وأولاده المخصوصون الذين هم خير البرية ، والعلم... ومنهم بعض المتصوفة القائلون بـــأن السالك إذا أمعن فى السلوك، فربما يحل الله فيه تعالى الله عما يقول الظالمون علـــواً كبـــيراً، وكالنار فى الحجر، بحيث لا يتمايز أو يتحد به، بحيث لا اثنينية ولا تغاير . وصح أن يقـــول: هو أنا، وأنا هو. وحينئذ يرتفع الأمر والنهى (التكليف) ويظهر من الغرائب والعجائب مـــا لا يتصور من البشر، وفساد الرأيين غنى عن البيان"[1].

وإذا كان السعد قد رفض الحلول والاتحاد من النصارى والشيعة وبعض الصوفية فأنه قد ذكر ما يوهم بالحلول والاتحاد ، وبين أن ذلك لا يعد من قبيل ذلك "وهاهنا مذهبان آخـــران يوهمان بالحلول والاتحاد، وليس منه فى شئ. الأول : إن السالك (الصوفى) إذا انتهى سـلوكه إلى الله تعالى وفى الله يستغرق فى بحر التوحيد والعرفان من حيث لا تضمحل ذاته فى ذاتـــه تعالى وصفاته فى صفاته. ويغيب عن كل ما سواه، ولا يرى فى الوجود إلا الله تعالى وهـــذا الذى يسمونه الفناء* فى التوحيد وإليه يشير الحديث الإلهى (القدسى) "إن العبد لا يزال يتقـرب إلى حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به"[2] وحينئذ ربما يصدر عنه عبارات تشعر بالحلول أو الاتحاد لقصور العبارة عن بيان تلك الحال**، وتعـــذر الكاشف عنها بالمقال، ونعترف بأن طريق الفناء فيه العيان (المشاهدة) دون البرهان (الدليـــل) والله الموفق. الثانى أن الواجب هو الوجود المطلق، وهو واحد لا كثرة فيه أصلاً، وإنما الكثرة فى الإضافات والتعينات التى هي بمنزلة الخيال والسراب، إذا الكل فى الحقيقة واحد يتكـــرر على مظاهر لا بطريق المخالطة، ويتكثره فى النواظر، لا بطريق الانقسام ، فلا حلول هاهنا، ولا اتحاد لعدم الإثنينية والغيرية، وكلامهم فى ذلك طويل خارج عن طريق العقل والشـــرع، وقد أشرنا إلى بطلانه ولكن من يضلل الله فما له من هاد[3] .

* الشيعة فرقة من الفرق المذهبية وهم الذين شايعوا علياً رضى الله عنه وقالوا بإمامته وهم فرق كثيرة.

[1] سعد الدين التفتازانى: شرح المقاصد ، جـ ٤، مرجع سابق، ص ص ٥٧-٥٩.

* ذكر ابن خلدون أنه "ينبغى أن لا نتعرض لكلامهم فى ذلك ، ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شئ من هذه الكلمات، على الوجه الموافق بظاهر الشريعة ، فأكرم به سعادة ... وصاحب الغيبـــة غـير مخاطب، والمجبور معذور " يراجع ابن خلدون : المقدمة، مرجع سابق، ص ص ٤٥٨-٤٥٩.

[2] البخارى : صحيح البخارى، جـ٤، كتاب الرقاق، باب التواضع، مرجع سابق، ص ١٩٩.

** انظر الحديث عن الفناء عند ابن القيم، مدارج السالكين، جـ٣، مرجع سابق، ص ص ٣٤٠-٣٥٤.

[3] سعد الدين التفتازانى : شرح المقاصد، جـ٣، مرجع سابق، ص ٥٩ ـ ٦٠.

يتضح مما سبق أن السعد يقر بالتصوف السنى الملتزم بالكتاب والسنة ويقر بكرامات أوليــاء الله الصالحين وهذا أمر لا يختلف عليه أحد من المسلمين، وقد استشهد على ذلك بما جاء فــى القرآن والسنة وما حدث من بعض الصحابة والتابعين وبين أن الكرامة تختلف عن المعجـــزة الخاصة بالرسول ورد على المعتزلة الذين ينكرون الكرامة ورأى أن الولـــى لا يصـــل إلـــي درجة النبى فثمة فرق شاسع بين الولاية والنبوة وأن ما يدعيه بعض الصوفية من أن التكاليف قد تسقط عنهم إذ وصلوا إلى درجة معينة من الصفاء أمر مرفوض كما أنه يرفض دعــــاوى بعض غلاة الشيعة وكذا غلاة المتصوفة الذين يقولون بالحلول والاتحاد وذكر أن هنـــاك مـــا يوهم بذلك وليس منه مثل الفناء فى التوحيد عند بعض المتصوفة ويرى الباحث أن السعد بذلك قد أنصف المتصوفة الملتزمين ورفض الحلول والاتحاد وهذا ما لا يختلف فيه أهل السنة.

الفصل السابع

النتائج والتوصيات

الفصل السابع

النتائج والتوصيات

استهدفت الدراسة الحالية الكشف عن الآراء التربوية عند بعض المفكرين المسلمين في القرن الثامن الهجرى ومن خلال استعراض الباحث لهذه الآراء التربوية توصل إلى النتائج الآتية:

- أوضحت الدراسة أن الحالة السياسية فى مصر والشام خلال القرن الثامن الهجرى كانت غير مستقرة نتيجة للاضطرابات الداخلية الخارجية وقد عانى الحكم المملوكى فى القطرين من عدم الاستقرار وكثرة الاضطرابات بسبب الصراع على السلطة بين سلاطين المماليك وقد أثرت هذه الاضطرابات فى جميع النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وبينت الدراسة أن بعض سلاطين المماليك – كما صورتهم كتابات المعاصرين لهم – كانوا ظالمين مستبدين حراصاً على السلطة وكانوا يستندون بوجه عام إلى القوة فى تدعيم حكمهم وفى الوصول إلى دست السلطنة وتعد القوة العسكرية هى الأساس فى الحكم المملوكى وكانت القسوة طابعاً مميزاً لحكمهم وكانوا يتناحرون على السلطة ولم يشعر أفراد هذه الطبقة العسكرية الحاكمة بمآسى الناس فى مصر والشام ويعتبر الفقيه تاج الدين السبكى من أبرز المفكرين الذين عرَّضوا صراحة بمساوئ ومظالم بعض سلاطين المماليك خلال هذه الحقبة وخصوصاً فى كتابه "معيد النعم ومبيد النقم" وكان التاج السبكى من كبار موظفى الدولة فى العهد المملوكى حيث تولى منصب قاضى القضاة مما أتاح ذلك له أن يكون شاهد عيان على مظالم بعض السلاطين ضد الرعية فى مصر والشام وتنديده بها وقد دعا هؤلاء السلاطين إلى أن يلتزموا بشرع الله فى سياسة الرعية للقضاء هذه المظالم والمساوئ.

وكشفت الدراسة أن دولة المماليك قد حققت أقصى أتساع لها وخصوصاً فى فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون مما جعل لدولتهم مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى وقتذاك وقد ارتبط هذا النفوذ العريض لدولة المماليك بعلاقات خارجية متنوعة الأهداف والأساليب مع الدول الصديقة وغير الصديقة.

وقد شهد القرن الثامن الهجرى العديد من العلماء والمفكرين فى مصر والشام الذين تزخر بهم كتب التراجم وغالبيتهم كانوا يهتمون بالعلوم الشرعية ويركزون عليها وقلة من

هؤلاء العلماء كانوا يهتمون بالعلوم العقلية وأطلق عليهم فى بعض المصادر التاريخية (أرباب العقليات) ومن أبرزهم فى هذا القرن سعد الدين التفتازانى.

وكشفت الدراسة عن المكانة السامية التى احتلها بعض علماء هذا القرن حيث شاركوا فى العديد من الأنشطة السياسية والاجتماعية واعتمدت عليهم السلطة المملوكية ومن أبرز هؤلاء العلماء ابن تيمية.

– وأوضحت الدراسة أن مؤسسات التعليم التى غصت بها مصر والشام فى هذا القرن كانت مقتصرة على العلوم الشرعية وعلوم العربية أما العلوم الأخرى (العقلية) فكان نصيبها أقل بكثير من العلوم الشرعية.

أكدت الدراسة أن ثمة اتجاهين برزا فى هذا القرن فى مصر والشام أحدهما اتجاه تغلب عليه علوم الشريعة ويعتمد على النقل واتباع السابقين وأبرز من يمثل هذا الاتجاه الذهبى وتاج الدين السبكى واتجاه أخر تغلب عليه علوم العقل والاهتمام بالعقليات وأبرز من يمثل هذا الاتجاه فى هذا القرن سعد الدين التفتازانى.

وقد أوضحت الدراسة أن العلاقات بين المعلمين بعضهم ببعض فى البيئات العلمية كانت تسودها الروح الطيبة بيد أنه شابها بعض السلبيات وقامت العلاقات بين المتعلمين ومعلميهم فى هذا القرن على أساس الاحترام المتبادل ولم يكن هذا نظرياً بل كان ذلك عملياً تجسد فى أخلاقيات بعض المدرسين إزاء متعلميهم فى هذا القرن.

وأظهرت الدراسة أن القرن الثامن الهجرى كان يحفل بالعديد من اتجاهات العلماء والمثقفين فهناك اتجاه الفقهاء وأصحاب الحديث وهما من أبرز الاتجاهات وكان مسيطران على مسار الحركة الثقافية الواسعة لأنهما كانا يسيران فى فلك الاتجاه العام المتمثل فى المذهب الأشعرى فى الأصول والمذهب الشافعى فى الفروع وهناك اتجاه المتكلمين وبعض المشتغلين بالفلسفة وكان هؤلاء قلة قليلة ومحاصرون وكان هذا الاتجاه مرفوضاً من قبل الرأى العام السنى المتشدد ضد الفلسفة والثقافات العقلية ووجد فى هذا القرن الصوفية الذين اشتد نفوذهم على العامة وبعض أصحاب السلطة من المماليك فى مصر والشام ولقى هذا الاتجاه دعماً وتأيداً كبيراً من قبل الحكام ووجد فى هذا القرن بعض المؤرخين وكان من أبرزهم الذهبى ووجد بعض الأدباء وبعض الأطباء وهذه الاتجاهات تعكس الأوضاع التى شهدها هذا القرن.

وقد استنبط الذهبى والتاج السبكى (ممثلاً الاتجاه النقلى) آرائهما التربوية من الأصول الإسلامية (القرآن الكريم والسنة النبوية) وما أُثر عن السلف الصالح ومن خلال عرض الباحث لآرائهم لاحظ أن الموجه لهذه الآراء هو طبيعة لأسلوب تربية كل منهما ونمط حياته بالإضافة إلى الأصول الفكرية للآراء التربوية لكل منهما وتأثرا بمصادر فكرية وثقافية

متشابهة ولكن طغى على جانب منها جانب ويوجه هذا الآراء باتجـــاه معيـــن ومـــن خــلال المعالجة التربوية لآرائهم التربوية أتضح للباحث أن معظم الآراء التربوية مشتركة فى البحث والاهتمام بينهما فلقد تناولا أهداف التربية والطبيعة الإنسانية والعلم وأهدافه ومجالاته وتنــاولا كذلك مبادئ التعليم وآدابه ونقد البيئات العلمية نقداً منهجياً والتربية الخلقية وهذه الأمور مـــن أهم جوانب الاتفاق بينهما.

وهناك بعض الآراء التى تعمقها لتاج السبكى أو أنفرد بها دون الذهبى فمـــن هــذه الآراء التى تعمقها وأفاض فيها رأيه فى مواصفات المدرس الجيد ورأيه فـــى معلــم الكتـــاب ومحتوى التعليم فى الكتاتيب والتعليم غير النظامى والصوفية ولم يتطرق الذهبى للحديث عــن هذه الموضوعات التى تشكل أهم الجوانب التى اهتم بها السبكى.

وعند المقارنة بينهما نجد أن الذهبى قد انطلق فى آرائه التربوية من الحديث النبـــوى أساساً والقرآن الكريم وبعض الحكم المأثورة ولم يقدم رأياً تربوياً بدون أن يسوق النص الـذى يعتمد عليه فى هذا الرأى وهذا منهجه وطريقة تفكيره كمحدث سلفى النزعة يكتب فى التربيــة بنفس الطريقة التى يكتب بها فى الحديث وعلومه وهذا راجع أساســاً إلـــى نشـــأته وتربيتــه الحديثيه حيث نشأ فى بيئة يغلب عليها حب الحديث وعلومه ولا يجد الباحث أى أثر للأحـداث المعاصرة ولا مشاركة فى مواجهة المشكلات التربوية والاجتماعية التى كان مجتمع القـــرن الثامن يزخر بها ويعانى منها وقدم كمحدث آراء تربوية تعكس نظرته التربوية مـــن داخــل الحديث وعلومه الذى كان موضع اهتمامه.

أما التاج السبكى فكان فى آرائه التربوية يعكس حاجات مجتمعــــه ويتفـــاعل معـــها بإيجابية فعالة ويقترب من اهتمامات مجتمعه ولم يكفه فى القيام بواجبه أن يقصر جهده علـــى القضاء والتأليف والتدريس فحسب وإنما دعا إلى الإصلاح الشامل إصلاح الحكومة والأمـــة جميعاً كما بدا من خلال كتابه معيد النعم ومبيد النقم الذى يعد نقطة تحول من عالم ومـــدرس وقاضى إلى مصلح اجتماعى وسياسى وقد تناول فى كتابه المجتمع حكاماً ومحكومين وبين ما على كل منهما من واجبات وأبدى من الشدة على رجال الحكومة ومن الصراحة فى إظـــهار عيوبهم ما يدل على وفرة حظه من الشجاعة الأدبية ولم يكن كلامه عنهم مجرد تنبيـــه إلـــى واجبات بل هو حملة على فساد حكمهم وسوء سلوكهم الشخصى وجهلهم وقـــد خــبر هــذه الحكومة عن كثب وهو يشغل مناصبها ولم تخف عليه خفيه من نواحى الضعف فيها فقد كــان واسع الإطلاع ووراءه مثل الإسلام العليا فى الحكم ومكانة البيت السبكى فى التقوى والعمـــل تحفزانه للإطلاع الدينى والاجتماعى بسلاطين المماليك ورعاياهم واستهدف بالتربيـــة إقامـــة مجتمع ملتزم بشرع الله.

نلاحظ أن الرجلين عاشا فى زمن واحد ومجتمع واحد وتداخلت أحداث حياتهم إيجاباً وسلباً ومن ثم يعتبره الباحث اقرب إلى روح عصره ومجتمعه من الذهبى وسعد الدين التفتازانى اللذين عاصراه فى هذه الحقبة.

ومن الآراء التربوية التى اختلف فيها بين الذهبى والسبكى موقف كل منهما من التصوف فى هذا القرن فالمتصوفة عند الذهبى على قسمين: قسم تمسكوا بالكتاب والسنة وصاروا على هدى السلف الصالح والتزموا بشعائر الإسلام وهؤلاء يحترمهم الذهبى ويثنى عليهم ويورد بعض أقوالهم وحكاياتهم فى الزهد والمحبة فيه وقسم ثان انحرفوا عن الكتاب والسنة وهؤلاء اعتبرهم مارقين عن الدين ولا يألوا جهداً فى القدح فيهم وهذه خلاصة رأى الذهبى فى المتصوفة فى هذا القرن يمدح ويقدح باعتبار حال المترجم له ومدى التزامه بالإسلام وانحرافه عنه وليس كما ادعى السبكى الذى يدافع عن التصوف والصوفية ويكثر من الثناء عليهم والإشادة بهم وذمه لمن ينتقدهم ويرى أنهم أهل الله وخاصته ولم يضبط كلامه عنهم بضوابط الشرع لأن جميع الصوفية ليسوا ملتزمين بالكتاب والسنة وهو فى موقفه هذا يختلف تماماً عن معاصره الذهبى.

ويبدو أن الذهبى كمحدث نظر إلى المتصوفة من خلال نظرته إلى ما أشاعوه من شطحات وأباطيل استخدموا فيها بعض ما نسبه البعض زوراً إلى الرسول ﷺ من باب الاستحباب من الترغيب والتهذيب.

ومن جوانب الاتفاق بينهما موقفهما من علم الكلام والفلسفة فقد أفتيا بتحريم دراستهما وتشابها فى هذا الموقف وقصر العلم على العلوم الشرعية وعلوم العربية أو علوم المقاصد والرسائل وانتهيا إلى الدعوة للوقوف عند علوم السلف وعارضا أى مزيد فى هذا المجال وإلى معارضة العلوم الطبيعية والطب والهندسة والحساب واعتبارها كلها – كما يرى الذهبى – صنعه من الصنائع التى لا يثاب صاحبها عليها ولا يُعاقب إذا لم يتكبر على الناس ولا يتحامل عليهم من ثم فمحتويات المنهج لديهما لا تتضمن إلا علوم الشريعة وعلوم العربية وأخرجا العلوم العقلية لمساعدة للعلوم الدينية من دائرة العلوم الشرعية.

ويرى الباحث أن العلم فى النظرة الإسلامية لا يقتصر على علوم الدين فحسب فهو علم يتسم بالشمولية ويشمل علوم الدين والدنيا معاً وليس فى الإسلام ثمة انفصال بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية فكل علم فيه منفعة ومصلحة للإسلام والمسلمين فلا بأس بتعلمه حتى ولو كان من المشركين ما دام المسلم لا يطلب علماً عقائدياً.

وقد أكدت الدراسة اهتمام الذهبى الشديد بالحديث وعلومه ودراية ورواية وارتباطه بمناهج المحدثين وقد أثر علم الحديث فى تكوينه الفكرى والتربوى إلى أقصى حد ولا أدل على ذلك من أن معظم تراجمه من المحدثين وهذا شىء طبيعى لحبه للحديث وشغفه به

وبالرغم من أنه وجد فى عصر غلب على علمائه الجمود والنقل والتلخيص استشـــرى فيـــه التقليد وقلة الإبداع إلا أنه استطاع أن يتجاوز ذلك فلم يكن عنده جمود المحدثين ولا تقليد النقلة بل كان فقيه النظر متفرد الشخصية مستقل المنهج حريصاً على صحة ما ينقله ولـــــه خـبرة بأقوال الناس وأئمة السلف فلا يكاد يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متـــن أو ظلام إسناد وقل أن يغادر سند فى بعض رواته كلام إلا أبدى رأيه فيه حتى أصبح ذلك المنهج علماً عليه وعرف هو بتفوقه وتميزه فيه عن كثير من معاصريه من المحدثين فى هذا القرن.

وقد وضع الذهبى والسبكى بعض المبادئ والشروط الخاصة بالتعليم وقد أكد على ذلك كثير من العلماء والفقهاء وهذه المبادئ التى دعا إليها كل منهما إلى مراعاتها على جانب كبير من الأهمية حتى يسير التعلم فى مساره الصحيح وتؤتى العملية التعليمية ثمارها.

ووضعا أيضاً مجموعة من الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها كل من المعلم والمتعلـــم ومن أهمها: إخلاص النية لله فى طلب العلم وأن يكون المعلم قدوة لطلابه عاملاً بعلمـــه وألا يطلب أجراً على علمه وأن يصدع بكلمة الحق ولا يمالئ الحكام ولا يتردد عليهم واســـتمرار طلب العلم والصبر عليه والتواضع وعدم الكبر والالتزام بالأمانة العلمية وقد أكد على ذلـــك كثير من العلماء والفقهاء وغيرهم ولا يزال طلاب العلم وخصوصاً طلاب العلـوم الشـرعية أحوج ما يكونوا إلى التحلى بهذه الآداب والتى يفتقر إليها بعضهم فى مدارسنا وجامعاتنا فـــى وقتنا الراهن وهى وأن كتبت من عدة قرون خلت إلا أنها لها أهميتها فـــى مجـال التربيـــة الإسلامية فى عصرنا الحالى.

ويؤكد تناول الذهبى السبكى لهذه المبادئ والآداب ممارســتهما للتدريــس وفهمــهما لجوانب العملية التعليمية وتأثرهما بالأوضاع المحيطة بهما .

وأما سعد الدين التفتازانى (ممثل الاتجاه العقلى) فى هذا القـــرن ومعــاصر الذهبـــى والسبكى فمع تمسكه بالكتاب والسنة والاتجاه السنى الأشعرى والتزامه بالأصول الإسلامية إلا أنه كان منفتحاً على الثقافات الأجنبية وبدت فى آرائه بعض ملامح الفكر اليونانى ولاسيما فى نظرته إلى الطبيعة الإنسانية والعلم والأخلاق وهذا نهج يحمد للسعد ويتفق مع طبيعة الإســلام الذى يوجهنا إلى الكتاب والسنة كمصدر وحيد للدين وإلى الانتفاع بخبرات الآخرين وثقافاتــهم فيما هو من شئون الدنيا طالما لا يتعارض ذلك مع الأصول الإسلامية ومع تأثره بالفكر الوافد إلا أن ذلك لم يبعده عن إطار الفكر السنى الأشعرى المنتمى إليه.

ويرى الباحث أن السعد فى هذا الاتجاه يختلف تماماً عن الذهبـــى والتـــاج الســـبكى المعاصرين له الذين حصروا المعارف فى العلوم الشرعية وعادوا الثقافات العقلية التى كان لها تأثير واضح فى الحياة الإسلامية فى هذا القرن ويمكن اعتباره نموذجاً جيداً العقل الإســـلامى فى هذا الجانب وهذا المفكر عاش فى البيئة الإسلامية إلا أن آرائه فى التربية جاءت مختلفـــة

فى العديد من جوانبها عن ثقافة هذه البيئة الإسلامية وجاءت آراؤه متطابقة من توجهه الفكرى كأحد علماء الكلام المتأخرين البارزين فى القرن الثامن الهجرى وتأثر بالفكر الوافد تأثر إفادة لا تأثر رفض.

أبرزت الدراسة المكانة العلمية التى احتلها التفتازانى فى مجال العلوم العقلية فى هـذا القرن وكشفت عن عنايته الشديدة بعلم الكلام الذى يرى أنه من أهم العلوم التى يجدر بطـالب العلم أن يوليها اهتمامه لأنه من أنفع العلوم وأجداها (من وجهة نظـرة) وكـان هـذا العلـم مرفوضاً من قبل أنصار الاتجاه المحافظ (النقلى) فى التربية فى هذا القرن.

وقد تأثر السعد بالسابقين عليه من علماء الكلام الأشاعرة والمعاصرين له الذين تأثروا أصلاً بالثقافة الوافد وخاصة اليونانى منها وكان يأخذ بالعديد من وجهات النظر المروية عنهم.

ويحمد للسعد اهتمامه بالعقل ودوره وحدوده وانفتاحه على فكر الفلاسفة والمتكلميـن فى هذا المجال مع تأكيده على الجوانب العملية الموجه من الإسلام فى نشاط العقل ولم يفـرط فى تقديره للعقل كما أفرط الفلاسفة العقليين والمعتزلة ولم يقدمه على الشرع (الوحـى) فيمـا يجب أخذه من طريق الشرع والعقائد الدينية والأحكام الشرعية وتمسك به وأخضـع العقـل للشرع فى القضايا الغيبية وكان يؤكد عدم قدرة العقل على الإحاطة بهذه المسـائل وبيـن أن للعقل حدوداً ينبغى أن يقف عندها وأحل الدين محل الفلسفة فيما يتصل بالعالم الآخر الـذى لا يدرك بالمشاهدة والحواس والنقل يغنى عن العقل أو الدين عن الفلسفة فى مثل هـذه الأمـور والنقل عنده هو الأساس والعقل خادم من نقل ووسيلة لإثباته.

وقد أكدت الدراسة أن السعد يؤيد التصوف السنى الملتزم ويرفض التصوف المنحرف الذى يدعو أصحابه إلى الوحدة والحلول.

ونهج السعد فى حديثه عن الفضائل والرذائل النهج الأرسطى حيث رأى أن الفضيلـة وسط بين طرفين مرذولين إفراط وتفريط وبين ان المعيار فى الحكم على الفعل الخلقى الشرع لا العقل.

ويرى الباحث أن آراء السعد التربوية يمكن تسميتها تربية إسلامية بتحوط وحذر على أنه من علماء الكلام البارزين فى القرن الثامن الهجرى عاش فى هذا القـرن وتـأثر بثقافـة عصره وجاءت آراؤه فى التربية متسقة مع فكره وعلى هذا فهو يمثل التربية الإسلامية بقـدر ما يمثل نموذجاً من نماذج الفكر التربوى لدى بعض المتكلمين المسلمين.

وقد كشفت الدراسة أن التاج السبكى تأثر كثيراً بوالده تقى الدين السبكى أبرز علمـاء السبكية فى مصر والشام ومن الفقهاء المجتهدين فى هذا القرن ويعتبر تقى الدين السبكى مـن أبرز الشخصيات التى ساهمت فى إعداد التاج السبكى وتكوينه الفكرى حيث اعتنى بابنه التاج ورباه على حب العلم واهتم بتثقيفه على كبار علماء عصره ممن يثق فيهم ويطمئن إلى علمهم

ويعد والده هو أول معلم له فى صغره ومما يدل على تأثره بأبيه أنه جمـــع فتاويـــه "فتـــاوى السبكى" وكثيراً ما كان يشير إليه فى العديد من كتاباته وهذا يدل على أهمية البيئة الأسرية فى التكوين العلمى والتربوى للشخصية .

وأظهرت الدراسة أن الذهبى كان من أبرز الشيوخ الذين تتلمذ عليهم التاج السبكى وقد واثنى عليه كثيراً ولازمه وأخذ عنه الكثير وتخرج به إلا أنه انتقده فى بعض الأمور وأســـاء إلى شيخه وبينت الدراسة أن كل ما وجه إلى الذهبى من انتقادات من قبل تلميذه يغلب عليـــه طابع التعصب الأعمى وأن الذهبى قد وفق إلى حد كبير لأن يكون منصفاً وما كان يليق مـــن السبكى أن يُسيئ إلى شيخه على هذا النحو فينبغى على التلميذ أن يوقـــر أســـتاذه حتـــى وإن اختلف معه فى بعض القضايا وتعاليم الإسلام ترشدنا إلى ذلك قال عليه الصلاة والسلام :"ليس منا من لم يوقر صغيرنا كبيرنا".

كان المربون عندنا يفكرون فى التربية فى ضوء زمانها ومكانها والضغوط المحيطـــة بها ولهذا نجد مفكرى التربية فى هذه الفترة قد نقدوا ظاهرة كانت شائعة فى البيئات العلميـــة وهى التقليد والتعصب المذهبى وأبرز من انتقد هذه الظاهرة الذهبى والسبكى فقد حثا المتعلـــم على نبذ التقليد وعدم التعصب لمذهب فقهى معين وأن على أهل العلم أن ينشغلوا بمـــا هـــو أجدى وأنفع للإسلام والمسلمين ودعا كل منهما إلى التسامح وتقبل الاختلاف فى الرأى.

وأجمع المربون فى تلك الحقبة على وجوب نشر العلم بين جميع أفراد الأمة وأبـــرز من دعا إلى ذلك الذهبى الذى رأى أن كتمان العلم وعدم نشره وحرمان الناس من التعليم يعـد كبيرة من الكبائر وذنباً يقترفه القائمون على العلم وساق من النصوص الإسلامية ما يؤكد ذلك وفى هذا الصدد يلزم التاج السبكى نواب السلطنة فى الأقاليم بإقامة فقيه فى كل قريـــة ليعلـــم أهلها أمر دينهم كما يبين أن رسالة العلماء التى "يجمع الكل على أنـــه حـــق عليـــهم إرشـــاد المتعلمين، وإفتاء المستفتين، ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين... ".

ويبدو فى منهج التربية الإسلامية أن تعليم العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وهناك مسئولية اجتماعية وخلقية يحملها المتعلم تجاه غيره من أفراد مجتمعه وكل مسلم متعلم ملـــزم بتعليم غيره ولا ينبغى للعالم أن يسكت على علمه ويكتمه عن الناس وأيضاً لا ينبغى للجـــاهل أن يسكت على جهله والعلماء سيُسألون يوم القيامة عن تبليغ العلم للناس ويجب على أهل العلم أن يبلغوه وينشروه ولا يضيعوا شيئاً منه وهذا من أبرز واجبات العلماء فى المجتمع المسلم ان يستمرا فى المحافظة على ما تعلموه والحصول على المزيد منه ومسئوليتهم فى ذلك أكثر مـن غيرهم لما رزقهم الله من القدرات والاستعدادات وكما يسر لهم من فرص التعلم ولا يقتصـــر هذا الواجب على تخصص دون آخر وإنما يشمل جميع المتخصصين فى العلوم الدينية وغـير الدينية ونشر العلم من خير القربات التى يتقرب بها المعلم من ربه وحرى بكل مسلم أن يتعلـم

ليعلم غيره ومن ثم حث الذهبى والسبكى المسلمين على طلب العلم وأوجبوا على العلماء نشره بين المسلمين.

بينت الدراسة ارتباط هذه الآراء التربوية بالواقع الاجتماعى والتعليمـــى واســتهدفت تغييره بالعلم والتربية .

أدرك التاج السبكى أهمية الدور المتميز الذى يلعبه المعلم فى إنجاح العملية الــتربوي حيث اشترط أن تتوافر فيه مواصفات معينة ليكون معلماً وهى مواصفـــات خلقيـــة وعلميـــة ومهنية وتظهر لنا فى حرصه الشديد على اختيار أفضل المعلمين للعمل بالمؤسسات التعليميـــة وقد عقد "مثالاً" خاصاً بالمدرس ذكر فيه بعض صفات المدرس الجيد ويعد مـــن الإســـهامات التربوية الجيدة للسبكى فى حدود العصر.

ويمكن الاستفادة من كلام السبكى فى وقتنا الراهن فى التأكيد على أهميـــة الأعــداد المهنى الجيد والأكاديمى للمعلمين وتكوينهم التكوين المناسب وانتقاء المعلميـــن بدقـــة وفـــق مواصفات تربوية معينة لتحقيق الأهداف التربوية المبتغاة لأن المعلم يعد أخطر ركـــن فـــى العملية التربوية ولا شك أن المعلم القدوة الغزير المعرفة الواسع الثقافـــة الــدارس لأصـــول التربية وقواعدها ونظرياتها وعلومها عامل أساسى فى إنجاح العملية التربوية وإن إصـــلاح المناهج يفتقد أهميته إذا لم يتوفر المدرس الجيد الكفء وأن صلاح العملية التربويـــة مرتبـــط بصلاح المعلم فإذا صلح المعلم صلحت وإذا فسد فسدت وبما أن مهمة التدريس على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للمجتمع فيجب ألا يزاولها إلا من هو أهل لها وأُعد لها إعداداً جيداً حتـــى لا تصبح – كما هو الحال الآن – مهنة من لا مهنة له.

وكان للتاج السبكى اهتمام واضح بمعلم الكتـــاب ومحتـــوى التعليـــم فيـــه وأوضـــح المواصفات التى يجب أن يتصف بها معلم الكتاب فى عصره من الوجهه الخلقيـــة والدينيـــة والتربوية وتستهدف الصالح العام وتتفق مع التربية الحديثة من حيث مراعاة الفروق الفرديـــة بين المتعلمين ويدل هذا على مدى إدراكه وتفهمه لمهنة معلم الكتاب تلك المهنة التى أصبحـت متواضعة فى عصرنا الراهن وقد عقد "مثالاً" لمعلم الكتاب تبين فيه هـــذه المواصفـــات ومـــا أحوج أولياء الأمور الذين يدفعون بأبنائهم وبناتهم إلى الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم إلى البحث عن معلم يتسم بهذه السمات العلمية والخلقية والمفتقرة فى بعض معلمى الكتاتيب فى عصرنـــا الحالى.

وقد حرص الذهبى والسبكى على تنقيه البيئات العلمية فى عصرهما مـــن الســلبيات وكان لهما بعض النظرات النقدية التى وجهاها إلى بعض المعاصرين لهما وكانا موفقين فـــى تقويمهما لمعاصريهما وسلوكياتهم واستهدفا تصحيح أوضاع هذه البيئات من خلل والمســـاوئ

لدى بعض العلماء وكانا مهمومين بما يسود البيئات العلمية من خلل وفساد واتفق معاً في نقدهما للبيئات العلمية والمناخ السائد وقتذاك.

ولا تقتصر التربية للعامة عند التاج السبكى على مكان محدد وإنما هى فى المسجد وغيره من خلال وسائل التعليم غير النظامى من خلال الخطيب والواعظ والقاص وقارئ الكرسى والمنشد وكل هؤلاء يسهمون فى تعليم وتثقيف العامة وهذا يدل على حرص السبكى على تربية عامة المسلمين بكل السبل ونشر العلم على أوسع نطاق.

ولم يكن للمرأة والطفل تأثير واضح فى فكر هؤلاء المربين الثلاثة ولم يعثر الباحث فيما بين يديه من مؤلفات لهؤلاء العلماء على ما يدل على اهتمامهم بتربية المرأة والطفل ويبدو أن السبب فى ذلك هو مسايرتهم لمجتمعهم حيث لم تتوفر فيه كتاتيب خاصة لتعليم النساء فضلاً عن توفر التعليم لبعض النساء فى بيوتهم ولذا لم يخالفوا الطريقة السائدة فى عصرهم لتعليم المرأة على الرغم من أنه فى هذا القرن بعض النسوة اللائى اشتغلن بالعلم ولكن تعلمن على أيدى الأقارب أو معلمات خصوصيات.

كان لبعض المربين إسهاماته الجديرة بالاهتمام – فى حدود العصر – التى نضعها موضع الاهتمام فى العصر الحديث ومن هذه الإسهامات: مراعاة الفروق الفردية، مراعاة التدرج فى التعليم، الإخلاص فى العمل وتمكن المدرس من مادته العلمية، تقرير العلاقة بين العلم والعمل، العناية بتربية الجسم، العناية بالتربية الخلقية وأساليبها المتنوعة.

وهذه بصورة مجملة أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة الحالية.

أما عن أهم التوصيات المرتبطة بموضوع البحث ونتائجه فهى كما يلى:

ضرورة الاهتمام بدراسة العلوم العقلية بشتى فروعها وإدراجها ضمن مناهج التربية الإسلامية مع العناية بدراسة العلوم النقلية المرتبطة بالكتاب والسنة.

العناية بدراسة التراث التربوى الإسلامى والاستفادة من إيجابياته ونبذ سلبياته ويجب أن تكون هناك نظرة نقدية لهذا التراث التربوى وأن ينظر إلى اجتهادات المربين المسلمين فى حدود عصرهم وأن نبتعد فى دراستنا للتراث عن الإسراف فى المقارنة بين اجتهادات المربين المسلمين على اختلاف مشاربهم وعصورنا الحالية ومن ثم فإنه "لابد من دراسة هذا التراث التربوى دراسة شاملة واعية، ثم التمييز بين الذى نلتزم ونتمسك به ونعنى به الآراء والنظريات القائمة على الأصول الإسلامية الأولى، وما يمكن الانتقاء منه وهو الآراء التى ظهرت فى زمن له طابعه ومشكلاته فليس الهدف من البحث فى التراث أن نتطلع إلى الماضى لنخضع له الحاضر، وإنما نستأنس بالاجتهادات البشرية فى تأصيل بعض المفاهيم أو

فى توضيح جانب التطور فى بعض النواحى فى هذا الزمان وقد نجد بعضها ملائماً لنا، ناجعاً فى التغلب على بعض مشكلاتنا التربوية فنأخذ به دونما تردد"[١].

ويجب أن نعى أن التراث ليس شراً كله ولا خيراً كله وإنما فيه النافع المفيد والضار غير المفيد وهو الوقوف منه موقف الناقد وعدم الالتزام بكل ما فيه.

ويرى الباحث أن المساجد والخوانق والزوايا والربط وغيرها قد أسهمت بدور تربوى لا بأس به بالشام فى عصر المماليك ولذا يوصى الباحث بإجراء دراسة عن "الفكر التربوى والمؤسسات التعليمية فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين".

ويرى الباحث أنه كان للفكر التربوى الصوفى أثره السيئ على المجتمع المصرى فى العصر المملوكى ولذا يوصى الباحث بإجراء دراسة عن "الفكر التربوى الصوفى وأثره على الشخصية المصرية خلال العصر المملوكى".

ويعد الحافظ السخاوى وابن حجر العسقلانى من الشخصيات البارزة فى عصر المماليك وقد ترى العديد من المؤلفات العلمية التى تحتوى على العديد من الآراء التربوية ومن ثم يوصى الباحث بإجراء دراسة عن "الآراء التربوية فى كتابات الحافظ السخاوى"، و "الآراء التربوية لدى ابن حجر العسقلانى". ولم يتناول أحد من الباحثين — فى حدد علم الباحث — هاتين الشخصيتين البارزتين تربوياً.

ويعد ابن المطهر الحلى من أبرز علماء الشيعة فى القرن الثامن الهجرى وله مؤلفات عديدة تحمل فى طياتها بعض الآراء فى التربية ولذا يوصى الباحث بإجراء دراسة عن "ابن المطهر الحلى الشيعى وآراؤه فى التربية والتعليم".

ويقترح الباحث هذه الموضوعات السابقة التى يمكن أن تكون مجالاً مناسباً للبحث والدراسة كى نقدم إطاراً تربوياً إسلامياً للقرون السابقة على الفكر التربوى الإسلامى الحديث الذى بدأ بأعلام بارزين مثل الأفغانى ومحمد عبد وغيرهما من رواد النهضة فى العصر الحديث.

---

[١] عبد البديع الخولى: الفكر التربوى فى الأندلس، مرجع سابق، ص ١٨٥.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم والأحاديث النبوية:

١-القرآن الكريم.

٢- ابن ماجه (محمد بن يزيد القزويني): سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٩م.

٣- أبو داود (سليمان ابن الأشعث السجستاني): سنن أبي داود، جـ٣، القاهرة، دار الحديث، ١٩٨٨م.

٤- أبو يعلى (الموصلي): مسند أبي يعلى، ط٢، تحقيق حسن سليم أسد، ط١، ١٩٨٤م.

٥- أحمد بن حنبل: المسند، المجلد السادس، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

٦- البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم): صحيح البخاري، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٧- ----------------------: الأدب المفرد، بيروت، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٨- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين): السنن الكبرى، جـ٤، دار الفكر، د.ت.

٩- ---------------------: شعب الإيمان، جـ٥، تحقيق محمد محمد السعيد البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

١٠- الترمذي (محمد بن عيسى): الجامع الصحيح "سنن الترمذي" ط٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.

١١- الحاكم (أبى عبد الله الحاكم النيسابورى): المستدرك على الصحيحين، جـ١، بيروت، دار الكتاب العربى، د.ت.

١٢- الطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد): المعجم الأوسط، جـ٦، تحقيق محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

١٣- ----------------------: المعجم الصغير، جـ١، تحقيق جمال يوسف الحوت، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٤- ----------------------: المعجم الكبير، جـ٢، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفي، ط٢، العراق، ١٩٣٧م.

١٥- عبد الرزاق (أبى بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني): المصنف، ط١١، تحقيق حبيب الرحماني الأعظيمي، المجلس العلمي بالهند، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

١٦- مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري): صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة، دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

ثانياً: الرسائل الجامعية:

١٧- أحمد يوسف سليمان شاهين: الفكر الفقهى عند ابن تيمية، رسالة دكتوراه غير منشورة من قسم الشريعة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٧٨م.

١٨- بشار عواد معروف: الذهبي ومنهجه في كتابه "تاريخ الإسلام"، رسالة دكتوراه منشورة من جامعة بغداد، القاهرة، مطبعة عيسى البابى الحلبى، ط١، ١٩٧٦م.

١٩- عبد البديع عبد العزيز الخولى: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية من عام ٧٤٨هـ - ٩٢٣هـ / ١٣٨٢م - ١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر، ١٩٨١م.

٢٠- محمد عمر محمد حسن: جهود سعد الدين التفتازاني في الإلهيات من علم الكلام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

ثالثاً: المصادر:

٢١- ابن الأخوة (محمد بن محمد القرشي): معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

٢٢- ابن الحاج (محمد العبدري): مدخل الشرع الشريف على المذاهب، القاهرة، المطبعة المصرية، ١٩٢٩م.

٢٣- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهـــور، جـــ١، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٣١٢هـــ.

٢٤- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافـــي، جــ٣، القاهرة، دار الكتب المصرية، مخطوط رقـــم ٢٥٣٣، قســـم التاريخ.

٢٥- ------------------------: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـــ٧، دار الكتب المصرية، ١٩٣٠م.

٢٦- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم): الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإســـلامية، القاهرة، المكتبة العلمية، د.ت.

٢٧- ابن حجر (أحمد بن علي العسقلانى): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، خمســـة أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتـــب الحديثـــة، ١٩٦٦م.

٢٨- ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد): الفصل في الملل والأهـــواء والنحـــل، جـــ٥، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠م.

٢٩- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة، تحقيق درويـــش الجويـــدى، بـــيروت، المكتبة العصرية، ط٢، ١٤١٨هـــ / ١٩٩٧م.

٣٠- ابن رافع السَّلامي (تقي الدين محمد بن هجرس): الوفيات، جـــ٢، تحقيق صالح مهدي عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، د. ت.

٣١- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء): البداية والنهاية، جـــ١٤، تحقيق أحمد أبـــو ملجـــم وآخرون، القاهرة، دار الريان للتراث، ط١، ١٩٨٨م.

٣٢- ------------------: تفسير القرآن العظيم، جـــ١، القاهرة، دار الـــتراث، د.ت.

٣٣- ابن الصلاح (أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن): فتاوي ابن الصلاح فـــي التفســـير والحديث والعقائد، القاهرة، ١٣٤٨هـــ.

٣٤- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـــ٦، القـــاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ١٣٩٩هـــ / ١٩٧٩م.

٣٥- ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب): الروح، القاهر، مطبعة المدني، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٣٦- ----------------------: مدارج السالكين، جـ٣، القاهرة، دار الحديث، ط١،١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٣٧- ----------------------: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، تحقيق محمد بيومى، القاهرة، مكتبة الإيمان، د.ت.

٣٨- الأدفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب): الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، سلسلة تراثنا، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

٣٩- البغدادي (إسماعيل بن الباشا محمد البابانى): هدية العارفين في أسماء المصنفين، جـ٢، مطبعة استانبول، ١٩٢١م.

٤٠- البغدادي (عبد القاهر): أصول الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٩٨١م.

٤١- التفتازاني (سعد الدين): الشرح المطول على التلخيص، القاهرة، ط١، ١٣٣٠هـ.

٤٢- ------------: شرح أحاديث الأربعين للنووي، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ.

٤٣- ------------: شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، جزءان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٤٤- ------------: شرح العقائد النسفية، تحقيق أحمد حجازي السقا، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٤٥- ------------: شرح المقاصد، خمسة أجزاء، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت، دار عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٤٦- الجرجاني (علي بن محمد بن علي): التعريفات، القاهرة، مكتبة الحلبي، ط١، ١٩٣٨م.

٤٧- الحسيني (أبو المحاسن محمد بن علي): ذيل تذكرة الحفاظ، دمشق، ١٣٤٧هـ.

٤٨- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد): الطب النبوي، تحقيق عادل أبو المعاطى، القاهرة، دار النشر، ١٩٨٧م.

٤٩- ---------------------: العبر في خبر من عبر، جـ٣، تحقيق محمد السعيد بن بسيونى زغلول، بيروت، دار الكتب، د.ت.

٥٠- ---------------------: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق عزة علي عيد عطية، القاهرة، دار النصر للطباعة، د.ت.

٥١- ---------------------: الكبائر، القاهرة، دار الغد العربى، ط٤، د.ت.

٥٢- ---------------------: المشتبه في الرجال، أسماؤهم وأنسابهم، جـ١، تحقيق على محمد البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م.

٥٣- ---------------------: المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطائف، مكتبة الصديق، ١٤٠٨.

٥٤- ---------------------: الموقظة في علم مصطلح الحديث، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب، المكتب الإسلامى، ط١، ١٤٠٥هـ.

٥٥- ---------------------: بيان زغل العلم والطلب، القاهرة، دار الحرمين، ط١، ١٣٤٩هـ / ١٩٩٨م.

٥٦- ---------------------: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، جـ١، القاهرة، مكتبة القدسي ١٣٦٧هـ.

٥٧- ---------------------: تذكرة الحفاظ، جـ٤، بيروت، دار إحياء التراث العربى، د.ت.

٥٨- ---------------------: حق الجار، تحقيق أبى إسماعيل هشام بن إسماعيل السقا، الرياض، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٥٩- ---------------------: رسالة الأربعين في صفات رب العالمين، تحقيق جاسم سليمان الدوسري، الكويت، الدار السلفية، د.ت.

٦٠- ---------------------: رسالة في مسائل طلب العلم، تحقيق جاسم سليمان الدوسرى، الكويت، الدرا السلفية، د.ت.

٦١- ----------------------: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وجماعة من أهل العلم، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٦٢- ----------------------: مختصر العلو الأعلى للعلي الغفار، تحقيق ناصر الدين الألبانى، حلب، المكتب الإسلامى، د.ت.

٦٣- ----------------------: معجم الشيوخ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطائف، مكتبة الصديق، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٦٤- ----------------------: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق شعيب الأرناؤوط وبشار عواد معروف وصالح مهدى عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٦٥- ----------------------: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق على محمد البجاوى، القاهرة، دار الفكر العربى، د.ت.

٦٦- الرازي (فخر الدين محمد): الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم كأنهم كتاب مفتوح، تحقيق وتعليق مصطفى عاشور، القاهرة، مكتبة القرآن، ١٩٨٧.

٦٧- ---------------:المطالب العالية من العلم الإلهى، تحقيق أحمد حجازى السقا، جـ٩، بيروت، دار الكتاب العربى، ط١، ١٩٧٨م.

٦٨- ---------------: تفسير مفاتيح الغيب، جـ٥، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٠٧هـ .

٦٩- ---------------: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت.

٧٠- الزركلي (خير الدين): الأعلام، جـ٨، بيروت، دار العلم للملايين، د.ت.

٧١- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب): الأشباه والنظائر، جزءان تحقيق عادل احمد عبد المقصود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٧٢- ---------------------: جمع الجوامع حاشية العلامة لبنانى، جزءان، القاهرة، مطبعة البابي الحلبى، ط٢، د.ت.

٧٣- ------------------: طبقات الشافعية الكبرى، عشرة أجـــزاء، تحقيـق محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، دار هجر للنشـو، ط٢، ١٩٩٢.

٧٤- ------------------: معيد النعم ومبيد النقم، بـيروت، مؤسســة الكتـب الثقافية، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٧٥- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): الإعلان بالتوبيخ لمـن ذم التـاريخ، تحقيق محمد عثمان الخشت، القاهرة، مكتبة ابن سينا، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٧٦- ------------------: الضوء اللامع لأهـل القـرن التاسـع، جـ٥، القاهرة، مكتبة القدسي ١٣٥٤هـ.

٧٧- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): بغية الوعاة في طبقـات اللغويين والنحـاة، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٤٧هـ.

٧٨- ------------------: حسن المحاضرة في أخبار مصـر والقـاهرة، جزءان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٨.

٧٩- الشوكاني (محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ٢، بـيروت، دار المعرفة، د.ت.

٨٠- الصفدي (صلاح الدين خليل الدين بن أيبك): الوافى بالوفيـات، جـ٢، دار نشـر فرنزشتاين بفيسبادن، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

٨١- العمري (شهاب الدين بن فضـل الله): التعريـف بـالمصطلح الشـريف، القـاهرة، ١٣١٢هـ.

٨٢- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد): الجامع لأحكام القـرآن، جـ١٤، بـيروت، ١٩٨٦م.

٨٣- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشـاء، جـ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٨٤- المقريزي (تقي الدين احمد بن علي): إغاثة الأمة بكشف الغمـة، القـاهرة، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٨٥- ----------------------: السلوك في معرفة دول الملوك، جــــ٢، نشــر وتعليق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتاب، ١٩٣٤م.

٨٦- ----------------------: السلوك في معرفة دول الملوك، جــ٢، تحقيــق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنــــة التــأليف والترجمــة والنشر، ١٩٧١م.

٨٧- ----------------------: المواعظ والاعتبار بذكــــر الخطــط والآثـــار، جزءان، بيروت، دار صادر، د.ت.

٨٨- ----------------------: المواعظ والاعتبار، جــ٢، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٧م.

٨٩- النعيمى (عبد القادر بن محمد): الدارس فــي تــاريخ المــدارس، جــــ١، دمشــق، ١٣٧٠هــ.

٩٠- طاش كبرى زاده (أحمد بن مصطفى): مفتــــاح الســـعادة ومصبـــاح الســـيادة فــي موضوعات العلوم، مراجعة وتحقيق كمال بكرىوعبد الوهاب أبــــو النور، القاهرة، مكتبة القدس، ١٣٥١هــ.

٩١- عضد الذين الأيجى: المواقف في علم الكلام، القاهرة، مكتبة المتنبى، د.ت.

رابعا: المراجع:

٩٢- إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة الممـــاليك، القــاهرة، مكتبـــة النهضـــة المصرية، ١٩٦٠م.

٩٣- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، جـــــ٢، مجمـــع اللغـــة العربيـــة، ط٣، ١٣٨٠هــ / ١٩٦٠م.

٩٤- أبو الوفا التفتازاني: دراسات في الفلسفة الإسلامية، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٧م.

٩٥- أحمد عرفات القاضي: الفكر التربوي عند المتكلمين ودوره في بناء الفرد والمجتمـــع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.

٩٦- أرسطو: أرسطو طاليس في النفس، ترجمة ونشر عبد الرحمن بدوي، القـــاهرة، ط١، ١٩٤٨.

٩٧- أنطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت، دار الحداثة، ط١، ١٩٨٠.

٩٨- السيد الباز العريني: الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٥٦م.

٩٩- حسان محمد حسان ونادية جمال الدين: مدارس التربية في الحضارة الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٤م.

١٠٠-حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامى، د.ت.

١٠١-سركيس يوسف إليان: معجم المطبوعات العربية والمعرفية، القاهرة، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م.

١٠٢-سعد مرسى أحمد: تطور الفكر التربوى، القاهرة، عالم الكتب، ط٥، ١٩٨١م.

١٠٣-سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٨م.

١٠٤-سعيد إسماعيل على: اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى، القاهرة، دار الفكر العربى، د.ت.

١٠٥-------------: دراسات في التربية الإسلامية، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٢م.

١٠٦-سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٩م.

١٠٧--------------: العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٦م.

١٠٨--------------: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م.

١٠٩---------------: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

١١٠-سيد إبراهيم الجبار: تاريخ التعليم الحديث في مصر وأبعاده الثقافية، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧١م.

١١١- عبد البديع عبد العزيز الخولي: التربية الإسلامية من الأصـــول والتطبيقـــات، كليـــة التربية، جامعة الأزهر، ١٩٩٥م.

١١٢- ------------------: التربية والتعليم عند ابن الجـــوزي، القـــاهرة، عـــالم الكتب، ١٩٩١م.

١١٣- ------------------: الفكر التربوي في الأندلـــس، القـــاهرة، دار الفكـــر العربى، ط٢، ١٩٨٥م.

١١٤- ------------------: بحوث تربية إسلامية، القاهرة، دار نهضة الشـــرق، ١٩٨٥م.

١١٥- عبد الحليم محمود: الفتاوى، القاهرة ، دار المعارف،١٩٧٩م.

١١٦- عبد الرحمن النحلاوي: الإمام الذهبى، دراسة موضوعية تحليلية تربوية، دمشـق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١١٧- عبد الستار الشيخ: الحافظ الذهبي، سلسلة أعلام المسلمين، دمشـــق، دار القلـــم، ط١، ١٩٩٤م.

١١٨- عبد الصبور شاهين: الداعية والمنبر، من مقدمة كتاب خطب الشيخ المحلاوى حـــول كل ما يهم المسلم في دينه ودنياه، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٩١م.

١١٩- عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ الاقتصـــاد العربـــي، بـــيروت، دار الطليعـــة، ١٩٧٨م.

١٢٠- عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القـــاهرة، دار المعارف،١٩٨٤م.

١٢١- عبد الفتاح جلال: من الأصول التربوية فى الإسلام، المركز الدولى للتعليم الوظيفـــي للكبار بسرس الليان، المنوفية، ١٩٧٧م.

١٢٢- عبد الكريم الزبيدي: تحقيق كتاب إرشاد الهادي في النحو لسعد الدين التفتازاني، جدة، دار البيان العربى للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٢٣- عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصريـــن الأيوبـــي والمملوكـــي الأول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م.

١٢٤-عزة علي عيد عطية: تحقيق كتاب الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة للذهبي، القاهرة، دار النصر للطباعة، د.ت.

١٢٥-على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٦٧م.

١٢٦-------------: دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٤٨م.

١٢٧-على خليل أبو العنين: قراءة تربوية فى فكر أبى الحسن الماوردى من خلال كتاب أدب الدنيا والدين، القاهرة، دار الفكر العربى، ط١، ١٩٨٩م .

١٢٨-عمر التوني الشيباني: فلسفة التربية الإسلامية، ليبيا، الدار العربية للكتاب، ط١، ١٩٨٨م.

١٢٩-عوض الله جاد حجازي:ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي، القاهرة، درا الطباعة المحمدية، ط٣، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

١٣٠-فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربى، القاهرة، ١٩٧١م.

١٣١-ماجد عرسان الكيلانى: تطور مفهوم النظرية التربوية، المدينة المنورة، مكتبة، دار التراث، ط٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٣٢-محمد أبو زهرة: ابن تيمية، حياته وعصره آراؤه وفقهه، القاهرة، دار الفكر العربى، د.ت.

١٣٣-----------: أصول الفقه، القاهرة، دار الغد العربى، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م.

١٣٤-محمد الصادق حسين: البيت السبكى بيت علم في دولتى المماليك، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨م.

١٣٥-محمد بن صالح العثيمين: مصطلح الحديث، القاهرة، مكتبة العلم، ط٢، ١٩٩٩م.

١٣٦-محمد جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٠م.

١٣٧-------------: دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، ١٩٤٧م.

١٣٨-محمد راغب الطباخ الحلبى: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ٢، دار القلم العربى، ط٢، ١٩٨٨م.

١٣٩-محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م.

١٤٠-محمد قطب: منهج التربية الإسـلامية، القـاهرة، دار الشـروق، ط٤، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

١٤١-محمد كامل الفقي: الأدب في العصر المملوكي، القاهرة، الهيئـة المصريـة العامـة للكتاب، ١٩٧٦م.

١٤٢-محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة، درا النهضة العربية، ط١، ١٩٨٠م.

١٤٣-محمود زرق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المجلد الثـالث، القاهرة، مكتبة الأدب، د.ت.

١٤٤-محمود قاسم: في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام، القاهرة، مكتبـة الأنجلـو المصرية، ١٩٦٩م.

١٤٥-محيى الدين الصافى وعبد الفتاح عبد الكريم: العقيدة الإسلامية والأخـلاق، الأزهـر الشريف، الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية بالاشتراك مـع كليـة التربية، برنامج تأهيل معلمي المرحلة الابتدائية للمستوى الجـامعي، ط١، ١٩٩٢م.

١٤٦-مقداد يالجن: التربية الأخلاقية الإسلامية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٧٧م.

١٤٧-نزير حمدان: في التراث التربوي، دمشق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٩م.

١٤٨-يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، القاهرة، دار الصحوة، د.ت.

١٤٩-----------: ثقافة الداعية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٨، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٥٠-----------: خطب الشيخ القرضاوي، جـ٣، القـاهرة، مكتبـة وهبـة، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

خامسا: الدوريات والمؤتمرات:

١٥١-أحمد سليم سعدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، عالم المعرفة، سلسلة كتـب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنـي للثقافـة والفنـون والأدب بالكويت، العدد رقم ١٣١، نوفمبر ١٩٨٨م.

١٥٢-سعيد إسماعيل على: نقد ابن الجوزي للعلم والعلماء، مجلة دراسات تربوية، مجلد ٤، جـ٢٠، أغسطس - ديسمبر ١٩٨٩م.

١٥٣-عبد البديع عبد العزيز الخولى: التربية العقلية في الإسلام، مجلة دراسات تربوية، جـ٣٥، ١٩٩١م.

١٥٤------------------: الطبيعة الإنسانية في الإسلام، مجلة التربية، كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد الرابع والعشرون، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

١٥٥------------------: العلم في الإسلام، مجلة التربية، كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد الثالث والعشرون، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

١٥٦------------------: الفكر التربوي عند ابن القيم، مجلة دراسات تربوية، المجلد الثامن، جـ٥، ١٩٩٣م.

١٥٧------------------: الفكر التربوي عند ابن تيمية، مجلة دراسات تربوية، رابطة التربية الحديثة، القاهرة، عالم الكتب، المجلد السابع، جـ٣٨، ١٩٩١م.

١٥٨-عرفات عبد العزيز سليمان: المعلم في المجتمع الإسلامى المعاصر، دراسة تحليلية، من أبحاث المؤتمر العالمى الخامس للتربية الإسلامية بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية، القاهرة، ٨ - ١٣ رجب ١٤٠٧هـ / ٨ - ١٣ مارس ١٩٨٧م.